التاريخ المعاصر

أوروبا

من الحروب البروسية الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية

١٨٧١ — ١٩٤٥

تأليف

الأستاذ الدكتور عبد العزيز سليمان نوار

أستاذ التاريخ الحديث
كلية الآداب جامعة عين شمس

١٩٨٢

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

التاريخ المعاصر

أوروبا

من الحرب البروسية الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية

١٨٧١ — ١٩٤٥

تأليف

الأستاذ الدكتور عبد العزيز سليمان نوار

أستاذ التاريخ الحديث

كلية الآداب بجامعة عين شمس

١٩٨٢

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

مطبعة المدني
٦٨ شارع العباسية القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يعتبر تاريخ أوربا الحديث والمعاصر أحد المحاور الرئيسية فى دراسة تاريخ عالمنا هذا ، ومن ناحية أخرى ارتبط تطور البلاد العربية بأوربا ارتباطا وثيقا جعل الباحث والقارىء العربى فى حاجة ماسة إلى دراسته . ولكن ما فى متناول يد القارىء العربى من مؤلفات عن تاريخ أوربا الحديث والمعاصر يكاد يكون فى أغلبيته العظمى معبراً عن وجهة النظر الاوربية ، وأبلغ مثل على هذا كتاب تاريخ أوربا فى العصر الحديث الذى ألفه هربرت فشر والذى يكتب التاريخ من زاوية إنجليزية واضحة ، فكان هذا من العوامل التى حثتنا على إعداد دراسات فى التاريخ الاوربى الحديث والمعاصر تكون فى متناول يد القارىء العربى وبوجهة نظر محايدة .

ولهذا أصدرنا كتابنا « التاريخ الاوربى الحديث » بالتعاون مع الأستاذ الدكتور عبد الحميد البطريق ، ويغطى هذا الكتاب الفترة الواقعة بين عصر النهضة الاوربية إبتداء من القرن السادس عشر حتى الثورة الفرنسية الكبرى ومؤتمر فيينا ١٨١٥ ، وكان اغتباطنا بالغا لإصدار الأستاذة الدكتورة زينب عصمت راشد لكتابها عن « تاريخ أوربا الحديث » بعد عشرين سنة من البحث وتدريس هذه المادة فى كلية الآداب بجامعة عين شمس ، وهما يغطيان الفترة بين القرن السادس عشر وإعلان الإمبراطورية الألمانية فى ١٨٧١ . كما سبق لنا أن أصدرنا كتابا فى « التاريخ المعاصر » من الثورة الفرنسية إلى الحرب العالمية الثانية بالإشتراك مع صديقى الأستاذ الدكتور عبد الحميد البطريق ، وقد توفرت على كتابه ضوء المتعلقة بتاريخ أوربا المعاصر منذ مؤتمر برلين ١٨٧٨ حتى نشوب الحرب العالمية الثانية .

وأخيرا نقدم للقارىء العربى هذا الكتاب عن التاريخ المعاصر ، اقتصرنا فيه على

تاريخ أوربا منذ سقوط الإمبراطورية الفرنسية وإعلان الإمبراطورية الألمانية (١٨٧١) حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

وبذلك يكون كتابا الدكتورة زينب عصمت راشد وكتابي هذا ، قد وضعا أمام القارىء تاريخ أوربا من القرن السادس عشر حتى ١٩٤٥ ونأمل أن يمكننا الله من متابعة البحث والدراسة فى الفترة التالية لتلك الحرب .

ويتناول هذا الكتاب الموضوعات الرئيسية فى تاريخ أوربا المعاصر ، فقد استعرضنا فى الفصل الأول « الملامح الرئيسية لأوربا فى أعقاب الحرب البروسية - الفرنسية (١٨٧٠) واتبعناه بدراسة »لأوضاع الدول الأوربية فى أعقاب تلك الحرب.

ونظراً لما كانت عليه « المشكلة الشرقية » و « التسابق الإستعمارى » من أثر بالغ على أوربا والعالم فقد أفردنا لكل من هذين الموضوعين فصلا خاصاً يمهدان لدراسة « المحالفات والمحالفات المضادة والوفاقات » بين ١٨٧٣ و ١٩٠٧ ، تلك المحالفات والوفاقات التى مهدت لوقوع الحرب العالمية الأولى . وحتى تكون الصورة العامة واضحة أمام القارىء ، قدمنا فصلا قيمنا فيه القوى الكبرى المؤثرة على أوربا قبل نشوب تلك الحرب مركزين على الدول الأوربية مشيرين إلى الدول الأخرى التى شاركت فى تلك الحرب .

ثم درسنا تطورات تلك الحرب ، وما أدت إليه إبتداء من مؤتمر الصلح مروراً بسلسلة المعاهدات التى عقدت مع الدول المهزومة وبالنتائج الإقتصادية والإجتماعية والسياسية التى ترتبت عن تلك الحرب .

وعقدنا ثلاثة فصول عن الإتحاد السوفيتى والحركة الفاشستية وتطور ألمانيا من حكومة فيمار إلى النازية . لنتناول من بعد ذلك الأزمات الدولية قبل الحرب العالمية، وبوجه خاص العدوان الإيطالى على الحبشة والحرب الأهلية الأسبانية والعدوان اليابانى على الصين، وأخيراً خطوات هتلر لتوحيد الألمان فى أوربا حتى أقحم حربه على بولنده كانت السبب المباشر لنشوب الحرب العالمية الثانية ، حيث أن هتلر كان

يستهدف السيطرة على أوربا وما وراءها إن أمكن وليس فقط توحيد الألمان .

وقد تطورت هذه الحرب العالمية الثانية تطورات هزت العالم ، فمن سقوط سريع لفرنسا إلى معركة رهيبة فى سماء بريطانيا إلى غزو ألمانى للاتحاد السوفيتى ووقع بعده العدوان اليابانى على بيرل هاربر ، والتهبت نيران الحرب من أقصى العالم شرقا إلى أقصاه غربا حتى دحرت إيطاليا ثم ألمانيا وأخيرا اليابان .

تلك هى الخطوط العريضة لدراستنا هذه ندعو الله أن يوفقنا فى إتمام هذه الدراسة بما يضع أمام القارىء العربى صورة واضحة لتاريخ أوربا المعاصر .

والله ولى التوفيق .

المؤلف

الفصل الأول

الملامح الرئيسية لأوربا

فى أعقاب الحرب البروسية الفرنسية

(١٨٧٠ — ١٨٧١)

— تعميق الفكر القومى ،
— النمو الاقتصادى .
— الامبريالية .
— المشكلة السكانية .
— الحركة العمالية .
— تصاعد القوى العسكرية .
— التوازن الدولى .

تعتبر الحرب البروسية — الفرنسية (۱۸۷۰ - ۱۸۷۱) فاتحة عهد جديد فى السياسة والعلاقات الدولية ، وبصفة عامة أصبحت لأوربا ملامح رئيسية أهمها :

- تعميق الفكر القومى .
- النمو الإقتصادى — الإمبريالية — المشكلة السكانية — الحركة العمالية .
- تصاعد القوة العسكرية — التوازن الدولى .

تعميق الفكر القومى

من الصفات التى أطلقت على القرن التاسع عشر ، أنه قرن الحركات القومية، ولقد أدى انتصار ألمانيا فى حروبها بين ١٨٦٦ و ١٨٧٠ إلى أن يصاب كثير من مفكرى ألمانيا بمركب من مركبات التصاعد الذاتى القومى . حتى لقد خيل لبعضهم أن الله قد أعد الشعب الألمانى ليحمل رسالة الحضارة والتقدم إلى مختلف أرجاء العالم ، وأنه على العبقريات الألمانية أن تتولى مسئولية التخطيط لمستقبل العالم الزاهر ، فى وقت آذنت فيه — حسب اعتقادهم حينذاك — الإمبراطورية البريطانية أن تغيب ، وأن يصبح الألمان ورثتها . ومن منابر الجامعات الألمانية وعلى يد هنريخ فون تراتشكه (١) ترددت مثل هذه الدعوات التى أثارت مخاوف الدولة الأوربية خاصه تلك التى تجاور ألمانيا وتضع يدها على بلاد يسكنها الألمان مثل النمسا والمجر وسويسرا وإيطاليا . أليس من الممكن أن تستمر الإمبراطورية الألمانية الفتية فى شن الحروب لاستكمال وحدة الألمان (٢) ولتكوين «الجامعة الألمانية» ؟ (٣) .

هذا بينما كانت الروح القومية فى بريطانيا قد توطدت منذ وقت مبكر ، وأدى الاتساع الشاسع المتزايد للامبراطورية البريطانية فيما وراء البحار ، والتقدم الصناعى

---

(١) Heinrich von Treitschke ١٨٣٤ ـ ١٨٩٦) مؤرخ ألمانى ولد فى درسدن وتولى عدة مناصب أستاذية فى عدد من الجامعات الألمانية من بينها جامعة هيلدبرج Hildelberg وبرلين . وكان من الأعضاء المتحمسين فى مجلس الريخستاج بين ١٨٧١ ـ ١٨٨٨ ومن أنصار بسمارك ، وكان الخط الأمامى الذى سار عليه عند تأليف كتابه الشهير عن تاريخ ألمانيا فى القرن التاسع عشر يؤكد على مسئولية بروسيا وحقها فى السيادة على بقية الدولة الألمانية عن طريق القوة السياسية والقومية

(٢) Toute terre ou resonne la langue allemande est allemande

(٣) Pangermanism.

والازدهار الإقتصادى والنظام الملكى البرلمانى الديمقراطى الحزبى . الذى كانت تدعمه الحرية السياسية ـ أدى كل هـذا إلى أن يشعر الإنجليز بأن مقوماتهم ومكانتهم أعلى وأسمى من أى من شعوب (القارة) الأوربية ، حتى لقد ظهرت دعوات إلى أن تتحمل بريطانيا مسئوليتها نحو تحقيق «الإمبراطورية العالمية» (١) ، مما شجع على تأسيس «عصبة الإتحاد الفيدرالى الإمبراطورى» (٢) .

وفى إيطاليا كانت الروح القومية متأججة بعد تلك الجهود الضخمة التى بذلت فى سبيل تحقيق وحدتها التى تمت فى ١٨٨٠ بالسيطرة على روما ، لتتطلع إيطاليا من بعد إلى تحقيق آمال كبرى لاتقوى بإمكانياتها ووضعها فى القرن التاسع عشر على أن تحققها ، ونعنى بذلك استعادة مجد إيطاليا عندما كانت صاحبة واحدة من أعرق إمبراطوريات العالم ، الإمبراطورية الرومانية .

أما فرنسا ، فكانت روحها القومية قد ازدادت حدة بعد أن سلبتها ألمانيا إقليمى الإلزاس واللورين ، وأصبح استرداد هذين الإقليمين جزءاً من الكرامة القومية الفرنسية ، ففرنسا التى شاركت مشاركة فعالة فى ظهور الدولة القومية اليونانية (١٨٢٧ – ١٨٣٠) ، وكانت تؤيد الحركات القومية الأوربية ، وحققت لإيطاليا وحدتها القومية بدماء الفرنسيين فى «ماجنتا» و «سلفرينو» أصبحت مهانة فى كرامتها القومية ، بعد أن سارت القوات الألمانية عبر شوارع باريس الكبرى ، وأثارت شفقة خصومها الذين كانوا فى نظرها أقل منها حضارة وثقافة وعراقة .

وفى البلقان ، كان استقلال اليونان عن الدولة العثمانية الإسلامية حافزاً قومياً

---

(١) World Empire

(٢) ظهرت عدة مؤلفات تؤيد هذه الفكرة من أشهرها :
Sir Charles Dilke, Greater Britain (1870), Sir John Seeley, The Expantion of England (1883).

وصليبياً لبقية الشعوب البلقانية ، لتحقيق إستقلالها القومى . فتوالت الثورات حتى استقلت رومانيا وصربيا ، وبلغاريا والجبل الأسود ، وظهرت الدعوات القوية لتكوين الجامعة السلافية التى كانت تشكل خطراً كبيراً على كيان الإمبراطورية النمساوية لما كان تحت يدها من ملايين السلاف ، ولما أقدمت عليه من إعطاء المجريين كياناً ضمن المملكة الثنائية « النمسا — المجر » مرتكبة خطأ قاتلا فى عصر القوميات حين سلطت المجريين على الشعوب السلافية الواقعة فى إطار الإمبراطورية (النمسا — المجر) ، وحين سيطرت على إقليمى البوسنة والهرسك فى ١٨٧٨ ثم ضمتهما إليها فى ١٩٠٨ مما أعطى الفرصة لإلهاب المشاعر القومية لدى الصرب وقيامها بتزعم حركة تحرير السلاف .

وكانت بلغاريا مثل زميلاتها البلقانيات ، متأججة القومية ضد التسلط العثمانى . ثائرة عليه حتى نكبت الدولة العثمانية على يد روسيا وفرضت عليها معاهدة سان ستيفانو وظهرت بلغاريا الكبرى (١٨٧٨) ، وكان هذا أمل البلغاريين إلا أن الدول الكبرى المعادية لروسيا قلمت أظافر هذه الدولة البلغارية ، فظلت آمال البلغاريين معلقة باسترداد ما كان لبلغاريا من الساع حينذاك . كما كان من مظاهر نمو القومية البلغارية تخلص الكنيسة البلغارية من الاكليروس اليونانى وإحلال رجال الدين البلغار محله .

وعبر الأطلنطى ، كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد عبرت محنة قاسية (الحرب الأهلية ١٨٦١ — ١٨٦٥) وأخذت الفوارق بين مختلف قوميات المهاجرين تزول وأخذت القومية فى القارة الأمريكية تتأصل ، لتنطلق من بعد لا إلى الدول الأقل تخلفاً والحديثة الاستقلال فى أمريكا الجنوبية وأمريكا الوسطى فقط بل وإلى ما وراء ذلك .

وفى أقصى الشرق ، كانت دولة تنهض على الأسلوب الأوربى القومى ، ونعنى بذلك اليابان ، ولقد وضع الشعب اليابانى نفسه على الطريق الصحيح فنجح فى مسيرته فى وقت مبكر وقصير على عكس جارته الامبراطورية الصينية الكبرى التى أصبحت نهباً للدول الكبرى بل واليابان من بعد .

وفى الشرق الأوسط كانت القومية المصرية تتأصل منذ بناء مصر الحديثة على عهد محمد على ، ولم تضعف هذه الروح رغم الاحتلال البريطانى منذ ١٨٨٢ .

ومن المظاهر التى رافقت نمو الحركة القومية معاداة سلطة الكنيسة الكاثوليكية السياسية وعبر عن ذلك بـ Anti — Clericalism التى يقصد بها مناهضة الدور السياسى للكنيسة الكاثوليكية حتى تصبح الدولة هى المسئولة عن أى نشاط غير متعلق بالنواحى الدينية . وقد كانت طبيعة هذه المعاداة للكنيسه متغيرة من دولة لأخرى ، وقد بدأت هذه الحركة بمطالبة رجال الثورة الفرنسية الكبرى بمصادرة أملاك الكنيسة ثم العمل على الفصل بين الكنيسة والدولة وإخضاع رجال الدين للقوانين المدنية . وقد كان عدم اعتراف الكنيسة ومناهضتها للحركات اللبرالية والقومية وصدور مرسوم بابوى بهذا المعنى سبباً فى اشتداد الصراع بين الكنيسة والحكومة ، فقد تزعم راديكاليو فرنسا خلال الجمهورية الثالثة إبعاد الكنيسة عن السياسة والتعليم ، وظهرت حركة مشابهة فى أسبانيا فى ١٨٧٣ وبين ١٩٠٩ و١٩١٣ ، وبين ١٩٣١ و١٩٣٦ وكذلك ظهرت فى أمريكا اللاتينية .

وفى إيطاليا ، ارتبطت حركة مناهضة الدور السياسى للكنيسة بالحركة القومية حتى فقد البابا سلطاته الزمنية فى ١٨٧٠ باستثناء منطقة الفاتيكان .

وفى ألمانيا على عهد بسمارك ، التى كان نصفها كاثوليكى و نصفها الآخر بروتستنتى تصاعدت تلك الحركة وعرفت باسم الصراع حول المعتقدات kultur kampf

والحق أن القرن التاسع عشر ملىء بالنظريات السياسية . وبجدل رائع حول نظم الحكم الملائمة للعصر وللشعب فى الوقت الذى كانت فيه الرأسمالية والامبريالية

تنمو بسرعة فى أوربا الغربية كانت النظريات الاشتراكية تظهر هنا وهناك فى أوربا حتى لقد ظهرت فى فرنسا إشتراكية لها طابعها الخاص بلورها فيلسوفها سيسموندى، وحاول لوى بلان أن يثبت الجانب التطبيقى من نظريته الاشتراكية ، وفى بريطانيا ظهرت الجمعية الفابية إلى جانب التجمعات العمالية ، حتى ظهر حزب العمال امتداداً للنظام الحزبى البرلمانى الانجليزى القائم على التنافس بين حزبين رئيسيين .

ولقد كان النظام الحزبى البرلمانى من النظم التى أخذت بها الدول الأوربيه بعد نجاحها الكبير فى بريطانيا ، ولكن ظلت فرنسا تعانى من تعدد الأحزاب ، كما أن أحزاب ألمانيا ظلت ضعيفة أمام السلطات الحاكمة .

كذلك كان التوسع فى منح حق الانتخاب من مظاهر تلك الفترة وصاحب ذلك كفاح من أجل المرأة للحصول على هذا الحق .

النمو الاقتصادى

يمثل النمو الإقتصادى للدول الأوربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر مرحلة فى تطور الإقتصاد العالمى فى معظم جوانبه ، ولكن بادىء ذى بدء كان التطور الإقتصادى حينذاك متمشياً مع فلسفة العصر حيث كان إقتصاداً قومياً .

فخلال القرن التاسع عشر ظهرت اختراعات إقتصادية عديدة أدت فيما أدت إليه إلى ماعرف بالانقلاب الصناعى الذى تجلى أولا فى إنجلترا ثم أخذ ينتقل إلى بقية الدول الأوربية الواحدة بعد الأخرى وبسبب حروب الثورة وحروب نابليون الأول تأخر الانقلاب الصناعى فى فرنسا ولكنه أسرعت الخطى فيها فيما بعد، وظهر فى ألمانيا متأخراً عن فرنسا ، وكانت أوربا الشرقية وروسيا أقل تطوراً بشكل ملحوظ فى النواحى الاقتصادية .

ومن أهم مظاهر هذا التطور الاقتصادى استخدام قوى محركة جديدة (البخار

والكهرباء ثم البترول) وما ترتب عن ذلك من استخدام خطوط السكك الحديدية والبواخر على خطوط الملاحة العالمية وفى الأنهار الصالحة لها . وما استتبع ذلك من شق قناة السويس وقناة بنما وأخيراً فى ١٩١٤ قناة كييل . كذلك مدت شبكات من الطرق البرية وخطوط البرق وتطورت بسرعة عمليات النقل البرى ونقل البريد والاتصالات عبر القارات ، مما أدى إلى سهولة انتقال مظاهر الحضارة الحديثة من مكان لآخر .

وكان الانقلاب الصناعى وتلك الأساليب الجديدة فى المواصلات والنقل سببا فى زيادة حجم التبادل التجارى وفتح أسواق جديدة للانتاج الأوربى ، والتنافس التجارى بين الدول الاوربية ، فأخذت أعداد المصانع تتضاعف بسرعة ، وظهرت المدن الصناعية وأصبحت فلسفة الانتاج قائمة على أساس الانتاج الضخم بأرخص الأسعار حتى يمكن منافسة السلع الصادرة عن دول أخرى .

وبسبب ذلك التنافس وحاجة البعض إلى منتجات دول أخرى ومخاوف البعض الآخر من طغيان منتجات أجنبية على الانتاج الوطنى ، ظهرت نظريات إقتصادية تدعو إلى الحرية التجارية Free Trade وأخرى تدعو إلى الحماية الجمركية ، ولقد اتبعت إنجلترا لاطول فترة سياسة الحرية التجارية حتى اضطرت هى الأخرى إلى أن تأخذ مبدأ الحماية الجمركية .

وأدى ذلك النشاط الانتاجى إلى تراكم رءوس الأموال سواء فى يد أفراد أو شركات أو بنوك ، واستثمرت هذه الأموال فى داخل أوربا ، وفى البلاد الشرقية التى كانت فى حاجة إلى القروض فوقعت فريسة الاحتلال والتسلط الأوربى .

الامبريالية

ونظراً لتوفر رءوس الأموال ، والحاجة إلى أسواق جديدة وإلى المواد الخام اللازمة للصناعة ونمو القوة العسكرية لدى دول أوربا الغربية ، وتزايد عدد السكان

فيها ، والاعتقاد بأن التوسع الاستعمارى مظهر من مظاهر القوة الوطنية والمكانة الدولية ، نظراً لكل هذا أصبح التيار الإمبريالى واحداً من أبرز مظاهر النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى أوربا ويمثل التسابق على إستعمار إفريقية The Scramble for Africa نموذجاً لذلك التيار الأمبريالى الأوربى حينذاك ، ولكنه تيار كان فى أكثر من مكان وخاصة فى إفريقية وآسيا ، وكان مسئولا عن سلسلة من الازمات والحروب الدولية (مثل حادثة فاشوده ، الحرب اليابانية — الروسية ١٩٠٥ ، أزمة أغادير) ، ولم يتطور مفهوم الامبريالية من التسلط العسكرى المباشر إلى التغلغل الاقتصادى إلا بعد الحرب العالمية الأولى .

المشكلة السكانية

أدى ذلك النمو الاقتصادى إلى إرتفاع مستوى معيشة الفرد الأوربى ، وتحسنت صحته ، وقضى تماماً على الأوبئة الرئيسية ، ورغم ما كانت عليه حال العمال فى المدن الصناعية من سوء إلا أن الخدمات الصحية والاجتماعية تقدمت بشكل ملحوظ مما ساعد على اطراد نمو عدد السكان . وكان هذا نعمة فى نظر الرأسمالية الصناعية لأن ذلك كفيل باستمرار أجور العمال منخفضة لتوفرهم الأمر الذى لفت — بصفة خاصة — نظر العلامة مالتس Maltus فقام بدراستها حتى حدد معالم مشكلة زيادة السكان بشكل علمى ليضعها منذ ذلك الوقت كمشكلة مزمنة أمام الباحثين فى علم الاجتماع والاقتصاد .

الحركة العمالية

نتيجة أخرى هامة من نتائج الانقلاب الصناعى فى أوربا هى ظهور الطبقة العمالية الكادحة التى أخذت تشعر بمدى الظلم الواقع عليها مع أنها هى عصب الانتاج بل وحياته ، وبالتالى بدأت تظهر النظريات الاجتماعية والسياسية الداعية

إلى إنصاف العمال ومشاركتهم لا فى الأرباح فقط بل كذلك فى الحكم وتطرفت النظرية الماركسية حين نادت بـ « دكتاتورية البروليتاريا » ، ولكن بصفة عامة أصبحت هناك حركة عمالية نشطة فى الدول الصناعية الأوربية وأخذت هذه الحركة تنمو حتى أصبحت ظاهرة عامة .

إلا أن البرجوازية النامية الثرية كانت تدرك فى نفس الوقت قيمة إعطاء العمال حقوقهم المشروعة ، فتوالت القوانين التى حددت ساعات العمل والأجور والتأمينات وعنيت بالخدمات الصحية والاجتماعية ، فأدى ذلك إلى أن يخيب ظن كارل ماركس فى قيام ثورة الكادحين فى أوربا ضد البرجوازية فى أوربا الغربية الصناعية لتقع هذه الثورة فى روسيا المتخلفة صناعياً والمرتكزة على الانتاج الزراعى .

تصاعد القوة العسكرية

ونظراً لذلك النجاح الساحق الذى أحرزته العسكرية الألمانية فى سنوات قليلة ، أخذت الدول الكبرى الأوربية تعيد النظر فى تشكيل جيوشها وتطوير أساليب تعبئتها وتحسين أداء رجالها وأسلحتها وتطوير مدى وفاعلية مدفعيتها ومضاعفة أعدادها ، وكان ذلك أكثر وضوحاً فى أول الأمر فى الجيوش البرية وبين الدول التى تعتمد على هذا النوع من الجيوش ، خاصة وأن ألمانيا لم تلجأ إلى تقوية أسطولها البحرى إلا فى وقت متأخر من القرن التاسع عشر فيما عرف بالتسابق على بناء السفن الحربية من طراز دردنوت **Dreadnaught** ذلك التسابق الذى كان من أحد الأسباب الرئيسية لنشوب الحرب العالمية الأولى .

ونظراً لحاجة الجيوش والأساطيل إلى أعداد متزايدة من الرجال ، لجأت الدول الأوربية إلى التجنيد الاجبارى الذى بدأته فرنسا منذ ثورتها الكبرى ، باستثناء إنجلترا التى لم تأخذ بالتجنيد الاجبارى إلا فى وقت متأخر . والحق أن بسمارك كان أول سياسى يقول بأن الحروب التى ستقع من بعد حرب السبعين إنما هى حروب بين الشعوب وليست فقط بين الحكومات .

إلى إنصاف العمال ومشاركتهم لا فى الأرباح فقط بل كذلك فى الحكم وتطرفت النظرية الماركسية حين نادت بـ « دكتاتورية البروليتاريا » ، ولكن بصفة عامة أصبحت هناك حركة عمالية نشطة فى الدول الصناعية الأوربية وأخذت هذه الحركة تنمو حتى أصبحت ظاهرة عامة .

إلا أن البرجوازية النامية الثرية كانت تدرك فى نفس الوقت قيمة إعطاء العمال حقوقهم المشروعة ، فتوالت القوانين التى حددت ساعات العمل والأجور والتأمينات وعنيت بالخدمات الصحية والاجتماعية ، فأدى ذلك إلى أن يخيب ظن كارل ماركس فى قيام ثورة الكادحين فى أوربا ضد البرجوازية فى أوربا الغربية الصناعية لتقع هذه الثورة فى روسيا المتخلفة صناعياً والمرتكزة على الانتاج الزراعى .

تصاعد القوة العسكرية

ونظراً لذلك النجاح الساحق الذى أحرزته العسكرية الألمانية فى سنوات قليلة ، أخذت الدول الكبرى الأوربية تعيد النظر فى تشكيل جيوشها وتطوير أساليب تعبئتها وتحسين أداء رجالها وأسلحتها وتطوير مدى وفاعلية مدفعيتها ومضاعفة أعدادها ، وكان ذلك أكثر وضوحاً فى أول الأمر فى الجيوش البرية وبين الدول التى تعتمد على هذا النوع من الجيوش ، خاصة وأن ألمانيا لم تلجأ إلى تقوية أسطولها البحرى إلا فى وقت متأخر من القرن التاسع عشر فيما عرف بالتسابق على بناء السفن الحربية من طراز دردنوت Dreadnaught ذلك التسابق الذى كان من أحد الأسباب الرئيسية لنشوب الحرب العالمية الأولى .

ونظراً لحاجة الجيوش والأساطيل إلى أعداد متزايدة من الرجال ، لجأت الدول الأوربية إلى التجنيد الاجبارى الذى بدأته فرنسا منذ ثورتها الكبرى ، باستثناء إنجلترا التى لم تأخذ بالتجنيد الاجبارى، إلا فى وقت متأخر . والحق أن بسمارك كان أول سياسى يقول بأن الحروب التى ستقع من بعد حرب السبعين إنما هى حروب بين الشعوب وليست فقط بين الحكومات .

وعلى أى حال ، أدى ذلك التسابق الرهيب – بمستوى ذلك العصر – إلى ظهور دعوات إلى الحد من التسلح ، ولكن مثل هذه الدعوات كانت لاتلقى آذاناً مصغية فى عهد تأججت فيه الروح القومية واحتدم فيه الصراع الأمبريالى فضلا عن أن أولى الدعوات للحد من السلاح صدرت عن قيصر روسيا نيقولا الثانى (١٨٩٤ – ١٩١٧) للشكوك فى حقيقة نواياه من وراء تلك الدعوة .

التوازن الدولى

لقد أدى ذلك التطور فى العسكرية الأوربية منذ حرب السبعين ، وظهور ألمانيا كعملاق فى قلب أوربا إلى اختلال التوازن الدولى التقليدى الذى كان يسود أوربا خلال القرن التاسع عشر، والذى كان لمصلحة بريطانيا بصفة خاصة . ولهذا دخلت الدول الأوربية فى مرحلة جديدة من العلاقات الدولية تقوم على أساس عقد المحالفات أو الوفاقات الثنائية أو الثلاثية بحجة إعادة التوازن الدولى إلى نصابه ، وسارت الدولة الأوربية فى هذا الاتجاه نحو خلق تكتلات تحالفية حتى إذا ماوقعت الحرب بين النمسا وروسيا (١٩١٤) توالت إعلانات الحرب من جانب الدول المتحالفة مع أى من هاتين الدولتين حتى وجدت أوربا نفسها فى خضم حرب أوربية واسعة النطاق استحقت أن يطلق عليها الحرب العالمية الأولى إذ شملت أوربا والشرق الأوسط ودخلتها اليابان والولايات المتحدة الأمريكية .

ويجدر بنا أن نلقى نظرة على الدول الكبرى الأوربية التى كان لها الدور الرئيسى فى توجيه أمور القارة بصفة خاصة ، والعالم بصفة عامة ، وسنركز على الأوضاع الداخلية فى هذه النظرة حيث أن السياسة الخارجية ستتضح من دراسة الفصول التالية ابتداء من المشكلة الشرقية .

الفصل الثانى

أوضاع الدول الأوربية

فى أعقاب الحرب البروسية الفرنسية

- بريطانيا
- فرنسا .
- ألمانيا .
- المملكة الثنائية (النمسا - المجر) .
- روسيا .
- إيطاليا .
- دول البلقان

بريطانيا

تعتبر بريطانيا منذ مطلع القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الأولى أكثر الدول الأوربية استقراراً ، وكان الشعب الإنجليزى يشعر بتفوقه على بقية شعوب (القارة) الأوربية . وكان من عوامل هذا الإستعلاء والإستقرار أن بلاد الإنجليز لم تتعرض لغزو أجنبى ، بينما لم تسلم معظم دول أوربا — خلال القرن التاسع عشر — من الوقوع لفترة ، تقصر أو تطول ، تحت نير دولة غازية . ولقد كان لبحر المانش وللأسطول البريطانى الفضل الأكبر فى ذلك .

وقد ساعد هذا الأمن الطويل نسبياً ، والرخاء المتزايد بسرعة بعد الإنقلاب الصناعى والتوسع الاستعمارى الكبير ، على تطور الأوضاع الإجتماعية والإقتصادية ونظم الحكم دون أن تتعرض البلاد لهزات شديدة من الداخل أو من الخارج .

كانت بريطانيا ملكية دستورية نيابية حزبية يتولى الحكم فيها الحزب الفائز فى الانتخابات العامة والحكومة هناك مسئولة أمام البرلمان ، وأصبح هذا النظام مثاراً لإعجاب كثير من رجالات الفكر والسياسة فى الدول الأوربية وغيرها ، رغم ما كان لهذا النظام من بعض العيوب .

كان الملك على رأس الدولة ، وقد تولت العرش منذ ١٨٣٦ الملكة فيكتوريا التى نصبت امبراطورة على الهند فى ١٨٧٧ . كانت ذات شخصية قوية غير محبوبة فى سنى حكمها الاولى محبوبة فى أواخره ، حتى لقد وصف القرن بأنه « العصر الفيكتورى » ، وكانت شديدة الرغبة فى التدخل فى الأمور السياسية ، فلها مواقف مناهضة لكل من بالمرستون Palmerston وجلادستون Gladestone مع أنهما كانا من أعظم رجالات الحكم والسياسة فى القرن التاسع عشر أما ابنها ادوارد السابع (١٩٠١ — ١٩١٠) — الذى خلفها على العرش فى ١٩٠١ — فكان على

العكس منها، إذ كان قليل التدخل فى الشئون السياسية ، بل كان ابنه جورج الخامس (١٩١٠ – ١٩٣٦) (١) معنيا كل العناية بتعميق مفهوم الملكية الدستورية حتى عندما أقدم على إتخاذ تعديلات جذرية كالحد من سلطات مجلس اللوردات .

وكان النظام البرلمانى يقوم على أساس المجلسين ، مجلس العموم House of Commons ومجلس اللوردات House of Lordes ، وبطبيعة الحال كان مجلس العموم هو الذى يمثل الشعب ، ولكن كانت لدى مجلس اللوردات من السلطات ما يمكنه من عرقلة المشروعات التى تقدمها الوزارة والتى وافق عليها مجلس العموم ، خاصة عندما تكون أغلبية مجلس العموم من حزب الأحرار وأدى ذلك إلى أزمة كبيرة بسبب إعتراض مجلس اللوردات على ميزانية الشعب The Peoplés Budget فى ١٩١٠ فما كان من وزارة اسكويث Asquith . أن استصدرت القانون البرلمانى لسنة ١٩١١ (٢) الذى شل قدرات مجلس اللوردات على عرقلة مثل هذه المشروعات .

ولم يكن حق الإنتخاب والترشيح لمجلس العموم مكفولا لكل بالغ من الجنسين، وإنما كان هذا الحق لمن له دخل معين ، ومن ناحية أخرى كانت جداول الإنتخابات لا تتغير مع تغير التركيب السكانى للدوائر الإنتخابية . ولهذا شاهد القرن التاسع عشر سلسلة من الإصلاحات السياسية هدفت إلى التوسع فى من له حق الإنتخاب بتخفيض الشرط المالى ، وبذلك أصبح للعمال الزراعيين ، حق الإنتخاب منذ ١٩١٨ ، ثم أصبح لمن يبلغ الحادية والعشرين من الذكور هذا الحق . ولكن بالنسبة

---

(١) كان جورج الخامس أول ملك بريطانى يزور الهند .

(٢) Parliament Act of 1911 كانت أغلبية مجلس العموم من الأحرار بينما أغلبية مجلس اللوردات من المحافظين الذين عرقلوا الموافقة على ميزانية الشعب التى قدمها لويد جورج Lloyd George فى ١٩١٠ وحل البرلمان وعادت الأغلبية للأحرار إلى مجلس العموم مرة ثانية ومع هذا تصلب مجلس اللوردات فى موقفه فأصدر هذا القانون البرلمانى ووافق مجلس اللوردات على الميزانية فى أغسطس ١٩١١

للمرأة قصر أولا على من هن فوق الثلاثين ثم خفض هـذا الحـد إلى ٢١ سنة فى ١٩٢٨ (١) .

وكانت المعارك الإنتخابية بين المحافظين والأحرار حامية مليئة بالايديولوجيات والخطب البلاغية الرائعة ، وبالألاعيب الإنتخابية والحرب الصحفية والمجادلات حول القانون والفقه ، مما أثرى الفكر السياسى والإجتماعى حينذاك .

فلجلادستون Gladeston مجموعة من الخطب الإنتخابية فى جنوب اسكتلنده وشمال إنجلترا عرفت باسم « معركة ميدلوثيان Midlothian Compaign » القيت فى أواخر ١٨٧٩ ثم فى مارس ١٨٨٠ هاجم فيهـا سياسة دزرائيلى Disraeli (٢) الخارجية والإقتصادية وبأسلوب بلاغى غير معتاد ، وأسهمت هذه الخطب فى انتصار الأحرار فى إنتخابات إبريل ١٨٨٠ .

وخلال القرن التاسع عشر كان هناك حزبان رئيسيان متنافسان ويتبادلان الحكم والأغلبية فى البرلمان ، وهما حزب المحافظين وحزب الأحرار ، وبدأ حزب العمال يقف على قدميه فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر .

حزب المحافظين :

كان يعرف فى أول الأمر باسم التورى Tory واستخدمت كلمة المحافظين أول ما استخدمت على لسان كاننج Canning فى أول مرة فى ١٨٢٤ ولكن برز الحزب بهـذا الإسم رسمياً بمقتضى بيـان تامورث Tamworth Manifesto الذى أصدره بيل Peel فى ١٨٣٤ . ولما حدث الإنشقاق فى حزب الأحرار حول موضوع الحكم الذاتى لايرلنده انضم منافسو جلادستون إلى حزب المحافظين وعرف

---

(١) عرفت هذه الإصطلاحات البرلمانية Parliamentary Reforms
(٢) أحد زعماء حزب الأحرار
(٣) عرف كذلك باسم لورد بيكونزفيلد، وهو من أبرز زعماء حزب المحافظين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

باسم « المحافظون والاتحاديون » Conservatives & Unionists حتى تسوية المشكلة الايرلندية فى ١٩٢٢ .

وكان حزب المحافظين يتولى الحكم لفترات قصيرة حتى سبعينيات القرن التاسع عشر . فلما تولى أمره دزرائيلى (١) فى تلك السبعينيات أصبح هو المهيمن على الحكم ، حتى لقد اعتبر دزرائيلى المؤسس الثانى للحزب(٢) . والحق إن دزرائيلى يعكس أفكار حزب المحافظين بصفة عامة حيث كان إمبرياليا توسعيا (٣) محافظا على المؤسسات القائمة معارضا لدعاة « الحرية التجارية » Free Trade وتزعم لمدة ٢٢ سنة دعاة حماية الصناعة الوطنية الانجليزية Protectionists فى مجلس العموم .

وكان حزب المحافظين يتكون فى أغلبه من الأثرياء ومن كبار ملاك الأراضى الزراعية المعنيين بحماية إنتاجهم من المنافسة الأجنبية حتى ولو أدى ذلك إلى إرتفاع أسعار المواد الغذائية فى بريطانيا . وكانت سياستهم هذه تلقى معارضة شديدة من جانب الحزب المنافس لهم حزب الأحرار .

حزب الأحرار : Liberal Party

ورث هذا الحزب سالفه حزب (الهويج Whig) فقد أطلق اتباع آدم سميث Adam Smith وفوكس Fox على أنفسهم اسم « الأحرار » ، ولم تتألف حكومة من الأحرار إلا فى ١٨٦٨ عندما تولى الوزارة جلادستون زعيم الحزب الداعية القوى لحرية التجارة والمنافس العتيد لدزرائيلى . ومن أبرز زعماء حزب الأحرار

---

(١) ولد فى ١٨٠٤ وتوفى ١٨٨١ وهو صاحب قصة دافيد كوبرفيلد ولعب دورا رئيسيا فى مؤتمر برلين ١٨٧٨ وهو الذى انتهز أزمة الخديوى اسماعيل فاشترى نصيب مصر من أسهم قناة السويس .

(٢) من أبرز زعماء حزب المحافظين : بلدوين — نيفل تشمبرلن — ونستون تشرشل — أنتونى إيدن — وما كميلان .

(٣) كان لحزب المحافظين ولدزرائيلى بصفة خاصة دور رئيسى فى وقف التوسع الروسى فى وسط آسيا وفى تسلط بريطانيا على قبرص ومصر وغيرها .

أيضاً اسكويث Asquith (١) ولكن يلاحظ على زعامات حزب الأحرار إن خلافاتها فيما بينها حول السياسة الداخلية والخارجية كانت عميقة ، خاصة حو الطرق المؤدية إلى حل المشكلات الكبرى التى واجهته كالأزمة الإقتصادية والمشكلة الايرلندية وحرب البوير ، وحق المرأة فى التصويت .

فمع أن لويد جورج (٢) كان وزيراً فى وزارة اسكويث (٠٨ — ١٩١٦) فإنه تعاون مع المحافظين لاسقاطه ونجح فى ذلك فى ديسمبر ١٩١٦ وتولى هو رئاسة الحكومة حتى ١٩٢٢ ، فقاد بريطانيا إلى النصر فى الحرب العالمية الأولى وبرز كأنه أقوى رجل فى العالم خلال مؤتمر الصلح (١٩١٩) . ولكن أسلوبه فى إسقاط حكومة اسكويث ووقوعه ـ بالتالى ـ تحت سيطرة المحافظين أفقده ثقة زملائه أعضاء حزب الأحرار ، ولهذا كان استمراره فى الحكم مرتبطا بثقة المحافظين به ، فلما تعرض لازمة « جناق »[٣] وانتقده المحافظون سقط نهائياً ولم يعد إلى الحكم ، بل لقد انهار الحزب من بعد ذلك .

ومن أهم المبادىء التى نادى بها حزب الأحرار مبدأ حرية التجارة (٤) فقد نادى

(١) ولد في ١٨٥٢ وتوفى ١٩٢٨ خلف كامبل بانرمان (من الأحرار) فى رئاسة الوزارة في ١٩٠٨ . وتولى اسكويث ولويد جورج مهمة إصدار القانون البرلمانى لسنة ١٩١١ (أنظر فيما سبق ص ٢٦) ، وفى عهد حكومة اسكويث دخلت بريطانيا الحرب العالمية الأولى .

(٢) David Lloyd George (١٨٦٢ — ١٩٤٥) كان نائبا فى مجلس العموم لمدة ٥٥ سنة .

(٣) بعد انتصار الأتراك الكماليين على اليونانيين فى أزمير أعلنوا أنهم سينقلون الحرب إلى البلاد التركية الواقعة فى أوربا عبر الدردنيل ، وكانت هذه البلاد تحت سيطرة قوات الحلفاء ، فما كان من لويد جورج إلا أن وصل إلى اتفاق مع مصطفى كمال يقضي بأن تنسحب قوات الحلفاء من (جناق) والمواقع التى كانت تحتلها فى مقابل ضمان الأتراك لحيدة المضايق وتم ذلك مما أثار غضب المحافظين على لويد جورج .

(٤) انتشر هذا المبدأ منذ أن نشر آدم سميث كتابه (ثروة الشعوب) wealth of Nations فى ١٧٧٦ ويقصد بالذات إعفاء الواردات من الضرائب الجمركية . واستطاع بيل Peal وجلادستون أن يجعلا من حرية التجارة أساس السياسة الاقتصادية البريطانية وأخذت بعض الدول الأوربية بهذه النظرية الاقتصادية ، ثم عادت إلى الحماية الجمركية مثلما فعلت ألمانيا فى ١٨٧٩ وزادت سياسة الحماية التجارية حدة بعد الحرب العالمية الأولى ولم تتخل بريطانيا عن سياسة حرية التجارة إلا فى ١٩٣٢ .

أيضاً اسكويث Asquith (١) ولكن يلاحظ على زعامات حزب الأحرار أن خلافاتها فيما بينها حول السياسة الداخلية والخارجية كانت عميقة ، خاصة حول الطرق المؤدية إلى حل المشكلات الكبرى التى واجهته كالأزمة الإقتصادية ومشكلة الايرلندية وحرب البوير ، وحق المرأة فى التصويت .

ثم أن لويد جورج (٢) كان وزيراً فى وزارة اسكويث (٠٨ — ١٩١٦) فإنه تعاون مع المحافظين لاسقاطه ونجح فى ذلك فى ديسمبر ١٩١٦ وتولى هو رئاسة الحكومة حتى ١٩٢٢ ، فقاد بريطانيا إلى النصر فى الحرب العالمية الأولى وبرز كأنه أقوى رجل فى العالم خلال مؤتمر الصلح (١٩١٩) . ولكن أسلوبه فى إسقاط حكومة اسكويث ووقوعه — بالتالى — تحت سيطرة المحافظين أفقده ثقة زملائه أعضاء حزب الأحرار ، ولهذا كان استمراره فى الحكم مرتبطاً بثقة المحافظين به ، فلما تعرض لأزمة « جناق » (٣) وانتقده المحافظون سقط نهائياً ولم يعد إلى الحكم ، بل لقد انهار الحزب من بعد ذلك .

ومن أهم المبادىء التى نادى بها حزب الأحرار مبدأ حرية التجارة (٤) فقد نادى

(١) ولد فى ١٨٥٢ وتوفى ١٩٢٨ خلف كامبل بنرمان (من الأحرار) فى رئاسة الوزارة فى ١٩٠٨ . وتولى اسكويث ولويد جورج مهمة إصدار القانون البرلمانى لسنة ١٩١١ (أنظر فيما سبق ص ٢٦) وفى عهد حكومة اسكويث دخلت بريطانيا الحرب العالمية الأولى .

(٢) David Lloyd George (١٨٦٢ — ١٩٤٥) كان نائباً فى مجلس العموم لمدة ٥٥ سنة .

(٣) بعد انتصار الأتراك الكماليين على اليونانيين فى أزمير أعلنوا أنهم سيتقدمون لضم البلاد التركية الواقعة فى أوربا عبر الدردنيل ، وكانت هذه البلاد تحت سيطرة قوات الحلفاء ، فما كان من لويد جورج إلا أن وصل إلى اتفاق مع مصطفى كمال يقضى بأن تنسحب قوات الحلفاء من (جناق) والمواقع التى كانت تحتلها فى مقابل عدم دخول الأتراك منطقة المضايق وتم ذلك مما أثار غضب المحافظين على لويد جورج .

(٤) انتشر هذا المبدأ منذ أن نشر آدم سميث كتابه (ثروة الشعوب) wealth of Nations فى ١٧٧٦ وينصح بالغاء إعفاء الواردات من الضرائب الجمركية . واستطاع بيل Peal وجلادستون أن يجعلا من حرية التجارة أساس السياسة الاقتصادية البريطانية وأخذت بعض الدول الأوربية بهذه النظرية الاقتصادية ، ثم عادت إلى الحماية الجمركية مثلما فعلت ألمانيا فى ١٨٧٩ وزادت سياسة الحماية التجارية حدة بعد الحرب العالمية الأولى ولم تتخل بريطانيا عن سياسة حرية التجارة إلا فى ١٩٣٢ .

حزب الأحرار بضرورة تخفيض أسعار المواد الغذائية و بالتوسع فى استيرادها من الخارج متمشياً فى ذلك مع مبدأ حزب الأحرار الخاص بحرية التجارة ومتمشياً مع طبيعة تكوين غالبية أعضاء الحزب . فقد كانوا من أصحاب المصانع و التجار و أصحاب السفن ورءوس الأموال المستثمرة فى الداخل وفى المستعمرات . وحيث أن التفوق الصناعى كان معقوداً لبريطانيا كان مبدأ حرية التجارة متمشيا مع سياسة حزب الأحرار ، لأنه يفتح أسواق بريطانيا أمام المواد الغذائية الرخيصة التى تصدر من الدول الزراعية إلى بريطانيا ويفتح الأسواق الخارجية أمام الإنتاج الصناعى البريطانى الأمر الذى يفتح أمام التجار وأصحاب السفن والصناعة مجالات واسعة للنشاط والربح .

لقد كانت هذه السياسة الاقتصادية ، وكانت التشريعات الإجتماعية التى أصدرها حزب الأحرار لصالح الطبقة العمالية الفقيرة تجعله قريباً إلى قلوب هذه الطبقة المتكاثرة فى العدد والمتزايدة فى الأهمية ، ولكن مثل هذه الإصلاحات ما كانت لتحقق مطالب العمال أو لتحتوى هذه الطبقة التى كانت فى طريقها لتكون لنفسها حزباً مستقلا عرف باسم « حزب العمال » الذى حل محل حزب الأحرار كأكبر ثانى حزب فى بريطانيا يتبادل الحكم مع حزب المحافظين .

الحركة العمالية ونشأة حزب العمال

كان من الطبيعي أن تنمو الحركة العمالية في بريطانيا مع نمو الصناعات الكبيرة هناك في أعقاب الإنقلاب الصناعي . وإستغلال أصحاب رءوس الأموال العمال وتوالى ظهور فلاسفة الاشتراكية على اختلاف مظاهرها في أوربا وبريطانيا نفسها .

فقد ظهر بابيف (١) في عهد الثورة الفرنسية محاولا القيام بثورة تحقق المساواة المطلقة بين أفراد الشعب الفرنسي ، والملكية العامة لموارد الإنتاج وعدالة توزيعه ، ومن بعده سيسموندى السويسرى واتباع سان سيمون وكارل ماركس ، ولوى بلان(٢) ، وكومونة باريس .

وفي بريطانيا ظهر عدد من فلاسفة الإشتراكية ، من أوائلهم روبرت أون R. Owen (١٧٧١ - ١٨٥٨) الذى أدرك حقيقة قيمة الربط بين النظرية والتطبيق في المجال الإشتراكي خاصة في البيئة الصناعية،ففي مصنعه في « نيولانارك » هيأ للعمال خدمات إجتماعية تعليمية وصحية وسكنية مخفضا ساعات العمل داعياً إلى منع تشغيل الصبية ولكنه فوق هذا وذاك كان يدعو إلى إلغاء الربح على اعتبار أنه هو المسئول عن سلب العامل حقوقه من ناحية ووقوع الأزمات الاقتصادية من ناحية أخرى .

وكان معاصره وليام تومسون (١٧٨٥ — ١٨٢٣) W. Thompson يدعو إلى أن العامل هو المنتج الحقيقى ولكن المحروم من الإفادة من قيمة إنتاجه ،حتى

---

(١) عبد العزيز نوار وعبد الحميد البطريق : التاريخ الأوربي الحديث ، دار النهضة العربية ـ بيروت ص ٢٢٥ .

(٢) Louis Blanc (١٨٠١ — ٨٢)

ليذهب البعض إلى أن كتابه عن « توزيع الثروة » يعتبر إرهاصا مبكراً للاشتراكية الماركسية

وكان طبيعياً أن تلقى الأفكار الماركسية صدى فى الدوائر العمالية البريطانية ، فقد أسس هنرى هايند من Henri Hyndman فى ١٨٨١ « الاتحاد الاشتراكى الديمقراطى » Social Democratic Federation الذى ضم الماركسيين الإنجليزى .

ومع هذا فيعتبر جيمس كير هاردى James Keir Hardie (١٨٥٦ — ١٩١٥) صاحب الفضل الاول فى تشكيل التاريخ السياسى للحركة العمالية البريطانية . ففى ١٨٨٨ أسس هاردى « حزب العمال الاسكتلندى البرلمانى » Scottish Parliamentary Labour Party ودخل البرلمان مستقلا إشتراكيا فى ١٨٩٢ . وأسس هاردى فى ١٨٩٣ حزب العمال المستقل Independent Lebour party ولما كانت قوة العمال لاتزال فى نشأتها ولما كانت ميول حزب الأحرار نحو الطبقة العامله واضحة تعاون الطرفان فى الإنتخابات وفى الحكم فى أواخر القرن التاسع عشر .

وأيا كانت تلك الإتجاهات الإشتراكية ، فقد كان المجتمع البريطانى رافضاً لنظرية إشتراكية مستوردة من الخارج ، وكان مستعداً لتقبل نظرية تتلاءم مع الرأسمالية الوطنية وتلبى حاجات العمال ومطالبهم دون الحاجة إلى تقسيم المجتمع إلى طبقات متصارعة ، ودون الحاجة إلى ثورة تقلب نظم الحكم والمجتمع ، وأنه يمكن أن تسير الدولة نحو مجتمع إشتراكى عن طريق الإصلاحات التدريجية . ونظراً لأن تلك المبادىء هى التى نادت بها « الجمعية الفابية » Fapian Society فقد كتب لها أن تزدهر وتصبح قوة فعالة على يد الحركة العمالية البريطانية

---

(١) استمر هذا الحزب حتى ١٩٠٦ يعرف منذ تلك السنة بحزب العمال Labour Party

التى شقت طريقها بقدراتها ومظاهرها الخاصة بها دون أن تنطلق وراء الخيال الماركسى أو الثورية الاشتراكية ، وإنما حددت معالم الخط السياسى لها القائم على أساس تكوين حزب العمال .

وفى ١٩٠٠ تجمعت المنظمات العمالية الاشتراكية التالية :

١ — حزب العمال المستقل .

٢ — الاتحاد الديمقراطى الاشتراكى وكانت له ميول ماركسية .

٣ — الجمعية الفابية .

٤ — الإتحاديون Unionists :

لتكوين اللجنة التمثيلية للعمال Labour Repsresentation Committee التى كانت عبارة عن الجماعة البرلمانية العمالية ، وبرزت بهذه الصفة . وكان أول سكرتير لهذه اللجنة رمزى مكدونالد Ramsy Mac Donald [1]. وكانت مطالب هذه اللجنة فى أول الأمر معتدلة ، وفى انتخابات ١٩٠٦ نجح ٢٩ من ٥٠ مرشحاً من قبل هذه اللجنة (L. R. C.) وعدل اسم اللجنة إلى حزب العمال (Labour Party) الذى أيد حكومات الأحرار وأيد أرثر هندرسون A. Henderson فى وزارة الحزب التى كانت برئاسة لويد جورج .

---

(١) كان عاملا فقيراً إنضم إلى حزب العمال المستقل فى ١٨٩٤ وأصبح عضواً فى مجلس العموم فى ١٩٠٦ ورئيساً للحزب من ١٩٠٦ إلى ١٩٠٩ وترأس المجموعة البرلمانية للحزب بين ١٩١١ و ١٩١٤ ، ولم يكن له نفوذ خلال الحرب العالمية الأولى وسقط فى انتخابات ١٩١٨ وأعيد إنتخابه لرئاسة المجموعة البرلمانية العمالية بعد نجاحه فى إنتخابات ١٩٢٢ فتزعم المعارضة وبعد إنتخابات ١٩٢٣ غير الحاسمه ألف حكومة أقلية عمالية فى ١٩٢٤ ولكنها سقطت بسبب نشر رسالة بعث بها الزعيم البلشفى جريجورى زينوفييف G. Zinoviev فى الصحافة البريطانية فى ٢٥/١٠/١٩٢٤ أى قبل أربعة أيام من إجراء الإنتخابات ولكنه عاد إلى رئاسة الوزارة فى ١٩٢٩ وألف فى ١٩٣١ الوزارة الوطنية The National Government . ورفضت أغلبية حزب العمال التعاون معه ومع هذا قادها لمدة أربع سنوات واستقال فى يونية ١٩٣٥ وخلفه بلدوين Balduin

وبعد نجاح الثورة البلشفية (١٩١٧) فى روسيا تبنى حزب العمال مبادىء تهدف إلى « تنمية تدريجية لنظام اشتراكى جديد يقوم على تعاون مخطط بين الإنتاج والتوزيع »[١] . وسار حزب العمال على هذه السياسة حتى الحرب العالمية الثانية .

ويلاحظ أن حزب العمال تجنب استخدام كلمة « اشتراكية » لأن زعماء الحزب كانوا يرون أن الإقتصار على اسم « حزب العمال » يجعل الحزب مرتبطا بشدة بالطبقة العاملة ، أما كلمة « اشتراكى » فكانت كفيلة بأن تجلب عليه الكثير من المتاعب فى ذلك المجتمع الإنجليزى الذى كان يمثل حينذاك الرأسمالية العريقة .

ولقد أدى تدهور حزب الأحرار إلى أن يصبح حزب العمال هو الأقوى فى المعارضة ثم الحزب الثانى فى البلاد ، إلا أن كفة حزب المحافظين فيما بعد الحرب العالمية الأولى كانت الأرجح ، ولكن لم يمنع ذلك من سقوط حزب المحافظين فى الإنتخابات التى أجريت فى ١٩٤٥ مع أن ونستون تشرشل ـ زعيم حزب المحافظين ـ قاد بلاده إلى النصر ، فسلم الحكومة بكل ديمقراطية إلى آتلى زعيم حزب العمال. ولا تزال بريطانيا تسير على هذا النظام القائم على الحزبين.

وأيا كانت الخلافات الأيديولوجية بين المحافظين والأحرار والعمال ، فإن هذه الأحزاب الثلاثة كانت تدرك مصلحة بريطانيا تمام الإدراك فلا تغلب الأيديولوجية عليها ، وأنها كانت تعكس متطلبات المجتمع البريطانى ، وبذلت أقصى طاقاتها فى الحفاظ على الإمبراطورية البريطانية أو على الأقل الحفاظ على روابط اقتصادية

---

(١) « ... The Gradual Bulding up a new social or .er based .... on deliberately planned cooperation in production and distribution »

وسياحية مع ما يستقل من أجزائها ضماناً لاستمرارية معدلات النمو الاقتصادى في بريطانيا ما أمكن ذلك .

الامبراطورية البريطانية :

بنى الإنجليز امبراطوريتهم ابتداء من القرن السابع عشر فى اتجاهين : فى الشرق الأقصى ، وفى العالم الجديد .

فلما نجحت الثورة الأمريكية ركزت بريطانيا جهودها التوسعية فى كل من إفريقية وآسيا ، حتى أصبحت هذه الامبراطورية تضم :

فى إفريقية : وادى النيل كله وكينيا وزنجبار وروديسيا واتحاد جنوب إفريقية ونيجيريا وساحل الذهب وساحل العاج وسيراليون وغامبيا والصومال الإنجليزى .

وفى آسيا كانت تضم المستعمرات والمحميات التالية : —

عدن ومسقط وعمان ، والساحل المتصالح ، وقطر والبحرين والكويت وشبه القارة الهندية وبورما والملايو وسنغافوره واستراليا ونيوزيلنده وهونج كونج ، والعديد من الجزر فيما بين استراليا واليابان وجنوب شرق آسيا .

أما فى أمريكا الشمالية فكان لها كندا وفى أمريكا الوسطى جيانا البريطانية وفى أمريكا الجنوبية جزر فوكلند .

وتمتاز هذه المستعمرات بما يلى :

١ — وقوعها فى خطوط عرض مختلفة وموزعة بين النصف الشمالى من

الكرة الأرضية والنصف الجنوبي منها ، الأمر الذي يجعل إنتاجها متنوعاً ويجعل من العسير توجيه ضربة شاملة ضدها .

٢ — وكان يقيم في هذه المستعمرات عدة ملايين من الإنجليز هاجروا إليها وكانوا بمثابة رصيد من الرجال والأموال تلجأ إليه بريطانيا عند الحاجة ، هذا فضلا عن استغلالها قدرات مستعمراتها البشرية والاقتصادية في خدمة مصالحها الذاتية .

فرنسا (الجمهورية الثالثة)

لفرنسا مكانة خاصة سواء فى أوربا أو فى العالم . فقد كانت خلال التاريخ الحديث ذات مكانة سياسية وثقافية وإقتصادية رفيعة . وتمتاز عن معظم الدول الأوربية بالتوازن الإقتصادى وعالمية أدبائها وفنانيها ، وبأنها صاحبة الثورة الكبرى التى هزت العالم (١٧٨٩) ، ولكن الخط السياسى الذى سارت فيه كبدها الكثير من العناء ، فبينما اتجهت إنجلترا إلى تكوين امبراطورية واسعة الأرجاء فيما وراء البحار ، خسرت فرنسا امبراطوريتها الإستعمارية وركز نابليون الأول جهوده فى التسلط على أوربا فعادت فرنسا إلى حدودها القديمة (١٨١٥) وعادت إليها ملكية البوربون ، فتوالت الثورات فى ١٨٣٠ ثم فى ١٨٤٨ ، وهى ثورات سرعان ما انتقلت مبادؤها وعنفها على معظم البلاد الأوربية . وحاولت فرنسا جاهدة أن تتخلص من قيود مؤتمر فينا (١٨١٥) عليها وشاركت بقواتها وأموالها ودماء أبنائها فى تحقيق الوحدة الإيطالية دون أن تكسب إيطاليا إلى جانبها ، ولكنها فى عهد نابليون الثالث بصفة خاصة استطاعت أن تعيد بناء امبراطوريتها الإستعمارية ، ولكنها لم تقدر حقيقة القوة البروسية المجاورة لها فكان أن وقعت نكبتها خلال حرب السبعين .

وبينما أعلنت فى ألمانيا الأمبراطورية ، سقطت فى فرنسا الإمبراطورية الثانية واحتدم الجدل حول المستقبل السياسى ونظام الحكم ، وكانت التيارات المختلفة تكاد تمزق فرنسا . وفى خضم هذه الأزمة الطاحنة ظهرت زعامات فرنسية استطاعت أن تخرج فرنسا من محنتها ، وساعدها على ذلك نمو فى الوعى الديمقراطى بين أفراد الشعب رغم ما ظهر من اضطرابات عنيفة قادها سياسيون متطرفون وكان يقودها الكثير من أبناء فرنسا المتأججين الداعين لاستمرار القتال أو الثأر السريع من أمثال غمبتا Gambetta (١) .

---

(١) لم يلبث أن تخلى غمبتا عن هذه الروح المتأججة وسار مع « تيير » فى سياسته الواقعية.

والواقع أن الفرنسيين عرفوا كيف يفيدون من أخطائهم وطوروا بلدهم على أسس تدفع بها إلى القوة خاصة فيما يتعلق بالحكم الديمقراطى والجيش القوى ، والتنمية الإقتصادية بأساليب العصر حينذاك . ونعنى بذلك التوسع الإستعمارى والبحث عن حلفاء يستطيعون أن يخضوا شوكة العملاق الألمانى .

والمعروف أن حكومة الدفاع الوطنى ، والجمعية الوطنية المنتخبة — التى اتخذت من « بوردو » مقراً لها — كانتا تبحثان أمر الوصول إلى تسوية مع الألمان وعقدت معاهدة فرانكفورت المذلة التى سلبت فرنسا الإلزاس واللورين ، وفرضت عليها غرامة حربية كبيرة ولا تنسحب القوات الألمانية من بعض الأراضى الفرنسية إلا بعد دفع تلك الغرامة ، وإذا كانت هذه الشروط مذلة فى نظر الفرنسيين ، فإن الشرط الخاص بقيام قطعات من الجيش الألمانى باستعراض فى باريس كان مثيراً لأشجان أهل هذه المدينة الباسلة الذين دافعوا عنها باستماتة رائعة . بل لقد كانت وجهة نظر أهل باريس هى أن لاقيمة لتلك الجمعية بعد أن عقدت المعاهدة .

والواقع أن أهل باريس كانت لهم شخصيتهم التى جعلتهم يشكلون فكرهم السياسى بطريقتهم الخاصة . فباريس لم تسقط فى يد الألمان وإنما حكومة بوردو هى التى فتحتها أمامهم ، الأمر الذى كان يزيد من تعالى المدينة على تلك الجمعية فى بوردو . فضلا عن أن التيارات الايديولوجية كانت تموج بين الباريسيين ، من اشتراكية إلى نوع من الشيوعية إلى ديمقراطية مثالية بل وفوضوية ، وترددت دعوات إلى هدم النظام الرأسمالى والتنديد بمركزية الحكم والنظام الإمبراطورى على اعتبار أنه هو المسئول عما أصاب فرنسا من نكبة مروعة ، وعلى اعتبار أن المركزية نوع من الاستبداد .

وبصفة خاصة كانت باريس فى مستوى علمى وثقافى متقدم جداً عما كانت عليه الأقاليم المحدودة الثقافة المتمسكة بالتقاليد وبالكنيسة . وتطلعت باريس إلى نظام جمهورى أعلنته فى ١٨ مارس ١٨٧١ وظهر فى التاريخ ما عرف باسم « كومونة باريس » التى أصدرت بيانا فى ٢٠ إبريل ١٨٧١ بلورت فيه أهدافها :

١ — الجمهورية .

٢ - استقلال ذاتي لكل كومون في كافة أنحاء فرنسا .

٣ — الوحدة السياسية هي الإتجاه الحر لإرادة كل كومونة في فرنسا .

ولكن القيادات والزعامات داخل كومونة باريس — التي أنتخب أعضاؤها في ٢٦ مارس ١٨١٩ — كانت مختلفة فيما بينها ، مما جعل فرص استمرار هذا النظام تعتمد أساسا على تماسك وصلابة الحرس الوطني وقدرته للتصدي للقوات التي حشدتها حكومة بوردو . ونحن لانذهب إلى ما قال به كارل ماركس من أن الصراع بين كومونة باريس وحكومة بوردو كان نوعا من الصراع بين الطبقة العمالية والحكومة البرجوازية .

كان على رأس حكومة بوردو زعيم فرنسي قدير هو تيير Thiers القمىء الوجه الواقعي السياسة الحازم في إجراءاته .

وكان يرى أنه على فرنسا أن تقبل الهزيمة ولكن عليها أن تعبرها بقدراتها الخاصة ، وأن يضرب بقوة أى مظهر من مظاهر التفكك ، ولهذا كانت ضربته لكومونة باريس قاسية ودموية : فقد بعث بجيش كبير بقيادة مكماهون إلى باريس وقاتل المدافعين عنها قتالا شرساً من شارع إلى شارع ومن متراس إلى متراس حتى سيطرت قوات جمعية بوردو على باريس بعد أن سقط صريعا ما يربو على ٨٠ ألف مواطن فرنسي (أواخر مايو ١٨٧١) .

كان هذا نصراً كبيراً لتيير ولجمعية بوردو كتب لها البقاء والاستمرار ، واستطاع الشعب الفرنسي أن يحقق لنفسة بطولة أدهشت الخصوم والأعداء على حد سواء . فقد بذل الشعب الفرنسي من ماله وبسرعة فائقة ماغطى به الغرامة الحربية المفروضة عليه ، وتخلص من وجود القوات الالمانية على أرضه ، ولقد تم ذلك في وقت قياسي لم يتوقعه أحد تقريباً مما يدل على أصالة هذا الشعب وقدرته على التفوق على أحزانه وآلامه .

بعد ذلك أصبح على الفرنسيين أن يحددوا شكل الحكم الذى سيتولى أمور البلاد من بعد ، وكان تيير يميل إلى الملكية الدستورية ، ولكن فى مثل هذه الظروف كانت عودة الملكية من الأمور غير المستساغة لديه ، وهو بذلك يكون قد خيب آمال الملكيين فى جمعية بوردو فضاقوا به حتى أرغموه على الاستقالة فى ٢٠ مايو ١٨٧٣ وخلفه المارشال مكماهون الذى أسندت إليه السلطة التنفيذية لمدة أربع سنوات .

كان مكماهون معروفاً بميوله الملكية الإكليريكية ، ولكن قوة الجمهوريين كانت تتصاعد . وفى ٣٠ يناير ١٨٧٤ أقرت الجمعية – بأغلبية صوت واحد فقط – طريقة انتخاب رئيس الجمهورية و بذلك استبعد نظام الحكم الملكى نهائيا من فرنسا ، ثم صدر دستور ١٨٧٥ الذى وضع أسس الحكم الجمهورى على النحو التالى :

١ – رئيس الجمهورية : ينتخبه مجلسا النواب والشيوخ مجتمعين على شكل مؤتمر . وكان الغرض من هذا هو عدم إعطاء الفرصة للأساليب الديماجوجية التى يمكن أن تسحر عقول الشعب فى الإستفتاءات كتلك التى استخدمها نابليون الثالث لتقوية سلطانه على حساب الحكم الديمقراطى مستخدما فى ذلك قدرته على كسب ثقة وقلوب الجماهير ، فإن الديماجوجية غير مجدية مع نواب الشعب وشيوخه الذين لا يميرون العواطف والشعارات الجوفاء أية أهمية حين يؤيدون أو يرفضون تأييد سياسية ما أو مرشح ما لرئاسة الجمهورية .

٢ – وزارة مسئولة أمام مجلس النواب .

٣ – مجلس نواب منتخب بالاقتراع العام يشارك فيه كل من تجاوز العشرين من عمره من الرجال . وكانت مدة انعقاده أربع سنوات .

٤ – مجلس شيوخ مدته تسع سنوات .

لقد أعطى دستور ١٨٧٥ لفرنسا حكما برلمانيا قريب الشبه بالحكم البرلمانى

البريطانى ، ولكن هناك بعض الخلافات الهامة بين النظامين ومظاهر الحكم فى كل منهما :

١ ـ أن الرئيس الفرنسى كان يتغير بسرعة أكثر بعكس الحال لدى الملكية الوراثية البريطانية ، فنى مقابل ١٤ رئيس جمهورية فرنسى تولى من : ١٨٧ إلى منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين فإننا نجد أربع ملوك تولوا عرش بريطانيا .

٢ ـ لم يكن النظام الحزبى فى فرنسا مستقراً ، وإنما كان متعدداً ، بل كان النواب داخل البرلمان غير مرتبطين تماما بأحزابهم وكانوا لايتورعون عن التصويت ضد أحزابهم . ومن ناحية أخرى كان سقوط الوزارة لايستتبع ـ كما هو الحال فى إنجلترا ـ إجراء انتخابات جديدة .

٣ ـ أدى ضعف العلاقة بين النواب وأحزابهم إلى قصر عمر الوزارات بصفة عامة . وقد ساعد على ذلك ظهور تكتلات داخل البرلمان ليس من اليسير السيطرة عليها .

ومن ناحية التيارات الايديولوجية ، كانت فرنسا بعد هزيمتها فى حرب السبعين تموج بمختلف الإتجاهات السياسية حتى لتكاد صورة الجمهورية الثالثة تبدو متناقضة . فقد كانت فيها الإتجاهات الإشتراكية التقدمية ، والاحزاب الإكليريكية المتعصبة ضد المنادين بعلمانية التعليم ، وفيها دعاة أقوياء للملكية ومتحمسون للجمهورية .

وفى الإدارة ،ظهر من الفرنسيين من كان على مستوى عال من إعادة التنظيم ومن كان مرتشيا مختلسا ، ويبدو أن الفترة التالية لحرب السبعين كانت مليئة بحوادث الإختلاس والرشوة .

وفى مجال الدبلوماسية خرجت فرنسا عدداً من عمالقة السياسة الدولية . وفى مجالات العلوم والفنون ظلت فرنسا صاحبة المكانة الأعلى ، وفى المجال الاقتصادى سارت فرنسا بخطوات سريعة فى تنمية الصناعات الحديثة على أحدث الطرق ، ومع

أن الانقلاب الصناعى تأخر فى فرنسا عنه فى إنجلترا ، فإن النشاط التجارى الفرنسى المتصاعد لدى الدول الفقيرة أو النامية وفى المستعمرات الفرنسية والتوازن بين الإنتاج الزراعى والإنتاج الصناعى كل هذا أدى إلى الحفاظ على فرنسا كدولة من الدرجة الأولى رغم هزيمتها أمام بروسيا . ولاشك أن ذلك التوازن بين الإنتاجين الزراعى والصناعى قد أعطى لفرنسا نوعا من الاقتصاد المتوازن لم يكن متوفراً لدى غيرها من الدول الكبرى الأوربية .

ورغم هذا كله كانت هناك أهداف معينة قد وضعها نصب عيونهم المسئولون عن الدولة الفرنسية ونعنى بهذه الأهداف :

١ ـ ضرورة إعطاء الجبهة الداخلية ـ التى أعطاها دستور ١٨٧٥ نوعا من الإستقرار والتوطيد ـ العناية الكبرى .

٢ ـ أن التنمية الاقتصادية إحدى وسائل التفوق الفرنسى .

٣ ـ يجب أن تستعيد فرنسا فى المجالات الدولية السياسية والثقافية مكانتها رغم مافى تلك المجالات الدولية من تناقضات ومنافسات .

ولكن ذلك المناخ الذى عاشته فرنسا بعد هزيمتها فى حرب السبعين جعلها عرضة لسلسلة من الأزمات الحادة كادت تهز المجتمع الفرنسى وأهم هذه الأزمات :

١ ـ المشكلة التعليمية .

٢ ـ الحركة الإشتراكية واليمين .

٣ ـ فضيحة قناة بنما .

٤ ـ الأزمة البولانجية .

٥ ـ قضية دريفوس .

٦ ـ الحوار الفرنسى الألمانى حول الألزاس واللورين .

التعليم العلمانى :

كان جول فرى [١] الداعية الأكبر للاصلاح التعليمى ، فقسم مراحل التعليم إلى ابتدائى وثانوى وجامعى . وكان « جول فرى » يدرك أن نمو قوة الأمة يجب أن تبدأ مع الدروس الأولى فى المدرسة الإبتدائية ، ورأى أن العقبة فى سبيل ذلك هى هيمنة رجال الإكليروس على التعليم وتطبيقهم مناهج لاتتمشى مع متطلبات العصر الحديث ، ومن هنا ارتبطت قضية تطوير التعليم بقدرة السلطات المسئولة على أبعاد رجال الدين عنه ، وهو أمر كفيل بأن يثير المشاكل الكبيرة أمامها ولكن « جول فرى » كان جريئاً وحكيما فى نفس الوقت ، فقد أبعد رجال الجزويت عن التعليم ولكنه لم يتعرض لنشاطهم فيما وراء البحار : واستطاع بحكمة أن يتجنب إثارة مشاعر رجال الجيش والفلاحين المتعلقين بالإكليروس الكاثوليكى

الحركة الاشتراكية وأزمة اليمين :

كان النصف الثانى من القرن التاسع عشر مليئاً بالدعوات إلى الإشتراكية وتحسين أحوال العمال ومهاجمة الأحزاب اليمينية خاصة تلك التى ربطت نفسها برجال الدين ، ولقد كان غمبتا Gambetta شديد العداوة لرجال الدين حتى لقد قال إن « الاكليروس هو عدو الشعب » ولكن هذه الإتجاهات اليسارية وجدت نفسها فى بيئة مرتبطة بالدين فقد كان اليسار يعتمد فى نجاح مرشحيه على العمال ، والعمال كانوا متعلقين بالعقيدة الكاثوليكية ، ولهذا كان اليسار الفرنسى معتدلا يسعى إلى نوع من العدالة الإجتماعية ويقاوم بشدة أية إمتيازات رجعية تحصل عليها إحدى الفئات ، ثم أن اليسار الفرنسى كان يضع الحكم فى يد زعامات وقيادات من الطبقة المتوسطة الذكية التى لعبت دوراً رئيسياً فى التنمية الإقتصادية فكسبت إحترام الشعب .

---

(١) Jule Ferry (١١٨٢ ـ ٩٣) درس القانون واشتغل بالسياسة واشترك فى الدفاع عن باريس ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ تولى الوزارة ورئاسة الوزارة أكثر من مرة فى ثمانينات القرن ١٩ وهو إلى جانب كفاحه من أجل إصلاح التعليم كان معنياً بالتوسع الاستعمارى .

إلا أن أحزاب اليمين كانت تستخدم العواطف الدينية لإحراج مركز الحكومة وتجلى ذلك فى أزمتين : الأولى « الأزمة البولنجية » والثانية « مسألة دريفوس » .

وكانت وراء هذه الحركة الاشتراكية جبهة لها قوتها ممثلة فى الاتحاد العام للعمل Confederation Generale du Travail إلا أن البرجوازية الحاكمة كانت أقوى من أن تخضع لضغوط العمال والاشتراكيين ، وكانت قادرة على إخماد حركاتهم العنيفة .

ومن ناحية أخرى ، لم يكن اشتراكيو فرنسا ثوريين للدرجة التى يضعوا فيها أهدافهم نحو الاشتراكية العالمية فوق أهداف فرنسا القومية ، فلا غرو أن أعلنوا وقفتهم إلى جانب الحكومة عندما أعلنت الحرب على ألمانيا (١٩١٤) .

فضيحة شركة قناة بنما (Panama Scandal)

لقد اكتسب فرديناند دليسبس شهرة عظمى لنجاحه فى شق قناة السويس ، وعندما أعلن أنه ترأس شركة لشق قناة بنما تسابق أصحاب رءوس الأموال ــ خاصة الصغار منهم ــ إلى استثمار أموالهم فى هذا المشروع ، وكانت الإدارة المالية المسئولة عن الشركة بيد عدد من كبار الماليين اليهود ، ولم تلبث الشركة أن أعلنت إفلاسها (فبراير ١٨٨٩) ، ورغم أن الحكومة الفرنسية حاولت تخفيف وقع هذه النكسة ، إلا أن دليسبس وبعض أعوانه حوكموا ، وصدرت ضدهم أحكام بالسجن (فبراير ١٨٩٣) ولكن التيار الذى انتشر فى فرنسا كان يحمل اليهود مسئولية ضياع رءوس أموال صغار المستثمرين الفرنسيين .

الأزمة البولانجية :

كان الشعب الفرنسى بعد سقوط الإمبراطورية ، يشعر بحاجته إلى زعيم له مكانته العليا على نحو ما كان لنابليون الأول وابن أخيه نابليون الثالث ، ولم يكن لواحد من رجالات الفكر والسياسة والاقتصاد فى عهد الجمهورية الثالثة بقادر على أن يصبح محط إعجاب الجماهير ، حتى ظهر الجنرال جورج بولانجيه Boulanger

(١٨٣٧ - ١٨٩١)[1] الذى استخدم مشكلة الإلزاس واللورين وسيلة لجذب أنظار الشعب إليه ، وكأنه البطل الذى ينتظره الشعب فى الوقت الذى كانت فيه الحكومة متهمة بالتقاعس عن خوض أشرف معركة - معركة الإلزاس واللورين - وإلهاء الشعب بفتوحات وتوسعات إستعمارية[2] يمكن أن تؤجل - من وجهة نظر المعارضة - إلى ما بعد تحرير هذين الإقليمين . وكان الجنرال بولانجيه ديماجوجيا هز مشاعر الشعب بمظهره الرائع وبزته العسكرية المزركشة على جواده الأصيل نافخاً فى بوق القومية والتحرير وتعديل الدستور . وفتح الباب أمامه لتولى وزارة الحربية فى ١٨٨٦ فى وزارة « فرسينيه » ولكن بعد سقوط هذه الوزارة فى مايو ١٨٨٧ أبعد بولانجيه إلى قيادة فى أحد الأقاليم ، ونظراً لأنه كان متطلعاً إلى السلطة لجأ لاستعادة مركزه - إلى استخدام « جماعة الوطنيين » League of Patriots ، بل كان مستعداً للوصول إلى تفاهم مع بعض الملكيين ، وبدا وكأن بولانجيه على وشك القيام بانقلاب Coup d'Etat (١٨٨٩/١/٢٧) ولكن عند الساعة الحاسمة تقاعس عن الإقدام على المغامرة مخيباً آمال أعوانه ، حتى لقد قيل إنه كان معنياً بالحفاظ على مكانته فى قلوب المفتونات به من الباريسيات أكثر من أى شىء آخر. وعلى أى حال شعر بولانجيه بأن الحلقة تضيق عليه ففر إلى بروكسل ، وبعد عامين أطلق على نفسه الرصاص فوق قبر خليلته (١٨٩١) ، ولم تلبث أن انهارت حركته بعد ذلك ، ولكن يلاحظ أن العديد من الذين انضموا للحركة البولانجية كانوا من المؤيدين لدريفوس .

---

(١) ولد فى رين Rennes . عمل فى الجزائر وايطاليا واشترك فى الحرب البروسية الفرنسية واشتغل بالسياسة إبتداء من ١٨٨٤ مع الراديكاليين خاصة مع كلمنصو Clemanceau وكانت ميوله جمهورية وقام بدور هام فى تحسين أحوال الجنود والضباط .

(٢) فمثلا كان جول فرى المسئول عن التوسع الاستعمارى الفرنسى فى (تونس) واستكمال استعمار الهند الصينية الفرنسية وحصول فرنسا على جزء من الكونغو واستيلائها على مدغشقر بل والتعاون مع بسمارك خلال انعقاد مؤتمر برلين .

قضية دريفوس Dreyfus :

فى أكتوبر ١٨٩٤ حكم على الكابتن اليهودى الفرد دريفوس (١٨٥٩ - ١٩٣٥) بتهمة الخيانة العظمى لإفشائه بعض الأسرار الحربية إلى الألمان وأرسل إلى «جزيرة الشيطان» لتمضية مدة سجنه. ولكن فى ١٨٩٦ اكتشف الكولونيل بيكار Col. Picquart - الرئيس الجديد للمخابرات الفرنسية - أن المعلومات العسكرية لاتزال ترسل إلى ألمانيا بنفس خطيد الذى قيل إنه دريفوس وتوصل أخو دريفوس إلى نفس النتيجة وحدد الخائن الحقيقى بأنه الميجور استرهازى Esterhazy ، أما بيكار فقد أبعد إلى تونس ، واعتقد الراديكاليون أن القيادة العامة عملت على تغطية مثالبها ، وأن رجال الدين الكاثوليك حرضوا الناس ضد دريفوس بتحيز أضاع الحقيقة ، وتزعم الأديب الفرنسى المشهور إميل زولا E. Zola والسياسى المشهور كليمنصو Clemanceau الدفاع عن دريفوس وانقسم الشعب على نفسه بين مؤيد لدريفوس ومعاد له حتى برئت ساحته[١] .

المجادلة الفرنسية الألمانية حول الألزاس واللورين :

وأيا كانت تلك الأزمات الداخلية من الحدة والخطورة فإن حق فرنسا فى الإلزاس واللورين كان قضية كل فرنسى وكان مفكرو فرنسا وقادتها ينقبون عن كل وسيلة يمكن أن تسترد بها دولتهم كرامتها باستعادتهما .

ونلاحظ أن الغالبية العظمى من المؤرخين الذين تعرضوا لمشكلة الالزاس واللورين كانوا يتحدثون عن هذين الاقليمين وكأنهما متكاملان أو كأنهما منطقة جغرافية واحدة ، والحقيقة أن أوضاعهما الجغرافية تجعلهما منفصلين عن بعضهما ولايضفى عليهما شكل الوحدة سوى تاريخهما .

فالإلزاس تعطى ظهرها لفرنسا ، فهى خلف جبال (فوج) ، وتعتبر امتداداً

---

(١) استغل اليهود هذه القضية - وخاصة تيودور هرتزل - فى الدعوة إلى إنشاء دولة لليهود فى فلسطين لإنقاذ اليهود من العداء للسامية ، ولم يتورع اليهود عن طرد عرب فلسطين فى سبيل البحث عن وطن لهم .

لإقليم (بادن) الألمانى سواء من ناحية الجغرافية الطبيعية أو من حقيقة أن حوالى ٩٥ ٪ من سكانها ألمان والبقية الباقية من الفرنسيين .

وبينما كانت الإلزاس – ولا تزال – منطقة زراعية خصبة تنتج كميات لها قيمتها من المواد الغذائية ، كانت اللورين هضبة على الحدود الفرنسية الألمانية يتقاسمها الطرفان لغة وحضارة وعنصراً .

وعندما استولى الألمان على اللورين فى ١٨٧١ كان الحديد قد أكتشف بها منذ وقت قليل ، وحظيت ألمانيا بذلك على تكامل هام فى المواد الخام الصناعية ، إذ كان الفحم متوفراً لألمانيا فى إقليم الروهر (الرور) .

واستند الألمان إلى هذه الحقائق الجغرافية فى تثبيت حقهم فى ضم هذين الإقليمين ، بينما دافع الفرنسيون بالحقائق التاريخية(١) لإثبات طابعها الفرنسى . ومهما كانت قوة هذه الحجج أو تلك فلم يكن فى إستطاعة الألمان أن تعيدها إلى فرنسا إذ لو فعلت ذلك لكان مظهراً خطيراً من مظاهر الضعف وخور العزيمة . ومن ثم لم يكن أمام فرنسا من وسيلة لإسترداداها إلا بالقوة . ويلقى الغالبية العظمى من المؤرخين اللوم على ألمانيا لأنها اغتصبت الإلزاس واللورين مما اضطر فرنسا إلى أن تعمل على استردادها بالقوة فتطورت الأمور إلى وقوع الحرب العالمية الأولى .

ولكن يلاحظ أن بريطانيا كانت تحتل جزيرة هليجولاند فى مواجهة الساحل الألمانى الشمالى وتنازلت عنها لألمانيا فى مقابل تنازل الأخيرة عن إقليم ويتو(٢) فى شرق إفريقية ، دون ما ضجة كبيرة . بينما استولت ألمانيا على شلزويج الدنمركية دون تصاعد للمشكلة .

أما مشكلة الألزاس واللورين فقد احتوت على عناصر جعلتهما مرشحتين لأن تكون المشكلة الدولية الأولى باستمرار قبل الحرب العالمية الأولى التى حسمتها وهذه العناصر هى : —

---

(١) كانت الإلزاس واللورين جزءاً من فرنسا من عهد شارلمان .
(٢) Witto

١ — كان عامل الكرامة القومية دافعاً شديداً للفرنسيين كي يعملوا على استعادة مكانتهم الدولية بعد تلك الإهانة البالغة التي نزلت بهم .

٢ — وربما خفت حدة هذه الكرامة القومية لو كانت المنطقة المتنازع عليها معزولة عن الوطن الأم ، أما بالنسبة للألزاس واللورين فكانتا متصلتين بفرنسا وألمانيا اتصالا مباشراً كفيلا بأن يثير الأشجان من يوم لآخر .

٣ — كانت خسارة فرنسا في الألزاس واللورين فادحة ، إذ كانت في اللورين أهم مناجم الحديد .

لقد كان الجرح الذي خلفه فقد هذين الإقليمين من العمق لدرجة أنه ما كان ليلتئم إلا بعد استردادهما مهما كان الثمن . وكان عجز الحكومة الفرنسية خلال السبعينات والثمانيات من القرن التاسع عشر عن تحديد زمن معين لتحقيق هذا الهدف القومي الكبير يثير بلبلة في نفوس الشعب واضطراباً في تفكيره السياسي ، فكانت تنتابه هوسات حماسية إنتقامية تارة ، وموجة من الاعتدال والرزانة تارة أخرى . فإلى جانب أولئك المتحمسين لشن حرب انتقامية سريعة ضد ألمانيا كانت توجد قطاعات واسعة من الشعب تريد أن تطفو على السطح علاقات ودية بين ألمانيا وفرنسا وتريد حلا معقولا لمشكلة الألزاس واللورين .

وفي اعتقادنا أن الشعب الفرنسي بعد نكبته في حرب السبعين أصبح يشعر بحالة من الضياع السياسي في وقت أخذت فيه مساوىء العهد الإمبراطوري تظهر على حقيقتها ، ولهذا أصبح الشعب الفرنسي معرضا لمثل تلك الأزمات حتى استعاد الشعب توازنه ، وحدد أهدافه ، وكان هذا بوجه خاص في عهد الرئيس الفرنسي بوانكاريه[١] الذي تولى مقاليد الأمور في سنة ١٩٠٣ .

كان بوانكاريه من إقليم اللورين ، وكان قوميا من الطراز الأول ، ويعتبر عهده نهاية للسياسة الدفاعية الفرنسية إزاء ألمانيا والانتقال بفرنسا إلى سياسة عزل وتطويق لها .

---

(١) Poincaré

لقد كان بوانكاريه موقنا أن الحرب ضد ألمانيا آتية لاريب فيها ، وخطط لها بذكاء ، إذ شرعت السلطات الفرنسية فى إجراء تعديلات جوهرية فى الخطط العسكرية إزاء ألمانيا ، إذ كان من المعروف أن عنصر المفاجأة والمبادأة كان بيد القيادة الألمانية خلال السنوات الطويلة التى أعقبت نكبة ١٨٧٠—١٨٧١. ولكن فى عهد بوانكاريه أخذت القيادة الفرنسية تفكر فى كسر هذا العنصر عن طريق إعداد قطاع من الجيش للهجوم على ألمانيا نفسها بينما تتولى قطاعات الجيش الأخرى امتصاص الهجوم الألمانى .

وأخذ المسئولون الفرنسيون يفكرون فى أهداف حربهم هذه ، لا على أنها بقصد استرداد الإقليمين الفرنسيين المغتصبين ، بل على أساس التوسع الفرنسى فى ألمانيا بالسيطرة مثلا على أجزاء من الضفة اليسرى للراين ، كما بلغ بالمسئولين من ثقة بالنفس أنهم أخذوا يفكرون فى تفتيت امبراطورية النمسا والمجر عن طريق العمل على استقلال القوميات العديدة الموجودة بها ، فبذلك تفقد ألمانيا دعامتها القوية فى وسط أوربا ، ولكن هذه الآمال كانت تحدها مخاوف روسيا من أن تنتقل حمى الاستقلال القومى إلى البولنديين ، وكانت فرنسا — من جانبها — مستعدة لأن تتجاهل حقوق البولنديين القومية فى سبيل التحالف مع روسيا ، ودون التخلى عن مشروعاتها فى تفتيت إمبراطورية النمسا والمجر .

ومن نواحى ثقة الحكومة الفرنسية بقوتها تمتعها بثانى امبراطورية فى العالم بعد الإمبراطورية البريطانية . وكانت تمتد هذه الإمبراطوريه أساسا فى شمال وغرب أفريقية : الجزائر وتونس ومراكش وموريتانيا والسنغال وغينيا وما عرف فيما بعد باسم تشاد ومالى والنيجر وفولتا العليا والكونغو الفرنسى . وفى شرق أفريقية كان لها الصومال الفرنسى فى مواجهة (باب المندب) ومدغشقر . أما فى آسيا فكانت قد سيطرت على الهند الصينية الفرنسية (فيتنام — لاوس — كمبوديا) . إلى جانب عدد من الجزر المتناثرة فى المحيطات .

كان الدفاع والحفاظ على هذه الإمبراطورية الفرنسية الواسعة يثير جدلا عنيفاً في داخل فرنسا . فلقد كانت مسئوليات استرداد الألزاس واللورين أهم في المرتبة الأولى عند التخطيط العسكري لدى بعض زعماء فرنسا . وكانوا يرون أن توزيع الجيوش الفرنسية على هذه المستعمرات المترامية يقضي على أي أمل في قدرة فرنسا على استرداد الإقليمين المغتصبين . وأن الأجدى بفرنسا هو أن توقف نمو إمبراطوريتها وتركز جيوشها ضد ألمانيا .

ومما كان يزيد المشكلة الدفاعية تعقيداً أن الشعب الفرنسي كان لا يزيد إلا بمقدار يسير جداً إذا ما قيس بنمو تعداد الشعب الألماني : حتى لقد اضطرت فرنسا إلى قبول مهاجرين عديدين من شمال أفريقية وإيطاليا وبولنده لمواجهة النقص في الأيدي العاملة .

ومما خفف من حدة هذه المشكلة السكانية أن الجزائر كانت تحفظ لفرنسا عدداً لا بأس به من المقاتلين ، وأن ارتفاع مستوى المعيشة ودخل المواطن الفرنسي والنمو الصناعي الكبير خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر جعل فرنسا قبلة للباحثين عن العمل من الأوربيين وعرب شمال إفريقية .

وكانت فرنسا تحتفظ باحتياطي كبير من الذهب ، ولا تخشى كثيراً من خطر مجاعة تصيبها ، ذلك الخطر الذي كانت تحسب له كل من بريطانيا وألمانيا حساباً كبيراً . وهذا يرجع إلى طبيعة مصادر الثروة في فرنسا . فهي بلاد متوازنة اقتصادياً من حيث الإنتاج الزراعي والصناعي ، وإلى جانب هذا كانت فرنسا قد تفوقت إلى حد كبير في صناعة الكماليات التي كانت تتهافت عليها الطبقة البرجوازية الكبيرة النامية في أوربا وأمريكا بوجه خاص .

ونظراً للدور العالمي الذي كانت تلعبه اللغة الفرنسية والآداب الفرنسية ، ونظراً للروعة التي كانت عليها باريس — حتى لقد لقبت بمدينة النور —

أصبحت فرنسا قبلة ملايين السياح وطلبة العلم ، وكان هذا يمثل دخلا ماليا ضخماً للخزينة الفرنسية . وساعد على هذا النمو السياحي أن الطبقة البرجوازية الفرنسية كانت قد بلغت درجة من الثراء والأخلاقيات الاجتماعية جعلتها مضرب الأمثال .

وفى مواجهة هذا التيار الرأسمالى فى فرنسا وذاك الإتجاه الإستعمارى العسكرى للحكومة الفرنسية كانت تنمو حركة إشتراكية مناهضة للبرجوازية الفرنسية ولتلك التطلعات الامبريالية . فقد كان الاشتراكيون يمارضون فى نفقات التسلح. وعندما سعت فرنسا ـ بعد ذلك ـ إلى كسب ود روسيا بالمساعدات المالية. انتقد الاشتراكيون هذا المسلك على اعتبار أن روسيا دولة رجعية لا تستحق مثل هذه المساعدات .

وكان وراء هذه الحركة الاشتراكية جبهة لها قوتها ممثلة فى «الإتحاد العام للعمل» إلا أن البرجوازية الحاكمة كانت أقوى من أن تخضع لضغوط العمال الإشتراكيين. وكانت قادرة على مواجهة تحديات العمال الإشتراكيين بالقوة المناسبة لإخماد حركاتهم . ومن ناحية أخرى لم يكن اشتراكيو فرنسا ثوريين للدرجة التى يضعون فيها أهدافهم نحو الاشتراكية العالمية فوق أهداف فرنسا القومية. فلا غرو أن أعلنوا وقفتهم إلى جانب الحكومة عندما نشبت الحرب العالمية الأولى .

هكذا كانت صورة فرنسا فى سبعينيات القرن التاسع قد تغيرت تماماً عندما أصبحت الحرب العالمية الأولى على الأبواب ، خاصة بعد نجاحها فى عقد الوفاق الودى مع بريطانيا فى ١٩٠٤ ، وبعد تسهيل الأمور حتى عقد الوفاق الودى الروسى ـ الانجليزى فى ١٩٠٧ .

روسيا

تعتبر روسيا أكبر دول أوربا إتساعا ؛ وكانت تمتد من شرق أوربا حتى منشوريا وكوريا والصين، وبذلك تكون هى الدولة الأوربية الوحيدة المتصلة بالصين مباشرة. ولكنها من ناحية أخرى لم تكن تملك إمبراطورية فيما وراء البحار.

كانت سلطات القيصر مطلقة، وشهدت روسيا عدداً من القياصرة فى القرن التاسع عشر كانوا على جانب متطرف من الإستبداد. ولكن كان نيقولا الثانى – الذى شهد ثورة ١٩١٧ التى قضت على أسرة « روما نوف » – أقل قياصرة روسيا استبداداً، وأكثرهم حباً لرعيته، كان طيب القلب يريد الخير لشعبه والاستمرار لحكمه. إلا أنه لم يدرك حقيقة متطلبات الحكم حينذاك، ولم تكن لديه الصفات اللازمة لمن يجدر به أن يحكم روسيا فى مطلع القرن العشرين.

كانت تعوزه قوة الشخصية السياسية المستندة إلى تأييد شعبى عسكرى قوى، كذلك تنقصه القدرة على إدخال إصلاحات جذرية فى نظام الحكم. بحيث يرفع البلاد إلى مستوى نظم حكم القرن العشرين الديمقراطية أو شبه الديمقراطية.

وكان القيصر يعيش فى بلاطه فى دائرة مغلقة غير محتك بالشعب أو بآماله وآلامه. ولهذا كان من العسير عليه أن يدرك مدى تسلط البيروقراطية الادارية المرتشية فى الشعب. ولم يدرك ما وصلت إليه حالة العمال التعسة فى حياتهم اليومية وفى داخل مصانعهم، ولا حالة الملاحين التى كانت أكثر تعاسة فى الريف.

---

(١) تعادل مساحتها مساحة أمريكا شمالية.

كان الناس يكرهون القيصر وحكومته وإداراتها ، ولكن أصبحت هذه الكراهية ممزوجة بالبغضاء والحقد على القيصر والبلاط والبلاء من جراء الفضائح المتتالية التى كانت متفشية بينهم ، وكانت القصص والروايات التى تحاك حول مباذل راسبوتين - رجل الدين المنحل - فى البلاط بين القيصرة والأميرات والنبيلات وتدخل القيصرة فى شئون البلاد حتى العسكرية منها ، كان كل هذا قد أدى إلى سقوط هيبة القيصر والبلاط ورجاله إلى الحضيض . ومما زاد فى ضعف القيصر أنه كان لا يقدم على إصلاح إلا تحت الضغط الشديد .

وكان أكبر عامل ساعد على بطء تطور الحياة الدستورية فى روسيا أن القاعدة الشعبية كانت متمثلة فى الفلاحين الذين كانوا فى حالة من الفقر والبؤس ونقص التعليم جعلتهم سلبيين غير مستعدين للمشاركة فى تطوير الأمة ، وأصبحوا لا يتوقعون إلا تحسنا قليلا فى دخلهم المادى التافه . وزاد من سلبيتهم أن الأقاليم كانت تحت حكم نبلاء عرفوا بالإستبداد المتطرف ، حتى لقد كان الفلاح الروسى أقرب إلى أن يكون قناً . حتى الكنيسة - التى كان من المفروض أن تقف إلى جانبه ضد استبداد الحكام - كان البعض من رجالها يبث فى الشعب روح الصبر وقبول الأمر الواقع الذى لم يعد محتملا .

كان عمال - الذين كثر عددهم نسبياً فى المدن فى أعقاب التقدم الصناعى فى روسيا - . . . من حالا من الفلاحين ، فإن المشكلات الإجتماعية والصحية والغذائية التى كان يعانى منها العامل فى المدينة كانت ثقيلة كل الثقل على كاهله دون أن تجد صدى لذلك فى دوائر البلاط أو الحكومة . فقد كانت الحكومة الروسية معنية بخلق نهضة صناعية كبيرة فى البلاد ولكن دون أن تعيد النظر فى نظام الحكم غير المتلائم مع تطور ونتائج هذه النهضة الصناعية .

أما كبار التجار فكانوا بصفة عامة من اليهود أو من الأجانب ، وكانت الشركات الكبرى - المؤسسة حديثاً بيدهم . بل عندما كانت الحكومة تسعى إلى

دفع عجلة النهضة الصناعية كانت تجد نفسها فى حاجة ماسة إلى رؤوس الأموال والعقول المفكرة القادرة على إدارة المشروعات الكبيرة ، الأمر الذى كان يجعلها تفتح البلاد أمام رءوس الأموال الأجنبية والخبرة الأجنبية أيضاً(١) .

وكانت الإمبراطورية الروسية تعانى من وجود عدد من الأقليات لها شأن فى إثارة المشكلات الداخلية والخارجية . فالفانديون الكاثوليك فى الشمال والبولنديون الكاثوليك فى الغرب يكرهون الحكم الروسى الأرثوذكسى ويعلقون آمالا كباراً على هزيمة لروسيا تؤدى إلى تخفيف القبضة عليهم .

أما الأقليات القوقازية والتركية والمغولية فكانت كبيرة العدد نسبياً ، ولكن متأخرة غير قادرة على التحرك المضاد الناجح .

وللأقليات الفانديه والبولندية والقوقازية والمغولية والتركية أقاليمها التى تتجمع فيها . أما الأقلية اليهودية فكانت منتشرة فى المدن ، وكانت على جانب كبير من الثروة ويكاد يكون أغلب كبار التجار منهم ، ولهم دورهم فى علاقات روسيا الاقتصادية مع الخارج . إلا أن هوة سحيقة وقعت بين الحكومة والشعب الروسى من جهة ، واليهود من جهة أخرى بسبب تجاهل هؤلاء لمصالح البلاد الوطنية وتركيزهم على مصالحهم الخاصة حتى لقد تألفت فى أوديسا جمعية (محبى صهيون) لتهجير اليهود الروس إلى فلسطين . فى سبعينيات القرن التاسع عشر .

وخلال الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر اتسع نطاق التعليم نوعاً ما ، فكثرت المدارس الثانوية والجامعات ، ولكنها إذا ما قيست بالإتساع الشاسع للامبراطورية الروسية وضخامة عدد السكان وتعدد أجناسهم ولغاتهم ، فإن تلك الجهود والمجالات التعليمية كانت أشبه بجداول ماء صغيرة جداً فى صحراء مترامية .

ولكن مما جعل لهذه النهضة التعليمية والصناعية صورة ذات وضوح أنها كانت مركزة فى عدد من كبريات المدن الروسية ، وبوجه خاص فى العاصمة (سان بطرسبورج)

---

(١) قدمت فرنسا الكثير من رءوس الأموال والخبراء لخدمة التطور فى روسيا وتنفيذ العديد من المشروعات هناك

دفع عجلة النهضة الصناعية كانت تجد نفسها فى حاجة ماسة إلى رؤوس الأموال والعقول المفكرة القادرة على إدارة المشروعات الكبيرة ، الأمر الذى كان يجعلها تفتح البلاد أمام رءوس الأموال الأجنبية والخبرة الأجنبية أيضاً(١) .

وكانت الإمبراطورية الروسية تعانى من وجود عدد من الأقليات لها شأن فى إثارة المشكلات الداخلية والخارجية . فالفانديون الكاثوليك فى الشمال والبولنديون الكاثوليك فى الغرب يكرهون الحكم الروسى الأرثوذكسى ويعلقون آمالا كباراً على هزيمة لروسيا تؤدى إلى تخفيف القبضة عليهم .

أما الأقليات القوقازية والتركية والمغولية فكانت كبيرة العدد نسبياً ، ولكن متأخرة غير قادرة على التحرك المضاد الناجح .

وللأقليات الفاندية والبولندية والقوقازية والمغولية والتركية أقاليمها التى تتجمع فيها . أما الأقلية اليهودية فكانت منتشرة فى المدن ، وكانت على جانب كبير من الثروة ويكاد يكون أغلب كبار التجار منهم ، ولهم دورهم فى علاقات روسيا الاقتصادية مع الخارج . إلا أن هوة سحيقة وقعت بين الحكومة والشعب الروسى من جهة، واليهود من جهة أخرى بسبب تجاهل هؤلاء لمصالح البلاد الوطنية وتركيزهم على مصالحهم الخاصة حتى لقد تألفت فى أوديسا جمعية (محبى صهيون) لتهجير اليهود الروس إلى فلسطين . فى سبعينيات القرن التاسع عشر .

وخلال الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر اتسع نطاق التعليم نوعاً ما ، فكثرت المدارس الثانوية والجامعات ، ولكنها إذا ما قيست بالإتساع الشاسع للامبراطورية الروسية وضخامة عدد السكان وتعدد أجناسهم ولغاتهم ، فإن تلك الجهود والمجالات التعليمية كانت أشبه بجداول ماء صغيرة جداً فى صحراء مترامية .

ولكن مما جعل لهذه النهضة التعليمية والصناعية صورة ذات وضوح أنها كانت مركزة فى عدد من كبريات المدن الروسية، وبوجه خاص فى العاصمة (سان بطرسبورج)

---

(١) قدمت فرنسا الكثير من رءوس الأموال والخبراء لخدمة التطور فى روسيا ولتنفيذ العديد من المشروعات هناك .

فكان أن ظهرت فيها وفى عدد من كبريات المدن الروسية ، قوى مثقفة أصبح لها وزنها فى المجتمع ، وكان تزايد عدد المعلمين والمتعلمين ، وتعدد الصحف ـ رغم ما كان مفروضاً عليها من قيود ثقيلة ـ والانتشار النسبي الذى حققه الكتاب المطبوع فى العقود القليلة التى سبقت الحرب العالمية الأولى — كل هذا أدى إلى تكوين فكر عام مثقف ، ولكن دون أن يتكون من وراء ذلك فكر عام وطنى واضح يشمل كافة مواطنى الإمبراطورية الروسية من حدود منشوريا إلى روسيا البيضاء إلى بولندة وفلنده والقرم والتركستان .

ومن العوامل التى ساعدت على ضعف مكونات (الفكر الوطنى العام) أن النبلاء كانوا يحكمون الأقاليم والمقاطعات ويعاملون الفلاحين بشكل من القسوة جعلهم غير قادرين على تكوين فكرة واضحة عن الوطن والوطنية والمواطنة .

إلا أنه ظهر فى روسيا من الشخصيات الفذة ما جعل أعين المثقفين — على الأقل — تتطلع نحو هدف محدد ، ونعنى بذلك ظهور نوابغ فى الموسيقى والأدب ، وبصفة خاصه ظهور ذروة الأدب والوطنية (تولستوى) . وكان معاصره (راسبوتين) — رجل الدين المنحل — يثير فى الناس روح المقارنة والنقد بين هذا وذاك .

وكانت التيارات الفكرية الحديثة تجد تربة خصبة بين أفراد الشعب الروسى ، وبوجه خاص بين أصحاب الفكر التقدمى الإشتراكى بمختلف صوره المعتدلة أو المتطرفة جداً . حتى لقد أصبح الشعب مستعداً للثورة على حكومته فى يناير ١٩٠٥ بغض النظر عن أن روسيا كانت مشتبكة فى حرب كبيرة ضد اليابان .

وكان طبيعياً أن يواجه القيصر وحكومته مثل هذه الثورة بالقوة إذ لم يكن هناك أى مخطط سياسى واقعى لإرضاء المتذمرين فضلاعن أن المتسلطين على الحكم حينذاك كانوا لايطيقون فكرة الخضوع للحركات العمالية أو الشعبية . ولهذا تصدت الحكومة للثورة بقوة السلاح فوقعت أحداث « الأحد الدامى » فى ٢٢ يناير — كانون ثانى ١٩٠٥ .

ولم تلبث أن تواترت أنباء الهزيمة المروعة التى منيت بها الجيوش الروسية أمام

اليابان . وهنا اضطر القيصر إلى أن ينحنى للعاصفة ، وأصدر فى ٢٩ أكتوبر ١٩٠٥ (بيانا) أبدى فيه رغبته فى أن يكون لبلاده نوعاً من الحكم البرلمانى ، وعلى هذا الأساس ظهر « مجلس الدوما »[1] .

وكان المجلس يضم عدداً من ذوى الأفكار التحررية التقدمية ، ولكنه ظل عاجزاً عن المشاركة الفعالة فى توجيه أمور البلاد الداخلية أو الخارجية بسبب قوة ارتباط الجيش والبيروقراطية بالقيصر وحكومته . وكان القيصر لا يتورع عن حله كلما ظهرت فيه معارضة قوية ضد القيصر والحكومة .

وشهدت السنوات الأولى ظهور عدة أحزاب روسية غرضها إنقاذ روسيا مما تردت فيه ، ولكن كلا منها كان يعتنق أساليب مختلفة .

فالأكتوبريون انتسبوا إلى « بيان أكتوبر » سالف الذكر ، ودعوا إلى حكومة مرنة قوية برلمانية ، ولكن على النمط البروسى .

أما الديمقراطيون الدستوريون (الكادت)[2] فكانوا يدعون إلى ديمقراطية على النمط الإنجليزى ، وكان هذان الحزبان (الأكتوبريون) و (الديمقراطيون الدستوريون) أكثر الأحزاب إعتدالا وميلا إلى التطور الدستورى التدريجى .

أما الحزبان الآخران وهما :

(ا) الحزب الديمقراطى الإشتراكى .

(ب) حزب الثوريين الإشتراكيين .

فكانا يدعوان إلى تخليص الشعب الروسى من الأوتوقراطية والرأسمالية والإقطاعية والإرستقراطية الحاكمة ، ونقل ملكية الأرض إلى الشعب ملكية عامة لا خاصة ، وإن اختلفا فى أساليب تنفيذ هذا الهدف .

ومع أن مبادىء هذين الحزبين الإشتراكيين كانت جديدة على مفاهيم

---

(١) Duma .

(٢) Cadets .

الفلاح الروسى والعامل الروسى . إلا أن الفلاح والعامل كانا فى ضياع عام ويبحثون عن شخصيتهم وإنسانيتهم ، فكان إن وجدوا فى مبادىء الإشتراكيين فرصة للحصول على حق فى حياة يشعر فيها الشخص بكيانه حتى ولو كان هذا الكيان مذابا فى مجموعة كبيرة من البشر .

وعلى اتساع روسيا وضخامة مقدار سكانها كانت متخلفة من الناحيتين الإقتصادية والعسكرية عن دول غرب أوربا ولم تعرف الصناعة الكبيرة إلا فى مطلع الثمانينيات وبشكل محدود وبمعونة فنية ورءوس أموال أجنبية . وخطوط المواصلات كانت لاتزال متخلفة ، ولم يمد فيها من السكك الحديدية ما يكفل لاقتصادها النمو ولقواتها العسكرية سرعة الانتقال .

وكان جيش روسيا كبيراً ، ولكنه يفتقر بشدة إلى الضباط والسلاح الجيد ، وانعكست عليه طبيعة البلاد الزراعية وطبيعة فلاحيها المرتبطين بالأرض ، فكانوا أشداء فى الدفاع عن أرضهم غير متحمسين للتوسع الخارجى ، هذا إذا سمحت لها الدول الاوربية بذلك .

ألمانيـــــــا

كانت ألمانيا المتحدة الفتية المنتصرة فى حرب السبعين قد أصبحت امبراطورية، على رأسها الإمبراطور الألمانى ملك بروسيا صاحبة الإنتصارات القومية الرائعة ، ولكن شخصية ومكانة أتوفون بسمارك كانت أقوى من شخصية الامبراطور ولهلم (غليوم) الأول الذى تقدمت به السن وترك مقاليد الأمور لمستشاره المعظم ليحكم ويدير دفة الأمور دون اعتراضات مؤثرة ، وكان الشعب نفسه قد تعود على طاعة حكامه الأقوياء ، وهى صفة غرست فيه منذ أيام بعيدة ترجع بالذات إلى عهد فردريك الأكبر .

كان الشعب الألمانى قد تعود الكفاح المرير ضد قوى قادرة على أن تضرب فى عمق بلاده ، ومع هذا استطاع أن يدفع ـ بقدراته وصلابته ـ أعداءه المرة بعد المرة ، لتتأصل فيه بالتالى روح العسكرية التى اشتهر بها الالمان ، والتى ضخمها خصومه للتشهير به . والحقيقة هى أن الشعب الألمانى كان منذ القرن الثامن عشر ، وحتى ١٨٧٠ / ١٨٧١ يكافح أولا للحفاظ على كيانه من مزيد من التمزيق ، ثم أخذ يكافح من أجل وحدته القومية حتى حققها بانتصاراته على جارتيه الكبيرتين : الإمبراطورية النمساوية والامبراطورية الفرنسية ، وبعد إعلان ١٨٧٠ كان على بسمارك أن يعيد النظر فى نظام الحكم .

الامبراطور :

كان أول موضوع واجهه بسمارك ـ عندما عزم على إعلان الامبراطورية ـ هو هل يستخدم عبارة (امبراطور ألمانيا) أم (الامبراطور الألمانى) ، فاستخدام تعبير « امبراطور ألمانيا » كفيل بأن يثير مخاوف بعض الدويلات الألمانية التى أعلنت ارتباطها مع بروسيا ، والتى أصرت على أن تحافظ على كيانها فى نفس الوقت،

أما استخدام التعبير الثانى فلا يثير مثل هذه الحساسيات ، وفعلا أصبح هو الاسم الرسمى للدولة . وعلى أى حال كان الإمبراطور الألمانى لا يستمد قوته من كونه رئيسا ورائياً للاتحاد الألمانى الجديد ، وإنما لأنه كان ملكا على بروسيا .

ورغم ماكان لهذا اللقب الإمبراطورى من جاذبية ، فقد كان غليوم الأول ـ ملك بروسيا ـ مترددا فى قبوله . ولقد سبق أن رفضه فى ١٨٤٩ عندما قدمه إليه التقدميون الألمان الداعين إلى الحكم الدستورى ، ولقد كان فى ١٨٧٠ – ١٨٧١ معرضا عن هذا اللقب كذلك ، ولم يقبله إلا من يد ملك بافاريا[1] نفسه . ومع هذا كان غير راض عن هذا اللقب حتى لقد فكر فى ذلك الوقت فى التنازل عنه لابنه ولى العهد .

وكان غليوم الأول قد تقدمت به السن ، ووضع مقاليد الأمور فى يد بسمارك ومع كثرة المواضيع الجوهرية التى اختلف عليها الرجلان إلا أن الإمبراطور كان فى نهاية الأمر يوافق على وجهة نظر بسمارك ، ومن المسائل الخطيرة التى اختلف حولها الرجلان تلك السياسة التى انتهجها بسمارك ضد روسيا بعد مؤتمر برلين (١٨٧٨) وعقده التحالف الثنائى مع النمسا ـ المجر ، ولكن اضطر الامبراطور إلى أن يوافق على تبريرات بسمارك على مضض .

وفى داخل البلاط الامبراطورى كانت الكراهية لبسمارك تتصاعد وتتزايد على يد أوغسطا التى كانت تستقطب كل ناقم عليه ، وكذلك على يد ولى العهد الشاب ذى

---

(١) تقع بافاريا فى جنوب المانيا وقد أصبحت ملكية فى ١٨٠٥ تحكمها أسرة ويتلز باخ Wietelspach ، وأصبحت فى ١٨٧١ مملكة ضمن الإمبراطورية الألمانية بعد أن حصلت على كثير من الضمانات حتى أصبحت جزءاً لا يتجزء من الجمهورية الألمانية بعد الحرب العالمية الأولى ثم أصبحت معقلا رئيسيا من معاقل النازية ومنذ نهاية الحرب العالمية ثانية ، وبسبب تقسم المانيا أصبحت بافاريا أكبر أجزاء المانيا الاتحادية (المانية الغربية) .

الأفكار التحررية الجريئة ، وتنبأ منذ وقت مبكر عدد ليس بالقليل من خصوم بسمارك بأن التخلص من هذا الزعيم الصلب سيكون بعد وفاة الإمبراطور ، وبعد تولى ولى العهد العرش .

أما النظام البرلمانى فى الإمبراطورية الألمانية فكان يعكس طبيعة أوضاعها من حيث :

١ — مراعاة الكيانات الإقليمية داخل الإمبراطورية .

٢ — ضعف المجلسين (الريخستاج والبندسرات) أمام سلطات مستشار الرايخ وعدم إعطاء الشعب الأولوية لفكرة الديمقراطية .

فقد نص الدستور على تكوين مجلسين أحدهما : ينتخبه الشعب بالاقتراع العام السرى وهو الريخستاج Reichstag ، وكان مؤلفا من ٣٩٧ عضوا ، ولكنه ليس مجلسا شعبيا . إذا ما قورن بمجلس العموم House of Commons البريطانى ، حيث أن سلطات الريخستاج كانت شبه مشلولة حيث كانت قدراته على توجيه السياسة الخارجية واهنة ، فضلا عن أن الدستور سلبه حق مناقشة كثير من الأمور المتعلقة بالمساهمات المالية والعسكرية التى تقدمها الدويلات الألمانية الداخلة فى الإمبراطورية ، حيث أن هذه المساهمات كانت تحكمها معاهدات أدمجت فى الدستور نفسه ، ولم يكن فى استطاعة الريخستاج أن يدخل تعديلات عليها إلا بتعديل الدستور نفسه ، وهذا أمر كان فوق سلطاته المخولة له .

هذا إلى أن الريخستاج كان لا يستطيع أن يعزل حكومة ، وكانت الحكومة — خاصة على عهد بسمارك — بعيدة عن متناول أى من المجلسين ، وزاد من هذا الضعف أن أعضاء الريخستاج كانوا ينتمون إلى أحزاب متعددة عاجزة عن تكوين جبهة متحدة فى وجه الحكومة .

أما البندسرات Bundesrat فكان مؤلفا من ٥٨ عضواً موزعين على الدول التى

كانت تتكون منها الإمبراطورية الألمانية ، وبالتالى كان يمثل الولايات ، وكان نصيب بروسيا فى أول الأمر سبعة عشر صوتا زيدت من بعد إلى عشرين صوتا . ومع ما يبدو من هذا من أن بروسيا لم تكن تتمتع بأغلبية فى المجلس ، إلا أن اليد العليا كانت لها فى المجلس للاعتبارات التالية :

١ — كان من المنصوص عليه أن لا يمر أى موضوع إلا بعد موافقة ١٤ عضواً ، ومن ثم كان لابد من موافقة بروسيا على أى مشروع مقدم للمجلس .

٢ — كان عدد من الدويلات الألمانية الصغيرة مرتبطاً ببروسيا ولا يصوت لصالح مشروع إلا إذا كانت بروسيا موافقة عليه .

٣ — كانت مكانة بروسيا القيادية واضحة وتفرض نفسها لمقدمته لقضية الوحدة الألمانية ، ولما ينتظر أن تقدمه .

ولما كان أعضاء البندسرات من الأسرات الأرستقراطية ، وكانت جبهة المعارضة فى الريخستاج ضعيفة وطبقة اليونكرز البروسية متنفذة فى الجيش ، والطبقة العليا كانت تسيطر على أجهزة الحكم ، وكانت الملكية وراثية والمستشار وحكومته غير مسئولين أمام البرلمان نظراً لكل هذا كان نظام الحكم دكتاتوريا ، وإن كان له مظهراً برلمانياً .

ومن العبارات الشائعة فى مؤلفات المؤرخين أن هذا الشعب — بسبب البطولات التى حققها على يد ملوك وكبار حكامه — من أمثال فردريك الأكبر ، وبسمارك — قد أصبح مطيعاً للحكام ، وأن هذا الشعب الألمانى بسبب طول الكفاح المرير عن نفسه ضد قوى كبرى على مختلف جوانبه — قادرة على ضربه فى الأعماق — أصبح ذا طابع عسكرى ، كما يذهب الغالبية العظمى من المؤرخين إلى أن الشعب الألمانى كان مشغولا بالبحث عن وحدته أكثر من البحث عن ديمقراطية الحكم فيه . والواقع أن روعة الانجازات بين ١٨٦٦ و ١٨٧١ جعلت مسألة الديمقراطية لدى

كانت تتكون منها الإمبراطورية الألمانية ، وبالتالى كان يمثل الولايات ، وكان نصيب بروسيا فى أول الأمر سبعة عشر صوتا زيدت من بعد إلى عشرين صوتا . ومع مايبدو من هذا من أن بروسيا لم تكن تتمتع بأغلبية فى المجلس ، إلا أن اليد العليا كانت لها فى المجلس للاعتبارات التالية :

١ — كان من المنصوص عليه أن لا يمر أى موضوع إلا بعد موافقة ١٤ عضواً ، ومن ثم كان لا بد من موافقة بروسيا على أى مشروع مقدم للمجلس.

٢ — كان عدد من الدويلات الألمانية الصغيرة مرتبطاً ببروسيا ولا يصوت لصالح مشروع إلا إذا كانت بروسيا موافقة عليه .

٣ — كانت مكانة بروسيا القيادية واضحة وتفرض نفسها لمقدمته لقضية الوحدة الألمانية ، ولما ينتظر أن تقدمه .

ولما كان أعضاء البندسرات من الأسرات الأرستقراطية ، وكانت جبهة المعارضة فى الريخستاج ضعيفة وطبقة اليونكرز البروسية متنفذة فى الجيش ، والطبقة العليا كانت تسيطر على أجهزة الحكم ، وكانت الملكية وراثية والمستشار وحكومته غير مسئولين أمام البرلمان نظراً لكل هذا كان نظام الحكم دكتاتوريا ، وإن كان له مظهراً برلمانياً .

ومن العبارات الشائعة فى مؤلفات المؤرخين أن هذا الشعب — بسبب البطولات التى حققها على يد ملوكه وكبار حكامه — من أمثال فردريك الأكبر ، وبسمارك — قد أصبح مطيعاً للحكام ، وأن هذا الشعب الألمانى بسبب طول الكفاح المرير عن نفسه ضد قوى كبرى على مختلف جوانبه — قادرة على ضربه فى الأعماق — أصبح ذا طابع عسكرى ، كما يذهب الغالبية العظمى من المؤرخين إلى أن الشعب الألمانى كان مشغولا بالبحث عن وحدته أكثر من البحث عن ديمقراطية الحكم فيه . والواقع أن روعة الانجازات بين ١٨٦٦ و ١٨٧١ جعلت مسألة الديمقراطية لدى

الشعب في مكانه أقل مما كان يجب أن تكون فيه :

Otto von Bismarck : بسمارك

وهكذا أصبح بسمارك يحكم شعباً مطيعاً فخوراً به، وتمتع بسمارك بتكريم الامبراطور له برفعه إلى رتبة « الأمير » وبالسلطات التى لا تجعله مسئولا أمام مجلس البرلمان (الريخستاج والبندسرات) حيث أن سلطاته كانت مستندة إلى الإمبراطور ، وكان الامبراطور قد استسلم له تقريبا .

كان بسمارك بروتستنتيا بروسيا متغطرساً شديد الاعتداد بنفسه يكلد يمسك بكافة الخيوط ، قوى البنية خشن الطبع ، لاذع النقد ، مستعداً لأن يقلب الأفكار التى قال بها رأساً على عقب حين يعتقد أن فى ذلك مصلحة لألمانيا ، أو أن الحفاظ على شخصه وسياسته تتطلب ذلك .

كان يعتقد إلى حد الايمان بأنه وحده هو الذى على حق ، وأنه هو العملاق ، وغيره من رجالات ألمانيا أقزام لا يعتد بهم . وكان يشك فى كل من يحاول أن يبرز فيتهمه بأنه يسعى إلى منصب المستشارية ، ويلجأ إلى المواربة والخداع والتحايل ليضرب منافسيه ومنتقديه مستخدما الصحافة والادارة الحكومية الطيعة فى يده فى هدم خصومه ، والتنكيل بهم أمام الرأى العام .

وأدى ظهور بسمارك بهذه الشخصية الغلابة العملاقة ، وتلك الانتصارات العسكرية العظمى إلى أن يتهيب المفكرون — وما أكثرهم فى ألمانيا حينذاك[1] — بسمارك والضباط وأصحاب المراتب العليا وجماعة اليونكرز البروسية التى كانت بيدها مقاليد الأمور . وزاد من ذلك أن بسمارك كان يستخف بالفلاسفة وبالمفكرين . فمن وجهة نظره : ماذا انجز هؤلاء لألمانيا ؟ هل كان فى استطاعتهم أن يحققوا الوحدة كما حققها

---

(١) أمثال : فليرانت ، برنس ، براندس ، ابسن ، شيرر .

هو ؟ ولهذا كانت قلة قليلة جداً من رجالات الفكر على علاقة ودية معه .

وتمثل علاقته بكل من فون أرنيم ، وفون رون نموذجين من خصوم بسمارك وأصدقائه .

وكان فون ارنيم ينتقد سياسة بسمارك إزاء فرنسا، فبينما كان بسمارك يؤيد الجمهوريين في فرنسا منعا لعودة الملكية وقوتها وآمالها إلى الحكم كان فون ارنيم يدعو إلى شد أزر الملكيين في فرنسا ، فأضمر بسمارك القضاء عليه بشراسة، واستغل تقريراً ورد من سفير ألمانيا بالآستانة يقول بأن بعض الأوراق الرسمية مفقودة من الملفات فأسرع بسمارك إلى رفع دعوى قضائية ضد فون أرنيم(١) ، وصدر عليه حكم بالحبس ، ففر الرجل إلى سويسرا . ولكن ظل بسمارك وراءه حتى استصدر حكما بتجريده من شرفه .

وإذا كانت هذه هي واحدة من أقسى صور الدكتاتورية المتصرة وجبروتها ، فإن هذا الدكتاتور الفظ لم يعدم صديقا أ خاص له دون أن يصطدم به فلقد كان فون رون مخلصا في رجولة ونكران للذات نادر ، مخلصا ليس لبسمارك فقط وإنما للامبراطور وللوطن .

وحتى خلال الأزمات التي كانت تقع بين الرجلين كان بسمارك لا ينفلت منه عيار الغضب ولكن فون رون الكهل ـ الذي حنكته المعارك والصراعات ورئاسة وزارة بروسيا ـ وجد نفسه من بعد في مأزق حرج لا يستطيع أقوى الرجال التغلب عليه ، حيث وجد فون رون نفسه في مواجهة تيارين جارفين : بسمارك صاحب الإرادة المطلقة في مواجهة التيار الديمقراطي الذي بدأ ينال من بسمارك(٢) ويكيل له الاتهامات

---

(١) كان بسمارك يسرع إلى رفع الدعاوى القضائية من يعترض عليه .

(٢) مد حصول بسمارك على رتبة الإمارة يبدو وأن أقرانه السابقين من كونتات بومبرانيا حسدوه فشهروا به متهمين بسمارك بأنه أفسح الطريق امام مدير املاكه اليهودى بلبشرودر ه بعيد من أسرار الدولة التى يستغلها من بسمارك فى تنمية وثروة بسمارك نفسه .

الخطيرة ، فأخذ فون رون يخفف من أعبائه حتى مات .

ويمكن تحديد الأسس الرئيسية لسياسة بسمارك الداخلية على النحو التالى .

— استكمال وحدة البلاد بدمج الأقليات غير الألمانية كالدنمركيين والبولنديين وإضعاف الإقليمية فى جنوب ألمانيا .

— وقف نشاط الكاثوليك المتطامين . إلى قوى أجنبية عن ألمانيا (الفاتيكان).

— الحد من نشاط الإشتراكيين لأن مبادءهم تكاد — لو طبقت — أن تقوض البناء الذى شيده .

— الإقدام على إصلاحات متعلقة بالعمال والمجتمع .

— الحفاظ على يده المطلقة فى توجيه أمور البلاد .

* * *

ولم يكن موقف بسمارك من أعضاء مجلسى البرلمان (الرايخستاج والبندسرات) ومن زعماء الاحزاب إلا امتداداً لتلك الدكتاتورية الطاغية . كان يحتصر نظم الحكم البرلمانية ، وشديد العداء لحزب الوسط وكان ينتهز الفرص لتوهين هذه القوى ، فقد انتهز محاولة فاشلة للاعتداء عليه بواسطه شاب أدعى أنه ينتمى إلى حزب الوسط وطارد زعماء هذا الحزب ، وانتهز محاولة فاشلة لاغتيال الامبراطور على يد مهووس مطرود من الحزب الاشتراكى فحل البرلمان وحصل على أغلبية من الأعوان فى المجلس الجديد وأعلن الأحكام العرفية واستصدر القوانين التى تجعل كل إشتراكى أو ليبرالى تحت رحمة الطرد والنفى والسجن ، وأصبحت كل صحيفة تحت سيف المصادرة والاغلاق .

إلى جانب هذه الأساليب الدكتاتورية الفظة التى نفرت من بسمارك معظم حالات ألمانيا فى عهده كانت أساليبه فى التعامل مع الأحزاب الألمانية تدل حقيقة على ان الرجل عامل هذه الأحزاب وكأنها حكومات معادية يتلاعب بها بالتحالف مع هذا تارة وذاك تارة أخرى لينفرد بهذا الحزب ويرهق الآخر من بعد .

ومن ذلك أن بسمارك ناصب « حزب الوسط » العداء ثم لم يلبث من بعد أن تعاون معه ضد « الحزب الديمقراطي الاشتراكي » Social Democrates وهذه سياسة قد تبدو مجدية في حينها . ولكنها كفيلة بانحراف الحياة الحزبية عن جادة الطريق نحو الديمقراطية البرلمانية الحزبية التي كانت تعتبر حينذاك خير نظم الحكم لدولة قومية متطورة .

كان « حزب الوسط الكاثوليكي الروماني » Roman Catholic Centre Party قد تأسس على يد « لودفيج ويند هرست Ludvrig Windthorst » في ١٨٧١[1] وكان يركز على معارضة بسمارك في أمرين جوهريين : المسألة الكاثوليكية وكيان الدويلات الألمانية التي دخلت في إطار الامبراطورية الألمانية . فقد كان حزب الوسط يدافع عن حق تلك الدويلات في الحفاظ على كيانها المستقل ، كما كان الحزب يدافع عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ضد السياسة الروسية البروتستنتية التي كان ينتهجها بسمارك .

كان بسمارك يكره أي سلطات سياسية للكنيسة الكاثوليكية في ألمانيا ، وليس هذا الصدام بينه وبين الكنيسة الكاثوليكية بسبب لوثريته ، وإنما كان حلقة من سلسلة الصدامات التي وقعت بين الكنيسه والدولة في القرن التاسع عشر ، فالدولة الحديثة القومية الأوربية كان لابد لها — في الغالب — من أن تسعى إلى فصل الكنيسة عن الدولة ، وإخضاع رجال الدين للقوانين المدنية ، ومنعهم من تلقي أية تعليمات من الخارج (البابوية) . وزاد من حدة موقف بسمارك من الكنيسة الكاثوليكية ظهور « حزب الوسط » الذي رأى فيه بسمارك أداة هدم للرايخ الألماني الذي بناه بالحديد والنار .

---

(١) استمر هذا الحزب حتى حله هتلر في ٥ / ٧ / ١٩٣٣ .

وكان بسمارك يعتقد أن الكاثوليكية متحجرة فقدت مقومات النقد والتطوير وأغلقت العقول دون التطور والتقدم الذين يدينان بالكثير البروتستنتية من وجهة نظره . ولهذا كان بسمارك خلال حملته العنيفة ضد الكنيسة الكاثوليكية يردد أنه يفعل ذلك انتصاراً للحضارة والتقدم. فنضاله ضد الكاثوليكية — من وجهة نظره — نضال من أجل الحضارة .

وجاءت ضربته للكنيسة الكاثوليكية فى وقت مناسب للغاية ، فعلاوة على أنه كان بطل الأمة المظفر على أقوى خصم لألمانيا (فرنسا) ، كان هناك العديد من خصوم الكاثوليكية والبابويه ينتظرون تحرك قبضته الفولاذية ضدها .

فقد كان العديد من سياسى إيطاليا — بعد وحدتها — يناهضون الدور السياسى للكنيسة الكاثوليكية ، ويناهضون السياسة الفرنسية كذلك ، وبالتالى فإن معاداة بسمارك للكنيسة الكاثوليكية كان كفيلا بأن يسهم فى ابتعاد إيطاليا عن فرنسا .

وكانت روسيا — العدو التقليدى للكاثوليكية — ترحب بضربها ، وذلك لما كان لرجال الدين الكاثوليك من دور فى تحريك البولنديين للثورة على روسيا .

هذا بالنسبة لصدى تحرك بسمارك ضد الكاثوليكية فى خارج ألمانيا ، أما فى الداخل ، فكان هذا التحرك كفيلا بإرضاء الأحرار الألمان الذين كانوا — لطبيعة مبادئهم — معادين للكنيسة .

أصدر بسمارك فى مايو ١٨٧١ القوانين التى سلبت الكنيسة الكاثوليكيه الكثير من مجالات نشاطها حيث نصت على :

١ — إلغاء القسم الكاثوليكى فى وزارة المعارف ووضع تدريس الدين فى يد هذه الوزارة .

٢ — استبعاد الفقرات الخاصة بحماية الكنيسة من الدستور .

٣ — تدخل الحكومة فى إدارة الأسقفيات .

٤ ـ إبعاد الجزويت والجماعات المماثلة عن البلاد .

٥ ـ قانونية الزواج المدنى .

ولكن واجه بسمارك معارضة ومقاومة شديدة لقوانينه هذه . لامن جانب رجال الدين الكاثوليك ـ وقد سجن بعضهم ـ بل من جانب « حزب الوسط » وشن عليه فصحاء . وبلغاء الكاثوليك حملة كلامية قوية ، وانتقدت خطواته لأنها غير منطقية من حيث إبعاد رجال الكنيسة عن التعليم الوينى دون أن يكون لدى الحكومة من يحل محلهم فى تعليم التلاميذ الإيمان ، حتى لقد اتهم بسمارك بأنه بدفع البلاد إلى الوثنية .

وبينما بدا لبسمارك فى أول الأمر أنه انتصر على الكاثوليكية والبابوية ، إلا أنه بدأ يواجه الحقيقة القاسية ، وهى أن الشعب قد انقسم على نفسه إزاء قضية العقيدة والصراع ضد الكنيسة الكاثوليكية . ووجد أن مواجهة الكاثوليكية ليست كمواجهة دولة كفرنسا يمكن إذلالها تحت أقدام جنود بروسيا الأشداء. وكان لابد ـ من وجهة نظر بسمارك ـ من إعادة النظر فى هذا الصراع مع الكنيسة . وعلى عادة بسمارك فى القدرة على الإقدام على الفكرة ونقيضها تبعا للمصلحة العامة بدأ يتراجع ، وكان لابد من كبش فداء ، فألقى بسمارك مسئولية إصدار تلك القوانين على وزير المعارف ، وأنه بالتالى هو المسئول عما حدث من أزمة لم يكن لها مايبررها. وأن القوانين صدرت دون أن يراجعها بسمارك بنفسه ، ولو راجعها لما احتوت بعض السخافات التى أدت إلى تلك الأزمة . بل ذهب بسمارك إلى القول أنه ما اصطدم بالكنيسة إلا بسبب « حزب الوسط » الذى كان بسمارك يسعى إلى تقويضه .

وقد أطلق على هذا الصراع بين بسمارك والكاثوليكية تعبير شاع حينذاك وهو kulturkamph ذلك الصراع الذى استمر منذ ١٨٧١ حتى ١٨٨٧ ، وعلى أى حال اضطرت صلابة المعارضة الكاثوليكية بسمارك إلى البحث عن طريق لتحسين العلاقة مع البابوية فانتهز فرصة تنصيب بابا جديد ـ وهو البابا ليو الثالث عشر Leo XIII فى ١٨٧٨ ـ وبدأ معه مفاوضات انتهت باستعادة الكنيسة الرومانية معظم ما كان لها من حقوق فى ١٨٨٧ .

كانت صراعات بسمارك ضد الأحزاب ، وضد الاشتراكيين ، وضد كل متطلع إلى منصب المستشارية ، وضد النظام البرلمانى الديمقراطى قد زادت من أعداد خصومه السنة بعد الأخرى ، وكان الرجل رغم عبقريته قد أغلق الدائرة على نفسه وبات يعيش بفكر غير متطور ، إذ تجمد ولم يجدد معلوماته ، ولم يعد قادراً على تكوين رؤية مستقبلية لألمانيا ولا للعالم ، ففقد مقومات السياسى المناسب لثمانينيات القرن التاسع عشر ، ولما مات الامبراطور غليوم الأول وخلفه غليوم (ولهلم) الثانى فى ١٨٨٨ ، كان بسمارك قد فقد أنصاره ، ومات أو ابتعد عنه أصدقاؤه ، وأصبح العجوز بسمارك فى مواجهة الشباب من أبناء الجيل الجديد ممثلا فى الامبراطور الفتى ولهلم الثانى ، فكان عزله أمراً طبيعياً ، ولكن التراث الذى خلفه بسمارك ظل مؤثراً تأثيراً كبيراً فى تطور ألمانيا من بعده خاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية .

كانت سياسة ألمانيا على عهد بسمارك وبعده ترتكز على منع فرنسا من شن حرب انتقامية لتسترد كرامتها والإلزاس واللورين ، وأدى ذلك إلى جهود مضنية للحفاظ على صداقة المدوين (الروسيا والنمسا) لألمانيا ، ومثل هذه السياسة كانت تفرض على ألمانيا ، الإهتمام بالجيش وبميزانيته ليكون مستعداً لمواجهة أى خطر يهدد البناء الشامخ الذى أقامه بسمارك .

حقيقة كان الجيش الألمانى أقوى جيوش القارة الأوروبية وأحسنها تنظيماً ، ولكن الإمبراطورية التى أعلنت فى ١٨٧١ كانت لا تتمتع بحدود طبيعية تساعد على الدفاع عنها ، فمعظم حدودها مع جاراتها مفتوحة . الأمر الذى يفرض على القيادة العسكرية الألمانية أن تحتفظ بجيش كثيف لمواجهة هجمات تقع هنا أو هناك على مسافات متباعدة ، ولكن الأخطر من هذا مخاوف هذه العسكرية الألمانية من أن تجد نفسها مضطرة للقتال على جبهتين شرقية وغربية فى آن واحد ، إذا ما استطاعت فرنسا أن تتحالف مع أى من روسيا أو النمسا . ولهذا كان من

مبادىء هذه العسكرية الألمانية الإعتماد على الحرب الخاطفة التى تنهى الحرب بسرعة أو تمكن القيادة الألمانية من ضرب أحد الخصوم ثم نقل الجيوش بسرعة لضرب الخصم الثانى .

وبينما كان الجيش البرى الألمانى قويا كان الأسطول ضعيفا لم تتصاعد قوته إلا عندما بدأ التسابق على بناء السفن الحربية من طراز الدردنوت فى مطلع القرن العشرين .

امبراطورية النمسا والمجر

« المملكة الثنائية »

كانت إمبراطورية النمسا صورة من صور تلك الإمبراطوريات القديمة التي كانت تضم العديد من القوميات والأجناس المختلفة، لا يجمعها إلا الولاء للامبراطور لأسباب سياسية أو مذهبية أو اقتصادية . كان هذا قبل القرن التاسع عشر . أما خلاله ـ وهو القرن الذي عرف بعهد القوميات ـ فقد اختلفت الأوضاع إختلافاً جوهرياً . بينما ظلت الإدارة الإمبراطورية النمساوية على ماهي عليه من رغبة شديدة في الإحتفاظ بما تحت يدها . وبعد توالي الهزائم التي منيت بها هذه الإمبراطورية على يد الحلف الإيطالي الفرنسي في الخمسينات ، وعلى يد بروسيا في ١٨٦٦ ، تبدل النظام الإمبراطوري إلى ماعرف بالمملكة الثنائية .

كان نظام (المملكة الثنائية) يقوم على أساس أن لكل من النمسا والمجر دستورها وإدارتها الذاتية . أما شئون الدفاع والسياسة الخارجية فكانت من إختصاص الإدارة الإمبراطورية .

وتحت هؤلاء الألمان النمساويين وهؤلاء المجر كان يوجد العديد من الأقليات القومية النشطة وبوجه خاص :

١ ـ التشيكيون في بوهيميا .

٢ ـ البولنديون في غاليسيا .

٣ ـ السلاف في جنوب الإمبراطورية .

٤ ـ الكرواتيون في جنوب الإمبراطورية أيضا .

٥ ـ الإيطاليون في الترنتينو .

وكانت هذه الأقليات القومية تمثل أغلبية سكان المملكة الثنائية .مما جعل مشكلة تعدد القوميات المشكلة الأولى التي تقض مضاجع هذه المملكة الثنائية . وكان استبداد المجر بالأقليات السلافية يشكل أكبر خطر على كيان هذه المملكة ، كما كان فرصة رائعة يسعى خصومها إلى إقتناصها لتقويض المملكة الثنائية .وكثيراً ما نشب الخلاف بين حكومتى النمسا والمجر حول السياسة التي يجب أن تتبع إزاء هذه القومية ، ولكن دون التوصل إلى وضع سياسة جديدة تنقذ البلاد من التدهور الذى كانت تسير نحوه . هذا فضلا عن أن اقتصاديات البلاد كانت تسير من سيء إلى أسوأ كما كانت تعانى من نقص الخامات الصناعية ، ومن صعوبة فى المواصلات،ومن أوضاع إجتماعية جعلت عملية التقدم الصناعى محفوفة بالمخاطر .كذلك كانت رءوس الأموال والملكيات الكبيرة والشركات الكبرى مركزة فى يد عدد من النمساويين أو من المجريين ، بينما كان العمال من السلاف ، الأمر الذى جعل الصراع القومى يتضمن كذلك صراعاً من أجل العدالة الإجتماعية . وكانت الزعامات المحلية القومية مستعدة كل الاستعداد للحصول على تأييد خارجى لجهودها الأمر الذى كان يعتبر فى نظر حكومة المملكة الثنائية مجرد خيانة وطنية .

وبذلت حكومة المملكة الثنائية جهوداً كبيرة من أجل توحيد هذه الإمبراطورية المتعددة القوميات . ولكن عاب هذه الجهود أنها كانت نظرية وبيروقراطية أكثر منها عملية . وعندما حاولت السلطات فرض اللغة الألمانية على جميع أفراد الإمبراطورية قوبل ذلك بمقاومة شديدة من جانب الأقليات القومية وفشلت المحاولة .

وهكذا كانت الأزمات الداخلية وطبيعة التوزع إلى جماعات وقوميات لا تمكن شعوب المملكة الثنائية من أن تكون لها كلمة واحدة تجمع عليها فى مواجهة الأخطار التى كانت تواجه هذه المملكة . وإذا ما وقعت حرب كان من العسير أن يكونوا مفهوماً وطنياً واحداً يجمع قوى البلاد تلقائياً حول الحكومة . ثم إن ذلك التفوق العددى للأقليات القومية قد جعل الحكومة لا تفكر فى تطبيق مبادىء الديمقراطية

الإنتخابية حيث أن مثل هذه الخطوة كانت تؤدى إلى نجاح ممثلى الأقليات وطغيانهم على أى برلمان يتكون وتنقلب (المائدة) على رءوس الألمان النمساويين الذين كانوا يتحكمون — ومن بعدهم المجريون — فى رقاب السلاف . ومن هنا كانت حكومة المملكة الثنائية دكتاتورية تحكم بالمراسيم مع وجود مظهر فقط من مظاهر الحكم الديمقراطى .

وكانت السياسة الخارجية كذلك لا تجد من يستطيع إدخال تغييرات جوهرية عليها نظراً لما يتمتع به وزير الخارجية من سلطان تجعله يتجاهل أى محاسبة موجهة له . وحيث أن منصب وزير الخارجية كان يتولاه فقط ألمان نمساويون أو مجريون كانت السياسة الخارجية هى الأخرى فى خدمة هذين المنصرين .

ومن ناحية أخرى كانت ألمانيا على عهد بسمارك وبعده . لا تعمل على ضم الألمان الموجودين فى المملكة الثنائية على كثرتهم . فلقد كان بسمارك من الفطنة لأن يوقف أطماعه وآماله القومية عند حدها ، وا كتفى من بعد بالعمل على التحالف مع هذه المملكة الثنائية .

وإذا كانت المملكة الثنائية قد أمنت هذا الجانب الخطير ، فإن الدعوة إلى « الجامعة السلافية » ، لا يقل خطرها عن الدعوة إلى الحكم الديمقراطى فيها .

كان التوسع النمساوى فى البلقان لا يثير روسيا فقط ، بل كان يثير كذلك إيطاليا التى أخذت تتطلع إلى السيطرة على ألبانيا المواجهة لها . وكانت كل منهما (أى المملكة الثنائية وإيطاليا) تتعاونان فى منع الصرب من السيطرة على ألبانيا على أمل أن تكون هذه من نصيب أى منهما ، ولهذا كانا ضد أى طرف ثالث يطمع فى ألبانيا ، كما كانت كل منهما تتربص بالأخرى الدوائر لعلها تستطيع أن تقتنص ألبانيا .

إلى جانب هذه المسألة الألبانية كانت هنا مشكلة الإيطاليين فى (الترنتينو) ، وكانت هناك دعوات كثيرة فى داخل إيطاليا تنادى باستكمال الوحدة الإيطالية

فكانت هذه المشكلة سلاحاً تستطيع إيطاليا شهره فى وجه النمسا فى الوقت المناسب .

اما الأمل الكبير فى إيجاد مخرج تجارى وعسكرى للمملكة الثنائية فكان المشروع الألمانى الخاص بمد خط حديدى من برلين إلى فيينا والآستانة (القسطنطينية) والموصل وبغداد والبصرة . وكان هذا المشروع يعنى أن الدولة العثمانية أصبحت فى دائرة النفوذ الألمانى النمساوى .

ومن هنا كان الخطر كبيراً على المصالح الإمبريالية الإنجليزية فى الشرق الأوسط والأقصى والمصالح الإمبريالية الروسية فى إيران ، ومشروعات فرنسا الإستعمارية فى الشام ، فكان أن ساعد كل هذا على عقد الوفاقين : الفرنسى البريطانى (١٩٠٤) والبريطانى الروسى (١٩٠٧) . وأصبح بذلك الخطر على هذه المملكة الثنائية تهديداً وأصبحت مسئوليات الدفاع عنها أكبر بكثير عما قبل . ومما ضاعف من مشكلات الدفاع عن المملكة الثنائية أن حدودها لم تكن طبيعية .

فالدعوة إلى الجامعة السلافية تعنى خروج حوالى ثلث سكان المملكة الثنائية عنها وانضمامهم إلى الصرب ، لتظهر من بعد ذلك دولة سلافية ربما تصبح أقوى من المملكة الثنائية نفسها .

وهذه الدعوة من ناحية أخرى كانت كفيلة بأن ترغم المملكة الثنائية على موقف الدفاع فى البلقان . بينما أصبح البلقان هو المنطقة الوحيدة المفتوحة — إلى الوقوف حد ما — أمام التوسع النمساوى ، كما أصبحت المنطقة التى يمكن أن تطل النمسا عبرها على البحار ، حتى ولو كان البحر الأدرياتى فقط .

ولهذا كانت مشروعاتها العسكرية موجهة ضد الصرب وكذلك كانت مشروعاتها الإقتصادية تهدف إلى نفس ذلك الهدف وإلى إيجاد منفذ لها على المياه المطلة على البحر المتوسط . إلا أن مثل هذه المشروعات كانت تجد مقاومة شديدة من جانب الدول البلقانية نفسها ومقاومة عنيفة من جانب روسيا بصفة خاصة .

ايطاليا

كانت إيطاليا دولة قومية حديثة التكوين ، وكانت لاتزال تعانى من مشكلات داخلية سياسية وإجتماعية من أهمها أن الجنوب (نابلى) كان متخلفاتعليميا وإقتصاديا وسياسياً بعكس وسط إيطاليا وجزئها الشمالى .

حقيقة كانت إيطاليا دولة أوربية فتية حينذاك ، ولكن ساستها وشعبها كانوا يصورونها وكأنها عملاق أوربى على نفس المستوى الذى كانت عليه فرنسا وانجلترا ، الأمر الذى جعل الكثير من تطلعاتها ومساعيها لتكوين إمبراطورية كبرى مثار سخرية الإنجليز والفرنسيين أحياناً ولهذا كانت متطلبات ذلك التوسع تثقل كاهل الإيطاليين فعندما حاولوا التوسع فى شرق إفريقية منى الإيطاليون بهزيمة قاسية فى عدوه على يد الأحباش .

وكان ساسة إيطاليا يدركون أنهم لا يستطيعون تحقيق أهدافهم التوسعية إلا بمساعدة الدول الكبرى ، وكان انضمامها إلى هذا الجانب أو ذاك يتوقف على مدى ما تكسبه من وراء هذا الإنضمام ، ولهذا انضمت فى ١٨٨٢ إلى الحلف الألمانى النمساوى المعقود منذ ١٨٧٩ .

ولما وجدت إيطاليا أن رضاء فرنسا عن احتلال إيطاليا لليبيا أمر لابد منه تفاهمت مع فرنسا على ذلك مع أن فرنسا كانت خصما للتحالف الألمانى النمساوى .

تلك كانت الدول الكبرى التى لعبت الأدوار الرئيسية على مسرح السياسة الأوربية منذ سبعينيات القرن التاسع عشر حتى نشوب الحرب العالمية الأولى ، وإلى جانب هذه الدول ، كانت توجد عدة دول — رغم صغر حجمها وضعف قدراتها العسكرية إذا ما قورنت بالدول الكبرى — ذات أثر كبير فى التطورات التى وقعت لأوربا فى تلك الفترة . ونعنى بصفة خاصة دول البلقان التى كان يتمتع بعضها بنوع من الاستقلال الذاتى ، وبعضها كان ينتظر الحصول على الاستقلال

الكامل بعد طرد العثمانيين من أوربا . وحق القول على البلقان أنه كان برميل بارود قدر له أن ينفجر يوما ما .

فقد كانت الأحقاد القومية تثير المشاكل المعقدة بين رومانيا وبلغاريا والجبل الأسود وصربيا واليونان . وكانت الدول الكبرى مضطرة إلى أن تنفذ سياسة لا يمكن أن ترضى الجميع ، ومع أن الحذر كان الطابع العام لسياسة الدول الكبرى إزاء مشكلات البلقان ، إلا أن هذه المشكلات كان أقوى من أن تسيطر عليها الدول الكبرى ، أو حتى تتفق فيما بينها على وضع معين فى البلقان الأمر الذى أعده ليكون السبب المباشر للحرب العالمية الأولى .

إلى جانب هذه الدول البلقانية ، كانت توجد دولة أوربية لها وزنها ، دون أن يكون لها فاعلية واضحة فى توجيه أمور أوربا أو المشاركة فيها مشاركة مؤثرة ، ونعنى بذلك بلجيكا التى نمت صناعيا ، وانطلقت من بعد إلى الإستعمار فى (الكونغو) ، أما هولنده فقد كانت معنية بتنمية ثرواتها الزراعية وأسواقها التجارية ، وباستنزاف مستعمراتها فى جزر الهند الشرقية (أندونيسيا) .

أما أسبانيا والبرتغال ، فكانت لكل منهما بعض من بقايا الإمبراطورية ، التى أخذوا فى تأسيسها منذ القرن السادس عشر فى العالمين الجديد والقديم ، ولم تكن لها شأن واضح فى السياسة الأوربية .

الفصل الثالث

المشكلة الشرقية ومؤتمر

برلين ١٨٧٨

- طبيعة المشكلة الشرقية .
- الحرب الروسية العثمانية ومعاهدة سان استيفانو .
- مؤتمر برلين ١٨٧٨ ومقرراته .

لقد كان أمام الدول الكبرى الأوربية مشكلات معقدة تحتاج إلى علاج على مستوى عال، حتى لاتتورط الدول الأوربية فى حرب لايعرف أطرافها كيف تنتهى. فكانت أن طفت إلى السطح فكرة عقد مؤتمرات دولية كبرى لمواجهة أكثر هذه المشاكل تعقيداً. ونعنى بذلك عقد مؤتمر برلين ١٨٧٨ للبحث عن حل للمشكلة الشرقية، وعقد مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥ لمنع الدول الكبرى المتسابقة على استعمار إفريقية من الإصطدام ببعضها. هذا فضلا عن أن المشكلة الشرقية والتسابق الإستعمارى كان لهما دور رئيسى فى أوربا نحو التكتلات التى أدت إلى الحرب العالمية الأولى

فى أعقاب الإنتصارات الكبرى التى أحرزتها بروسيا على كل من النمسا وفرنسا أصبح التوازن الدولى غير واضح الإتجاهات، فألمانيا أصبحت عملاقا فى قلب القارة الأوربية ولكن لا تستطيع أن تسيطر عليها، وفرنسا مهزومة، وتعانى من اضطراب سياسى شديد، ومع هذا كانت قادرة على أن تحد من نشاط هذا العملاق، خاصة وأن بريطانيا آثرت — بذكاء سياسى — أن لاتنتهز الفرصة وتنقض على فرنسا حفاظاً على التوازن الدولى، وحتى لاتزداد الإمبراطورية الألمانية قوة على قوة.

وكانت كل من روسيا والنمسا لا تريدان أن تتطور الأمور إلى ماهو أعقد مما وصلت إليه، وبالتالى كان هناك نوع من التوازن الدولى القائم على القلق من تطورات المستقبل، ومن ثم كانت الأمور الدولية فى حاجة إلى أزمة كبيرة حتى تكتشف كل دولة الطريق الذى يجب أن تسير فيه من حيث الارتباطات السياسية. خاصة وأن فرنسا كانت تبحث عن قوة تتحالف معها ضد العملاق الألمانى، وكانت المشكلة الشرقية هى التى كشفت لبعض الدول الطريق التى تسلكها.

والأصول الرئيسية للمشكلة الشرقية تتركز فى الموضوعات التالية : —

١ — الصراع التقليدى بين الشرق الإسلامى وأوربا الصليبية. حقيقة أن الفكرة الصليبية التقليدية كانت قد اختفت قبل القرن السادس عشر، إلا أن شعوب أوربا باختلاف مذاهبها كانت تنتظر اليوم الذى يتلاشى فيه الإسلام والمسلمون أيا كان

كان عنصرهم تركيا كان أم فارسيا أم عربيا . وكانت هذه المشاعر تؤثر فى توجيه النشاط الفردى للأوربى وتوجه بعض الساسة الأوربيين . ولم تكن الحكومات الأوربية تتراجع عن هذه الأهداف الصليبية الكامنة إلا إذا تعارضت مع الأطماع التوسعية أو المصالح الخاصة بها . ومن هنا كان التوسع الأوربى على حساب الدولة العثمانية المتدهورة أمراً محبوباً ومقبولا من المجتمع الأوربى والساسة الأوربيين فى حدود المصالح الخاصة للدول .

٢ — إن ضعف الدولة العثمانية عسكريا واقتصاديا وسياسيا هو الذى جعل الأطماع الأوربية فيها تكون « المشكلة الشرقية » فالأطماع الأوربية فى الدولة العثمانية قديمة وعميقة الجذور ، وكانت قوة الدولة العثمانية تحول دون تكتل أوربى ناجح ضدها وتحول كذلك دون توسع أوربى على حسابها . حتى نمت روسيا وقويت ووصلت قواتها حتى باريس فى ١٨١٤/١٨١٥ وحتى وصلت إلى مشارف الآستانة فى فى ١٨٢٨ / ١٨٢٩ الأمر الذى كان يثير مخاوف الدول الأخرى ، ليس فقط الإمبراطورية الأوربية المجاورة لها : إمبراطورية النمسا ، وإنما كذلك إمبراطورية فيما وراء البحار (بريطانيا) . وكان هناك تسابق روسى — نمساوى على وراثة الدولة العثمانية فى البلقان ، خاصة بعد حرب القرم (١٨٥٣ — ١٨٥٦) وبعد سادوا (١٨٦٦) إذ لم يعد وجه النمسا نحو ألمانيا ، وإنما وجدت النمسا مجالها الحيوى فى البلقان فأصبحت أية تطورات فى البلقان العثمانى ذات حساسية شديدة لإمبراطورية النمسا — والمجر ، بينما كانت روسيا قد ركزت على تزعم « الحركة السلافية » ، وهى حركة ضارة بكل من الدولة العثمانية وإمبراطورية النمسا — المجر ، حيث أن هذه الحركة كانت تهدف إلى استقلال الشعوب السلافية الواقعة تحت حكم هاتين الإمبراطوريتين ، وكانت المخاوف قوية من أن يؤدى ذلك إلى تقوية النفوذ الروسى فى البلقان إذ قد تصبح هذه الشعوب السلافية مخلب قط للسياسة الروسية .

ومما كان يزيد المشكلة البلقانية تعقيداً أنها كانت تتضمن عدة مشاكل معقدة فى داخلها : —

١ — مشكلة الصراع الصليبي بين الدولة الإسلامية العامة (الدولة العثمانية) والشعوب المسيحية .

٢ — مشكلة نشوء ونمو الروح القومية لدى السلاف أنفسهم من صرب وبلغار ومجريين ، الأمر الذي كان يعرض هذه الشعوب نفسها للاقتتال فيما بينها بسبب التعصب القومي .

٣ — كانت في داخل البلقان نفسه وإلى جانب التعصب القومي مشكلة التعصب المذهبي ، فبينما غالبية الشعوب السلافية أرثوذكسية كانت الأفلاق والبغدان[1] كاثوليكية . فضلا عن وجود جيوب إسلامية وكاثوليكية بين الشعوب السلافية .

٣ — كما ظهر إلى جانب التعصب القومي رغبة في فصل الكنيسة على أسس قومية ، فأراد البلغار إنشاء كنيسة خاصة بهم لا يكون اكليروسها يونانى أو تتبع البطريرك اليونانى ، وإنما تكون كنيسة بلغارية مستقلة .

٥ — كانت هناك مخاوف من أن تضع روسيا يدها على منفذ لأى من خطوط المواصلات العالمية إلى الهند مستغلة ضعف الدولة العثمانية والحماس الصليبي لدى مسيحى روسيا ، وكذلك نمو التعصب السلافي القومى المسيحى في البلقان . ولا شك أن المقاومة الإنجليزية - الفرنسية - النمساوية الشديدة لنمو الروسى على حساب الدولة كانت هي السبب في تأخير تصفية هذه الدولة . ولكن ماذا ستسير عليه الأمور بعد أن نجحت فيه ذلك الوفاق الروسى - البروسى[2] الذى أدى إلى أن يصبح البحر الأسود تقريباً بحيرة روسية مع ملاحظة أنه في ذلك الوقت أصبحت روسيا تهدد قلب الإمبراطورية العثمانية من جبهتين : جبهة أرمينيا - إرضروم وجبهة البلقان .

---

(١) كانت تعرفان كذلك باسم « ولاشيا » و « مولدافيا » وهما نواة رومانيا الحديثة .

(٢) نقصد بذلك موافقة بسمارك على تخلص روسيا في ١٨٧٠ من قيود معاهدة ١٨٥٦ .

ولكن من ناحية أخرى أصبحت حاجة المانيا بعد ١٨٧١ ، إلى روسيا أقل عن ذى قبل ، ومخاوف روسيا من المانيا بعد ١٨٧١ أصبحت أكثر بكثير عن مخاوفها من بروسيا قبل تلك السنة ، فضلا عن أنه كان هناك نمو متزايد فى المصالح الأوربية فى الدولة العثمانية ، ومن ناحية أخرى كانت بريطانيا مطمئنة منذ (حرب القرم) إلى أن يدها هى العليا فى توجيه السياسات الخاصة بمستقبل الشرق ولكن بعد ١٨٧١ أخذت مخاوفها تشتد من النشاط الروسى الموجه ضد الدولة العثمانية . وكانت السياسة التقليدية البريطانية إزاء الدولة العثمانية والشرق الأوسط قائمة على الأسس التالية حتى السبعينات من القرن التاسع عشر :

١ — المحافظة على كيان الدولة العثمانية فى وجه أى توسع أوربى على حسابها .

٢ — تقوية الوجود والنفوذ البريطانى فى الدولة العثمانية خاصة فى المواقع الإستراتيجية الهامة على خطوط المواصلات العالمية البريطانية ، وكان من أهم ما أقدمت عليه بريطانيا فى هذا الشأن هو :

(ا) كان دزرائيلى — رئيس الوزارة البريطانية — يرى أن الأستانة ومصر هما مفتاحا الطريق إلى الهند ، ولهذا نجده يشترى أسهم الخديوى إسماعيل فى شركة قناة السويس فى ١٨٧٥ تمهيداً للسيطرة البريطانية على القناة ، ويتصدى فى نفس الوقت لأى تفوق روسى فى مضايق الدردنيل والبوسفور .

(ب) زيادة التحكم البريطانى التجارى العسكرى فى العراق خاصة بالنسبة لخطوط المواصلات البرية والنهرية فى دجلة والفرات .

(ح) توطيد الحماية على الإمارات العربية المطلة على المنافذ البحرية مثل البحرين وإمارات الخليج العربى ودولة البوسعيد فى مسقط وعمان وزنجبار ومحميات جنوب اليمن .

(ى) جعل بعض الأجزاء العربية مثل (عدن) مستعمرة بريطانية .

وكانت بريطانيا مستعدة لخوض حرب ضد روسيا إذا حاولت الأخيرة تقويض تلك الأسس ، ولكن بمرور الزمن أخذت السياسة البريطانية نفسها تتحول من سياسة الحفاظ على كيان الدولة العثمانية إلى سياسة اقتسام الدولة العثمانية ، وذلك بعد سنوات من الإضطرابات المالية[1] والتنظيمية اجتاحت الدولة العثمانية وبعض ولاياتها مثل : مصر وتونس ، واضطرابات طائفية اجتاحت جده (١٨٥٨) وكذلك سوريا ولبنان (١٨٦٠) .

وهكذا أصبحت الدولة العثمانية ـ بقسميها الأوربى (البلقانى) والإسلامى (العربى) ـ عرضة لأزمات سرعان ما تتحول إلى مشكلات دولية كبرى تهدد السلام فى أوربا .

ثم إن البلقان أصبح فى الثلث الثانى من القرن التاسع عشر منطقة لا يمكن السيطرة عليها والتحكم فى تطور الأمور بها ، ومن ثم كانت هناك مخاوف فى كافة العواصم الأوربية من أن المشاكل البلقانية قد تورط أوربا فى حرب بدت لبعض ساسة أوربا أنها غير مجدية ، وكان بسمارك ـ وقد أدرك أن مفتاح الموقف الدولى يكمن فى طريقة علاج مشكلات الشرق ـ يعتقد أن هذه المشكلات الخاصة بالدولة العثمانية يجب أن لا تؤدى إلى صدام بين الدول الكبرى ، وأن دماء الأوربيين الزكية يجب أن لا تراق بسبب هذه المسائل التى يجب أن تحل على مائدة المفاوضات وإنه أرادت الدول الكبرى إعادة النظر فى التوازن الدولى فلتتم هذا بتسويات ودية على حساب الدولة العثمانية .

لقد كان بسمارك يريد سلاماً أوربياً يجعل لألمانيا مكانتها العليا فى تصريف الأمور الدولية ، وكان لذلك يرغب مخلصاً فى رؤية السلام ينشر لواءه على العلاقات الألمانية ـ الفرنسية ـ البريطانية .

---

(١) توقفت الحكومة العثمانية عن دفع الفوائد المتراكمة عليها لمدة خمس سنوات فى سنة ١٨٧٥ ، وأما الأزمة المالية فى مصر فقد استحكمت فى السبعينات من القرن التاسع عشر .

وفى هذا يقول بسمارك :

« I should certainly try to maintain the peace between the European Powers; it is – moreover so essential — that is should be at the expense of Turkey whose present day situation holds no promise of any stability. A rapprochement between England and France would not be disadvantageous to our interests, or for the balance of power in Europe. »

وعلى أى حال كان وقوع أزمة بلقانية كبيرة كفيل بأن تشترك فيها الدول الكبرى والمعنية بطريقة أو بأخرى .

كانت الثورة التى أدت إلى ارتباكات دولية معقدة قد نشبت فى إقليم (الهرسك) وقد ظهرت أولا على هيئة صدامات مذهبية بين الأكثرية المسيحية والأقلية الإسلامية، واتسع نطاقها . ودخلت الصرب والجبل الأسود الحرب ضد الدولة العثمانية وثار البلغار، بينما تضاربت آراء الدول الكبرى إزاء هذه التطورات إذ كانت روسيا تريد التدخل مؤيدة للثورة ولأعداء الدولة العثمانية فى البلقان بينما كانت بريطانيا تهدد بالتحرك العسكرى المضاد . وكانت روسيا مرتاحة لتطورات الحرب طالما هى ضد مصالح العثمانيين ؛ ولكن لم تلبث القوات العثمانية أن أنزلت هزيمة شديدة بالجيش الصربى، وهددت هذه القوات العثمانية بلغراد نفسها ، وهنا تدخلت روسيا وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية . وعبرت جيوشها الولايتين الرومانيتين (الأفلاق والبغدان) ولم تلبث أن دخلتا الحرب ضد الدولة العثمانية . وبينما كانت بريطانيا تجتهد فى حصر نطاق الحرب وإيقافها ـ لما فى ذلك من مصلحة لها ـ كانت الجيوش العثمانية تدافع بشجاعة ـ ترددت فى أرجاء أوربا ـ عن بلفنا[١] .

وقعت أثناء ذلك تطورات داخلية هامة ، إذ تولى مدحت باشا ـ المصلح التركى الكبير ـ منصب الصدارة العظمى ، ورفع إلى العرش السلطان عبد الحميد الثانى،

---

(١) Plevna .

(١٨٧٥ - ١٩٠٩) وأصدر أول دستور للدولة العثمانية فى ١٨٧٦ ، وكانت هناك توقعات بأن تقف بريطانيا بقوة إلى جانب الدولة العثمانية ضد روسيا على ذلك النحو الذى شاهدناه فى حرب القرم ، ولكن الظروف والأهداف والتوازن الدولى كانت قد اختلفت، الأمر الذى اضطر معه الباب العالى إلى طلب وقف الحرب ، فوقعت هدنة فى ٣١ يناير ١٨٧٨ ثم فرضت روسيا على الدولة العثمانية معاهدة (سان استيفانو)[1] فى ٣ مارس ١٨٧٨ تلك المعاهدة التى أدت إلى تحرك دولى سريع يرجع إلى أنه نتيجة لتلك المعاهدة ظهرت دولة بلغاريا الكبرى على حساب الآمال اليونانية ، وفوق هذا وذاك رأت بريطانيا أن بلغاريا ليست سوى ذراعاً روسيا امتدت إلى قلب الدولة العثمانية يستطيع أن يسيطر على القسطنطينية فى وقت مناسب وبالتالى أصبحت الدولة العثمانية تحت رحمة روسيا وحلفائها فى البلقان .

ومما زاد مخاوف بريطانيا من معاهدة (سان ستيفانو) أن روسيا كانت قد استولت فى الجبهة الغربية على (قارص) و(أردهان) و (أرضروم) ، وعلى معظم أرمينية الأمر الذى يجعل هبوط الجيش الروسى - من وجهة النظر الإنجليزية ومبالغاتها المتعمدة - إلى شمال العراق وإلى الخليج العربى وإلى الهند أمراً ممكناً جداً . ورغم ما كانت عليه هذه المخاوف البريطانية من مبالغة شديدة إلا أن الإنجليز كانوا يرددونها حتى أصبحت لدى بعض الدوائر الأوربية السياسية مسألة مسلم بصحتها .

فى هذا المناخ الدولى المتأزم ، وغيوم الحرب بين بريطانيا وروسيا متلبدة ، توفرت الفرصة الكبيرة لبسمارك كى يقوم بدور المنقذ للسلام العالمى بدعوته إلى عقد مؤتمر تحل فيه أوربا مشاكلها على حساب الدولة العثمانية دون إراقة دماء الأوربيين من أجل قطعة أرض هنا أو هناك فى الشرق . ولكن سيلعب دزرائيلى دوراً رئيسيا فى الإعداد لهذا المؤتمر ، وفى وضع نصوصه وتنفيذ التسويات التى إتفق عليها فى أروقة وقاعات المؤتمر .

---

(١) San Stefano

فبعد مداولات مطولة معقدة ـ أبعد عنها الديبلوماسيون الأتراك ، اتفقت الدول التي حضرت المؤتمر على القرارات التالية : ـ

١ ـ تصبح بلغاريا (إمارة ممتازة) تحت السيادة الإسمية للسلطان العثماني ، وتكون لها حكومة مسيحية وعسكر وطني[1] .

٢ ـ فصل الروملي الشرقي عن (بلغاريا الكبرى) ووضعه تحت الحكم المباشر العثماني . وبذلك تكون بلغاريا قد تقلصت جداً .

٣ ـ توضع البوسنة والهرسك تحت الإحتلال النمساوي على أن تظل الإدارة العثمانية في سنجق نوفي بازار .

٤ ـ استقلال الجبل الأسود .

٥ ـ استقلال الصرب .

٦ ـ استقلال رومانيا ، وحصلت على إقليم جنوب دبروجة ، ولكن فقدت (بسارابيا) التي حصلت عليها روسيا .

٧ ـ تنازل الباب العالي عن أردهان وقارص وباطوم لروسيا .

٨ ـ تنازل الباب العالي عن إقليم ومدينة (ختر) لفارس .

٩ ـ استرداد الباب العالي لوادي « آلا كرد ومدينة بايزيد » .

١٠ ـ يتعهد الباب العالي بأن يحقق بسرعة الاصلاحات في أرمينية وحماية الأرمن من الأكراد والشركس .

١١ ـ يتعهد الباب العالي بمنح حرية الإعتقاد الديني في الدولة العثمانية وأن لا تكون عقيدة المواطن العثماني عقبة أمامه في سبيل التمتع الكامل بالحقوق

---

(١) نصت المعاهدة على النظام الدستوري في بلغاريا وعلى نظام الحكم لها وعلاقاتها بالحكومة العثمانية وحدودها بدقة .

السياسية والدينية(١) .

١٢ — حق القناصل فى حماية رعاياهم .

١٣ — حرية الملاحة فى الدانوب .

فماذا يفهم من هذه النصوص وما الذى أدت إليه ؟

١ — تفوقت وجهة النظر البريطانية من حيث تقويض معاهدة سان إستيفانو ، ومنع ظهور بلغاريا الكبرى(٢) .

٢ — وحصلت بريطانيا فى إتفاقية سرية مع السلطان على (قبرص) ، حيث أن هذه الجزيرة كانت فى نظر حكومة بريطانيا قاعدة يمكن منها صد أية محاولات روسية عسكرية للهبوط إلى العراق . وقد تمت عملية الحصول على قبرص بطريقة سرية تامة فى أول الأمر خلال مفاوضات دارت بين الإنجليز والأتراك خلال الفترة العصيبة التى كانت فيها الدولة العثمانية معرضة لإجتياح روسيا لها . وفى ٤ يونيو — حزيران ١٨٧٨ إتفق الطرفان على أنه فى حالة إستيلاء روسيا على (باطوم) و(أردهان) و (قارص) أو على إحداها ، وأرادت روسيا التوسع فى الأناضول ، فإن بريطانيا ستستخدم السلاح لحماية الممتلكات العثمانية وتحصل بريطانيا فى مقابل ذلك على (قبرص) .

٤ — اعتبرت فرنسا أن تلك الإتفاقية السرية البريطانية — العثمانية بشأن التنازل عن قبرص وكأنها « سيدان جديدة » ، وطالبت بتعويض لها فوافقت بريطانيا على حرية تصرف فرنسا فى تونس ، أو بمعنى آخر الموافقة على احتلالها لتونس . كما اتفقتا

---

(١) هذا المبدأ السامى كانت تفرضه الدول الكبرى على الدول الضعيفة بينما لا تطبقه هى ، ومن ذلك المشكلة الايرلندية بين البروتستنت والكاثوليك والأخيرين تحول عقيدتهم دون مساواتهم التامة بالبروتستنت . وكانت روسيا تضطهد اليهود بشدة حينذاك ، وكذلك كان الحال فى الدول الأوربية الكبرى التى شاركت فى وضع هذا النص . كذلك كانت الدول الكبرى تهدف من وراء هذا النص التدخل فى أمور الولايات العثمانية تحت ستار هذا المبدأ السامى .

(٢) تأجل ظهورها حوالى ثلث قرن بسبب موقف بريطانيا هذا .

على أن يكون نفوذ كل منهما متساويا فى مصر بحيث لم يعد للمصريين القدرة على تدبير أمورهم ، ولكن لم تلبث بريطانيا أن خشيت من أن تتمكن فرنسا من تحويل حوض البحر المتوسط إلى بحيرة فرنسية بعد احتلالها تونس فى ١٨٨١ مما ساعد على انفراد انجلترا بمصر واحتلتها فعلا فى ١٨٨٢ .

٥ ـ قوى النفوذ الروسى فى شرق البلقان بينما قوى النفوذ النمساوى فى غربه .

٦ ـ كان القضاء على معاهدة سان استيفانو وعدم وقوف بسمارك إلى جانب روسيا بالقوة التى كان يريدها الروس من الأسباب التى وضعت الإسفين القوى فى رابطة الأباطرة الثلاث Dreikairserbund[1] وكان غضب روسيا ـ بطبيعة الحال ـ مفيداً جداً بل فرصة كبيرة لفرنسا لتجد الحليف الذى تبحث عنه فى أوربا .

٧ ـ كان هذا الغدر المروع الإنجليزى ـ الروسى ـ الفرنسى ـ النمساوى بالدولة العثمانية ، وخروج ألمانيا دون الحصول على أى أرض عثمانية من العوامل التى دفعت السلطان عبد الحميد الثانى إلى التقرب من ألمانيا والإفادة من تقدمها العلمى والعسكرى ، فكان ذلك نواة للتحالف العثمانى الألمانى فى الحرب العالمية الأولى .

٨ ـ كانت الآمال بشأن المشكلة الارمنية متجهة إلى إعطاء الارمن فرصا أوسع فى الإفادة من الحقوق المدنية والسياسية فى الدوله العثمانية ،ولكن الارمن تطرفوا فى الإفادة من ضعف الدولة العثمانية . واستعظم الأكراد والأتراك ـ من ناحية أخرى ـ استعظموا المساواة مع هؤلاء الذين كانوا تحت حكمهم ، فكان أن وضعت بذلك بذور المذابح الارمنية[2] .

٩ ـ اطمأنت أوربا إلى أن شبح الحرب بين الدول الكبرى أصبح بعيداً . وبذلك يكون بسمارك قد حقق السلام الذى يبحث عنه ، وبذلك تفوقت سياسة

---

(١) أنظر فيما بعد

(٢) أنظر فيما بعد

سمارك المعروفة باسم « المصالحة والتعويض » . فساهم هذا فى تنمية إقتصاديات المانيا وتطلعها إلى المشاركة فى الإستعمار الاوربى خاصة فى إفريقية ، الأمر الذى أدى إلى مؤتمر جديد فى برلين فى ١٨٨٤ – ١٨٨٥ أدى إلى تقسيم إفريقية بين الدول الأوربية .

ولاتكاد دول أوربا تفرغ مؤقتا من تصفية بعض مشكلاتها على حساب الدولة العثمانية حتى وجدت هذه الدول الأوربية أنها فى حاجة إلى مؤتمر دولى جديد لتنسيق سياساتها التوسعية الاستعمارية فى القارة السوداء .

الفصل الرابع

التسابق الاستعمارى

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

— نمو التوسع الاستعمارى ، وأسبابه وظروفه
— مؤتمر برلين ١٨٨٤ — ١٨٨٥

خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت حدة التوسع والتنافس الإستعماري قد خفت إذا ما قيست بما حدث فى القرن الثامن عشر . ولكن منذ ١٨٣٠ بدأت الاتجاهات الإستعمارية تقوى عن ذى قبل ، إذ نزلت فرنسا فى الجزائر ، وضغطت روسيا بنجاح على إيران وافغانستان وزحفت صوب الشرق خاصة بعد حرب القرم ، وهزمت إنجلترا الصين فى حرب الأفيون (١٨٣٩ — ١٨٤٠) وفرضت عليها معاهدة تيان تسن ١٨٥٠ ، وطرقت الولايات المتحدة الأمريكية أبواب اليابان بقوة فى ١٨٥١ ، وقضت بريطانيا على ثورة الهند الكبرى فى ١٨٥٧ واستمر توسعها من بعد فى جهات بورما والملايو واستقرت هولنده فى مستعمراتها (جزر الهند الشرقية)[١].

ولكن مبدأ مونرو ١٨٢٣ فى العالم الجديد منع استعمار أية دولة أوربية لأرض جديدة فى أمريكا الوسطى أو الجنوبية وأعطى هذا المبدأ المناطق التى لم تستقل بعد فرصة لتحقيق حريتها كاملة من المستعمر الأوربى ، وأعطى الولايات المتحدة نفسها فرصا ذهبية ليكون لها اليد العليا سياسيا واقتصاديا فى العالم الجديد .

هذه كانت الأوضاع العامة للتسابق الإستعمارى عند منتصف القرن التاسع عشر ، ولم تلبث الأمور أن تبدلت بعد ذلك جوهريا للأسباب الرئيسية التالية :

١ ـ أدى الإنقلاب الصناعى إلى سرعة الإنتاج وبالتالى إلى الحاجة إلى سرعة فى نقل هـــذا الإنتاج من المصانع إلى مناطق الاستهلاك المحلى الذى لم يعد يستوعب الإنتاج المتعاظم للمصانع الجديدة ، فأصبحت هناك حاجة متزايدة للتصدير من الموانىء إلى مناطق الإستهلاك فيما وراء البحار ، الأمر الذى ساعد استخدام الآلات الحديثة فى النقل البرى والبحرى والمحيطى على نطاق واسع .

---

(١) عرفت بأندونيسيا بعد الإستقلال فى أعقاب الحرب العالمية الثانية .

٢ ــ نمت الأساليب والأدوات العسكرية نموا كبيرا باستخدام الآلات فى خدمة الجيوش البرية والبحرية. فقد أصبحت السكك الحديدية واحدة من أسباب انتصار الدول التى تمتد بها ، كما أن البواخر والقوارب المحملة بمدفعية عديدة أصبحت قادرة على قصف الموانى وإشاعة الدمار بسرعة خارقة ، بل أصبحت قادرة على السير فى الأنهار فى عكس التيار صاعدة إلى قلب البلاد المتخلفة مثل انهار الصين وأنهار العراق مذلة الحكومات مرغمة إياها على التوقيع على تنازلات أرضية وتجارية وعسكرية كبيرة . كما أن هذا النمو فى التكتيك الحديث وتخلف الدول الشرقية جدا فيه جعل تكاليف الحروب الأوربية ضد الدول الشرقية أقل بكثير عن ذى قبل.

٣ ــ وكان اتساع وتعدد أساليب الإستعمار فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر عاملا ملهبا للتصارع بين الدول على إخضاع البلاد الضعيفة . فلم يكن الإستعمار بقاصر على التسلط العسكرى أو الإقتصادى على منطقة وإقامة البيض فيها ، وإنما تعداه إلى :

(ا) ضم بعض المناطق إلى الدولة المستعمرة ضما كاملا مثلما حدث للجزائر التى اعتبرتها فرنسا جزءا من الدولة الفرنسية .

(ب) إعطاء المستعمرة كيانا ذاتيا مثلماهو الحال بالنسبة لكندا مع إستمرارها مرتبطة ببريطانيا .

(جـ) مجرد رفع علم الدولة الإستعمارية على أرض شعب متخلف خاصة فى إفريقية مثلما حدث خلال عمليات التسلط الألمانى على تنجانيقا .

(د) مجرد إغراء شيوخ القبائل الإفريقية بتوقيع (أوراق) تنص على فرض (الحماية) دون أن يدرك هؤلاء الشيوخ حقيقة مفهوم (الحماية) مثلما فعل الألمانى كارل بيترز K. Peters مع زعماء القبائل الإفريقية فى شرق إفريقية ومثل معاهدات التى عقدها الفرنسيون مع زعماء القبائل الإفريقية على الساحل الغينى .

(و) إستخدام الأساليب الإنسانية لتحقيق أهداف وتوسعات إستعمارية. فقد فرضت بريطانيا استعمارها على دولة زنجبار فى شرق إفريقية باسم « مكافحة تجارة الرقيق »، واستخدمت كل من فرنسا وبريطانيا النشاط التبشيرى الكاثوليكى بالنسبة للاولى والبروتستنتى بالنسبة للثانية — فى التوسع الإستعمارى، وأوضح مثل على هذا استعمار بريطانيا لأوغنده، واستغلال كل من فرنسا وبريطانيا فكرة حماية مسيحى الدولة العثمانية والصين لإستعمار أرض جديدة أو لفرض إحتكارات جديدة.

(ز) كانت المكانة الكبرى التى أحرزتها بريطانيا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر قد مكنتها من أن تشن حرباً على الصين لتمنعها من إنقاذ الصينيين من إدمان « الأفيون » دون أن تجرؤ دولة على التصدى لبريطانيا، ونظراً لنمو مكانة أوربا العالمية أصبحت أشد الفظائع ترتكب من أجل فرض الإستعمار فى المناطق الإسلامية والهندية والصينية دون أن تتحرك قوة حقيقية لمنعه، ولكن إذا تعرضت أرض أوربية لعمل مشابه قامت الحروب المروعة الكبرى[1].

(ح) استنزاف القوى البشرية فتجارة الرقيق على يد البرتغال التى إستنزفت الكونغو وانجولا وأصبحت تجارة بغيضة مكروهة من المجتمع الأوربى فى القرن التاسع عشر ولم تتورع الدول الاستعمارية عن متابعة الاستنزاف بأساليب أخرى مثل نقل الفرنسيين لزنوج السنغال إلى جزر الانتيل الفرنسية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ومثل استخدام الهنود فى الجيش البريطانى بكثرة ضخمة، وتكبدوا هم الخسائر الرئيسية فى المعارك، وبذلك صدق مؤرخ هندى حين قال إن الدماء الهندية هى التى كونت وحفظت الإمبراطورية البريطانية فى الشرق الأقصى وإلى حد ما فى الشرق الأوسط.

---

(١) وفى هذا يقول أحد دارسى المشكلة أن جريمة هتلر ليست إذلاله للانسان وإنما إذلاله للانسان الأوربى هو الذى ألب عليه أوربا حتى قضت عليه.

(ى) اتخاذ مبدأ نشر الحضارة والفكر الحديث وسيلة للاستعمار مثل مشروعات خطوط السكك الحديدية فى الكونغو بواسطة بلجيكا وفى العراق والأناضول بواسطة ألمانيا ومشروعات شق القنوات للملاحة الدولية مثل قناة السويس ... .

(ك) استخدام الشركات التجارية والبنوك رأس حربة للاستعمار مثل شركة قناة السويس والشركة الافريقية الوطنية فى نيجيريا ومثل شركة شرق افريقية الألمانية . ونلاحظ أن الدول الضعيفة التى تقرض دولة أوربية كبيرة أو تستقرض منها تصبح معرضة للاستعمار : فقد وقعت الجزائر فى قبضة الاستعمار الفرنسى لأنها كانت تلح فى الحصول على ديونها لدى فرنسا ، واستعمرت بريطانيا مصر منتهزة فرصة أزمتها المالية وعدم قدرتها على دفع ديونها .

• ب تزايد المعرفة لدى الدول الاستعمارية بالبلاد المستضعفة أو المتخلفة أدى إلى زيادة حدة الاستعمار الأوربى وإنطلاقه فى مناطق كانت مجهولة من قبل : فخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت المناطق الافريقية والآسيوية هدفا للآمال الاستعمارية ، واستنفد الأوربيون وقتاً ليس بالقصير فى كشف جغرافية وتاريخ وسكان واقتصاديات هذه المناطق خاصة الافريقية ، وبعد أن استكملت المعلومات الضرورية عن افريقية الساحلية والداخلية ، وبعد أن ارتاد المكتشفون والمبشرون والرحالة والتجار الكثير من المناطق الافريقية بدأت موجة الاستعمار تشتد وأخذت المناطق الافريقية تسقط بسرعة مذهلة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى قبضة الدول الأوربية . وإلى جانب زيادة المعرفة بالبلدان المتخلفة ، ونمو الدعوات إلى تنشيط العمل الأوربى فى إفريقية باسم « رسالة الرجل الأبيض » أو باسم « مقاومة تجارة الرقيق » التقط رجال السياسة الأوربيه ومجلس الشركات الكبرى الأوربية هاتين الفكرتين واستخدمتهما ـ بالتعاون مع الدول الأوربية نفسها ومع دعاة هذين المبدأين الرائجين ـ فى السيطرة على الكثير جدا من البلاد الإفريقية سيطرة استعمارية استغلالية قاسية .

٦ — ومما جعل النصف الثانى من القرن التاسع عشر فترة أو فى التحركات الإستعمارية الأوربية ، أن السكان فى أوربا كانوا يتزايدون بسرعة أكثر بسبب الأساليب الصحية التى منعت الأوبئة الكبرى من التردد على القارة الأوربية ، فضلا عن أن ارتفاع مستوى المعيشة والتعليم فى أوربا خفض من نسبة الوفيات ، فى نفس الوقت الذى قلل فيها الانقلاب الصناعى من الحاجة إلى الأيدى العاملة وزاد من عدد المتطلعين إلى تحسين أحوالهم المعيشية وكذلك عدد العاطلين والخارجين عن القانون لأسباب سياسية أو إجتماعية ، فوجدت بعض الدول — مثل إنجلترا — فى التوسع الاستعمارى فى إستراليا ونيوزيلنده — ومثل روسيا فى التوسع الاستعمارى فى سيبريا فرصة للتخلص من هؤلاء بإرسالهم إلى تلك المستعمرات .

٧ — وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كان التيار الاستعمارى يجرى لصالح بريطانيا وحدها تقريبا ، بينما كانت منافستها الاستعمارية الكبرى (فرنسا) قد تلقت سلسلة من الهزائم فى القرن الثامن عشر قضت على إمبراطوريتها الاستعمارية فيما وراء البحار ، وكان فى استطاعة بريطانيا أن تجردها تماما من المستعمرات فى اعقاب استسلام نابليون فى ١٨١٤ / ١٨١٥ ولكنها أبقت لها القليل(١) بينما أعادت إلى هولنده — الضعيفة — جاوه وسومطره (إندونيسيا) وسلبتها سيلان ومستعمرة الكاب .

وكان من العسير على بريطانيا أن تحتفظ بامبراطوريتها الكبرى فيما وراء البحار — الممتدة من إستراليا وإلى الهند إلى مستعمراتها القديمة فى أمريكا الوسطى إلا بنفقات عسكرية متصاعدة ، وكانت وحداتها البحرية والبرية مسئولة عن مساحات شاسعة من الأرض والبحار والمحيطات متباعدة ، ولهذا كان من مصلحة بريطانيا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ألا تضيف إلى إمبراطوريتها مستعمرات جديدة فى الوقت الذى لم يستقر فيه الاستعمار البريطانى فى بعض الأجزاء

---

(١) جواديلوب ومارتنيك .

الهامة من تلك الإمبراطورية حتى إذ أخمدت بريطانيا ثورة الهند الكبرى فى ١٨٥٧ وأذلت روسيا فى حرب القرم (١٨٥٦) وكذلك إيران فى حرب ١٨٥٧ — ٥٨ والصين فى ١٨٥٩ ، شرعت بريطانيا فى موجة استعمارية جديدة. وجاء توقيت هذه الموجة فى السبعينيات والثمانينيات من القرن التاسع عشر ملائما تماما لبريطانيا، إذ كان المنافس الاستعمارى الأكبر (فرنسا) قد تلقى لطمة قاسية جعلته يجثو على ركبتيه فترة تابعت بعدها نشاطها الاستعمارى ، بينما كان العملاق الجديد : ألمانيا فى حاجة إلى صداقة بريطانيا ولا يفكر جديا فى أول الأمر على عهد بسمارك فى الانطلاق إلى ميدان الاستعمار. ولم يخض الألمان هذا الميدان إلا فى أواخر الثمانينات من القرن التاسع عشر بعد أن أصبحت كل من إنجلترا وفرنسا متضخمتين استعماريا جدا ، ولكن نمو ألمانيا إستعماريا كان سريعا وكان ذلك عاملا مؤديا لتصاعد الصراع الاستعمارى الأوربى : الإنجليزى الفرنسى الألمانى الايطالى البلجيكى البرتغالى فى إفريقية خلال الثمانينات من القرن التاسع عشر ومابعد ذلك .

كان هذا النمو الكبير فى قدرات أوربا التجارية والعسكرية — فضلا عن نمو الحركة الفكرية — والقدرة على استخدام مختلف الوسائل من أجل التوسع يقابله تخلف شديد لدى الدول الشرقية إبتداء من الدولة العثمانية حتى الصين وكانت الفروق الحضارية حتى مطلع القرن الثامن عشر بين الشرق والغرب غير خطيرة ، ولكن أصبحت الفروق كبيرة للغاية فى القرن التاسع عشر وبوجه خاص فى النصف الثانى منه رغم المحاولات الكبيرة التى بذلتها الدول الشرقية للنهوض واللحاق بركب الحضارة الأوربية ، إلا أن الدول الكبرى الأوربية كانت هى القادرة على تقديم أكبر قسط من الحضارة الحديثة إلى الدول المتخلفة ، ولكن هذه الدول الكبرى نفسها هى التى كانت تسعى إلى استعمار هذه الدول المتخلفة .

فهذا الاختلاف والفارق الحضارى والدوافع الاقتصادية الجديدة أسهمت إلى حد كبير فى اتجاه الدول الكبرى الأوربية إلى الاستعمار وإلى التنافس الاستعمارى، ذلك التنافس الذي كان محصورا فى عدد قليل من الدول قبل القرن التاسع عشر ،

ولكن فى ذلك القرن ظهرت دول ذات تطلعات إستعمارية ألهبت هذا التنافس الاستعمارى ونعنى بذلك ظهور : بلجيكا ـ إيطاليا ـ المانيا ـ اليابان .

هـذا إلى جانب الدول الاستعمارية النشطة فى مجال التوسع الاستعمارى : بريطانيا وفرنسا وروسيا ، وإلى جانبها بعض الدول الاستعمارية التى إكتفت بالمحافظة على ماتحت يدها مثل أسبانيا والبرتغال وهولنده .

هذه بعض أساليب وتكتيك ومظاهر الاستعمار الأوربى ، ويحتاج نمو التنافس الاستعمارى الأوربى خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشرة نظرة سريعة تبين تطوره وأثره على التوازن الدولى ، وقدرته على توجيه العلاقات بين الدول الكبرى الأوربية . ولنحاول أن تحدد التطورات التى مر بها النشاط الاستعمارى لدى كل دولة كبرى .

خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت بريطانيا مكروهة من الحكومات الأوربية بسبب ماانفردت به من مستعمرات مترامية الأطراف ولكنها كانت مطمئنة إلى أن مستعمراتها بعيدة عن متناول الدول الطامعة أو الحاقدة طالما هى مسيطرة على مفاتيح البحار الدولية :

١ ـ سانتا لوشيا فى جزر الهند الغربية .

٢ ـ رأس الرجاء الصالح (مستعمرة الكاب) .

٣ ـ جزيرة موريشوس .　　　٤ ـ جبل طارق .

٥ ـ عدن .　　　٥ ـ البحرين .

٧ ـ سنغافورة .　　　٨ ـ هونج كونج .

ومن ناحية أخرى كان الإنجليز قد ضمنوا نوعا من الطمأنينة من ناحية إتحاد

الخطر الأوربى عن مستعمراتها بعد هزيمة روسيا فى حرب القرم (١٨٥٦) وهزيمة فرنسا من بروسيا فى ١٨٧١ . فلما وجدت روسيا بعد حرب القرم أن الدولة العثمانية ليست المجال الحيوى لنشاطها الإستعمارى اتجهت إلى الإستعمار فى وسط آسيا وفى سيبيريا . وبالنسبة لسيبيريا كان الإستعمار لايثير مشاكل دولية ولكن بالنسبة لوسط آسيا ، وافغانستان بالذات ، كانت المسألة شائكة للغاية . لأن السياسية البريطانية عزمت على أن لاتترك الروس يتقدمون صوب حدود الهند الشمالية ، وعملت على أن يكون مجال الصدام المتوقع بين الإنجليز والروس بعيدا عن مشارف الهند الشمالية ، وعملت على أن يكون فى قلب آسيا الوسطى . ومن هنا أصبحت أفغانستان منطقة للتصارع الروسى البريطانى . ونجح الإنجليز فى جعل أفغانستان دولة حاجزة[1] بين روسيا والهند .

وأدى هذا إلى أن يجد الروس أن الطريق الباقى أمامهم للتوسع الإستعمارى هو الزحف شرقا نحو منشوريا وكوريا . فكان أن اتسعت روسيا نتيجة لذلك اتساعاً ضخماً فى تلك المساحات الممتدة حتى الصين ، كما سيطرت على مسلمى القوقاز وتركستان .

وفى إفريقية كانت بريطانيا قد وضعت أقدامها بقوة فى بعض المراكز فى إفريقية (مثل الكاب منذ ١٨٠٠ وغانة ١٨٧٤) ومنذ ذلك الوقت واجهت تنافسا حاميا من جانب فرنسا وكذلك من جانب الدولتين الأوربيتين الجديدتين ، إيطاليا وألمانيا . وكان التنافس حاداً للغاية بين هذه الدول ، واستخدمت كل منها وسائل الخداع والغش والدسيسة لتحقيق الأهداف الإستعمارية فقد كان لفرنسا وإيطاليا نفوذ متقارب فى تونس ، وكل منهما تريد الأنفراد بها ، ونجحت إنجلترا فى أن تبعد فرنسا وتنفرد بقبرص ومصر ، ونجحت فرنسا فى أن تبعد إيطاليا وتنفرد بتونس (١٨٨١)، وسعى الألمان فى الثمانيات إلى المشاركة فى الإستعمار

---

(١) Buffer State

بعد أن أصبحت فى أيديهم قوة عسكرية كبيرة ورؤوس أموال ضخمة توفرت بعد توحيد ألمانيا ، فانطلق الألمان إلى الأماكن الافريقية التى لم تكن قد استعمرت بعد ، وبسرعة خارقة استطاع الألمان إبتداء من ١٨٨٤ فرض حمايتهم الإستعمارية على مناطق شاسعة فى إفريقية .

والحق ، أنه منذ ١٨٨٤ أصبحت لبسمارك ، وللحكومة الالمانية من بعده كلمة رئيسية فى توزيع إفريقية بين الدول الأوربية وتجلى ذلك فى الظروف التى أدت إلى عقد مؤتمر برلين ١٨٨٤ — ١٨٨٥ .

فقد قام المكتشف (الكابتن كامرون) برحلات فى حوض نهر الكونغو اثبتت أن هذا النهر غير متصل بنهر النيل ، وخلال ذلك وقع معاهدات مع رؤساء القبائل تعطى بريطانيا حق فرض الحماية عليهم وعلى بلادهم . ولكن الحكومة البريطانية لم تكن معنية بالمنطقة حينذاك، فكان ذلك فرصة انتهزها ليوبولد الثانى ـ ملك بلجيكا ، وكانت خزينته خاوية ـ ودعا إلى مؤتمر يعقد فى عاصمته للنظر فى مسئولية أوربا نحو الكشف عن داخل إفريقية تمهيداً لقيام الرجل الأبيض بنشر رسالته فيها ولرفع أهلها إلى المستوى الحضارى اللائق بالإنسان . ونتيجة لهذا المؤتمر أرسل المكتشف الإنجليزى الشهير ستانلى للكشف عن نهر الكونغو لحساب بلجيكا . فردت فرنسا على ذلك بإرسال رجلها (برازا) للكشف عن نهر الكونغو أيضا ، وأصبح كل من الرجلين يدعى حق السيادة على الإقليم (١٨/١) . لصالح الجهة التى أرسلته . ولكن إنجلترا كانت تسعى لرفع يد الدول عن (الكونغو) وإحلال البرتغال ــ المكروهة من المجتمع الأوربى ــ فى الكونغو ، لأن ذلك كان يسهل على بريطانيا التحكم فى السياسة البرتغالية وتوجيهها بما يفيد الاستعمار البريطانى فى إفريقية . فرد ستانلى ــ الذى كان يعمل لحساب ملك بلجيكا ــ على ذلك بعقد اتفاقيات مع العديد من زعماء القبائل فى حوض الكونغو قضت على إدعاءات

البرتغال التاريخية فى الكونغو(١). وتجنبا للتعقيدات الدولية التى قد تنشأ عن ترك الأمور هكذا بين الدول الأوربية تتنافس بشكل يعرضها لمخاطر كبيرة اقترح بسمارك عقد مؤتمر دولى فى برلين بشأن الكونغو بصفة خاصة وإفريقية بصفة عامة.

لماذا كانت الدعوة من جانب بسمارك بالذات، مع أن الإمبراطورية الألمانية لم يكن لها فى الكونغو مصالح واضحة، وإن كان لها مطالب وإدعاءات فى توجولاند؟

الواقع أن الامبراطورية الألمانية أدركت — على يد مستشارها بسمارك — أنه لابد من إرضاء تطلعات الإستعمارية لدى البرجوازية الألمانية النامية، وإلى جانب هذه وجد بسمارك أن الوقت قد ألح على ألمانيا كى تشارك فى التسابق الإستعمارى منعا لإحتكار الدول الأوربية الأخرى للامبراطوريات الإستعماريه، وحتى يصبح الباب مفتوحاً أمام الدول الأخرى الراغبة فى إستعمار أجزاء من إفريقية. وحيث أن بسمارك كان يرى أن استعمار إفريقية يجب أن يتم دون صدام مسلح بين الدول الأوربية ويجب أن يتم فى مؤتمر دولى، وكانت الدول الأوربية مقتنعة إلى حد كبير بجدوى مثل هذا الأسلوب الدولى نجحت فكرة الدعوة إلى عقد المؤتمر فى برلين واستمر انعقاده من نوفمبر ١٨٨٤ إلى فبراير ١٨٨٥.

حضر المؤتمر(٢) مندبو انجلترا وفرنسا وألمانيا وروسيا والدولة العثمانية وبلجيكا وهولنده والنرويج والسويد وأسبانيا والبرتغال، وانتهى بتوقيع ميثاق ينص فيما ينص على : —

١ — حياد إقليم حوض الكونغو وحرية التجارة فيه.

٢ — حرية الملاحة فى حوض الكونغو والنيجر.

---

(١) يجدر الإشارة هنا إلى أن نشاط «ستانلى» هذا ليس موجها ضد بريطانيا وإنما كانت لديه المقدرة للتوفيق بين نشاطه هذا والمصالح البريطانية؛ هذا إلى أن هذه السياسة البريطانية المهادنة للبرتغال سرعان ما وضعت جانباً.

(٢) من أحسن المراجع — وإن كان بعض وجهة النظر الأوربية — عن مؤتمر برلين.
S E. Crowe : The Berlin West Africa Conference 1884 - 1885, Negro University Prese Westport, Connecticut (Reprinted 1970)

٣ ـ إلغاء تجارة الرقيق والقضاء على القائمين عليها .

٤ ـ ضرورة قيام أية دولة أوربية تريد استعمار إفريقية بإخطار الدول الأخرى بالأراضى التى تضع يدها عليها ، وعند إعلان أية دولة أوربية حمايتها على أرض أفريقية فيجب أن يلازم ذلك وجود إحتلال فعلى لتلك الأراضى وليس مجرد إدعاء بالحماية .

مهدت هذه القرارات لإعلان بلجيكا ظهور (الكونغو الحرة) تمهيداً لكى تحتكر هى استعمارها ، ولقيام ألمانيا بنشاط إستعمارى واسع النطاق فى إفريقية جملها منذ ١٨٨٤ سيدة مناطق شاسعة للغاية فى إفريقية تشمل :

١ ـ توجولاند .

٢ ـ الكامرون .

٣ ـ جنوب غرب إفريقية .

٤ ـ تنجانيقا .

٥ ـ واستبدلت منطقة (ويتو)[١] فى شرق إفريقية بجزيرة (هليجولاند)[٢] ذات الموقع الاستراتيجى الهام جدا بالنسبة للدفاع البحرى عن ألمانيا .

ويلاحظ كذلك إشتداد حرب الشركات منذ الثمانينات من القرن التاسع عشر ، إذ سارعت الدول الكبرى الأوربية ـ المعنية بإستعمار إفريقية ـ إلى تكوين هذه الشركات للسيطرة على أجزاء من أرضها وسواحلها وداخلها مستندة إلى المعاهدات التى كانت تعقد مع رؤساء القبائل . الأمر الذى ضاعف من سرعة تمزيق إفريقية وإقتسامها بين الدول الإستعمارية الأوربية .

---

(١) Wittu

(٢) Heligoland

وخلال أقل من عقدين بين ١٨٨٠ و ١٩٠٠ توالى سقوط البلاد الإفريقية في يد الدول الأوربية على النحو التالى تبعا للترتيب الزمنى :

غانه	١٨٧٤
الكونغو الفرنسى	١٨٨٠
تونس	١٨٨١
نيجيريا الجنوبية	١٨٨١
مصر	١٨٨٢
الصومال الفرنسى والصومال البريطانى	١٨٨٤
إفريقية الجنوبية الغربية (ألمانيا)	١٨٨٤
توجولاند	١٨٨٤
الكميرون	١٨٨٤
إفريقية الشرقية الألمانية	١٨٨٤
أريتريا	١٨٨٥
الكونغو الحرة (البلجيكى)	١٨٨٥
ريودورو	١٨٨٥
شمال	١٨٨٥
غينيا البرتغالية	١٨٨٥
غينيا الفرنسية	١٨٨٥
محمية بتشوانالاند	١٨٨٥
مدغشقر	١٨٨٦
كينيا	١٨٨٦

تنجانيقـــا	١٨٨٩
الصومال الايطالى	١٨٨٧
روديسيا	١٨٩٠
أوغنده	١٨٩٢
أفريقية الفرنسية الغربية	١٨٩٣
نيجيريا الشمالية	١٨٩٥
الســودان	١٨٩٨
الترنسفال	١٩٠٢
مراكش (المغرب)	١٩٠٤
طرابلس (ليبيا)	١٩١١[١]

* * *

كان التنافس الإستعمارى الأوربى على كل من إفريقية وآسيا عاملا رئيسياً وفرصة واسعة كشفت للدول الكبرى الأوربية عمن هو صديق أكثر من غيره ومن هو أشد عداوة . فاتجه بسمارك إلى عقد التحالف الثنائى مع المملكة الثنائية (النمسا — المجر) فى ١٨٧٩ . وإيطاليا — التى كانت قد خرجت من مؤتمر برلين ١٨٧٨ خاوية الوفاض ، وأبعدتها فرنسا عن تونس — أخذت تتقرب من كل من دولتى الوسط:(ألمانيا والنمسا ـ والمجر) اللتان اصطدمتا بالإنجليز فى أكثر من مكان بينما شعرت روسيا بمرارة تخلى ألمانيا عنها فى مؤتمر برلين ١٨٧٨ بينما كانت تجد فى فرنسا ـ التى مولت خط حديد سيبيريا سنة ١٨٩٢ الحليف الذى يمكن أن يكون أكثر استقراراً فى تحالفه والاكثر وفاءاً له .

---

(١) انظر الخريطة لتوضيح تبعية كل واحدة من هذه المنطقة للدولة الأوربية المستعمرة.

وأدى وقوف ألمانيا بوضوح إلى جانب جمهوريق الأورنج والترنسفال ضد انجلترا — فيما عرف بحرب البوير — إلى أن تجد بريطانيا فى منافستيها القديمتين (روسيا وفرنسا) — خاصة بعد هزيمة الأولى أمام اليابان فى ١٩٠٥ — القوى القادرة على ردع الحلف الثلاثى : النمساوى — الألمانى — الإيطالى الذى عقد فى ١٨٨٢ ، فكان أن سعت فرنسا وبريطانيا إلى التقارب فيما عرف بالوفاق الودى سنة ١٩٠٤ وسعت فرنسا إلى التوفيق بين بريطانيا وروسيا فى ١٩٠٧ فيما عرف باسم (الوفاق الودى الروسى — البريطانى) وفى الفصل التالى سندرس التحالف والتحالفات المضادة وهذه الوفاقات التى أشرنا إليها .

الفصل الخامس

المحالفات والمحالفات المضادة

والوفاقات

١٨٧٣ — ١٩٠٧

١ — التحالف الثلاثى (١٨٧٩ — ١٨٨٢)
٢ — « الثنائى (١٨٩٣)
٣ — التعاهد البريطانى اليابانى (١٩٠٢)
٤ — الوفاق البريطانى الفرنسى (١٩٠٤)
٥ — الوفاق البريطانى الروسى (١٩٠٧)

(١)

التحالف الثلاثى

أثار تكوين الإمبراطورية الألمانية فى أعقاب تلك الإنتصارات مخاوف الدول الكبرى. ومما ضخم من مخاوف الدول الأوربية من التطلعات الألمانية أن بسمارك كان شخصية مرهوبة أصبحت حديث الدوائر والمحافل الدبلوماسية الأوربية وكانت فى يده العديد من خيوط الدبلوماسية المعقدة حتى أن الحكومة البريطانية نفسها سعت إليه تستشيره فيما يجب أن تفعله إزاء تنصل روسيا من المواد المقيدة لها فى معاهدة باريس ١٨٥٦[١].

وحينذاك أيضاً قامت حرب شعواء صحفية وقانونية وفقهية حول المسألة القومية، ومفهوم القومية، وجدوى الإحتلال لأرض أغتصبت من قومية أخرى. ووجه علماء فرنسا — عن حق — إتهامات إلى بسمارك بأن الأنانية والغطرسة ومبدأ القوة هو الذى دفع به إلى إغتصاب الالورين ومحاولة صبغه بالصبغة الألمانية. وحيث أن الدول الكبرى الأخرى أصبحت تنظر بحذر إلى العملاق الألمانى، كانت صدورها مفتوحة لهذا الجدل مع نوع من اللوم الموجه إلى بسمارك لأنه لم يحترم حق « تقرير المصير »، مع أنه سبق له أن تغاضى عنه من قبل إذ كان المفروض أن يجرى استفتاء فى الجزء الدنمركى من شلزويج (شلزويغ) بمقتضى صلح براغ (١٨٦٦) النمساوى الألمانى، ولكن أهمل بسمارك الموضوع، ولم تثر الدول ضجة كبيرة على النحو الذى حدث فى مسألة الالورين، وما ذلك إلا لأن التوازن الدولى ومصالح

---

(١) هذا نمط من السياسة البريطانية البعيدة النظر التى تحاول أن تكسب الصداقات عن طريق البدء بالتقرب وفتح مجالات التعاون تغطية لسياسات أخرى عميقة لا تقل عمقاً عن سياسات ألمانيا أو روسيا حينذاك.

الدول الكبرى لم تهتز بقوة فى ١٨٦٦ بعكس الحال فى ١٨٧١ . ومن ناحية أخرى فإن الدول الأوربية الكبرى — بما فيها فرنسا — كانت لضرب عرض الحائط بحق « تقرير المصير » من أجل استعمار البلاد العربية والإفريقية والآسيوية .

أثارت تلك المظاهر والحرب التى شنتها بروسيا ضد الدنمرك والنمسا وفرنسا جزع الفلاسفة والأوربيين ، خاصة عندما استعرضوا أحداث أوربا منذ الثورة الفرنسية الكبرى ١٧٨٩ حتى إعلان الإمبراطورية الألمانية (١٨٧١) ، فوجدوا أن أوربا أراقت الغزير من دماء زهرة شبابها فى معارك استرلتز وبينا والطرف الأغر وليبزج ، وحول سباستبول ، وفى ماجنتا وسلفرينو ، وفى سادوا وسيدان وحول باريس ، وخلال المعارك الدموية فى الأقاليم الفرنسية ضد الغزاة البروسيين ، وأزعج هؤلاء الفلاسفة توقعهم إراقة الغزير جداً من دماء شباب فرنسا وألمانيا فى صراعات من أجل الكرامة والعزة القومية ومن أجل الإلزاس واللورين . فدعوا إلى « الوحدة الأوربية » ، وإلى تحكيم مبادىء الإنسانية و « القانون الدولى » و « نزع السلاح » و « التحكيم قبل امتشاق الحسام » تخفيفاً من حدة التوتر حينذاك . ولعل ذلك يقضى على آفة العصر المتمثلة فى المؤامرات والمناورات . السياسية والدبلوماسية ، تلك الآفات التى جعلت حكومات وملوك أوربا يبدون وكأنهم مجموعة من رجال العصابات كل منهم يريد نهب أكبر قسط من الغنيمة عن طريق قتل زميله قبل أن يقتله .

ولقد بذل العلامة أستاذ القانون الدولى المشهور جيمس لوريمر[١] جهوداً كبيرة لوضع الأسس القانونية لفكرة (الإتحاد الأوربى) . كما أشرف فيكتور هوجو[٢] قمة الفكر الأدبى — وغاريبالدى — قمة السمو العسكرى — على إصدار مجلة « الولايات المتحدة الأوربية » منذ ١٨٦٧ ولكنها لم تعمر طويلاً فالعصر لم

---

(١) James Lorimer.

(٢) V. Hugo.

يكن عصر تلك النظريات ، وإنما كان عصر التعصب القومي ، وحتى بسمارك نفسه - عبقري السياسة الأوربية - كان عاجزاً عن هذه الرؤية ، إذ قال : « يخطيء من يتحدث عن أوربا ، إنها مجرد تعبير جغرافي[1] » .

كان بسمارك يدرك أن قوة ألمانيا الذاتية هي مفتاح تفوقها ، والرادع ضد الإنتقام الفرنسي المتوقع ، وأن « عزلة » فرنسا هي العامل الجوهري في منعها من التعاون عسكريا مع قوة أوربية أخرى ضد ألمانيا . وكان يرى أن توجيه فرنسا نحو النشاط الاستعماري فيما وراء البحار يلهي فرنسا عن (اللورين والالزاس) ويوقعها في ورطات مع الدول الكبرى الأخرى تحول دون تحالفها مع فرنسا .

وكان بسمارك يدرك أن الهوة السحيقة بين فرنسا وبريطانيا لا يمكن عبورها خاصة وأن بريطانيا أبدت - وإن كان ذلك ظاهريا - توددا من ألمانيا بعد ١٨٧١ . ولكن المشكلة الكبرى كانت : كيف يستطيع بسمارك أن يكسب ود وصداقة كل من روسيا وامبراطورية النمسا والمجر في آن واحد ؟ وكيف يمكنه أن يصعد من قدرة ألمانيا الذاتية باستمرار دون إثارة مخاوف الدول الأخرى في نفس الوقت الذي يضعف فيه إمكانيات فرنسا في تنمية قواتها المسلحة ؟

كانت أهداف بسمارك تصطدم هنا وهناك بمعارضة من جانب الدول في هذه المسألة أو تلك ، وكان من العسير عليه أن يكسب كل الأطراف إلى جانبه ، هذا فضلا عن أن الموقف الدولي كان يتطور بسرعة عما كانت عليه تطورات النصف الأول من القرن التاسع عشر .

---

(١) قارن هذا بما قاله مترنخ عن إيطاليا قبل وحدتها ، وبما تسير فيه أوربا في الستينات والسبعينات من القرن الحالي (العشرين) نحو (الوحدة الأوربية) .

كان بسمارك مطمئناً فى أعقاب معاهدة فرانكفورت (١٨٧١) إلى أن فرنسا ستظل عاجزة ـ لمدة سنوات ـ عن الوقوف على قدميها . ولكن توقعاته كانت خاطئة فى هذه الناحية حيث تجلت أصالة الشعب الفرنسى فى تقديمه الأموال الكبيرة لحكومته كى تدفع « الغرامة الحربية » الباهظة التى فرضها الألمان الذين أقامت جوشهم على الأرض الفرنسية لضمان سدادها[١] .

وخلال حكومة تير[٢] ـ التى اتهمت بالضعف ـ تمكن هذا الداهية العجوز من أن يعطى فرنسا فترة من هدوء الأعصاب حتى اقتنع الشعب بأن الهدف الأول لفرنسا يجب أن يكون « السلم البناء » والمطالبة « بالعدالة » بالنسبة لمشكلة اللورين والإلزاس . ونبذ نظرية « الحرب الانتقامية » .

وقد أدت هذه السياسة إلى أن تصبح دعوة بسمارك إلى « الحرب الوقائية » ضد فرنسا ـ التى تعيد تسليح نفسها بسرعة ـ مثيرة للدوائر الأوربية ضد ألمانيا ، حتى لقد إنزعجت كل من بريطانيا وروسيا من كلمات بسمارك عن « الحرب الوقائية » واضطر بسمارك إلى التراجع عن نظريته وبذلك أعطيت فرنسا الفرصة الكبيرة لاعادة بناء قوتها الاقتصادية والعسكرية على أسس قوية وهادئة نوعاً .

وزادت مخاوف بسمارك من فرنسا بعد سقوط تير[٣] فى مايو ١٨٧٣ فبينما كانت سياسة « السلم البناء » تعنى إعطاء ألمانيا ـ هى الأخرى ـ فرصة السلام التى تحتاجها لتنفيذ خطط التنمية الاقتصادية وإعادة بناء أجهزة الدولة اللازمة للامبراطورية الألمانية ، أما وقد جاء إلى الرئاسة « مكماهون »[٤] الملكى الكاثوليكى الشديد

---

(١) يلاحظ على التاريخ الفرنسى أنه يحتوى على أكثر من مرة أصيبت فيه فرنسا بنكسة مروعة ثم لا تلبث أن تنهض واقفة على قدميها .

(٢) Thiers .

(٣) Macmahon .

العداء لألمانيا فلابد — من وجهة نظر بسمارك — من سياسة جديدة لمواجهة هذا التطور . فعمد إلى التقرب أكثر من روسيا والنمسا ، وأقنع القيصر والإمبراطور بأن الظروف الدولية تتطلب تعاوناً أوثق بين أباطرة شرق أوربا ووسطها وكانت هناك أهداف مشتركة تجمع هذه القوى الثلاث وهي :

١ — كانت كلها ترغب في عدم إدخال تغيير على أوربا واستمرار « الوضع الراهن »[١] .

٢ — كانت الحركات الشعبية المعادية للحكم الاستبدادي قد نمت في كل من (روسيا) و (النمسا والمجر) و (ألمانيا) ، فاقتربت وجهات نظر حكومتي سان بطرسبورج وبرلين — بصفة خاصة — ضد الحركة الاشتراكية .

٣ — كانت مشاكل البلقان تسير نحو التعقيد وكان إنفراد أي من روسيا أو النمسا في توجيه أمور البلقان أو التفوق فيه يعني حرباً بين الدولتين صديقتي ألمانيا . وبالتالي كان من مصلحة بسمارك أن تبحث أمور البلقان على موائد المفاوضات وليس في ميادين الحرب ، خاصة وأن ألمانيا — في حالة حرب بين روسيا والنمسا — لا تستطيع أن تظل صديقتهما ، ومعنى إنضمام أو إنحياز ألمانيا إلى أي منهما سيلقي بالثانية بكل تأكيد إلى أحضان فرنسا المتذمرة لإقتناص مثل هذه الفرصة .

كل هذا أدى — بعد مفاوضات طويلة وبعد تخلي بسمارك عن سياسة « الحرب الوقائية » ضد فرنسا — إلى عصبة الأباطرة الثلاثة[٢] ١٨٧٣ ، والواقع أن مجرد هذا الموقف من جانب روسيا إزاء « الحرب الوقائية » كان يشير إلى حقيقة هامة وهي أن قلب روسيا كان مع فرنسا .

لقد كانت « عصبة الأباطرة الثلاثة » في حاجة إلى أزمة تمتحن صلابتها وكانت

---

(١) Status quo.

(٢) Dreikaiserbund Three Emperor League وقد عقد على عدة مراحل ، بين ألمانيا وروسيا في ٦ مايو ١٨٧٣ وبين ٦ يونيو بين النمسا وروسيا ، وانضمت إليهما في ٢٢ أكتوبر — تشرين أول ١٨٧٣

هناك الكثير من الأزمات التي تنتظر الدول الكبرى ، خاصة من ناحية البلقان .
ولقد سبق الإشارة إلى المشكلات المعقدة التي أدت إلى الحرب التركية ـ الروسية ١٨٧٧ ونتائج مؤتمر برلين ١٨٧٨ وأهمها اعتقاد القيصر الروسي أن هذا المؤتمر ليس سوى تحالفاً أوربياً بزعامة بسمارك ضد روسيا ، وأنهم فضلوا عليها النمسا فخرجت هذه الأخيرة من المؤتمر رابحة ، وهي نتيجة لم تكن روسيا تتوقعها أبداً .

هكذا كانت التطورات تثبت لبسمارك أن المشكلة البلقانية لا يمكن أن تبقيه صديقاً للمتنافستين الكبيرتين : النمسا وروسيا . وأن روسيا وقد فشلت في الحصول على أطماعها في مؤتمر برلين ، مع وجود عصبة الأباطرة الثلاثة ـ لاشك ستتقارب مع فرنسا . وأن الحليف الأكثر إستقراراً ـ من وجهة نظر بسمارك ـ والذى يمكن أن يعتمد عليه هو إمبراطورية النمسا والمجر ، وليس روسيا كثيرة التقلب . ثم إن التحالف مع النمسا سيمد شبح المطالبات النمساوية فيما سبق أن سلخته ألمانيا من الإمبراطورية النمساوية في صلح براغ ١٨٦٦ . بالإضافة إلى أن التحالف مع النمسا يغطى ظهر ألمانيا المكشوف تغطية تعطى لألمانيا فرصة للتفرغ لأى هجوم فرنسى عليها .

ولهذا تقرب بسمارك من النمسا ، وأخذ يحث إمبراطورها وحكومتها على عقد تحالف مع ألمانيا يضمن سلامتها وردع أية قوة تتصدى لواحدة منهما .

كان الوصول إلى إتفاق نهائى بين النمسا وألمانيا أمراً صعبا ويواجه شروطاً عديدة وضعها (أندراسى)[1] وزير خارجية النمسا رغم أن بسمارك كان في نظر الدوائر الديبلوماسية الأوربية الرجل القادر على تجاهل شروط الطرف الآخر وتوجيه الأمور وفق مشيئته . ولقد اضطر بسمارك إلى أن يقبل شروط (أندراسى) الخاصة بتجنيب النمسا المشاركة في حرب هجومية ألمانية ضد فرنسا منفردة . فكان أن توصل الطرفان إلى ماعرف بالتحالف الثنائي في ٧ أكتوبر ـ تشرين أول ١٨٧٩ وقد نص على :

---

(١) Audrassy

١ — فى حالة وقوع هجوم روسى على أى من الطرفين المتعاقدين يقدم الطرف الآخر مساعدته لحليفه .

٢ — إذا قام أحد الطرفين المتعاقدين بالهجوم على طرف ثالث يقف الحليف على الحياد الودى .

٣ — فى حالة تعاون إيجابى أو عسكرى من جانب روسيا وفرنسا تعمل الدولتان المتعاقدتان معا على مواجهة الدولتين سالفتى الذكر .

ولم تلبث (إيطاليا) أن انضمت إلى هذا التحالف فأصبح ثلاثيا فى ٢٠ مايو — آيار ١٨٨٢ . وكان الدافع الرئيسى لإيطاليا هو إقتناعها أن فرنسا — وقد أبعدتها عن تونس — لن تسمح لها بموضع قدم فى شمالى إفريقية إلا إذا تحدثت إيطاليا من مركز القوة ، ورحبت ألمانيا بالتحالف مع إيطاليا لأن فرنسا بذلك أصبح مهددة من أكثر من جهة الأمر الذى يحرمها من تركيز جيوشها فى جهة واحدة .

وهكذا أصبح بسمارك متعاقداً مع أطراف متنافرة ، مع النمسا الكارهة لروسيا عضو (عصبة الأباطرة) ومع النمسا المتنازعة مع إيطاليا على الحدود بينهما ، بل وأخذت ألمانيا تنزلق يوماً بعد آخر نحو الدخول فى معمعة التنافس الأوربى فى البلقان .

ولما كان بسمارك يدرك أن التباعد بين روسيا وألمانيا يسير بخطوات سريعة جداً عمل بأقصى جهده من أجل الإبقاء على ود روسيا ولو مظهرياً . حتى جاءت الأزمة التى وضعت الفواصل النهائية بين الدولتين ، وكانت أزمة بلقانية فى ١٨٨٥ .

(٢)

التحالف الروسي الفرنسي ١٨٩٣

وقعت فى ١٨٨٥ الثورة المرتقبة فى ولاية الروملى الشرقية ضد الدولة العثمانية معلنة انضمامها — رغم مواد مؤتمر برلين ١٨٧٨ — إلى بلغاريا ، بتأييد ضخم — فى هذه المرة — من جانب بريطانيا التى كانت حكومتها ترى — عن حق — أن بلغاريا فى ١٨٨٥ أصبحت شوكة فى جنب روسيا ، ومن مصلحة بريطانيا أن تستكمل بلغاريا وحدتها فى مثل هذه الظروف . ولكن أعلنت الصرب — وقد وجدت جارتها بلغاريا تكبر هكذا وتهدد أمانيها — الحرب لتمنى بهزيمة ساحقة على يد الجيش البلغارى فى معركة سليفنتزا(١) . ومع هذا إنتهت الحرب إلى عودة الأمور إلى ما كانت قبلها وذلك فى معاهدة بوخارست ٣ مارس — آذار ١٨٨٦ . خلال هذه الحروب وفى أعقابها وضح تماماً أن الفرقة بين ألمانيا وروسيا لارجعة لها إذ وقف بسمارك موقف الحليف من النمسا ضد روسيا . ومع هذا كان يسعى جاهداً للابقاء على صلات الود مع روسيا حتى لا تندفع الحكومة الروسية وراء الصحافة هناك لعقد تحالف مع فرنسا . ونجح فى ١٨٨٧ فى عقد معاهدة « إعادة التأمين » (٢) ، وكانت ، إلى حد كبير ، تتنافس — على حساب النمسا — مع الحلف الثنائى ، حيث نصت معاهدة « إعادة التأمين » على أنه فى حالة اشتباك إحدى الدولتين المتعاقدتين فى حرب ضد دولة ثالثة تقف الأخرى على الحياد ، أو بمعنى آخر إذا هاجمت روسيا النمسا لا تدخل ألمانيا الحرب ضد روسيا .

تعمقت الخلافات الروسية الألمانية وأخذت تزداد عمقاً وبسرعة ، وتجلى ذلك

---

(١) Slivnitza .

(٢) Re-insurance Treaty

فى عودة الموقف فى بلغاريا إلى التوتر عندما صممت روسيا على عزل فرديناند أوف ساكس كوبرج عن عرش بلغاريا فى ١٨٨٧ وتحدتها النمسا بقوة ، وعندما لمح القيصر الروسى إلى استخدام القوة ضد النمسا أبدى بسمارك تأييده الكامل للنمسا ناشراً فى فبراير ١٨٨٧ نصوص معاهدة الحلف الثنائى . وحيث أن إيطاليا وانجلترا كانتا كذلك ضد روسيا فى هذا الموضوع أدركت الأخيرة مدى ضعفها إذا أرادت أن تفرض — وحدها — كلمتها فى المجتمع الأوربى . ولم تعد محاولات الارتباط الودى مع ألمانيا مجدية ، وبذلك قضى على معاهدة إعادة التأمين عملياً .

ولهذا كانت الظروف تدفع — بسرعة أكبر — روسيا نحو التحالف مع فرنسا التى كانت تراقب هذه التطورات وترتب اقتناصها بمهارة . ولم تكن الدوافع التى أدت إلى التحالف الفرنسى — الروسى عسكرية فقط ، بل كذلك إقتصادية فضلاً عن الدوافع السياسية .

ويمكن أن نحدد العوامل الرئيسية التى أدت إلى هذا التحالف الروسى الفرنسى بما يلى :

١ — فمن ناحية الظروف الإقتصادية ، كانت روسيا تعانى بشدة من التخلف الصناعى فى نفس الوقت الذى تتطلع فيه إلى التوسع الإستعمارى فى إتجاه الشرق : وكى تحقق حكومة القيصر اسكندر الثالث هذه الأهداف كان لابد من توفر عاملين وهما . رأس المال والخبرة . وكانت ألمانيا وانجلترا تكرهان تقوية روسيا ، وكانت فرنسا هى الدولة الكبرى الوحيدة الباقية لتقديم المال والخبرة لروسيا . وكانت هذه الظروف واضحة المعالم أمام الدبلوماسيين الفرنسيين . ولهذا وجدت القروض الروسية مجالا واسعاً لها فى فرنسا وقدمت فرنسا الأموال لروسيا لمد خطوط سكك حديدها نحو الشرق ، وقدمت الخبراء فى مد الطرق والمنشآت الإنتاجية العسكرية وبعض المنشآت الصناعية .

٢ — كانت روسيا مكروهة من كافة الدول الكبرى الأوربية ، وكان الاستهزاء

بها شائعاً فى بلاطات وصحف الدول الأوربية ،وخاصة بعد أن فقدت صداقة ألمانيا، وكانت فرنسا تدرك هذه الأمور الجارحة للشخصية الروسية ، كما كان مثقفو روسيا كذلك يدركون حاجتهم للارتباط بدولة غربية متقدمة ترفع شأن روسيا دوليا وعسكريا بما يجعلها تتحدث مع ألمانيا والنمسا وبريطانيا من مركز قوة . هذه المشاعر استغلها الفرنسيون بمهارة وكسبوا قلوب الحكومة الروسية والشعب الروسى المالىء لروسيا خلال الأزمة البلغارية فى الوقت الذى كانت فيه الدول الأوربية الأخرى تشن الحملات الدعائية الشعواء ضدها .

٣ ـ وبينما كان الفكر الجمهورى التقدمى الفرنسى أحد الأسباب الرئيسية فى التباعد بين روسيا وفرنسا ، استطاعت فرنسا أن تثبت لروسيا أنها لا تسعى إلى تخريب نظام الحكم القيصرى الاستبدادى بالقبض على عدد من اليساريين الروس وتسليمهم إلى السلطات الروسية الأمر الذى كان له صداه الكبير فى الدوائر الحاكمة فى روسيا .

ورد الروس الجميل لفرنسا عندما استفزت ألمانيا فرنسا عسكريا غير مرة . ومن ذلك أنه عندما اشتدت موجة الانتقام من ألمانيا حدة فى أيام الجنرال بولانجيه . تحركت العسكرية الألمانية هى الأخرى وسعى كل من الفرنسيين والألمان إلى روسيا فاتخذت روسيا موقفاً مؤيداً بوضوح لفرنسا . وأدت هذه التطورات إلى تفاهم سياسى بين فرنسا وروسيا يقضى بتنسيق سياسة الدولتين إزاء تهديد قد تتعرض له أى منهما (أغسطس — آب ١٧٩١) .

٤ ـ كان التقارب النفسى والسياسى لا يمكن أن يقدم الكثير لفرنسا إذا ماوقع الصدام العسكرى مع ألمانيا ، وكان قيصر روسيا غير متعجل لعقد تحالف عسكرى خشية الإنتقام الألمانى ، وخاصة وأن الحلف الثلاثى النمساوى الإيطالى الألمانى كان أقوى إستعداداً من روسيا وفرنسا مجتمعين . إلا أن تجديد هذا التحالف الثلاثى فى ١٨٩١ جعل القيصر يتجه إلى ربط الدولتين (روسيا وفرنسا) بمعاهدة سياسية عسكرية وتم ذلك فى معاهدة ديسمبر ١٨٩٣ التى قضت بوقوف

روسيا إلى جانب فرنسا إذا هاجمتها ألمانيا أو ساعدت الأخيرة إيطاليا على الهجوم على فرنسا وتعهدت فرنسا بالوقوف إلى جانب روسيا إذا هاجمتها ألمانيا أو ساعدت هذه الأخيرة النمسا فى الهجوم على روسيا .

كان ظهور هذا الحلف الثنائى الروسى - الفرنسى . كقوة رادعة ضد الحلف الثلاثى الألمانى النمساوى الإيطالى صفحة جديدة من العلاقات الدولية والأوربية ، حيث أصبحت هناك كتلتان معاديتان ، وعلى الدول الكبرى أن تقيم علاقاتها على هذا الأساس الأمر الذى كان يدفع بالدول إلى الميل إلى هذه الكتلة أو إلى تلك .

ولكن من الجهة العسكرية كان (التحالف الثلاثى) أقوى من (التحالف الثنائى للأسباب التالية : -

١ — النمو الإقتصادى فى داخل ألمانيا وفى خارجها أعطاها تفوقاً ملحوظاً أو على الأقل أعطاها توازنا مع النمو الإستعمارى الكبير الذى أحرزته فرنسا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . هذا بينما كانت روسيا تعانى من التدهور الإقتصادى والمجاعة والأوبئة .

٢ — كانت امبراطورية النمسا والمجر تعانى من مشكلة القوميات والأقليات ويمكن أن تستغل روسيا نقطة الضعف هذه . إلا أن المشكلات الداخلية فى روسيا كانت هى الأخرى معقدة تهدد البناء القيصرى نفسه .

٣ — من الناحية العسكرية كانت دول التحالف الثنائى مضطرة للقتال فى أكثر من جبهة ، وكذلك كان الحال بالنسبة لدول التحالف الثلاثى ، ولكن هناك اتصال مباشر بين دول التحالف الثلاثى بينما لا يوجد مثل هذا الإتصال بين روسيا وفرنسا .

٤ — كان مجرد وجود هذين الحلفين كفيلا بزيادة التوتر فى أوربا وفيما وراء أوربا ، ولكن مما زاد هذا التوتر حدة مساعى كل طرف لجذب قوى أخرى للتعاون معه ، ومن هنا كانت أنظار فرنسا مركزة على منافستها التقليدية (إنجلترا) وعملا كان الموقف الذى ستتخذه انجلترا هو الحاسم فى حرب الأحلاف رغم وجود دولتين كبيرتين على طرفى امارات القديمة ترقبان التطورات ولاتريدان الإشتراك فى هذه

الدوامة إلا فى الوقت المناسب وفى ظروف يصبح فيها الربح مؤكداً ، ونعنى بذلك : (اليابان) و (الولايات المتحدة الأمريكية) .

وجاء هذا التحالف الثنائى الروسى الفرنسى فى وقت كانت الرأسمالية والعسكرية الألمانية تنطلق فى سياسة إستعمارية على النسق الفرنسى والإنجليزى ، الأمر الذى أثار مخاوف بريطانيا من إنطلاقة العملاق الألمانى فيما وراء البحار . كما جاء هذا التحالف الثنائى الروسى الفرنسى فى وقت كانت فيه روسيا قد نشطت صوب الشرق فى اتجاه منشوريا وكوريا ، اللتين كانتا قد أصبحتا فى نفس الوقت تقريباً هدفاً للامبريالية اليابانية الناشئة .

وفى الوقت نفسه تقريباً كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد مدت يدها إلى الفلبين خاصة منذ ١٨٩٣ حتى شنت حربها ضد أسبانيا واستولت عليها . ومعنى هذا أن التوازن الدولى منذ التسعينات كان غير محدد المعالم بسبب وجود هذه الدول الكبرى الثلاث خارج نظام المحالفات وهى انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية واليابان . وكانت مجالات الصدام وكذلك مجالات الإتفاق توجه هذه الدولة أو تلك نحو هذا التحالف أو ذاك ، وكان من سوء مستقبل ألمانيا أن الدول الثلاث (أى انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية واليابان) ـ رغم مناطق الاحتكاك الكثيرة مع روسيا وفرنسا ـ كانت تسير نحو التعاون مع هاتين الدولتين فيما عرف بنظام الوفاق الودى Entente Cordiale .

(٣)

الوفاق البريطانى اليابانى

١٩٠٢

وصف كثير من المؤرخين بريطانيا – خلال النصف الثانى من القرن التاسع – بأنها « فى عزلة مجيدة » ، على اعتبار أنها تركت الأمور دون أن تشارك مشاركة فعلية فى حروب الوحدة الإيطالية أو حروب الوحدة الألمانية ، إلا مشاركة الدولة القوية الشكيمة التى يرهبها الجميع وتستطيع أن تتدخل عندما تنقلب الأمور ضد مصالحها ، وخلال الفترة الواقعة بين نهاية حرب القرم وأواخر القرن التاسع عشر لم تشعر بريطانيا بأن هناك من الدول الأوربية من تستطيع أن توجه إليها ضربة شديدة فى أى مكان من مناطق استعمارها الممتدة من استراليا إلى بورما والملايو والهند وعدن إلى وادى النيل والكاب ومستعمراتها العديدة فى غرب إفريقية وفى أمريكا الوسطى ، وكان أسطولها يعادل ضعف أسطول الدولة البحرية التالية ، ومن هنا كانت تشعر بالطمأنينة ، وبحرية العمل وبالقدرة على فرض الحلول المناسبة لها عند النظر فى المشكلات الدولية مثلما حدث فى مؤتمر برلين ١٨٧٨ .

ولكن هزيمة فرنسا أمام ألمانيا (١٨٧١) وظهور الحلف الثنائى والحلف الثلاثى جعل استمرار انجلترا فى تجنب المشاركة الفعالة فى سياسة الأحلاف يشكل خطراً على مستقبل الإمبراطورية البريطانية ، إذ أصبحت تعيش تطورات تكاد تقلب ضدها كافة الدول الكبرى ، دون أن تجد من يقف إلى جانبها بالصلابة المناسبة . لقد كان ظهور التحالف الثنائى يعنى أن بريطانيا حين تصطدم بمنافستها الكبرى فرنسا ، تجد نفسها كذلك مضطرة إلى الصدام مع روسيا . وربما كان هذا الوضع محتملا لبعض الوقت طالما كانت دول التحالف الثلاثى على علاقة ودية مع بريطانيا .

وكان العامل الجوهرى فى هذه العلاقات أنه كانت هناك عوامل صدام مع ألمانيا تـكاد تعادل عوامل الصدام التى كانت بين فرنسا وبريطانيا ، وبين روسيا وبريطانيا فى الجبهة الأوربية أو الجهات الاستعمارية فى أفريقية وآسيا والشرق الأقصى . حتى وقع التوسع الكبير الروسى فى إتجاه الشرق الأقصى . وأصبح الخطر الروسى كبيراً على مصالح بريطانيا هناك ، وأصبح على بريطانيا أن تجد لنفسها حليفاً . ولـكن عملية إختيار حليف صعبة ، والعامل الحاسم فى هذه العملية هو أن يظهر بوضوح أن هذه الـكتلة معادية ، وأن تلك صديقة وجديرة بالتحالف معها على أساس المصالح المشتركة .

وحتى تبينت بريطانيا من هو الحليف الذى يجب أن تختاره مرت بعدة تطورات جعلتها تتبين طريقها النهائى بوضوح . وكانت هذه التطورات الرئيسية هى :

(ا) محاولات التحالف مع ألمانيا وفشلها .
(ب) التحالف مع دولة كبرى غير أوربية (الوفاق اليابانى البريطانى) .
(حـ) الوفاق مع دولتى الحلف الثنائى (فرنسا وروسيا) .

ولنلق نظرة على هذه التطورات الرئيسية :

كانت هناك عدة عوامل شجعت على التقارب البريطانى الألمانى وأهمها :

كانت العلاقات الودية بين الشعبين الألمانى والإنجليزى واضحة وقوية ، رغم بعض مظاهر الغيرة بينهما . وكانت هناك دعوات لها صداها بشأن توحيد (الجنس التيوتونى) أصل الألمان والإنجليز . وكانت صلة القربى بين البلاطين الألمانى والإنجليزى توحى — لغير المتعمقين من أفراد الشعبين — بأنها ستـكون فعالة فى إتمام التحالف بينهما . فقد كان ولهلم الثانى حفيد الملـكة فيكتوريا (١٩٢٦؟ — ١٩٠١) ، وكان بلاطها و ... ف بريطانيا وملاعبها محببا إلى قلب الحفيد وكانت هناك علاقات ثقافية

وكان العامل الجوهرى فى هذه العلاقات أنه كانت هناك عوامل صدام مع ألمانيا تـكاد تعادل عوامل الصدام التى كانت بين فرنسا وبريطانيا ، وبين روسيا وبريطانيا فى الجهة الأوربية او الجهات الاستعمارية فى أمريقية وآسيا والشرق الأقصى . حتى وقع التوسع الكبير الروسى فى إتجاه الشرق الأقصى . وأصبح الخطر الروسى كبيراً على مصالح بريطانيا هناك ، وأصبح على بريطانيا أن تجد لنفسها حليفاً . ولـكن عملية إختيار حليف صعبة ، والعامل الحاسم فى هذه العملية هو أن يظهر بوضوح ان هذه الـكتلة معادية ، وأن تلك صديقة وجديرة بالتحالف معها على أساس المصالح المشتركة .

وحتى تبينت بريطانيا من هو الحليف الذى يجب أن تختاره مرت بعدة تطورات جعلتها تتبين طريقها النهائى بوضوح . وكانت هذه التطورات الرئيسية هى :

(ا) محاولات التحالف مع ألمانيا وفشلها .

(ب) التحالف مع دولة كبرى غير أوربية (الوفاق اليابانى البريطانى) .

(حـ) الوفاق مع دولتى الحلف الثنائى (فرنسا وروسيا) .

ولنلق نظرة على هذه التطورات الرئيسية :

كانت هناك عدة عوامل شجعت على التقارب البريطانى الألمانى وأهمها :

كانت العلاقات الودية بين الشعبين الألمانى والإنجليزى واضحة وقوية ، رغم بعض مظاهر الغيرة بينهما . وكانت هناك دعوات لها صداها بشأن توحيد (الجنس تيوتونى) أصل الألمان والإنجليز . وكانت صلة القربى بين البلاطين الألمانى والإنجليزى توحى — لغير المتعمقين من أفراد الشعبين — بأنها ستـكون فعالة فى إتمام التحالف بينهما . فقد كان ولهلم الثانى حفيد الملـكة فيكتوريا (١٩٣٦؟ — ١٩٠١) ، وكان بلاطها ... بريطانيا وملاعبها محببا إلى قلب الحفيد وكانت هناك علاقات ثقافية

قوية بين جامعات بريطانيا وجامعات ألمانيا . وكان الإنتاج العلمى الألمانى والأدبى يلقى رواجاً وترحيباً فى بريطانيا .

٢ — والمعروف عن الإنجليز (ملكية وحكومة وشعبا) إن مثل هذه المظاهر العاطفية الإجتماعية قد تلفت انتباههم ويعنون بها . ولكن الذى يدفعهم حقيقة إلى التعاون والتحالف هو حاجتهم إلى الكسب العسكرى والسياسى والمادى . وكان فى تحالفهم مع ألمانيا — من وجهة نظر بعض السياسيين الإنجليز — الكثير من هذه الأهداف . كانت تجارة بريطانيا رائجة فى ألمانيا نفسها . وكان الأسطول البريطانى هو أقوى أساطيل العالم قاطبة ، ولكن جيش بريطانيا لم يكن كذلك ، بل كان الجيش الألمانى أقوى جيوش العالم ، ومن هنا ظهرت الدعوة إلى تكامل هاتين القوتين العسكريتين فيصبحا قادرين على فرض السلام وأن تصبح كلمتهما مسموعة لدى الدول الأخرى .

٣ — كانت المضايقات المتتالية الفرنسية للاحتلال الإنجليزى لمصر تجعل بريطانيا فى حاجة إلى تأييد قاصيل دون الحلف الثلاثى لمشروعاتها فى توطيد الإحتلال واستمراره .

وهكذا كانت الظروف العامة تكاد توحى بأن بريطانيا إذا سعت إلى البحث عن حليف لمواجهة التحالفات والتحالفات المضادة الأوربية فسيكون تحالفها مع ألمانيا بالذات . إذ كانت مجالات الاحتكاك — فى أول الأمر — بين الدولتين قليلة[1] . بينما كانت الأزمات كثيرة بين بريطانيا ودولتى الحلف الثنائى روسيا وفرنسا . فبينما كانت

---

(١) حدثت خلافات حول التوسع الإستعمارى فى شرق إفريقية فاتفقت ألمانيا على تقسيم شرق إفريقية إلى تنجانيقا (ألمانيا) وكينيا وأوغندة والصومال (بريطانيا) بينما حصلت ألمانيا من بريطانيا على جزيرة هليجولاند فى بحر الشمال فى مقابل حصول بريطانيا على منطقة ويتو Witto فى شرق إفريقية .

دول الحلف الثلاثي (ألمانيا والنمسا وإيطاليا) تدعو باستمرار إلى عدم إثارة الحروب والعمل على توطيد السلم ، وهو أمر كان يخدم المصالح البريطانية ، كانت فرنسا تسعى إلى استرداد الإلزاس واللورين بأية طريقة وخاصة بالقوة .

أصبح هذا الحليف ضروريا جداً لبريطانيا بسبب الدور الذى لعبته روسيا فى أعقاب الحرب الصينية اليابانية ١٨٩٥ (١) . فقد نصت معاهدة شيمونسكى اليابانية الصينية والتى كانت لصالح اليابان وبداية تفوقها فى الشرق الأقصى على : —

١ — إستقلال كوريا وكانت تابعة للصين ، وكانت اليابان تهدف من وراء ذلك التمهيد للسيطرة المباشرة على كوريا .

٢ — تنازل الصين لليابان عن (فرموزا) و (بيسكادورس) و (شبه جزيرة لياوتونج) بما فيها بورت أرثر الميناء الصالح للملاحة طول العام .

٣ — دفع تعويض ضخم لليابان .

٤ — حصول اليابانيين على الحقوق القضائية (٢) التى كان يتمتع بها الأوربيون فى الصين .

كان هذا الظهور القوى لليابان فى المجالات الإستعمارية الأوربية فى الصين مثيراً لحقد الدول الكبرى باستثناء بريطانيا . ففى ٢٣ إبريل — نيسان ١٧٩٥ تضافرت كل من روسيا وفرنسا وألمانيا على توجيه إنذار إلى اليابان باسم الحفاظ على وحدة الصين ، فاضطرت اليابان تحت هذا الضغط الكبير إلى الموافقة على طلبات هذه الدول الكبرى فسحبت قواتها عن شبه جزيرة (لياوتونج) . ولكن هذه الدول الثلاث

---

(١) ترجع هذه الحرب إلى أن اليابان — وكانت قد تخلصت من النظم الإقطاعية البالية وارتفعت بسرعة إلى حضارة الغرب اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً وعزمت على أن يكون لها مكانها ولة كبيرة عن طريق الحصول على إمبراطورية استعمارية : فامتشقت الحسام ضد جارتها الصين وهزمتها وأرغمتها على توقيع معاهدة شيمونسكى

(٢) ما يشبه الإمتيازات الأجنبية فى الشرق الأوسط .

الكبرى لم تلبث أن انقضت على الصين دون أى اعتبار لوحدتها . فاحتلت روسيا (بورت أرثر) ، واستولت ألمانيا على (شانتونج) . وفرنسا على (كوانج اشوان) فردت انجلترا بالإستيلاء على (واى هاى واى) .

ومن جهة نظر الإنجليز كان استيلاء روسيا على بورت آرثر ـ الذى يمكن تحويله إلى قاعدة حربية كبيرة ـ تغييراً لميزان القوى يهدد الإمبراطورية البريطانية بخطر الحرب فى أكثر من جبهة ضد روسيا وفرنسا ومن ثم كان لابد ـ من وجهة النظر البريطانية ـ من حليف لبريطانيا . وكان الإتجاه الأول هو التحالف مع ألمانيا .

وبلغت ذروة الدعوة إلى عقد تحالف ألمانى ـ إنجليزى على يد جوزيف تشمبرلن فى ٣٠ نوفمبر ـ تشرين ثانى ١٨٩٩ عندما قال فى خطبته يومذاك :

« هناك أمر آخر يبدو لى إنه كان مطمح أنظار كل سياسى بعيد النظر ... ألا وهو أن لاتدوم عزلتنا هذه عن شئون القارة الأوربية . وعندى أنه متى حان الوقت لتحقيق هذه الرغبة فبدهى أن يكون تحالفنا مع الإمبراطورية الألمانية العظيمة أمراً طبيعياً » .

وقال أيضاً أن :

« التفاهم مع أمريكا ـ لو شمل أيضاً ألمانيا ـ سيكون له تأثير أكبر على تقرير سلام العالم أكثر من أى تحالف عسكرى » .

بل لقد سعت بريطانيا إلى إغراء ألمانيا بالتحالف معها عن طريق فتح المغرب على مصراعيه أمام التفوق السياسى والعسكرى والإقتصادى الألمانى . ولقد كان هناك اهتمام خاص ألمانى بالمغرب على اعتبار أنه المجال الحيوى للاستعمار الألمانى لما فيه من معادن وفرص متسعه للتجارة ، وأنه يمكن أن يصبح مهجراً للألمان يحتفظون فيه بشخصيتهم وارتباطهم بالوطن الأم ، هذا فضلا عن أن السيطرة الألمانية على

أغادير ـ لو تمت ـ لأصبحت قاعدة ألمانية على الطريق إلى المستعمرات الألمانية فى إفريقية .

ولـكن رفضت ألمانيا هذه العروض البريطانية للتحالف معها ويدور جدل كبير حول الأسباب التى جعلت القيصر الألمانى ولهلم الثانى يرفض هذه اليد الممدودة إليه .

فبعض المؤرخين يفسر ذلك بالمواقف البريطانية العديدة الأخيرة التى بدت فيها بريطانيا كارهة للألمان خلال الفترة العصيبة التى مرت بالألمان خلال حروب الوحدة من ١٨٦٣ إلى ١٨٧١إذ كانت قلوب الإنجليز مع الدنمركيين والنمساويين والفرنسيين. ويضاف إلى هذا أن بريطانيا كانت بعيدة النظر حين أبت أن تستغل النـكبة الفرنسية فى ١٨٧٠ لتستولى على مستعمراتها فيما وراء البحار ، بل خفضت إلى درجة كبيرة من منافستها لفرنسا ـ المهيضة الجناح ـ خلال خمس سنوات تقريباً حتى تمكنت فرنسا من أن تقف على قدميها أمام العملاق الألمانى .

وركز المؤرخان الإنجليزيان جرانت وتمبرلى على أن السبب فى ذلك هو أن ألمانيا كانت تختلف مع انجلترا فى أسلوب قمع روسيا فيما يتعلق بتوسيع الأخيرة فى الشرق الأقصى ، إذ كانت انجلترا شديدة الوطأة جداً على روسيا بينما كانت ألمـانيا خفيفة عليها .

وفى إعتقادنا أن بريطانيا كانت تفتش حينذاك عن الحليف وكانت تسعى إلى ألمـانيا ولـكن دون أن تقدم لها شيئاً جديداً من وراء هذا التحالف الـكبير ، بينما كانت ألمانيا تسعى إلى الـكثير فيما وراء البحار وهى مجالات صدام مع بريطانيا . فـكان هذا بداية التحول البريطانى عن ألمانيا فى بحثها عن حليف .

وزاد هذا التحول البريطانى شدة ، بل وأخذت العلاقات الودية الألمانية ـ الإنجليزية تتدهور بسبب سياسة الإنطلاق الإستعمارى الألمانى فى الدولة العثمانية وبسبب نمو فى البحرية الألمانية .

ولهذا عملت بريطانيا على : —

١ — منع الألمان من تنفيذ مشروعهم الخاص بمد خط حديد برلين — بغداد — الكويت .

٢ — منع ألمانيا من إحراز قصب السبق فى تنمية سلاحها البحرى الحديث .

وكان موقف ألمانيا من محاولات انجلترا للسيطرة على جمهوريتى البوير هو الذى جعل انجلترا تبتعد بسرعة عن ألمانيا .

فالمعروف أن الهولنديين كانوا قد استعمروا رأس الرجاء الصالح واستولت بريطانيا على هذا الميناء الإستراتيجى خلال الحروب النابليونية ولم يستطع المستعمرون الهولنديون (البوير) البقاء تحت الحكم البريطانى خاصة وأن الإنجليز أوقفوا تجارة الرقيق الأمر الذى أصاب (البوير) بضربة إقتصادية قاصمة ، وقررت الغالبية العظمى منهم الهجرة شمالا ، وكونوا جمهوريتين هما : الترنسفال والأورنج . ولم يلبث أن اكتشف الذهب والماس فيهما فتدفق عليهما الكثير من الإنجليز الباحثين عن الثروة ، وبسرعة أصبحوا المتحكمين فى إقتصاديات المنطقة وعملوا على وضع الجمهوريتين تحت الحماية البريطانية رغم أنف (البوير) .

حقيقة كانت الحكومة البريطانية تدرك حرج مركزها لو شنت حرباً على الجمهوريتين ، ولكنها فى نفس الوقت كانت تجد من أبنائها من يمهد لها السبيل لتحقيق الهدف بوسيلة أو بأخرى . ومن ذلك قيام الدكتور جيمسون فى ديسمبر ١٨٩٥ بغارة إستعمارية فاشلة ضد الترنسفال . تبرأت منها الحكومة البريطانية . بينما كان القيصر ولهلم الثانى يعتقد تماماً أن تلك الغارة ليست سوى مؤامرة بريطانية وبعث ببرقية تهنئة لكروجر Kruger زعيم الترنسفال على قضائه على هذه الحملة الإستعمارية .

ولا شك أن هذا العمل من جانب ولهلم الثانى كان ينم عن روح تمشى فى

بريطانيا ، وعن رغبة دفينة فى رؤيتها مهزومة . ولاشك أيضاً أن هذه كانت مشاعر الدول الكبرى الأخرى ، بل وكذلك البلاد التى تستعمرها بريطانيا . إلا أن حكومة بريطانيا وصحافتها ألقت بثقلها على الموقف الألمانى بالذات ، وألهبت المشاعر الشعبية ضد ألمانيا . وذلك لأن بريطانيا كانت قد استبعدت فكرة التحالف مع ألمانيا وكانت تبحث عن مبرر لفرض حرب ضد (البوير) ، فرددت الدوائر السياسية البريطانية بأن هناك علاقة خطرة على بريطانيا تربط بين ألمانيا والبوير ، وأن ثروات البوير تستخدم لضرب الإمبراطورية البريطانية . ولم تلبث أن شنت بريطانيا الحرب على البوير .

ومن نتائج حرب البوير هذه أن القيصر الألمانى أدرك أنه لا يستطيع أن يقدم معونة ألمانية لأية قوة مناهضة لبريطانيا إلا إذا كان لديه أسطول قادر على أن يشق طريقه فى البحار رغم أنف الأسطول البريطانى . ومنذ ذلك الوقت بدأ التسابق المرير على التسلح البحرى بين ألمانيا وبريطانيا ، وكان هذا التسابق مسألة حياة أو موت بالنسبة لبريطانيا . ومن ثم كان هذا الاتجاه الألمانى نحو كسر النظرية البريطانية الخاصة بالاحتفاظ بأسطول يعادل ضعف الدولة البحرية التالية لبريطانيا ضربة قاضية على أية نيات نحو إقامة حلف إنجليزى ــ ألمانى .

وفى الوقت الذى كانت فيه حرب البوير مستمرة كانت هناك حرب إقتصادية بسبب التنافس على المواصلات العالمية الحديدية والبحرية عبر الشرق العربى الواقع تحت السيطرة العثمانية . فقد اتفق الألمان مع الأتراك على مد خط حديد برلين بغداد وفى كل من الأمرين سارت التطورات ضد رغبة ألمانيا فقد انتصر الانجليز فى (البوير) ، وأغلقوا فى ١٨٩٩ المنفذ الوحيد لخط حديد بغداد على الخليج العربى بعقد معاهدة مع الشيخ مبارك الصباح ــ شيخ الكويت ــ تمنعه من التنازل أو رهن أية قطعة من أرضه لأجنبى إلا بموافقة حكومة بريطانيا .

ولكن فى ١٨٩٩ كذلك كانت العلاقات الانجليزية الفرنسية لا تسمح بعقد تحالف بين باريس ولندن بسبب احتدام النزاع بينهما حول الوجود البريطانى فى مصر والتوسع فى السودان باسم مصر .

كانت حكومة بريطانيا تريد البقاء فى مصر متجاهلة أن عدداً من رؤساء حكوماتها سبق لهم أن أقسموا بشرف بريطانيا أن قواتهم سترحل عن مصر ، وكانت حكومة الإحتلال البريطانى فى مصر تحصل على تأييد معين من جانب القنصل الألمانى ضد المضايقات الفرنسية والروسية لها . أما وقد تردت العلاقات الودية مع ألمانيا ، واستغل الألمان حاجة حكومة الإحتلال البريطانى لمصر إلى تأييد القنصل الألمانى فى القاهرة ، فقد تحرج موقف حكومة الاحتلال أمام القناصل ، خاصة عندما علم أن الجيش المصرى لاسترداد السودان — وكان بقيادة كتشنر — قد اصطدم عند فاشودة بكتيبة يقودها الكابتن مارشان الفرنسى الذى جاء ليثبت السيطرة الفرنسية على أكبر مساحة ممكنة من السودان (١٨٩٩) .

ومع أن الدوائر السياسية الأوربية كانت تتوقع حرباً بين فرنسا وبريطانيا بسبب إصرار كتشنر على إنزال العلم الفرنسى المرفوع عند فاشودة وانسحاب كتيبة مارشال إلا أن وجود (دلكاسيه)[1] على رأس الوزارة الفرنسية ، واتباعه سياسة حثيثة نحو التفاهم مع بريطانيا ، جعل فرنسا تعبر هذه الأزمة . بل وضع — بموقفه هذا — أساس التقارب الفرنسى البريطانى .

وفى ١٩٠٢ كانت العلاقات البريطانية حسنة — نوعاً ما — مع فرنسا ، ولكن لاتزال متردية جداً مع كل من روسيا وألمانيا ، ولاتزال روسيا — من وجهة نظر بريطانيا — تشكل خطراً كبيراً على مصالح بريطانيا بسبب (بورت آرثر) . ومن ثم كان من المتعذر عليها أن تتحالف مع أى من ألمانيا وفرنسا ، وحيث أن الخطر الأكبر المهدد لبريطانيا فى ذلك الوقت كان النشاط الروسى فى الشرق الأقصى اتجه الإنجليز إلى التفاهم مع اليابان على مواجهة هذا الخطر الروسى المشترك أولا . وكانت اليابان فى حاجة إلى كسب بريطانيا بالذات حتى تعد نفسها لضرب روسيا وهى مطمئنة إلى أن أكبر دولة بحرية لا تعرقل مشروعاتها العسكرية وإلى أن أية دولة أخرى لن تدخل الحرب إلى جانب روسيا . ولهذا كانت المفاوضات بين الطرفين البريطانى

(١) Delcassé

واليابانى غير معقدة وتوصلا إلى التعاهد اليابانى الإنجليزى فى ١٩٠٢ الذى يعتبر النهاية الفعلية للعزلة البريطانية ، وهى السنة نفسها التى أشاح فيها الإنجليز نهائياً عن التعاهد مع ألمانيا .

وكان هذا التعاهد ينص على : ـ

١ ـ الاعتراف بالأمر الواقع فى شرق آسيا ، وفى كوريا والصين .

٢ ـ إذا وقعت الحرب بين اليابان وروسيا تقف انجلترا على الحياد .

٣ ـ وإذا تدخلت دولة أخرى ـ كفرنسا مثلا ـ لمساعدة روسيا تقدم إنجلترا المساعدة العسكرية لليابان .

٤ ـ مدة هذا الوفاق خمس سنوات[1]

ومن وراء هذه المواد كانت هناك بعض النتائج التى ترتبت عنها وهى :

١ ـ اعتراف ضمنى بريطانى بنفوذ اليابان فى كوريا .

٢ ـ حصلت اليابان على الثقة الذاتية التى كانت فى حاجة إليها ، وأصبحت واحدة من القوى الدولية التى يجب أن تعامل على قدم المساواة مع الدول الأخرى الكبرى الأوربية . وكانت هذه هى أول مرة تظهر فيها مكانة دولة آسيوية على هذا النحو من المساواة فى عقد التحالفات .

٣ ـ ليس فى إستطاعة فرنسا أن تدخل الحرب إلى جانب حليفتها روسيا وإلا هدمت ماسبق أن وطدته من علاقات طيبة مع بريطانيا منذ ١٨٩٩ ، وعرضت نفسها لحرب كبيرة ليست موجهة من أجل إسترداد الإلزاس واللورين .

وفعلا إنفردت اليابان بروسيا وانزلت بها هزيمة قاسية جداً ، واستولت على (بورت آرثر) فى مارس ـ آذار ١٩٠٥ . وفى المعاهدة التى أنهت الحرب بين

---

(١) عدل فى ١٩٠٥ ـ بعد الحرب اليابانية الروسية وجدد فى ١٩١١

الدولتين ، وهى معاهدة بورتسموث[1] (٥ نوفمبر - تشرين الثانى ١٩٠٦) ، حصلت اليابان على تفوق كبير جداً فى الشرق الأقصى . فقد اعترفت روسيا بتفوق المصالح الاقتصادية والعسكرية اليابانية فى كل من كوريا ومنشوريا ، كما وافقت على نقل حقوق روسيا فى شبه جزيرة (لياوتونج) و (بورت آرثر) إلى اليابان ، وكذلك بالنسبة لخط حديد بورت آرثر - موكدن[2] وعلى نصف سخالين[3] .

ونتيجة لهذا الانتصار اليابانى ، توقفت الأطماع الروسية فى اتجاه الصين حتى لا يقع صدام جديد مع اليابان ، كما توقفت فى اتجاه أفغانستان حتى لاتقع حرب ضد إنجلترا ، بل لقد إتفقت روسيا مع اليابان فى ١٩٠٧ و ١٩١٠ على تحديد مناطق نفوذهما فى كل من منشوريا ومنغوليا منعا لوقوع مضاعفات جديدة فى المنطقة . ولهذا هدأت حدة المنافسات الاستعمارية فى الشرق الأقصى[4] .

---

(١) Portsmouth. (٢) Mukden

(٣) كان لانتصار اليابان على روسيا - وهو أول انتصار تحرزه دولة شرقية على دولة أوربية - صداه الكبير فى الدول الشرقية . وخاصة تلك الدول التى كانت تعانى من تسلط واستعمار الدول الأوربية، مثل مصر .

(٤) يلاحظ أن الدول الكبرى الأوربية تعقلت إزاء الثورة الصينية (١٩١٠ — ١٩١١) فلم تنتهزها للحصول على مكاسب جديدة ، ووقفت على نوع من الحياد المتوازن .

(٤)

الوفاق الودى البريطانى الفرنسى

١٩٠٤

حقيقة كان الإنتصار اليابانى ، كما كانت حادثة فاشودة(١) إذلالا لهذا الطرف من الحلف الثنائى أو ذاك (روسيا وفرنسا) . إلا أن نتائجهما أدت إلى إقتراب بريطانيا من الحلف الثنائى . وذلك يرجع إلى عدة أسباب وتطورات :

١ — كان واضحاً أن ألمانيا تثير الكثير من المتاعب والمخاوف والإرتباك فى الدوائر السياسية البريطانية بسبب الجهود الضخمة التى كان يبذلها القيصر ولهلم الثانى لانشاء أسطول ألمانى حربى قوى يضارع — إن أمكن — الأسطول البريطانى ، الأمر الذى يهدد بتحطيم نظرية التفوق البريطانى البحرى الساحق .

٢ — كانت الدبلوماسية الألمانية — رغم المعاهدة البريطانية الكويتية لسنة ١٨٩٩ — نشطة للغاية من أجل تنفيذ مشروع خط حديد برلين — بغداد ذلك الخط الذى كان فى نظر الانجليز رأس حربة مصوبة إلى الهند البريطانية .

٣ — تصاعدت المضايقات الألمانية لحكومة الاحتلال البريطانى فى مصر للدرجة التى جعلت الانجليز مضطرين فى الحصول على تأييد فرنسا لمشروعات بريطانيا الإستعمارية فى مصر والسودان(٢) .

---

(١) وقعت فى ١٨٩٩ .

(٢) تحدث لورد جراى فى مذكراته عن تلك المضايقات لا فى مصر وحدها بل ، وكملك فى المستعمرات الأخرى البريطانية فى إفريقية بالذات .

٤ ـ كانت بريطانيا تريد أن تتجنب صداماً مع فرنسا فى المناطق التى كانت تعتبرها الأخيرة مجالا حيويا لها ، مثل (المغرب) ، فمع أن النفوذ البريطانى كان ينمو بسرعة هناك ـ أى فى المغرب ـ كانت الدوائر السياسية البريطانية تتحفظ فى الاندفاع فى هذا التيار توقعاً لمطالبات شديدة فرنسية فى (المغرب)

ه ـ انعكست مشاعر التقارب بين الطرفين على طبيعة العلاقات الودية بينهما ، فقد ساعدت الزيارة التى قام بها ملك انجلترا (إدوارد السابع) فى ٩٠٢ لفرنسا فى خلق جو من الألفة والتعاطف بين الصحافة الفرنسيه والبريطانية وبين الشعبين[١] .

٦ ـ كان هانوتو[٢] ـ وزير فرنسا ـ معارضا للتقارب الفرنسى البريطانى ، ولم يلبث التعديل الوزارى أن أبعده وتولى الوزارة (ديلكاسيه)[٣] الداعية الأول للتقارب مع بريطانيا . وما كان ليتمكن من تحقيق هذا التقارب وقطف ثماره إذا كانت فى الوزارة البريطانية معارضة لمثل هذه التقارب ، ولقد كانت وزارة بلفور[٤] مقتنعة جداً بقيمة هذا التقارب فى هذه الظروف .

اتجه الطرفان الفرنسى والبريطانى إلى الدخول فى مفاوضات تمهيدية حددت المشكلات الرئيسية المعلقة ، وانتهت هذه المفاوضات بعقد الوفاق الودى[٥] فى ٨ إبريل ١٩٠٤ .

تضمن هذا الوفاق مواد علنية وسرية ، وكان هناك اعتقاد عام بأن الدول الأوربية الكبرى الديمقراطية مثل بريطانيا لاتجيز برلماناتها مثل هذه الاتفاقات

---

(١) ضخم بعض المؤرخين دور ادوارد السابع فى تحقيق الوفاق الودى .

(٢) Hannotaux.

(٣) Delcassé

(٤) Balfour وظلت وزارته فى الحكم بين ١٩٠٢ — ١٩٠٥ .

(٥) Entente Cordiale .

لسرية . ولكن الحكومة البريطانية والبرلمان البريطانى كانا على مستوى عالى من المرونة واتساع الأفق وبعد النظر السياسى من أجل الدفاع عن مصالح بريطانيا الذاتية .

نصت المادة الثانية من هذا الوفاق على اعتراف الحكومة البريطانية بأن : « لفرنسا ـ بصفة خاصة ولكونها دولة متاخمة للمغرب ... أن تسهر على الإستقرار فى هذا البلد ، وأن تقدم له مساعدتها بالنسبة لكل الإصلاحات الإدارية والإقتصادية والمالية والعسكرية التى تحتاجها » . وتعلن أنها لن تعرقل عمل فرنسا فى هذا الصدد ووافقت الدولتان على إحترام حقوق أسبانيا فيما عرف فيما بعد باسم (الريف) الأسبانى ، وعلى عدم تسليح الساحل المغربى المواجه لجبل طارق .

وبالنسبة لمصر ، أعلنت فرنسا أنها لن تعرقل عمل إنجلترا فى مصر ولن تطلب تحديد أجل الإحتلال الإنجليزى .

وسويت كذلك المشكلات بين الدولتين فى كل من سيام ومدغشقر وغمبيا والنيجر ونيوفوندلاند ، واتفق على أن يكون وادى نهر ميكونج وجبال رانج حداً فاصلا بين الهند الصينية الفرنسية وبورما والملايو البريطانيتين .

° ° °

كانت الحكومة الألمانية قد أدركت خلال ١٩٠٤ ـــ ١٩٠٥ أن شيئاً خطيراً ضدها يدبر بين فرنسا وبريطانيا وعمل القيصر فى اتجاهين : ـ

(ا) محاولة كسر الحلف الثنائى الفرنسى الروسى منتهزاً فرصة الهزيمة التى منيت بها روسيا أمام اليابان .

(ب) إخراج فرنسا فى أزمة دولية حتى يكتشف مدى قوة العلاقة الجديدة بينها وبين بريطانيا ، ولقد أعطته المشكلة المغربية فرصة لذلك .

فبالنسبة لروسيا عمل القيصر ولهلم الثانى على إقناع القيصر (نيقولا الثانى) بقيمة عقد معاهدة دفاعية بين روسيا وألمانيا . وحيث أن ولهلم الثانى كان يدرك أن الوقت ضد خطته أسرع بزيارة القيصر الروسى فى (بيوركو)[1] فى يوليو ١٩٠٥ ، وحصل على توقيعه على المعاهدة . إلا أن سياسيى روسيا رفضوا هذه المعاهدة التى عقدت من وراء ظهورهم ، للأسباب التالية : —

١ — أن هذه المعاهدة تقضى على الحلف الثنائى مع فرنسا وتفقد روسيا بالتالى قوة الضغط على الحلف النمساوى — الألمانى .

٢ — ستصبح كلمة روسيا فى البلقان أضعف من كلمة النمسا .

٣ — ستنطلق ألمانيا بقوة أكبر من مشروعاتها شبه الاستعمارية فى الدولة العثمانية ، تلك الدولة التى تعتبرها روسيا مجالها الحيوى .

كانت الحكومة الألمانية خلال عام ١٩٠٤/١٩٠٥ قد أدركت أن شيئاً يدبر فى إتجاه المغرب إذا كانت مخططات فرنسا تؤكد أنها تعمل على إبعاد ألمانيا عن المغرب ، رغم تأكيدات فرنسا الملتوية لألمانيا بأن سياسة « الباب المفتوح » ستظل سارية المفعول فى المغرب . والحقيقة هى أن فرنسا كانت تسير حثيثاً فى سياسة إحتكار النفوذ والتسلط على المغرب والتفوق على التجارة الألمانية هناك . وأرادت الحكومة الألمانية أن تضع فرنسا فى موقف حرج تضطر فيه إلى كشف نواياها بالنسبة للمغرب وطبيعة علاقاتها الأكثر من ودية مع بريطانيا . ولعلها تكسب من وراء ذلك استمرار سياسة الباب المفتوح أو موضع قدم ألمانى فى المغرب الواقع على الطريق إلى المستعمرات الألمانية فى إفريقية وذهب القيصر ولهلم الثانى فى هذا الصدد إلى القيام بزيارة لطنجة (مارس ١٩٠٥) ، وهناك أعلن رغبته فى

---

(١) Bijorko

أن يظل السلطان مستقلا فى نفس الوقت الذى يظل فيه باب المغرب مفتوحا أمام جميع الدول . ثم طالبت الحكومة الألمانية بعقد مؤتمر دولى لبحث مشكلة المغرب (إبريل ١٩٠٥) وأدت معارضة (دلكاسيه) لفكرة عقد المؤتمر — التى لقيت ترحيباً فى معظم الدوائر السياسية الأوربية ، وفى واشنجتن أيضاً — إلى استقالته، ولكن بعد أن أنجز التفاهم البريطانى الفرنسى الذى استمر بشكل أو بآخر حتى وقتنا هذا .

دارت مفاوضات متعددة الأطراف قبل عقد المؤتمر ، بين فرنسا وألمانيا ، وفرنسا وأسبانيا ، وفرنسا وانجلترا . وواضح من هذا أن الدبلوماسية الفرنسية نشطت إلى أقصى قدراتها لمواجهة الضغوط الدولية والألمانية على فرنسا .

لقد كان هذا أول اختبار لمدى صلابة الوفاق الودى الفرنسى البريطانى فوقفت بريطانيا بقوة إلى جانب فرنسا ، فى وقت كانت فيه التهديدات الألمانية قد وصلت إلى الحد الذى قال فيه مسئولون ألمان أنه لو عبرت الجيوش الفرنسية الحدود الجزائرية — المغربية فستعبر الجيوش الالمانية الحدود الفرنسية .

واستطاعت الدبلوماسية الفرنسية — قبل عقد مؤتمر الجزيرة — أن تحصل من ألمانيا على إعتراف بمصالح خاصة فرنسية فى المغرب فى مقابل اعتراف فرنسا باستقلال المغرب ، واتخاذ التدابير اللازمة لإدخال الاصلاحات إلى الحكومة المغربية ، وخاصة فيما يتعلق بالشرطة والمالية :

تحدد يوم افتتاح المؤتمر فى ١٦ يناير ١٩٠٦ ، وتضمنت الكلمة التى ألقاها رئيس المؤتمر الدوق دالمودوفار — عند افتتاح المؤتمر الأهداف الثلاثة التالية : —

١ — سيادة السلطان .

٢ — عدم الافتيات على أرض الدولة المغربية

٣ — سياسة الباب المفتوح فى المغرب أمام كافة الدول الأوربية .

ومع هذا انتهى المؤتمر إلى نتائج معاكسة وضد مصالح ألمانيا وأهدافها بالذات، فقد دفع السلطان عرشه ثمنا لهذا التدخل الدولى في أمور بلاده. واحتكرت فرنسا التسلط العسكرى والإقتصادى فى المغرب تاركة الريف (لأسبانيا)، ومهد كل هذا لفرض الحماية الفرنسية على المغرب فى ١٩١٢

والسبب فى خروج ألمانيا مهزومة من هذا المؤتمر يرجع إلى أن حلفاء ألمانيا لم يقفوا إلى جانبها بالصلابة اللازمة فقد كانت حكومة النمسا مترددة، وكانت إيطاليا تحث على السلام والتفاهم، وبالتالى خرجت دولتى الوفاق الودى أقوى مما كانتا عليه قبل المؤتمر.

كما كان الاتجاه العام فى أوربا الغربية ضد ألمانيا حتى بدت هذه شبه معزولة سواء قبل المؤتمر أو خلاله أو بعده. وكان إنضمام بريطانيا – على أساس الوفاق الودى – إلى دولتى التحالف الثنائى (روسيا وفرنسا) قد جعل كفة هذا الحلف راجحة بوضوح، وجعل روسيا وفرنسا – وكانت حكومة بريطانيا تدرك ذلك – تشتطان فى العمل ضد ألمانيا.

ولم تتردد بريطانيا عن تقديم المغرب إلى فرنسا فى وقت كانت فيه أوربا تقبل – وبكل بساطة – تسوية مشكلاتها الدولية على حساب البلاد العربية حتى لاتتورط فى حرب لاتعرف عواقبها.

وأدى ذلك كله إلى نتائج ستكون خطيرة على مستقبل أوربا ومسئولة عن الإسراع فى وقوع الحرب العالمية الأولى :

١ – لقد سبق أن عقدت عدة مؤتمرات دولية – وبالأخص مؤتمر برلين ١٨٧٨ – لعلاج الصدامات الأوربية الناتجة عن التنافس فى اقتناص أجزاء من الدولة العثمانية، ولكن ظهور التكتلات الأوربية جعل قرارات وتوصيات هذا المؤتمر

لا يعتد بها إلا إذا سارت وفق الأهداف الخاصة لدول هذه التكتلات . وحيث أن مصالح الكتلتين كانت متضاربة سارت الأمور نحو فكرة استخدام التهديد باللجوء إلى القوة عند العمل على تغيير الوضع الراهن Status quo فى أية بقعة من العالم لصلحة إحدى التكتلات .

وفى مثل هذه الظروف يصبح تغيير الوضع الراهن إنتصاراً لطرف وهزيمة لطرف آخر ، وقد تكررت مثل هذه الأحداث ، وقد يتحمل هذا الطرف أو ذاك نمواً استعماريا أو إقتصادياً فى هذه المنطقة من العالم أو تلك ، ويمكن أن يتقبل هزيمة سياسية مرة أو أكثر من مرة ، إلا أن التطورات كانت تسير فى اتجاه تصعيد الأزمات وبالتالى فى اتجاه الحرب . ولقد كانت فرنسا تعمل لهذا الهدف النهائى الذى كان فى نظرها الوسيلة الوحيدة لإسترداد الألزاس واللورين ، وكانت بريطانيا عندما عقدت وفاقها مع فرنسا فى ١٩٠٤ تدرك أن ميزان القوى قد اختل بشكل صارخ ، وأن التطورات ستؤدى إلى حرب إذا استمرت ألمانيا فى سياسة الحصول على مكانه إستعمارية وعسكرية موازية على الأقل لبريطانيا وكسر إحتكار التفوق البحرى والإستعمارى البريطانى . وكانت الحكومة والشعب البريطانى يرى — عن إيمان حقيقى بمصلحته — أن لاحق لأية دولة فى الوصول إلى قوة بحرية مماثلة لها ، وكان القيصر الألمانى يعتقد أن الشعب الألمانى صاحب رسالة فى هذا العالم ويجب أن يصبح فى ذورة القوة لا دفاعاً عن نفسه وكسراً للاحتكار البحرى الإستعمارى البريطانى فقط ، بل كذلك لإعطاء الشعب الألمانى دوره فى توجيه تاريخ العالم .

٢ — حصلت ألمانيا على مشاركة فى توجيه أمور المغرب الإقتصادية . إلا أن الأمور كانت تسير نحو انفراد فرنسا بالمغرب ، دون أن تتمكن ألمانيا من منعها من ذلك إلا بالحرب ، ولكن كانت كفة فرنسا هى الراجحة إذ كان

وقوف بريطانيا إلى جانبها قد قلب موازين القوى ضد ألمانيا وجعل الأخيرة هى المعزولة لا فرنسا .

وكانت محاولة ولهلم الثانى كسر الحصار الذى ضرب على ألمانيا عندما زار القيصر الروسى فى (بيوركو) هى الأخيرة ، فى هذا الصدد ، وانتهت بفشل ذريع وبتماسك أشد بين روسيا وفرنسا خاصة وأن الأخيرة استخدمت قدراتها المالية فى سد حاجات روسيا إلى رءوس الأموال الملحة . واستخدمت قدراتها الدبلوماسية فى التقريب بين روسيا وانجلترا . الأمر الذى مهد للوفاق الروسى — البريطانى فى ١٩٠٧ .

(٥)

الوفاق الروسى البريطانى

١٩٠٧

أشرنا إلى ذلك العداء الذى كان بين روسيا وبريطانيا منذ الحرب الروسية اليابانية . فلقد اكتشفت روسيا خلال ذلك أن اعتمادها على تدخل بريطانى ضد اليابان كان مجرد وهم قاتل . بل ضايقت بريطانيا الأسطول الروسى وهو فى طريقه إلى الشرق الأقصى مستغلة فى ذلك سيطرتها على قناة السويس وكان مجرد وجود تحالف يابانى ـ بريطانى يمنع فرنسا عن تقديم المساعدة ـ إن استطاعت ـ لحليفتها روسيا .

وكانت مرارة روسيا شديدة ، ولكن فرنسا قدمت مساعدات مالية لروسيا وخففت من محنتها[١] . وقدمت نصائح دبلوماسية جوهرية مؤداها أن بريطانيا ـ رغم تلك المواقف الخطيرة بالنسبة لروسيا ـ هى التى تستطيع أن تقلب التوازن الدولى لصالح الحلف الثلاثى أو لصالح الحلف الثنائى .

وكانت حكومة روسيا بعد تلك الهزيمة ، وبعد إخماد الثورة الكبيرة الداخلية فيها (١٩٠٥) ، وترى عن حق ـ أنها فى حاجة إلى أصدقاء بدلا من إثارة العداوات سواء القديمة التقليدية أو الجديدة . وكانت هذه الحكومة كذلك تدرك تماماً أن القوى التى تحول دون نموها وتوسعها هى : ـ

(ا) بريطانيا .

(ب) امبراطورية النمسا والمجر .

(حـ) ألمانيا .

ولم يبق أمام روسيا من جهات تتوسع فيها ـ بعد أن أغلقت اليابان فى وجهها الشرق الأقصى ـ سوى :

---

(١) كانت روسيا تعانى فى ١٩٠٥ من ثورة داخلية مروعة .

(ا) الدولة العثمانية فى إتجاه الأناضول والعراق .

(ب) الدولة العثمانية فى اتجاه البلقان . (حـ) إيران .

فيما يتعلق بالتوسع على حساب الدولة العثمانية من أية جهة كانت ، بريطانيا تعارض ذلك بقوة خوفاً على المضايق (الدردنيل والبسفور) من الوقوع فى يد روسيا فضلا عن أن بريطانيا كانت تعارض مجرد فتح هذه المضايق أمام السفن الحربية الروسية . وتعارض أيضاً بشدة أى توسع روسى فى اتجاه الأناضول وشمالى العراق ، إذ كان الإنجليز يتهمون السياسة الروسية بالتخطيط للوصول إلى الخليج العربى مفتاح الطريق إلى الهند[1] .

وفيما يتعلق بالبلقان كانت إمبراطورية النمسا والمجر تعارض كل تحرك روسى هناك وتواجهه بتحرك مضاد ، وكانت نفس السياسة تتبعها روسيا إزاء النمسا فى البلقان . ولكن كانت الدول البلقانية كثيرة التقلب فى سياستها إذ كانت تميل هذه الدولة أو إلى تلك سعياً وراء المكاسب الأرضية بأية طريقة .

ونظراً لعدم قدرة أى من روسيا والنمسا على التحكم فى نتائج تفوق أى منهما فى البلقان ، ولخطورة مثل هذا التفوق على التوازن الدولى ، اتفقتا فى ١٨٩٧ على الإبقاء على الوضع الراهن[2] فى البلقان ، واستمر الأمر كذلك حتى ١٩٠٣ عندما وقعت الثورة فى (مقدونيا)[3] ضد الاستبداد التركى . ومنذ ذلك الوقت والتنافس الروسى ـ النمساوى يتصاعد ، وأخذ شكل « حرب خطوط مواصلات » عندما وضعت النمسا مشروعا لمد خط حديدى يفصل بين الصرب والجبل الأسود ، وعندما ردت روسيا على ذلك بمشروع لخط حديدى من شرق الصرب إلى ساحل بحر إيجه ، وكان أخشى ما تخشاه النمسا هو أن تطل الصرب على بحر إيجه .

---

(١) أنظر تفاصيل الصراع الدولى على العراق فى : عبد العزيز نوار : « المصالح البريطانية أنهار العراق » و « مصر والعراق » .

(٢) Status quo

(٣) Macedonia.

ومن ثم كان أى نشاط ملحوظ روسى فى البلقان مثيراً للأزمات الدولية المعقدة، وماكانت نتائج هذه الأزمات باستمرار لصالح روسيا ، بل كثيراً ماكانت جهود روسيا خلال التدخل فى البلقان لصالح دول البلقان أولا . ومع هذا كانت روسيا مضطرة باستمرار لأن يكون لها سياسة مؤثرة فى توجيه أمور البلقان حفاظا على مكانتها الدولية . ونفس الأوضاع كانت بالنسبة للاتجاهات التوسعية الروسية فى الدولة العثمانية ، ولكن أصبحت آمال روسيا فى المشاركة فى تحديد مصير ولايات الدولة العثمانية مهددة بالتلاشى بسبب الدور المتصاعد الذى أخذت تلعبه ألمانيا فى الدولة العثمانية وخاصة فيما يتعلق بمشروع مد خط حديد برلين — بغداد حتى كاظمة فى الكويت . وأصبحت ألمانيا — إلى جانب بريطانيا — قوة جديدة تحول دون الإنطلاق فى الدولة العثمانية . بل أصبح هناك إعتقاد فى الدوائر السياسية الأوربية أن (المجال الحيوى) لألمانيا هو الدولة العثمانية وبوجه خاص فى الأناضول والعراق .

لم تبق سوى إيران (فارس) لتعمل فيها روسيا ولتثبت للعالم أن روسيا لاتزال دولة كبيرة ، إذكان النشاط الإستعمارى فى أراضى الدول الضعيفة أحد مظاهر القوة حينذاك . ولكن منذ قرن تقريباً وروسيا تواجه مقاومة بريطانية سرية وعلنية لمشروعاتها التوسعية فى فارس .

وأصبح أمام روسيا لكى تفتح الطريق أمام نشاطاتها التوسعية أن تصل إلى تفاهم مع الحلف الثلاثى أو مع بريطانيا . وحيث أن أى تفاهم مع ألمانيا يقضى بالضرورة على التحالف الروسى — الفرنسى بات التفاهم مع بريطانيا أكثرواقعية.

وكانت بريطانيا فى ١٩٠٦ — ١٩٠٧ قد قلت من تعنتها ضد روسيا التى أصبحت مهيضة الجناح بعد نكبتها أمام اليابان ، إذ أصبح من المستبعد جداً على روسيا أن تقامر بخوض حرب جديدة ضد دولة كبيرة . وإذا قورن هذا الموقف الروسى بنمو قدرات ألمانيا العسكرية وبمشروعاتها الاقتصادية التى كانت تهدد بريطانيا

ومستعمراتها ، وبوجه خاص التطور العسكرى الألمانى البرى والبحرى ومشروع خط حديد بغداد ورفع معدلات صادراتها الصناعية بشكل ضخم، حتى لقد اكتسبت المصنوعات الألمانية فى وقت قصير شهرة عالمية أصابت التجارة البريطانية بخسائر تتزايد على مر السنوات، لكان من الواضح أن هناك عدوا مشتركا لكل من روسيا وبريطانيا هو ألمانيا ، وأن المشكلات القائمة بين روسيا وبريطانيا قابلة للحل بعكس المشكلات بين روسيا وكل من ألمانيا والنمسا .

ومما لاشك فيه أن الدور الذى لعبته فرنسا فى فتح الطريق أمام التقارب الروسى-البريطانى ، وفتح باب المفاوضات بين الطرفين لتسوية نقاط الخلاف بينهما يعتبر واحداً من أكبر الانتصارات الدبلوماسية الفرنسية فى فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى .

نجحت الوساطة الفرنسية فى التقريب بين حكومتى روسيا وبريطانيا ، وذلك لأن فرنسا لم تلح على عقد تحالف بين بريطانيا روسيا وإنما مهدت لنوع من الوفق على شاكلة ذلك الوفاق الودى لسنة ١٩٠٤ . وأخيراً وقعت اتفاقية روسية بريطانية فى ٣٠ أغسطس ١٩٠٧ وضعت النصف الشمالى من إيران تحت تصرف روسيا والنصف الجنوبى تحت تصرف بريطانيا ، أما الوسط فترك للشاه القاجارى[1]. والطريف فى هذا الوفاق الودى الروسى - البريطانى أنه يؤكد العمل على تدعيم استقلال الشاه وبلاده ، ولقد سبق أن فعلت بريطانيا وفرنسا - وهما بصدد الوفاق الودى لسنة ١٩٠٤ - نفس الشىء بالنسبة للمغرب (مراكش) .

إن قيمة هذا الوفاق الودى (الفرنسى البريطانى) ثم (البريطانى الروسى) يمكن أن تتضح - بالنسبة لهذه الدول بالذات - عندما نشير إلى نظرية ظهرت فى ذلك الوقت قال بها العلامة الإنجليزى (مكندر) بصدد الأوضاع الإستراتيجية العالمية . وملخص هذه النظرية هو :

---

(١) أنظر تفاصيل هذا الموضوع فى: عبدالعزيز نوار : الشعوب الإسلامية . مكتبة النهضة ، بيروت ١٩٧٢ .

أن من يحكم (شرق أوربا) يستطيع أن يسيطر على (قلب العالم) ، ومن يسيطر على قلب العالم ليستطيع أن يتحكم في (العالم القديم) ، ومن يتحكم في العالم القديم لن يلبث أن يسيطر على العالم بأسره .

ومن ثم لم يكن في استطاعة ألمانيا وامبراطورية النمسا والمجر بعد عقد هذين الوفاقين أن يسيطرا على شرق أوربا كله دون حرب ضروس في ظروف العالم في مطلع القرن العشرين .

ما أن عرف هـذا الوفاق الودى الروسى ـ البريطانى حتى أدركت ألمانيا أن الطوق قد أحكم عليها . وأصبحت أوربا ـ بل العالم ـ أمام كتلتين شاكيتى السلاح كل منهما تتربص بالأخرى وكل الدول ـ فى كل خطوة تخطوها ـ بحسب حساب وجهات نظر أى من هاتين الكتلتين ولـكن بصفة عامة كانت كفة دول الوفاق أقوى من كفة دول التحالف(١) الثلاثى . والسبب فى هذا هو أن بريطانيا كانت صاحبة تفوق بحرى كبير يعادل ضعف أية قوة تالية لها ، وفوق هذا أصبحت حليفة (اليابان) فى الشرق الأقصى ، وتحملت اليابان فى ٥ ١٩ مسئولية الدفاع البحرى عن الهند فى حاله تعرضها للهجوم ، كما أصبحت على وفاق مع فرنسا أكبر قوة بحرية ضاربة فى البحر المتوسط .

وكان هذ الارتباط البريطانى بروسيا وفرنسا من العوامل الجوهرية التى أعطت لروسيا وفرنسا ثقة فى النفس أكبر جعلتهما فى بعض الأزمات ـ وليس فى كلها ـ تواجهان التحدى بمثله و ثبات ثابت . وكانت الأزمات هى التى قوت من ترابط دول الوفاق أكثر فأكثر ، وأسرعت بأوربا إلى الحرب . وعلى رأس هذه الأزمات الـكبرى :

١ ـ أزمة ضم إمبراطورية النمسا والمجر للبوسنة والهرسك ١٩٠٨ .

٢ ـ أزمة أغادير ١٩١١ .

٣ ـ الحروب البلقانية ١٩١١ — ١٩١٣ .

---

(١) مع ملاحظة أن (التحالف) أقوى من (الوفاق) من حيث مدى الإلتزام بالنسبة للدول المتعاقدة . فالوفاق لا يلزم بريطانيا بدخول حرب إلى جانب فرنسا ، وإنما التحالف يلزم روسيا بالدخول إلى جانب فرنسا .

الفصل السادس

الأزمات الدولية الممهدة

للحرب العالمية الأولى

- أزمة ضم البوسنة والهرسك (١٩٠٨)
- أزمة أغادير (١٩١١)
- حروب البلقان (١٩١٢ — ١٩١٣)
- مصرع ولى عهد النمسا
- الدول المشاركة فى الحرب

فى أعقاب عقد الوفاق الروسى ـ البريطانى بدا واضحا أن أوربا تسير نحو مجابهة بين المعسكرين ، وأن مجالات المصالحة أصبحت شبه معدومة ، وكانت مجالات إختيار الصلابة هى الباقية ، وهى سياسة (حافة الحرب) وهى التى ستسيطر على العالم منذ ١٩٠٨ حتى نشوب الحرب فى ١٩١٤ . وكانت قوى العالم الاخرى — وخاصة اليابان والولايات المتحدة الأمريكية — تراقب عن كثب تطور الازمات بين الكتلتين حتى وصلت الأزمات ذروتها نتيجة حادثة من الحوادث التى وقعت كثيراً فى أوربا ونعنى بذلك اغتيال فرانز فرديناند ولى عهد النمسا ، فكان الأزمة التى أشعلت نيران الحرب العالمية الاولى .

(١)

أزمة ضم البوسنة والهرسك

كانت إمبراطورية النمسا والمجر قد تولت إدارة هذين الإقليمين التابعين للدولة العثمانية وفقاً لمقررات مؤتمر برلين ١٨٧٨ . وكانت حكومة النمسا تتطلع إلى ضم هذين الإقليمين لأسباب تتعلق بأمنها وسلامة إمبراطوريتها فى المرتبة الاولى حيث أن مطالبة قومية من قوميات إمبراطورية النمسا والمجر بالاستقلال يعنى تفكك هذه الإمبراطورية المكونة من العديد من القوميات .

هذا بينما كانت حركة (الجامعة الصربية) تقوى سنة بعد أخرى وكان معنى هذا أن الملايين من الصرب الذين يعيشون تحت حكم إمبراطورية النمسا والمجر — سيطالبون إن عاجلا أو آجلا بالانضمام إلى بنى قوميتهم فى مملكة الصرب . وكانت حكومة الصرب حتى ١٨٨٢ موالية للنمسا حتى وقع انقلاب ووضع على العرش بطرس قره جورجيفتش فى ١٩٠٣ وبدأت موجة من الدعاية داخل إمبراطورية النمسا والمجر نفسها « للصرب الكبرى » الأمر الذى كان يعتبر تهديداً مباشراً لكيان هذه الإمبراطورية المتعددة الشعوب .

وكانت هناك دعايات صربية قوية بضم الصربيين الموجودين فى ولايتى (البوسنة) و (الهرسك) العثمانيتين إلى الدولة الأم (صربيا). ولكن التطورات فى الدولة العثمانية أدت إلى ظروف جديدة فى هذه القضية، فقد حدث أن قامت فى ١٩٠٨ ثورة عسكرية ضد السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى وضد نظام حكمه الإستبدادى الذى أطمع الدول الكبرى فى اقتسام بلاد هذه الدولة، وتزعم هذه الثورة رجال جمعية ثورية عرفت باسم «جمعية الإتحاد والترقى»، وكان أحد أهدافها الرئيسية إعادة الحكم الدستورى فى الدولة وإعادة سيطرة الأتراك بقوة على مختلف أجزاء الولايات. وفعلاً تحركت قطاعات عسكرية قوية يقودها ضباط ينتمون إلى تلك الجمعية، وسيطروا على الحكم منذ تلك السنة وعرفوا باسم (الإتحاديين).

عندما قرر الإتحاديون القيام بثورتهم هذه إتجهوا إلى إعطاء حركتهم شكلاً عاماً، بأن طلبوا من أهالى الولايات المتحدة — ومنها (البوسنة) و (الهرسك) — إرسال مندوبين عنهم للاجتماع بأعضاء جمعية الإتحاد والترقى.

ولكن حكومة الامبراطورية النمساوية كانت قد رأت فى تلك الثورة فرصة ثمينة لضرب عصفورين بحجر واحد:

١ — ضم الولايتين (البوسنة والهرسك) قبل أن يفيق الأتراك من مشاكلهم الثورية الداخلية.

٢ — توجيه ضربة قاصمة للامانى القومية الصربية المتعلقة بهاتين الولايتين.

إلا أن تغيير خريطة البلقان على هذا النحو ماكان ليتم إلا بعد أخذ موافقة مسبقة من روسيا. وكان (اهرنتال) — السياسى النمساوى الكبير — يدرك تماماً هذه الحقيقة، فوضع خطته على أساس استدراج روسيا إلى اعتراف بحق ضم الولايتين (البوسنة) و (الهرسك) ثم فرض الأمر الواقع عليها بحيث لاتستطيع روسيا الإفادة من هذا التغيير. ولهذا دخل فى مفاوضات مع (إزوولسكى) — السياسى الروسى — بقصد تسوية مشكلة ضم (البوسنة والهرسك) إلى النمسا على أساس حصول روسيا على تعويض مناسب. وكان (اهرنتال) من الدهاء لأن يقدم

روسيا موافقة حكومته على مطالب روسية التقليدية الخاصة بحقها فى مرور أسطولها الحربى عبر مضايق الدردنيل والبسفور ، وكان يدرك أن أعداء روسيا وحلفاءها على السواء — وبوجه خاص — انجلترا لا يمكن أن تقبل تحقيق مثل هذه المطالب . ودبر (إهرنتال) ونفذ خطته بمهارة . فقد دارت هذه المفاوضات دون علم من جانب فرنسا ، وفى نفس الوقت اتفق مع ملك بلغاريا — وكان لا يزال تحت السيادة الإسمية للسلطان العثمانى — على أن يعلن إستقلاله ، ولم تلبث أن أعلنت إمبراطورية النمسا والمجر فجأة ضم البوسنة والهرسك (١٩٠٨) .

ولم يعتبر هذا الضم ضربة موجهة ضد الدولة العثمانية بقدر ما اعتبر ضربة قاسية لمملكة الصرب الفتية ولحركتها القومية ، وضربة غادرة بروسيا إذ حصلت النمسا على هدفها بينما أصبح على روسيا المطالبة بتنفيذ فكرة التعويض .

أبدت حكومة روسيا الكثير من الضجة الدبلوماسية وقليلا من التهديد العسكرى ، ولجأت إلى حليفتها القديمة (فرنسا) وإلى صديقتها الجديدة (بريطانيا) ولكن فرنسا رفضت أن تقف إلى جانب روسيا وقفة الحليف لأن روسيا كانت تدبر مع النمسا من وراء ظهرها أموراً كان يجب أن يؤخذ رأيها فيها . أما وقد غدرت حكومة النمسا بروسيا فهذا أمر — من وجهة نظر الدبلوماسية الفرنسية — لا يلزم فرنسا بالوقوف إلى جانب حليفتها روسيا .

أما بريطانيا فكان موقفها فى هذه المسألة هو نفس موقفها التقليدى خلال القرن الماضى . وهو الإبقاء على المضايق مغلقة فى وجه الأسطول الحربى الروسى . بينما كان طبيعياً أن تضغط ألمانيا على روسيا كى تكف عن تصعيد الأزمة ، وبذلك تكون روسيا قد واجهت هزيمة دبلوماسية فى (١٩٠٨) مشابهة لهزيمة ألمانيا فى مؤتمر الجزيرة فى (١٩٠٦) .

حقيقة شربت روسيا هذا الكأس المرير ، ولكن أدى هذا إلى تأكيد حقيقة جوهرية ، هى أن دول التحالف الثلاثى — وإن كسبوا هذه الجولة — أصبحوا يمثلون القوة الحقيقية المهددة لروسيا الأمر الذى زاد من ارتباط روسيا — رغم

تقاعس فرنسا بالذات ـ بحليفتها (فرنسا) .

كانت عملية ضم (البوسنة والهرسك) بالنسبة للصرب تعنى أن هذين الإقليمين لن ينضما فى المستقبل إلى (الصرب الكبرى) . فاحتلال النمسا لهما لا يقضى على مثل هذا الأمل ، أما ضمهما فبلا شك يقضى عليه . وكان تخاذل روسيا أمام الضغوط الكبيرة التى تعرضت لها من جانب الأصدقاء والأعداء على السواء ضربة ثانية للصرب التى كانت تعوّل كثيراً على تحرك روسى عنيف ضد النمسا . واستكانت الصرب قليلا . ولكن كان من العسير جداً على حكومتها أن تتحكم فى مشاعر الصربيين ، سواء أ كان هؤلاء فى داخل الإمبراطورية النمساوية أم فى داخل الصرب نفسها . الأمر الذى سيكون له أ كبر الأثر فى تصعيد الأزمات بين الصرب وإمبراطورية النمسا والمجر .

(٢)

أزمـــــة أغادير

وكما كان تغيير أوضاع البلقان — على يد النمسا والمجر بضم البوسنة والهرسك — سبباً فى إثارة مشكلة دولية معقدة ، كان تغيير الوضع فى المغرب (مراكش) على يد فرنسا سبباً فى أن تثير ألمانيا (أزمة أغادير) التى رفعت حدة التوتر بين الكتلتين المتواجهتين إلى درجات خطيرة .

فلقد كان التسابق البحرى والإستعمارى على أشده بين ألمانيا وبريطانيا ، خاصة فإنه قد فشلت المحاولات التى بذلتها انجلترا لوقف هذا التسابق ، وذلك لأن بريطانيا أصرت على أن أسطولها الحربى ضعف أى أسطول آخر ولأن ألمانيا أصرت على عدم التخلى عن الجزء الجنوبى[1] لخط حديد بغداد لبريطانيا إلا إذا وافقت الأخيرة على الوقوف على الحياد من حرب تقع بين ألمانيا وفرنسا . ولكن كان تحييد بريطانيا فى ١٩٠٨ وبعد ذلك يعنى خروجها من الوفاق الودى مع كل من فرنسا وروسيا ، ومن ثم كانت الأمور كلها تشير إلى صلابة بريطانية إزاء ألمانيا فى كافة مجالات التنافس العالمى .

كل هذا جعل حكومة ألمانيا تتربص بدول الوفاق ، وحانت الفرصة لإحراجها — بغية هزه من جذوره — عندما بعثت فرنسا بقواتها إلى داخل مراكش (المغرب). وكانت حكومة ألمانيا تدرك — عن حق — أن دخول جيش دولة أوربية استعمارية بلاداً مثل المغرب يعنى وقوع البلاد تحت الإحتلال الذى لا يعرف متى ينتهى . وهناك سابقة واضحة وجلية فى مصر عندما دخلتها جيوش بريطانيا باسم حماية

---

(١) بين بغداد والبصرة .

الخديوى توفيق من (المتمردين !) . وكانت عمليات فرنسا فى مراكش لا تضر كثيراً بالمصالح الألمانية ، إلا أن الحكومة الألمانية كانت تذكر الهزيمة الدبلوماسية المريرة التى منيت بها مؤتمر الجزيرة فى ١٩٠٦ ، وتصورت أنها لو تدخلت بعنف ضد إجراءات فرنسا فى (مراكش) لربما أحرزت كسباً سياسياً يمحو آثار تلك الهزيمة . خاصة وأن أسبانيا رغم تواطئها مع فرنسا على التسلط على مراكش — كانت تعارض تلك العمليات العسكرية الفرنسية فى داخل تلك البلاد .

إلا أن الإجراء الألمانى كان عنيفاً إذ أرسلت الحكومة الألمانية المدمرة (البانثر)[١] إلى ميناء أغادير مسيطرة عليه بمدفعيتها لحين التوصل إلى تسوية تعطى تعويضاً مناسباً لألمانيا ، وطالبت ألمانيا فعلا بكل الكونغو الفرنسى .

قوبل هذا التهديد الألمانى بوقفة صلبة قوية من جانب بريطانيا ضد مطالب ألمانيا وإجراءاتها تلك . وبدا واضحاً أن الحرب لو وقعت ستخوضها بريطانيا إلى جانب فرنسا . وتبادل المختصون العسكريون الفرنسيون والإنجليز الخطط العسكرية لمواجهة الأزمة . وبينما كان الشعب الألمانى يتصاعد ثورة ضد بريطانيا ويدعو القيصر إلى التصلب ، إلا أن القيصر كان يرى أن المسألة لا تساوى خوض الحرب الكبرى ، وآثر التراجع بقبوله قطعة أرض فقط من الكونغو الفرنسى على أمل أن تفتح له هذه الأرض مجالات واسعة إستعمارية فى إفريقية . وبذلك تكون فرنسا قد خرجت ظافرة مطلقة اليد فى المغرب وأعلنت حمايتها عليه فى ١٩١٢[٢] .

وأدت تلك الأزمة إلى نتيجة هامة ، وهى أن بريطانيا فى علاقتها مع فرنسا

---

(١) panther فى أول يوليو — تموز ١٩١١ .

(٢) من أحسن الكتب التى تعرضت لهذه المشكلة : خير فارس : تنظيم الحماية الفرنسية فى المغرب .

تمدت مجال (الوفاق) إلى مجال (التحالف) دون النص على ذلك فى معاهدة أو إتفاقية .

وخلال هذه الأزمة وفى أعقابها حاولت كل من إيطاليا وروسيا إنتهازها لتحقيق توسعات جديدة . فروسيا حاولت مد سيطرتها الى طهران ، ولكن المعارضة البريطانية منعتها من تحقيق هدفها . أما إيطاليا فقد أقحمت حرباً على الدولة العثمانية ـ بعد أن حصلت على موافقة الدول الكبرى على أن تستولى على طرابلس ـ وأنزلت جيوشها على الشواطىء الليبية واستولت عليها وعلى جزر الدوديكانيز واضطرت تركيا إلى وقف الحرب معها بسبب تكوين عصبة البلقان (اليونان والصرب وبلغاريا) لشن حرب على الدولة العثمانية لإخراجها من أوربا ، ولتحقيق توسعات إقليمية وقومية .

(٣)

الحروب البلقانية

١٩١١ — ١٩١٣

يوصف البلقان عادة ، قبل الحرب العالمية الأولى – بأنه برميل البارود . ولقد كان كذلك فعلا ، وكانت مواقف الدول الكبرى إزاء مشكلاته ، وسياسات دول البلقان نفسها من التضارب لدرجة كان من العسير تحديد من هو من هذه الدول البلقانية الصديق ومن هو العدو لهذه الدولة الكبرى أو تلك . ولكن كانت الصرب بلا جدال العدو الخطير لإمبراطورية النمسا والمجر فى أعقاب أزمة ضم البوسنة والهرسك .

وكانت إمبراطورية النمسا والمجر تبحث عن وسيلة تسكت بها إلى الأبد الدعايات النشطة لصرب الكبرى ، حتى لقد جربت الحصار الإقتصادى ولكن دون جدوى . ومن ثم أخذ ساسة النمسا يعتقدون يوماً بعد يوم أن القوة هى الوسيلة الوحيدة لقتل فكرة (الصرب الكبرى) وإلا تعرضت الإمبراطورية النمساوية للتفكك . ومع هذا سارت الأمور بشكل يتعارض مع أمن وسلامة هذه الإمبراطورية ، خاصة من حيث نمو المشاعر القومية فى البلقان فى أعقاب الثورة التى نشبت فى مقدونيا ضد الحكم التركى فيها .

فمقدونيا كانت تضم يونان وبلغار وصرب ، والتهبت الصحافة بكتابات القوميين فى اليونان وبلغاريا وصربيا وأصبحت الفكرة القومية مجالا للمزايدات الديماجوجية تحتها روح صليبية واضحة .

وإذا ما وضعنا جانباً هذه النعرات القومية الحادة وبحثنا عن إمكانية تقسيم مقدونيا بينها لوجدنا أن القوميات فى مقدونيا كانت متداخلة جداً فيما بينها

بحيث تستحيل عملية تقسيم لها على أساس قومى الأمر الذى وضع بذور الفوضى فى العلاقات بين دول عصبة البلقان التى تشكلت فى ١٩١٢ من تحالف صربى ـ بلغارى ثم من تحالف يونانى بلغارى .

ومع أن روسيا كانت تشجع تكوين مثل هذه العصبة إلا أنها اكتشفت أن مجرد ظهورها سيؤدى إلى اشتطاطها فى التحرك ضد الدولة العثمانية بشكل يهدد أطماعها نفسها فى هذه الدولة العثمانية . وحاولت روسيا ، وكذلك فرنسا أن تحدا من نشاط هذه العصبة ، ولكن دون جدوى إذ كانت دول العصبة تدرك أن روسيا لا بد وأن تقف بجانبها . هذا فضلا عن أن هذه المحاولة الروسية لفرض التعقل على عصبة البلقان جاءت فى وقت متأخر ، إذ لم تلبث أن أعلن الجبل الأسود[1] الحرب على الدولة العثمانية وتبعته دول العصبة .

كانت العمليات العسكرية التى قامت بها جيوش العصبة ناجحة ، ولكنها تمت بشكل أدى إلى قلب الأوضاع السياسية والإستراتيجية بشدة .

فقد انتصرت الجيوش الصربية على الأتراك واستولت على موناستير[2] ، وقلب مقدونيا ، بينما كانت بلغاريا تعلق الآمال الكبار على أن تكون هذه من نصيبها هى . ووصلت القوات الصربية فى زحفها حتى (دورازو)[3] ، فاستشاطت إمبراطورية النمسا والمجر غضباً من حصول الصرب على منفذ على بحر إيجه ، وتحت الضغوط النمساوية والإيطالية أرغمت الصرب على الإنسحاب من دورازو . كذلك ضغطت النمسا على (الجبل الأسود) حتى تخلى عن اشقودره .

وانتصرت القوات اليونانية كذلك واستولت على (سالونيك) ، إلا أن هذه كانت أيضاً محط آمال بلغاريا .

---

(١) Montenegro.

(٢) Monastère.

(٣) Dorazo.

وسقطت (أدرنه) بجهد مشترك صربى بلغارى ، ولكن استمرت القوات البلغارية فى زحفها حتى مسافة قليلة من الآستانة ، فتحركت روسيا ، التى لا تقبل أن تكون المضايق بيد دولة أوربية أخرى صغيرة كانت أم كبيرة صديقة كانت أم عدوة ، وضغطت على بلغاريا حتى استبعدت هذه فكرة استمرار الزحف صوب العاصمة العثمانية .

هذه الإنتصارات ، وتلك التدخلات الفورية من جانب الدول الكبرى المعنية بالبلقان ، ورغبة الدول الكبرى فى إحلال السلام قبل أن تختلط الأوراق بعضها ببعض ، أدى إلى عقد صلح بين الدولة العثمانية ودول البلقان .

ولا تكاد تمر إلا فترة وجيزة للغاية حتى شرعت دول العصبة فى إعادة النظر فيما حصلت عليه . وكانت بلغاريا شديدة النقمة على ما انتهت إليه الأمور فقد كسبت كل من اليونان والصرب مساحات واسعة تضم أعداداً كبيرة من النفوس ، وهذه الرعية الجديدة ليست يونانية ولاصربية فقط بل بلغارية كذلك . وكان إستخلاص هؤلاء البلغار لا يمكن أن يتم إلا بقوة السلاح ، وبهذا اعتمد ملك بلغاريا على مفاجأة الصرب بهجوم كاسح ليستولى على « قلب مقدونيا » ولكن الصرب كانت على تفاهم تام مع اليونان ضد بلغاريا ، وهزمت الجيوش البلغارية ، ولكن الأدهى من ذلك إنتهاز رومانيا الفرصة ودخولها الحرب ضد بلغاريا وزحفت جيوشها حتى هددت صوفيا نفسها ، واستطاع كذلك (أنور باشا)(١) ــ الذى تسلم زمام الأمور فى الآستانة من استخلاص (أدرنة) بسهولة . وأسقط فى يد البلغار واضطروا إلى عقد معاهدة بوخارست ١٩١٣/٨/١٠ .

ربحت روسيا فى هذه المعاهدة إقليم (سلستريا) إلى جانب الجزء الجنوبى من (دبروجه) مع غالبية سكانه من البلغار . وحصلت اليونان على جنوب مقدونيا

---

(١) واحد من ثلاثة زعماء الاتحاديين الذين سيطروا على مقدرات الدولة العثمانية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى . والآخران هما (طلعت باشا) و (جمال باشا) .

وأغلقت بذلك المنافذ البحرية فى وجه بلغاريا ، هذا بالإضافة إلى كريت التى أعلنت الثورة على الدولة العثمانية وانضمت إلى اليونان . وظهرت دولة مستقلة جديدة هى ألبانيا لا حباً فى استقلالها ولكن منعا للصرب من الوصول إلى البحر الادرياتى ، وهو أمر كانت تقاومه بشدة كل من إمبراطورية النمسا والمجر وإيطاليا .

والجدير بالذكر أنه خلال هذه الأزمات البلقانية كان ينعقد فى لندن مؤتمر (١٩١٢ — ١٩١٣) يسعى إلى إيجاد تسوية معقولة ، فكان آخر مؤتمر دولى ينظر فى قضية السلام فى أوربا وكان أكثر المؤتمرات الأوربية فشلا ، ومن ثم كان تأكيداً على أن الجيوش هى القادرة على تسوية المشاكل .

أدت هذه الحرب البلقانية إلى نتائج وتطورات ستقود إلى الحرب العالمية الأولى ، وأهمها :

١ — خرجت بلغاريا مهيضة الجناح دون أن تتحرك روسيا لإنقاذها ، بل إن النمسا هى التى وقفت — إلى حد ما — إلى جانبها ، ولهذا أصبحت العلاقات البلغارية الروسية غير ودية .

٢ — كانت حكومة الإتحاديين فى الآستانة تميل إلى ألمانيا ، وبعد الحرب البلقانية أصبحت أكثر ميلا إليها وأكثر إستعداداً لإعادة تنظيم القوات المسلحة البرية التركية بواسطة خبراء ألمان عسكريين . بل طلب الإتحاديون من ألمانيا إرسال قائد كبير يتولى قيادة الجيش التركى فى الآستانة . فأثار ذلك مخاوف من جانب روسيا من أن تتحكم ألمانيا بالتدريج فى المضايق وطالبت بسحب ليمان فون ساندرس(١) المكلف بتلك المهمة إلا أن بريطانيا لم تؤيد روسيا فى طلبها هذا حيث كان فى الآستانة قائد بريطانى يتولى إعادة تنظيم البحرية العثمانية وانتهت المفاوضات الخاصة بهذه المشكلة إلى تسوية فى كانون أول — ديسمبر ١٩١٣ تولى بمقتضاها «ليمان فون ساندرس» رئاسة هيئة أركان الجيش التركى فى الآستانة ، متخلياً بذلك عن القيادة التى كانت

---

(١) Liman von Sanders

فى حقيقة الأمر عبئاً يصعب عليه القيام به . ومع هذا كانت ألمانيا تدرك أن الدولة العثمانية — مجال ألمانيا الحيوى — معرضة للانهيار من الداخل وليس من الخارج فقط. فقد كانت الحركة التحررية تشتد فى كل من الشام والعراق ، ومع أن مؤتمر باريس الذى عقده زعماء العرب فى ١٩١٣[1] أدى إلى تفاهم عربى تركى إلا أن التطورات أثبتت أن سياسة الأتراك نحو العرب لم تتغير ، وظلت المشكلات على ما هى عليه إن لم تشتد فى تعقيداتها .

٣ — أدت هزيمة الدولة العثمانية أمام الدول البلقانية وتصاعد المشكلات القومية فى هذه الدولة العثمانية إلى زيادة فى تشتيت القوات العسكرية لإمبراطورية النمسا والمجر حيث أصبح عليها أن تحتفظ بجيش كبير يراقب مواقف الدول البلقانية السريعة التقلب الأمر الذى يحول دون أن تلقى هذه الإمبراطورية بكل جيوشها ضد روسيا فى حالة وقوع حرب معها . هذا بينما زاد التقارب بين دول الوفاق الثلاثى : روسيا وبريطانيا وفرنسا ، وكان هذا التقارب يزداد قوة كلما إشتدت حمى التسابق البحرى بين بريطانيا وألمانيا . ودارت مفاوضات حربية بحرية بين روسيا وبريطانيا وبين بريطانيا وفرنسا وكان أهم ما توصلت إليه بريطانيا هو اتفاقها مع فرنسا عد أن تتولى البحرية الفرنسية السيطرة على مياه البحر المتوسط وتتولى البحرية البريطانية — بعد سحب قطعها من البحر المتوسط — السيطرة على بحر الشمال والدفاع عن سواحل فرنسا الشمالية .

وكانت الصحافة من المظاهر التى كانت تزيد من هذا التقارب بين دول الوفاق والتى تعمق العداء بينها وبين دول الحلف الثلاثى . فقد كانت المقالات الصحفية النارية فى الصحف الألمانية ضد روسيا وبريطانيا وفرنسا تقابلها مقالات لا تقل عنها عنفاً فى صحف هذه الدول ، الأمر الذى عمق الكراهية بين الشعوب فضلا عما كان بين الحكومات من بغضاء .

فخلال السنوات القليلة التى سبقت الحرب العالمية الأولى كانت أعصاب الساسة

---

(١) أنظر تفاصيل هذه الحركة العربية فى د. عبد العزيز نوار : تاريخ العرب المعاصر بيروت ١٩٧٣ .

والشعوب المثقفة مشدودة بسبب الأزمات التي عرضت السلام للانهيار . وفى كل مرة — بعد انتهاء كل أزمة — كانت النفوس تزداد قلقاً بسبب تصاعد الحرب الصحفية والمنافسات السياسية والاقتصادية بين الكتلتين الكبيرتين : دول الوفاق (روسيا وفرنسا وبريطانيا) من جهة وبين ألمانيا وإمبراطورية النمسا من جهة أخرى ، وأما إيطاليا فلم يكن لها الدور الكبير فى هذه المنافسات بسبب ارتباطاتها المتوازية مع كل من الكتلتين ، ولهذا أصبحت الكتلة الثانية قاصرة تقريباً — فى واقع الأمر — على ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر . وكان السؤال المحير الوارد على لسان الساسة والمسئولين والصحفيين هو أى من الكتلتين أقوى . وكان هناك إعتقاد عام أن الحرب هى الوسيلة الوحيدة لكشف هذه الحقيقة الخطيرة . وأصبحت مهام أركان حرب هذه الدول هى الإعداد لحرب مقابلة قريبة ، ومن ثم لم تعد أوربا قادرة على أن توحد كلتها إزاء مشكلة من المشكلات الحادة الدولية على ذلك النحو الذى حدث عند عقد مؤتمر برلين ١٨٧٨ الخاص بالمشكلة الشرقية ، ومؤتمر برلين لسنتى ١٨٨٤ — ١٨٨٥ بشأن مشكلة إستعمار إفريقية ويعتبر مؤتمر الجزيرة ١٩٠٦ واحداً من المؤتمرات التى كان لأوربا فيه كلمة متفق عليها بغض النظر عن خطورة النتائج التى أدى إليها هذا المؤتمر ، وأخيراً عقد مؤتمر لندن فى ١٩١٢ للبحث عن حل للمشكلة البلقانية ، ولكن لم يستطع هذا المؤتمر الوصول إلى قرار ما وهكذا كانت قدرة أوربا على مواجهة الأحداث الكبرى عن طريق المؤتمرات الدولية تتناقص بسرعة حتى تلاشت وأصبح السلاح هو الوسيلة الباقية لحسم المشكلات .

هذه المشاعر الحادة كانت المسئول الأول عن فشل الدعوات التى وجهت إلى ساسة العالم للوصول إلى سلم دائم عن طريق مؤتمر سلام دولى . فلقد دعا قيصر روسيا إلى مؤتمر سلام فى ١٨٩٩ وكان الدافع الحقيقى لدعوته هو إعطاء فرصة لروسيا الضعيفة لتقوى نفسها فى الوقت الذى تجمد فيه القوات المسلحة فى الدول الكبرى الأخرى ، وفشلت فكرة عقد هذا المؤتمر لأن الدول الأوربية كانت سيئة الظن بشدة فى نيات روسيا وراء هذه الدعوة .

وجاءت الدعوة الثانية فى ١٩٠٧ على لسان تيودورروزفلت[١] ورئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن قضت عليها بريطانيا لأنها كانت تمتلك قوة بحرية كافية لضمان أمنها وسلامة خطوط مواصلاتها مع إمبراطوريتها ومختلف أجزاء العالم ، ولم تستمع الحكومة البريطانية إلى الإنتقادات الشديدة التى وجهتها كل من حكومتى وشنجتن وبرلين بسبب هذا التصلب ، إذ كان مركز بريطانيا قوياً إلى حد كبير فى ١٩٠٧ عنه فى السنوات القليلة السابقة .

وتصاعدت سياسة التسلح فى دول الوفاق الثلاثى وفى إمبراطوريق ألمانيا والنمسا والمجر بشكل يفوق نمو تسليحها فيما سبق ، حتى غدا شبح الحرب ماثلا أمام الأعين حيث كانت الحكومات الديمقراطية حين تسعى إلى كسب موافقة برلماناتها على اعتمادات التسلح تضخم من خطر وقوع حرب كبرى قريبة ، وكانت مراسم القياصرة فى ألمانيا والنمسا وروسيا تؤكد على الحاجة الملحة لمواجهة ظروف استثنائية دولية . هذا فضلا عن الخطب النارية للسياسيين . والملاحظ أنه خلال ١٩١٣ أصدرت الدول الكبرى المتنافسة قرارات ومراسيم بقصد زيادة القوات المسلحة زيادة كبيرة ، فبالنسبة لألمانيا صدر القانون فى ١٤ يناير — كانون ١٩١٣ .

وبالنسبة لإمبراطورية النمسا والمجر فى أواخر ١٩١٣ صدر القانون الفرنسى فى ٧ أغسطس — آب ١٩١٣ وصدر مشروع إعادة تنظيم الجيش الروسى فى أواخر ١٩١٣ ، وظهرت الدعوة إلى التجنيد الإجبارى فى بريطانيا فى ١٩١١ — ١٩١٢ ولكن الحكومة البريطانية ركزت على زيادة قوتها البحرية المسلحة زيادة كبيرة .

٣ — وأخطر نتائج الحرب البلقانية هو نمو صربيا أرضاً وسكاناً واشتداد الحركة القومية الصربية والتهابها سواء داخل الصرب أو بين الأقلية الصربية الواقعة تحت حكم إمبراطورية النمسا والمجر . وكان الطلبة هنا وهناك يشنون حملة دعاية

(١ Theodor Roosevelt

عنيفة من أجل توحيد الصربيين كلهم تحت حكومة وطنية واحدة . وكان إن تشكلت فى داخل إمبراطورية النمسا والمجر عدة جمعيات سرية إرهابية تولت القيام بعدة عمليات اغتيال لحكام البوسنة ولغيرهم من المسئولين عن إخضاع الصرب تحت هذه الإمبراطوارية ، وكان إغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند ولى عهد النمسا وزوجته فى سيراييفو فى ٢٨ يونيو ـ حزيران ١٩١٤ على يد وطنى صربى بداية التطورات التى أدت فى النهاية إلى وقوع الحرب العالمية الأولى .

وكانت حادثة إغتيال ولى عهد النمسا الذى كان ولى العهد هذا متشدداً إزاء الصرب أقصى ما يمكن أن تتحمله النمسا .

وأصبح من الضرورى أن تلقى الصرب جزاء دعاياتها العدوانية ضد جارتها الكبيرة ، وكانت حكومة النمسا ترى أنه إذا مرت الحادثة بحصول النمسا على اعتذار دبلوماسى أو حل سياسى فقط فإن ذلك سيعتبر إذلالا كبيراً جديداً لكرامة الإمبراطور وشعبه . ولقد كانت فكرة الوصول إلى تسوية دبلوماسية واردة عند مختلف الأوساط الأوربية السياسية ، وكذلك كانت لديهم فكرة حصر الأزمة الجديدة بين النمسا والصرب فقط ومنع تصاعدها أو دخول أطراف جدد فيها . إلا أن ظروف النمسا كانت لا تسمح بمثل هذه الخطوات أو التسويات ، فالتسوية السلمية أصبحت بالنسبة لها مجرد تسكين لأزمة مستعصية لابد وأن تنفجر يوماً ما ، وبعد وقت قصير وليس بعد وقت طويل ، طالما المسبب لها كان لا يزال يتمتع بكامل قواه ، ونعنى بذلك دولة الصرب .

فهل كان من الممكن حصر الأزمة بين هذين الطرفين : النمسا والصرب ومنع إنحدار العالم إلى حرب كبرى كانت ماثلة فعلا أمام الأعين ؟ .

كانت النمسا قد عقدت العزم على أن توجه إلى الصرب الضربة التى كان يتوق فرانز فرديناند ـ فى حياته ـ أن يوجهها إليها . وكانت الصرب تدرك ذلك ، والتزمت جانب الحذر الشديد ونفت عن نفسها مسئولية مصرع فرانز فرديناند وزوجته ، وفضلا عن هذا أثبتت التحقيقات النمساوية نفسها براءة الصرب من هذه الجريمة ،

ولكن لم يلق ذلك كله صدى فى الدوائر النمساوية ، واستمرت فى خطواتها المعينة ضد الصرب وكان يتولى هذه العمليات السياسى العنيد برشتولد[1] وزير خارجية النمسا ، تؤيده فيها حكومة ألمانيا. وكانت أولى هذه الخطوات الإنذار الذى بعث به حكومة المملكة الثنائية إلى الصرب فى ٢٣ يوليو ١٩١٤ .

وكانت مواد هذا الإنذار تعنى ببساطة تدخل حكومة النمسا فى أدق الشئون الداخلية الصربية مثل حل الجمعيات الوطنية ، ومنع أية دعاية مكتوبة أو مذاعة سواء فى الصحافة أو المدارس وإبعاد الموظفين الذين أعلنوا كراهيتهم للمملكة الثنائية (النمسا والمجر) ، إلى غير هذا من الأمور التى تكاد تفقد الصرب إستقلالها. ومع أن الحكومة الصربية وافقت على عدد كبير من مواد الإنذار النمساوى إلا أن حكومة فيينا أعلنت الحرب عليها فى ٢٨ يوليو ١٩١٤ .

كان هذا فى نظر الصرب عملية سحق لها ، وتطلعت بسرعة إلى منقذ ، وكانت روسيا مستعدة للقيام بهذا الدور لأنها كانت لا تقبل بأى حال من الأحوال سحق الصرب على يد النمسا لما سيترتب عن ذلك من تسلط نمساوى على البلقان .

أما وقد أصبحت المملكة الثنائية معرضة لحرب ضد الصرب وروسيا ، وبالتالى ضد فرنسا حليفة روسيا فإن ألمانيا ما كانت لتقبل انهيار حليفتها (المملكة الثنائية) أمام أعدائها .

ومع هذا كانت هناك مجهودات ذات قيمة بذلتها حكومة فرنسا لكبح جماح روسيا ، وبذلتها ألمانيا لتهدىء من روع المملكة الثنائية . كذلك رفضت حكومة بريطانيا أن تعلن إلتزامها بالوقوف عسكرياً إلى جانب فرنسا إذا ما تطورت الأحداث إلى حرب بين الكتلتين . ولكن روسيا رفضت نصيحة فرنسا بأن يقتصر توجيه تعبئتها العامة ضد المملكة الثنائية ، بل إن روسيا وجهتها أيضاً ضد ألمانيا ، وفرضت بذلك الأمر الواقع على فرنسا :

---

(١) Breschtold

— وإما أن تقف إلى جانب حليفتها .

— وإما أن تترك روسيا فى الميدان وحدها الأمر الذى يعرض روسيا لهزيمة ساحقة تكون نتائجها على فرنسا فى منتهى الخطورة .

وكان أن توالت الأحداث بسرعة وأخذت الدول الأربع الكبرى المتعادية : روسيا وفرنسا والمملكة الثنائية وألمانيا تتبادل التهم والتعبئة العامة حتى أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا فى أول أغسطس ١٩١٤ وعلى فرنسا فى ٣ أغسطس ، ولم يبق من الكتلتين خارجا عن الحرب الكبرى سوى بريطانيا وإيطاليا . ولكن بريطانيا كانت فى نفس الوقت تتخذ خطوات خطيرة معادية لألمانيا ومساندة لفرنسا . لقد حشدت أسطولها فى بحر الشمال ووعدت فرنسا بأن هذا الأسطول سيمنع أى هجوم ألمانى على السواحل الفرنسية .

ويركز المؤرخون الإنجليز على أن الحكومة البريطانية — وكانت برئاسة جراى — ما كانت لتدخل الحرب إذا ما وقفت الأمور — بالنسبة لبريطانيا — عند هذا الحد ، وأن ألمانيا هى التى أعطت الذريعة لها بدخول الحرب حين اعتدت على حيدة البلجيك — عندما زحفت الجيوش الألمانية لغزو فرنسا — على إعتبار أن هذا العدوان هو الذى حرك الرأى العام البريطانى نحو إعلان الحرب على ألمانيا .

وتقول وجهة النظر البريطانية فى أسباب دخول إنجلترا الحرب أن مصالح بريطانيا :

« مرتبطة بمصالح روسيا وفرنسا فى هذا النزاع الذى يقوم من أجل الاستيلاء على الصرب ، ولكنه نزاع بين ألمانيا — التى تريد فرض دكتاتورية سياسية — فى أوربا وبين الدول التى تريد إستعادة الحرية الفردية » .

وفى اعتقادنا أن بريطانيا كان لديها فعلا الذريعة التى يمكن أن تتذرع بها لتجنب المشاركة فى الحرب عند نشوبها ، فتصبح قادرة على الرؤية الصحيحة وتحديد خططها بشكل أدق يخدم مصالحها الخاصة أولا . فالوفاق الودى لا يلزم بريطانيا

بالدخول فى الحرب إلى جانب فرنسا . والأمور التى جعلت بريطانيا تدخل الحرب عقب اجتياح الجيوش الألمانية الحدود البلجيكية :

١ — أن الدفاع الفرنسى لابد وأن ينهار إذا ما تركت فرنسا وحدها فى هذه الظروف الجديدة .

٢ — أن دولا أخرى قد تتشجع وتدخل الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا الأمر الذى يعرض الإمبراطورية البريطانية لخطر شديد .

أما مسألة حرية البلجيك وحياده ، والدفاع عن حرية الفرد ضد الدكتاتورية ، فهى أيديولوجيات تغطى حقيقة الأهداف الأخرى ، حيث أن بريطانيا كانت تتحالف مع روسيا أشد الدول استبداداً ورجعية حينذاك ، وكانت تستعبد شعوباً عديدة فى مختلف أجزاء العالم .

أن مثل هذه الأيديولوجيات لا تكون مسئولة عن مثل هذه القرارات التاريخية — كدخول حرب عالمية — التى تحدد مستقبل الإمبراطورية البريطانية ، وقد عبر المؤرخ رنوفن عن وجهة نظره فى هذا الصدد بقوله :

« فى قرارات هذه الحكومات ، فى يوليو ١٩١٤ ، كانت المصالح المتعلقة بالأمن وبالكرامة أو بالقوة ، هى التى تقرر الإختيار النهائى » .

لم تلبث الحرب أن اتسع نطاقها ، وشاركت فيها عدة دول إنضمت إلى هذا الجانب أو ذاك . فقد دخلت الإمبراطورية العثمانية الحرب إلى جانب دولتى الوسط فى نوفمبر ١٩١٤ ، وكذلك فعلت بلغاريا فى ١٩١٥ .

أما بالنسبة لدول الوفاق ، فقد دخلت اليابان الحرب فى ١٩١٤ إلى جانبها وكذلك إيطاليا (١٩١٥) ورومانيا والولايات المتحدة الأمريكية (١٩١٧) .

وفى أعقاب دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب ، دخلتها أعداد كبيرة

من دول أمريكا اللاتينية ، ولكن دون أن تشارك فيها مشاركة فعالة ، وهذه الدول هى :

١ — كوبا . ٢ — البرازيل . ٣ — بنما .

٤ — جواتيمالا . ٥ — نيكاراجوا . ٦ — هندوراس .

وقطعت دول أخرى من دول أمريكا اللاتينية علاقاتها مع دولتى الوسط وهى :

١ — بوليفيا . ٢ — بيرو . ٣ — أورجواى .

٤ — أكوادور .

وبالنسبة للدول الآسيوية الأفريقية ، شاركت — بطبيعة الحال — مختلف أجزاء الإمبراطورية البريطانية والفرنسية فى الحرب ، وأعلنت سيام (تايلاند) الحرب على دولتى الوسط فى يوليو — تموز ١٩١٧ ، كما أعلنتها ليبيريا والصين فى أغسطس — آب (١٩١٧) .

تقييم للقوى الكبرى

المؤثرة على أوربا قبيل الحرب

العالمية الأولى وإبانها

مقدمة

العلاقات الاقتصادية بين الدول المتحاربة

رغم هذا التوتر الشديد الذى كان ينتاب أوربا كلما وقعت أزمة كبيرة ، كانت أوربا تنمو اقتصاديا مستفيدة من تفوقها فى الانتاج الصناعى ونمو قدراتها الحديثة المتجددة فى النقل ، ومن تخلف المستعمرات القديمة أو الجديدة التى كانت تحت نير الدول الأوربية الاستعمارية . ومع أن ألمانيا وإيطاليا وبلجيكا دخلتا ميدان الإستعمار فى وقت متأخر — إذا ما قيس ذلك بكل من بريطانيا وفرنسا وهولنده[1] — إلا أن الأسواق الإستهلاكية فى هذه المستعمرات وفى العالم القديم المتخلف كانت تستوعب كميات متضاعفة من الإنتاج الأوربى الأمر الذى ألهب المنافسة الإقتصادية بين هذه الدول الأوربية . ويمكن أن نكتشف مدى قوة هذه المنافسة سواء الإقتصادية أو العسكرية عند دراسة الأوضاع الإقتصادية الرئيسية فى أوربا .

فى الوقت الذى كان فيه حجم التجارة الدولية يتضاعف خلال العقد الأول من القرن العشرين ، كان التنافس على التجارة الدولية يزداد شدة . وقد بالغ العديد من المؤرخين فى تصوير هذا التنافس الاقتصادى بين دول الوفاق ودول الحلف الثلاثى حتى لقد جعلوا من العامل الإقتصادى العامل الأول الذى أدى إلى الحرب العالمية الأولى . ومع أننا ندرك ما لهذا العامل من قوة فى تعميق العداوات بين الدول المتنافسة إلا أن العلاقات الإقتصادية لم تكن هى المسئول الأول عن إشتعال الحرب العالمية الأولى . ويمكن أن نتبين هذا من عرض للعلاقات الإقتصادية الدولية .

---

(١) كانت كل من أسبانيا والبرتغال سباقة فى ميدان الاستعمار ولكن جدتا منذ القرن السابع عشر وفقدتا الكثير من مستعمراتها فى القرن التاسع عشر .

وبصفة عامة كانت الزيادة فى حجم التجارة الدولية لدى الدول الأوربية فى تصاعد مطرد . وكان سرعة زيادة حجم التجارة الدولية كبيرة فى كل من بريطانيا وألمانيا. وفى نفس الوقت كان حجم التبادل التجارى بين هاتين الدولتين المتعاديتين يزداد حتى بلغت واردات بريطانيا من ألمانيا فى ١٩١٢ ١٤,٢ ٪ كما كان للميزان التجارى للتبادلات بين فرنسا وألمانيا يميل لصالح الأخيرة . بل كانت فرنسا تسعى إلى ضمان استمرار وصول الفحم الألمانى إليها ، وفى المقابل كانت ألمانيا تسعى إلى ضمان وصول الحديد الفرنسى إليها ، الأمر الذى أدى إلى مشاركة فرنسا فى المشروعات الخاصة بالمناجم فى ألمانيا وفعلت ألمانيا نفس الشىء بالنسبة لمناجم فرنسا ، كما أن بعض مناجم الجزائر — الواقعة تحت الاستعمار الفرنسى — كانت تستغل بواسطة تعاون ألمانى فرنسى .

وبالنسبة لروسيا كان ٤٧ ٪ من وارداتها من ألمانيا و ٢٩ ٪ من صادرات روسيا كانت ترسل إليها ، ووجد العديد من الفلاحين الألمان فى الأراضى الروسية فرصا مشجعة لاستثمار أموالهم بشراء الأرض هناك ، كل هذا فى الوقت الذى كان فيه حجم التبادل التجارى الروسى الفرنسى ضعيفاً ، ولم يرفع من قيمة العلاقات الاقتصادية الروسية — الفرنسية سوى القروض التى قدمتها الحكومة الفرنسية لمد خطوط حديد سيبيريا وفتح أسواق الأموال الفرنسية على مصراعيها أمام سندات القروض الروسية المطروحة للبيع لسد حاجة روسيا إلى رءوس الأموال .

أما العلاقات الاقتصادية الألمانية مع الحليفة النمسا - المجر فكانت ضعيفة ، بينما كانت علاقات إيطاليا الاقتصادية بحليفتيها ألمانيا والنمسا - المجر تكاد تكون متوازنة مع علاقاتها مع فرنسا وبريطانيا . إلا أن الألمان فى إيطاليا استطاعوا — بمهارتهم ونشاطهم — أن يضموا النصيب الأكبر من عمليات المصارف الإيطالية تحت يدهم الأمر الذى يعطى للألمان فرصا إقتصادية أوسع فى إيطاليا .

وبصفة عامة تزايد حجم التجارة الألمانية خلال السنوات القليلة التى سبقت

الحرب العالمية زيادة كبيرة ــ إلى جانب ماسبق الإشارة إليه بالنسبة لفرنسا وروسيا ــ فى كل من بلجيكا وهولندة وفى أسبانيا والبرتغال وفى البلقان (بلغاريا والصرب ورومانيا) وفى الدولة العثمانية .

ويجدر بنا هنا أن نحدد العوامل التى جعلت ألمانيا تحرز مثل هذا النجاح الكبير فى مجال الاقتصاد الدولى .

وفى إعتقادنا أن السبب الأول فى هذا التفوق السريع يرجع إلى أن الوحدة الألمانية أعطت إمكانيات ضخمة للانتاج الصناعى الكبير ما كان ليظهر أبداً طالما كانت ألمانيا مفككة .

والعامل الثانى هو نوعية المواطن الألمانى الذى خرج من حروب كبرى أوربية منتصراً ، وأصبح عليه أن يتفوق تجارياً وحضارياً ، وأدرك أن وصوله إلى هذا الهدف يتطلب جهوداً مضاعفة للغاية . هذا بينما ركن التاجر الإنجليزى إلى سابق تفوقه وسمعته وتشبث بالأساليب الروتينية التى كان التاجر الألمانى متحرراً منها .

والعامل الثالث هو موقع ألمانيا إذ كانت خطوط المواصلات تربطها مباشرة بأسواق الاستهلاك الاوربية . وكانت هذه الأسواق مستعدة لإستيعاب أكثر وأكثر من الإنتاج الألمانى والإنجليزى وغيره بسبب ظروف التطور السريع الذى كان يحدث فى المجتمعات الأوربية فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر والعقد الاول من القرن العشرين .

ورغم هذا التفوق الكبير فى التجارة الدولية الألمانية ، ورغم وقوع أضرار بالتجار الإنجليز من جراء ذلك ، إلا أن التجارة الدولية الإنجليزية ظلت مستمرة فى الزيادة . والفارق الوحيد هو أن معدلات الزيادة هذه فى مطلع القرن العشرين كانت أقل من معدلاتها قبل المنافسة الألمانية ، ومن هنا كانت المنافسات الاقتصادية بين ألمانيا وبريطانيا تصيب التاجر الإنجليزى بنقص يسير فى مكاسبه ، ولكن دون

ان تصيبه بفقد تجارته أو تعرضه للافلاس . وساعد على التقليل من حدة هذه المنافسة التجارية نجاح حزب الأحرار فى بريطانيا فى الاستمرار فى تنفيذ سياسة « حرية التجارة » Free Trade فى وجه المطالبة الملحة من جانب حزب المحافظين لتشييد حماية جمركية صارمة . وكان حزب الأحرار يرى — وعن صواب — أن مثل هذه الحماية الجمركية ستؤدى إلى حرب إقتصادية بين ألمانيا وبريطانيا لامبرر لها ، وكان رجال الأعمال الإنجليز أنفسهم راضين عن هذه التطورات الاقتصادية رغم تبدل موازينها ويرفضون فكرة إستخدام السلاح لحل المشكلات الاقتصادية بين بريطانيا وألمانيا .

وكان السبب الجوهرى فى هدوء أعصاب رجال الأعمال الإنجليز والمسئولين عن تجارة بريطانيا الدولية هو أن الإمبراطورية البريطانية تضع تحت يد بريطانيا أسواقاً ومجالات لاستثمار رءوس الأموال الإنجليزية تؤدى إلى عدم تعرض بريطانيا لهزات مالية أو اقتصادية .

هذا بعكس رءوس الأموال الألمانية الناشئة إذ كانت تستثمر فى داخل ألمانيا نفسها ، حيث ظهر فى ألمانيا بعد وحدتها مجالات متسعة للغاية للاستثمارات المالية وخاصة الاستثمارات الوطنية . وأما خارج ألمانيا فقد وجدت رءوس الأموال الألمانية طريقها إلى بلغاريا تحت ضغوط نمساوية قوية ، وإلى الدولة العثمانية تمهيداً لتحويلها إلى مجال حيوى للمشروعات الاستعمارية الألمانية .

وهكذا لم تعبر العلاقات الاقتصادية الأوربية عن الحقيقة السياسية والعسكرية الخاصة بانقسام الدول الكبرى الأوربية إلى معسكرين . وهذا يفسر لنا أن المنافسات الاقتصادية لم تكن على مستوى المشكلات القومية والسياسية والاستراتيجية التى أدت إلى الحرب العالمية الأولى .

فما هى قدرات وإمكانيات الدول التى خاضت الحرب العالمية الأولى ؟ وماذا كانت

لديها من آمال من ورائها ؟ هذا خاصة وأن الاتجاه العام لدى هذه الدول يرجح أنها حرب قصيرة فإذا بها حرب تمتد أربع سنوات .

(١) بريطانيا[1] :

كانت بريطانيا دولة ذات استقرار داخلى إلى حد كبير ، باستثناء الأزمات التى كانت تثيرها المشكلة الايرلندية ، وكانت الاصلاحات الاجتماعية التى تحققت خلال السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وحتى نشوب الحرب قد صفت أخطر مشاكل بريطانيا الداخلية وأصبح الشعب أكثر تماسكا والتفافا حول حكومته .

حقيقة كانت هناك بعض من المستعمرات البريطانية مستعدة لانتهاز أية فرصة تكون فيها بريطانيا فى موقف حرج لتحصل على استقلالها ، مثل كاثوليك أيرلنده والشعب المصرى ، ولكن الغالبية العظمى من الإمبراطورية البريطانية قبيل الحرب العالمية الأولى كانت فى حالة لاتمكنها من أن تحذو حـــذو أيرلنده . بل تعلمت الحكومة البريطانية من تجربتين قاسيتين مرتا بها ، إحداهما الثورة الأمريكية وحرب البوير ، إذ أدركت أن تجاهل مطالب الحكم الذاتى تؤدى إلى نكبات قد لايعرف مداها . ولهذا أعطت لكندا وأستراليا ونيوزيلنده ، وكذلك اتحاد جنوب إفريقية حكما ذاتيا ونظاما برلمانيا ديمقراطيا جعل هذه الأجزاء من الإمبراطورية لاتقل حماساً فى الدفاع عن مصالح بريطانيا بالمال والدماء ضد عدوتها ألمانيا .

ولم تهتز قدرات بريطانيا الدفاعية عن نفسها و عن امبراطوريتها إلا بعد انقسام أوربا إلى كتلتين شاكيتى السلاح : الحلف الثلاثى والحلف الثنائى . وتسابقت هذه الدول فى تقوية جيوشها وأساطيلها ومع هذا كانت بريطانيا هادئة البال حيث كان

---

(١) عند استعراضنا للدول التى شاركت فى الحرب العالمية الأولى سنوجز الحديث عن كل من هذه الدول ، حيث سبق أن تعرضنا لأوضاعها الداخلية وسياستها الخارجية من قبل ، وسنكتفى بالاشارة إلى مايتعلق بأحوالها قبيل ومطلع الحرب العالمية الأولى .

أسطولها دائما ضعف أسطول أى دولتين تاليتين لها[١]، ولكن فى العقد الأول من القرن العشرين وبسبب خطط ولهلم الثانى — امبراطور ألمانيا — فى مضاعفة أسطوله البحرى ومزاحمة التجارة البريطانية أخذت بريطانيا تبحث عن حلفاء لها . أولا اتصلت بالألمان دون جدوى ثم ارتبطت بكل من اليابان وفرنسا وروسيا . وكانت هذه الارتباطات فى الواقع تعطى لبريطانيا القدرة على تركيز أسطولها فى مواجهة ألمانيا عدوتها الجديدة . فعندما تحملت اليابان مسئولية الدفاع عن الهند (١٩٠٥) أصبح فى استطاعة بريطانيا سحب جزء من أسطولها من المياه الهندية إلى بحر الشمال، وبعد أن عقدت الوفاق الودى مع فرنسا وتوالت الأزمات مع ألمانيانجحت فى سنة ١٩٠٦ فى أن تتولى فرنسا مهمة الدفاع البحرى عن البحر المتوسط، وسحبت بريطانيا أساطيلها إلى بحر الشمال فى مواجهة ألمانيا . وبذلك تكون بريطانيا قد عالجت مشكلة توزيع قطعها البحرية المشتتة على مسطح واسع جدا من البحار والمحيطات ، هذا فضلا عن مضاعفة الحكومة البريطانية لبرامج الإنتاج العسكرى البحرى فيما يتعلق بالسفن الحربية من طراز دردنوت Dreadnought[٢].

---

(١) Two Power Stander وقد ظهرت هذه النظرية على يد اللورد جورج هاملتون فى ١٨٨٩ واستمر معمولا به فيما يتعلق بالسفن الحربية الكبيرة حتى بدأ التسابق على بناء الدردنوت. فاختل التوازن وأصبح الاسطول البريطانى يزيد فقط ٦٠٪ عن الاسطول التالى له .

(٢) بارجة تحمل مدفعية ضخمة ، وكان هذا الإسم قد أطلق لأول مرة على بارجة بريطانية أنزلت فى ٤ فبراير ١٩٠٦ ولمدفعيتها ولسرعتها تفوقها على أية سفينة حربية أخرى ، اعتبرت حينذاك ثورة فى صناعة السفن الحربية . وفى الوقت الذى أنزلت فيه هذه البارجة إلى البحر كان المهندسون يعممون لإنتاج منهاق خارج بريطانيا فأدى ذلك إلى التسابق فى التسلح البحرى بين بريطانيا وألمانيا بصفة خاصة مما هدد سياسة البحرية البريطانية القائمة على أساس أن يكون الاسطول البريطانى معادلا لقوة أى أسطولين تاليين لأسطولها . وهذا ماعرف باسم Two Pover Stander

وذلك منذ ١٨٨٩ . والسبب فى عجز بريطانيا عن الحفاظ على هذا المستوى أن الدول الأوربية الأخرى ركزت على إنتاج هذا النوع المتقدم من البوارج التى أصبحت الأساس الذى يقوم عليه تقييم قوة الدولة البحرى . وفى ١٩١٤ كان لبريطانيا ١٩ بارجة عاملة و ١٣ تحت البناء فى مقابل ١٣ بارجه عاملة لألمانيا و ٧ تحت البناء ، وكان للولايات المتحدة الأمريكية ٨ ولفرنسا ٨ كذلك ولليابان ٤ وللمملكة الثنائية ٢ ولإيطاليا واحدة . وكانت أول معركة اشترك فيها هذا النوع من السفن هى معركة جوتلاند خلال الحرب العالمية الأولى، وأخذت أهمية هذه السفن تتناقص بنمو سلاح الغواصات والطيران والصواريخ .

وبظر التوفر مصادر البترول – الذى أصبح وقود أساطيلها الحديثة — من ار (عربستان – خوزستان) فى إيران ، ولأن الإنجليز أصبحوا يمتلكون نا صية فنون الحرب المحيطية كانت قدرات البحرية البريطانية أكثر فعالية من البحرية الألمانية الناشئة .

ورغم هذه الاستعدادات العسكرية البرية والبحرية الكبيرة الموجهة ضد ألمانيا بالذات ، كانت الحكومة البريطانية تأمل فى يوم ما أن تلعب دور الوساطة بين الحليفين المتعاديين . كانت تحاول إقناع ألمانيا بوقف سباق التسلح البحرى على أساس تفوق بريطانى أو على أساس الإبقاء على الوضع الراهن ، ولذا رفضت الحكومة البريطانية لمدة طويلة أن تحول الوفاق الثلاثى إلى حلف ثلاثى رغم الإلحاح المتواصل من جانب فرنسا . ولكن الإمبراطور ولهلم الثانى رفض أية قيود تفرض على برنامج التسليح البحرى الألمانى الأمر الذى جعل الهوة بين ألمانيا وبريطانيا لا يمكن عبورها . ومع هذا ظلت بريطانيا محتفظة بحق تحديد الحالة التى تجعلها مضطرة إلى أن تشارك عسكريا فى القتال إلى جانب فرنسا .

وعلى أى حال ، كان شبح المجاعة فى بريطانيا ، وكساد التجارة فيها يكمن وراء أى تهاون بريطانى نحو تفوق الأسطول البريطانى ، ودخلت بريطانيا الحرب العالمية الأولى وهى أقدر على فرض الحصار على ألمانيا أكثر من قدرة ألمانيا على فرض حصار قاتل عليها .

ولكن يظل هناك خطر كبير يواجه بريطانيا من جانب ألمانيا ، وهو إمكانية التفوق الحاسم البرى الألمانى وإمكانية سيطرتها على كل أوربا بالتعاون مع حليفتها امبراطورية النمسا والمجر ، ومن هنا كان على بريطانيا أن تسهم بجيوش برية تدفع بها ضد ألمانيا ولهذا عنيت الحكومة البريطانية بشكل محدود بتطوير قواتها البرية حتى تصبح قادرة على منع ألمانيا من اجتياح أوربا . إلا أن بريطانيا لم تكن تعسكر فى الجبهة الفرنسية فقط . وإنما كانت تعمل على إستخدام أكبر عدد من قواتها فى الجبهات التى يمكن أن تؤدى إلى مكاسب إستعمارية جديدة مثل الشام والعراق ومضايق الدردنيل والبسفور .

(٢) فرنسا :

كانت فرنسا هى أكبر قوة برية فى دول الوفاق الودى ولكن كانت مشاكلها الداخلية معقدة بسبب التأثير الشديد الذى كان للعلاقات الألمانية — الفرنسية على تطور الأوضاع الداخلية فى فرنسا .

كانت المدارس على مختلف مستوياتها ، والجامعات والكنائس تردد نكبة ضياع الإلزاس واللورين وتحث الشعب على بذل أقصى طاقة ممكنة لاستردادها . إلا أن الحرب ضد ألمانيا لم تكن من القرارات التى يمكن أن تتخذها فرنسا وحدها .

ولقد كانت حكومة فرنسا ، بل وشعبها ، يدرك أن ألمانيا ستنقل الحرب بسرعة إلى قلب بلادهم ، وكان الفرنسيون يرون أن جيشهم أقدر على الدفاع منه على الهجوم . ومع هذا اتخذت الحكومة الفرنسية خطوات إيجابية لاعداد البلاد للحرب،فطورت بعض الوحدات لتصبح هجومية ومدت من مدة الخدمة العسكرية فزاد عدد أفراد الجيش زيادة ملحوظة رغم معارضة الشعب الفرنسى لمد فترة الخدمة العسكرية .

وبلا شك أن الحماس القتالى ضد الألمان واحداً من العناصر المعنوية الجوهرية التى أعطت للجيش وللشعب الفرنسى صلابة كان لها دورها فى تحديد نتيجة الحرب .

(٣) روسيا :

خلال السنوات القليلة التى سبقت الحرب كانت عناية روسيا بالجيش واضحة ولكن دون التغلب على المشكلات الرئيسية التى تعرقل إرتفاع مستواه خاصة من حيث النقص فى الضباط وفى النقل بالسكك الحديدية ، حقيقة كانت هناك مشروعات قيد التنفيذ لمواجهة هذا النقص ، ولكن الحرب وقعت وأصبحت روسيا مرغمة على دخولها

بإمكانياتها غير المتطورة وبشعب تمزقه الإشاعات والأزمات الإقتصادية وفساد الإدارة وقوة الاستغلال . فكان الشعب فى مجموعه سلبيا .

(٤) إيطاليا :

كانت إيطاليا — كما سبق أن ذكرناه(١) — فى حلف مع ألمانيا والمملكة الثنائية. ولكنها فى الواقع كانت تعانى من مشكلات داخلية وخارجية أثرت فى تحديد السياسة التى اتبعتها عندما تقع الحرب . فقد انقسم الرأى العام الإيطالى حول تحديد الجانب الذى تتخذه إيطاليا ، حيث كان هناك سياسيون كبار من أمثال « جيولتى » زعيم حزب الأحرار — يطالبون بأن تعمل الحكومة على الحصول على المناطق التى يسكنها إيطاليون فى « الترنتينو » النمساوى فى ساحل دلماشيا ، وأن يتم ذلك عن طريق المساومات الدبلوماسية ، حتى ولو أدت هذه المساومات إلى الحصول على جزء من هذه البلاد وليس كلها . وكان هؤلاء السياسيون يضعون فى اعتبارهم حينذاك ضعف إمكانيات إيطاليا الإقتصادية وتعقد مشكلاتها الداخلية التى ستتضاعف فى حالة تورط إيطاليا فى الصراع الأوربى الكبير المنتظر .

وكذلك كان الزعماء الكاثوليكيون — المتأثرين بتوجيهات البابوية — يدعون إلى وقوف إيطاليا على الحياد ، إذ كان من العسير على شعورهم الدينى أن يتقبل حرباً بين إيطاليا الكاثوليكية وأكبر حكومة مخاصة للكاثوليكية فى أوربا : الحكومة النمساوية .

وكان الإشتراكيون الإيطاليون يحثون على عدم تورط إيطاليا فى الأزمات الأوربية الكبرى تمشياً مع سياستهم العامة الداعية إلى السلام .

ولكن كان هناك جناح من الأحرار وجناح من الإشتراكيين يدعو إلى هذا التورط . ودعا كذلك الديمقراطيون المسيحيون إلى وقوف إيطاليا إلى جانب دول الوفاق

---

(١) أنظر من قبل ص ١١٥

ومن ثم كان من الطبيعى أن تتريث الحكومة الإيطالية فى اتخاذ أى موقف نهائى حتى تصل إلى قرار حاسم فى هذا الصدد .

وكان أمام الحكومة الإيطالية — وكانت برئاسة السيامى سالاندرا — طريقاً من ثلاث طرق : —

١ — أن يقف على حياد ويحصل على ثمنه من كل طرف من الأطراف المتحاربة الراغبة فى عدم انحياز إيطاليا إلى الجانب الآخر .

٢ — الانحياز إلى جانب دولتى الوسط ودخول الحرب بجانبهما تمشياً مع تحالفها معهما .

٣ — دخول الحرب إلى جانب دول الوفاق والغدر بـ (النمسا وألمانيا) .

وقامت الحكومة الإيطالية باتصالاتها مع الجانبين لتحدد ما يمكن أن يقدمه كل منهما . فبالنسبة لدولتى الوسط كانت المملكة الثنائية هى المعنية جداً بتطور السياسة الإيطالية ، حيث أن دخول إيطاليا الحرب يعنى اضطرارها إلى أن تحارب فى جبهتين على الأقل . وكانت حكومة فينا تدرك أن إيطاليا تريد تنازلها عن إقليم الترنتينو الذى يسكنه إيطاليون ، وقد اتبعت حكومة فينا سياسة ملتوية إزاء هذا المطلب الأمر الذى أثار مخاوف الحكومة الإيطالية من أن يكون هذا الأسلوب مجرد خدعة حتى إذا ما انتهت الحرب بانتصار دولتى الوسط لن تمكن حكومة فينا الحكومة الإيطالية من الحصول على أية قطعة أرض فى الترنتينو .

وكانت فكرة التنازل عن (الترنتينو) فى حد ذاتها خطراً على مستقبل المملكة الثنائية حيث ستؤدى إلى تطلع القوميات الأخرى إلى تصفية مشكلاتها مع هذه المملكة الثنائية على نفس الأساس القومى ، فيظل شبح التفكك ماثلا أمام حكومة فينا سواء خلال الحرب أو بعدها .

كانت إيطاليا تتطلع كذلك إلى الحصول من المملكة الثنائية على إقليم تريستا

واستريا وعلى الساحل الدلماشي . وكل هذه المناطق أصبحت نقاط ارتكاز للمملكة الثنائية فى البلقان ، وكان من الخطورة على المملكة الثنائية بمكان أن تضع دولة أوربية قدمها على هذا الساحل الشرقى للبحر الادرياتى ، ومن ثم كانت آمال إيطاليا فى الترنتينو والساحل الشرقى للبحر الادرياتى بعيدة المنال فى حالة إنتصار دول الوسط .

إتصلت إيطاليا كذلك بدول الوفاق ، وخلال المفاوضات وجدت أن آمالها التوسعية على حساب المملكة الثنائية — أرضا ونفوذاً — أقرب جداً إلى التحقيق لو دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب دول الوفاق .

فقد بدا وكأن الحلفاء لا يعترضون على حصول إيطاليا — فى حالة النصر النهائى — على : —

١ — إقليم الإديج الأعلى الألمانى السكان .

٢ — استيريا السلافية السكان .

٣ — ميناء فالونا على الساحل الألبانى .

٤ — جزيرة ساسينو المتحكمة فى مدخل قنال أوترانت .

٥ — أجزاء من الساحل الدلماشى بشرط عدم المساس بالمصالح (الصربية) التى كانت تدافع عنها روسيا .

٦ — منطقة أضاليا التركية .

٧ — كل الأراضى التى يسكنها الإيطاليون .

كان هذا الفارق الكبير بين عروض الطرفين المتحاربين هو السبب فى تحول الحكومة الايطالية إلى سياسة الدخول فى حرب إلى جانب دول الوفاق ، وانتهت المفاوضات فعلا إلى توقيع معاهدة سرية بين إيطاليا ودول الوفاق فى ٢٦ إبريل —

نيسان ١٩١٥ . ولم يلبث أن ألغى (سالندرا) معاهدة التحالف الثلاثى فى الثالث من آيار — مايو ١٩١٥ .

إلا أن موافقة البرلمان كانت ضرورية كى تدخل إيطاليا الحرب ، وهنا كانت المشكلة الكبرى التى واجهت مخططات (سالندرا) السياسية إذ كان أغلب أعضاء البرلمان من دعاة الحياد والتفاوض مع مختلف الأطراف لتحقيق الآمال والتطلعات الإيطالية . مع تجنب البلاد نفقات وويلات الحرب . وأمام هذا الموقف اضطر (سالندرا) إلى الاستقالة (١٣ مايو — آيار) . إلا أن الحركة الشعبية للشبان فى كبريات المدن الايطالية وضعت فى يد الملك القدرة على تثبيت (سالندرا) فى الحكم ودفع البرلمان إلى إعادة النظر فى سياسته .

كان هذا الحماس الشعبي قد تأجج بواسطة الصحافة التى كان كثير من كتابها يعتقدون أن إيطاليا فتية وليست هرمة وأنها تستطيع أن تأخذ مكانتها الدولية العالية بما تقدمه هى فى ميدان القتال وليس بالمناورات السياسية على موائد المفاوضات . وكان أن وافق البرلمان على دخول إيطاليا الحرب (٢٣ مايو — آيار ١٩١٥) .

أما من الناحية العسكرية ، فإن استعدادات إيطاليا لم تكن على مستوى مواجهة مثل تلك الحرب التى نشبت فى ١٩١٤ ، فلما وقعت الحرب أخذت تعيد تنظيم قواتها ، على أن انتظارها إلى ١٩١٥ — لتشارك فى الحرب بجانب دول الوفاق — أعطاها الفرصة لبذل جهود أكبر لتقوية نفسها عسكرياً .

(٥) المانيا :

عنيت ألمانيا بزيادة قواتها المسلحة ، وكانت القيادة العسكرية الألمانية قد وضعت خطتها على أساس توجيه ضربة سريعة وحاسمة لفرنسا لتنتقل الجيوش الألمانية لتتفوق على الجيوش الروسية بمساعدة النمسا ، ولكن فى ١٩١٣/١٩١٤ وجدت القيادة الألمانية أن الجبهة الروسية أصبحت عبئاً أكثر من ذى قبل على الألمان بسبب

اضطرار النمسا إلى وضع مزيد من قواتها على الحدود مع الدول البلقانية بعد أن نحوات الحرب البلقانية لصالح خصوم النمسا .

وبصفة عامة كان الشعب الألمانى مستعداً لخوض الحرب ضد فرنسا ، وكان اشتراكيو ألمانيا لايعارضون وقوعها .

(٦) النمسا — المجر :

عنيت المملكة الثنائية بزيادة قدراتها العسكرية خاصة بعد الحروب البلقانية (١٩١٢/١٩١٣) ، ولكن الإجراءات كانت معقدة ومعطلة ، والمشكلة القومية كانت تؤرق هذه المملكة المتعددة العناصر ، والتى كانت تمثل تراثا عفا عليه الزمن ، إلا أن تحالفها مع ألمانيا كان يعطيها قوة مادية ومعنوية ساعدتها على مواجهة سنوات الحرب الأولى .

٧) البلقان ودوله :

كان البلقان أكثر المناطق حساسية بالنسبة لتطور الأزمات بين دولتى الوسط ودول الوفاق ، خاصة وأن الصرب — التى بدأت بسببها الحرب — كانت فى قلب البلقان وكانت دول البلقان فى كثير من الأوقات تنتظر تفكك المملكة الثنائية وفى نفس الوقت تخشى كل الخشية من هذه النتيجة المرغوبة المكروهة . إذ كان من المتوقع أن يصبح شرق أوربا مجرد مجموعة صغيرة من الدول كل واحدة تحمل جرثومة أزمة مع جاراتها ، وهذا التفكك وغياب المملكة الثنائية — إن حدث — قد يجعل الكلمة العليا فى المنطقة لروسيا . وهو أمر كانت الدول البلقانية تخشاه فضلا عن رفض بريطانيا لمثل هذا الوضع .

والعكس كان أيضاً أمر يخشاه أهل البلقان . حيث أن إنتصار المملكة الثنائية على الصرب وسحقها يعنى أن العملاق النمساوى أصبح هو صاحب اليد العليا فى مصير المنطقة .

وكان البلقان يحتوى على عدد من الدول والدويلات المستعدة لخوض هذه الحرب الكبرى فى جانب التكتل الذى يمكن بانتصاره أن يحقق الآمال . وكانت دول البلقان بصفة عامة تدرك أن الأزمة التى نشبت بين الصرب والمملكة الثنائية فى يونيو — يوليو ١٩١٤ قد تؤدى إلى إذلال كامل للصرب الأمر الذى يهدد أمن وسلامة بقية دول البلقان باستثناء بلغاريا التى كانت تتحرق شوقاً إلى رؤية اليوم الذى تشرب فيه الصرب من الكأس الذى شربته بلغاريا فى صلح بوخارست ١٩١٣. وكانت بلغاريا تأمل من وراء إذلال الصرب الحصول منها على (مقدونية) التى تضم غالبية من السكان البلغاريين . كما كانت بلغاريا تأمل فى أن تسترد من رومانيا إقليم (دبروجه الجنوبى) .

وكانت تطورات الحرب فى سنتها الأولى أكبر مؤثر على التوجيه السياسى فى بلغاريا . فقد كان كثير من ساسة بلغاريا يدعون إلى عدم الاصطدام بروسيا مذكرين بدورها فى تأسيس بلغاريا وبقوتها القادرة على تحطيم بلغاريا إذا سنحت لها الفرصة. ولكن ساسة بلغاريا كانوا إلى جانب تقدير هذه الظروف المسيطرة على العلاقات البلغارية — الروسية يتطلعون إلى تحقيق أمانيهم القومية فى جمع شمل البلغار، وحيث أن مقدونية الصربية كانت تضم أكبر أقلية بلغارية خارج الوطن الأم كان الحصول عليها حجر الزاوية فى تحول بلغاريا إلى جانب دولتى الوسط . فلقد عرضت حكومة فيينا على بلغاريا — بعد استعداد إيطاليا للدخول فى الحرب — حصولها على مقدونية الصربية وعلى تأييد المطالب البلغارية فى مناطق الحدود التركية (تراقيا) .

أما دول الوفاق فكان حصول بلغاريا على مقدونية الصربية مسألة تحتاج إلى بحوث مطولة ولهذا لم تحصل بلغاريا من دول الوفاق على موافقة كاملة وكانت الوعود بحصولها على (أدرنة) من تركيا وجزء من تراقيا لا يعادل ما وعدت به المملكة الثنائية .

ثم جاء خريف ١٩١٥ ، وبدا فيه أن الجيوش الألمانية أنزلت الهزائم الساحقة بجيوش روسيا وأن هذه الأخيرة — كما أشيع حينذاك — أصبحت على وشك عقد

صلح مهين منفرد . ولذلك فضلت الحكومة البلغارية أن تخوض الحرب إلى جانب دولتي الوسط (٥ تشرين أول ١٩١٥) ، وأسهمت في تحطيم الصرب والاستيلاء على عاصمتها (بلغراد) .

لقد كانت تلك التطلعات والاتجاهات البلغارية كفيلة بأن تثير مخاوف الدول البلقانية ، وبوجه خاص (اليونان) التي كانت تخشى كل الخشية التوسع البلغاري على حساب الصرب للأسباب التالية :

١ — أن اليونان كانت تخشى من الإنتقام البلغاري منها يوما ما ولذلك أبقت على ذلك التحالف الذي كان بينها وبين الصرب .

٢ — إن اليونان كانت قد ضمت جزءا من (مقدونية) لن تلبث بلغاريا أن تتطلع إليه بشره إذا ما نجحت في اقتناص مقدونية الصربية .

٣ — أن تفوق بلغاريا — بإنتصارها وتوسعها على حساب الصرب — يهدد كيان اليونان مباشرة ، خاصة وأنه كان هناك نوع من التقارب بين المملكة الثنائية وبلغاريا ، إلى جانب علاقات وثيقة بين المملكة الثنائية والدولة العثمانية وكانت الدولة العثمانية بدورها تتربص الدوائر باليونان لتسترد منها ما سبق أن حصلت عليه الأخيرة خلال الحرب البلقانية ١٩١٢ / ١٩١٣ .

وكانت الأوضاع الداخلية في اليونان لا تعطيها الفرصة كي تضع لنفسها سياسة مستقرة وجريئة في مواجهة التطورات الكبرى التي وقعت في السنة الأولى والثانية من الحرب .

فدخول إيطاليا وبلغاريا الحرب ، وهزائم روسيا ، وحملة فرنسا وبريطانيا إلى غاليبولي — لفتح الطريق عنوة إلى روسيا ، كل هذا كان يتطلب من الحكومة اليونانية إتخاذ موقف واضح من هؤلاء المتحاربين في ميدان يقع على مشارف الدولة اليونانية . إلا أن الملك قسطنطين — صهر القيصر ولهلم الثاني — كان مقتنعا بتفوق

العسكرية الألمانية وحصولها على النصر النهائى ، ومقتنعا باستمرار تسلطه على توجيه السياسة الخارجية لبلاده بغض النظر عن مسئوليات "وزارة اليونانية، وكان معجباً بنظام الحكم (الروسى) شبه الدكتاتورى .

وعلى العكس من هذا كان السياسى الذكى فينزيلوس[١] . إذ كان يتطلع إلى استكمال الوحدة القومية لليونان ، وإحياء الامبراطورية البيزنطية ، وإعطاء الشعب أكبر قدر من الديمقراطية البرلمانية ، وأن تحقيق ذلك – من وجهة نظره – لا يتم إلا بإقصاء الملك عن الحكم إذا استمر فى تصلبه وسياسته تلك .

وأصبحت اليونان فى مفترق الطرق عندما نزلت الجيوش الفرنسية والإنجليزية فى غاليبولى ولم تحترم فرنسا وبريطانيا حياد اليونان فى حالة تعارضه مع سلامة هذه الجيوش . واتخذ فينزيلوس سياسة فتح اليونان أمام جيوش دول الوفاق فى مواجهة معارضة شديدة من جانب الملك ، إلا أن نزول القوات البريطانية والفرنسية فى سالونيك واتخاذها قاعدة بلقانية لعمليات دول الوفاق العسكرية فى المنطقة جعل فنزيلوس أقدر على تحدى الملك وكون حكومة وطنية فى (سالونيك) ١٩١٦ ، وهكذا اتخذت اليونان جانب دول الوفاق .

وفى أقصى شمال شرق البلقان كانت رومانيا تحاول أن تلعب دوراً رئيسياً فى شئون البلقان يضمن لها اكتمال الوحدة الرومانية والتوسع إن أمكن . فقد كانت هناك عدة ملايين من الرومانيين تحت حكم روسيا فى بسارابيا ، وتحت حكم المملكة الثنائية فى ترانسلفانيا . ولكن كانت هناك ميول واضحة فى رومانيا للارتباط بدول الوفاق إلا أن وجود الملك كارول الأول على العرش – وهو من أسرة هوهنزلرن الحاكمة فى برلين ، منع لفترة ليست بالقصيرة ، تحول رومانيا ضد دولتى الوسط إلا أن الملك لم يلبث أن توفى فى أكتوبر ١٩١٤ وخلفه ابن أخيه فرديناند .

كان فرديناند لا يستطيع التفوق على السياسى الرومانى الكبير ورئيس الحكومة براتيانو Bratiano ، وكان على هذا الرجل أن يحدد موقف رومانيا من الحرب الأوربية على ضوء إمكانية تحقيق أهداف رومانيا القومية فى كل

(١) Veinzelos

من ترانسلفانيا الواقعة تحت المملكة الثنائية، وبسارابيا الواقعة تحت حكومة روسيا. وأكدت الاتصالات الأولى بين بودابست وفيينا أن الأخيرة لن تتنازل عن ترانسلفانيا بينما كانت دول الوفاق مستعدة لأن تمد رومانيا بالحصول عليها. وكانت ترانسلفانيا — في نظر الحكومة الرومانية — أولوية من حيث التحرك القومي نحو الوحدة تجمع الرومانيين. ولهذا لم تلبث المفاوضات بين رومانيا ودول الوفاق أن أثمرت معاهدة تحالف (١٧ أغسطس — آب ١٩١٦) ولكن رومانيا — التي كانت تعلق دول الوفاق كثيراً على دورها العسكري في الحرب — وقعت على قدميها أمام جيوش دول الوسط في ١٩١٧.

(٨) اليابان :

كانت اليابان الدولة الآسيوية الكبيرة التي شاركت في هذه الحرب. وهناك دولة أخرى شاركت فيها هي سيام (تايلاند) ولكنها لم تلعب إلا دوراً صغيراً. وكانت اليابان تسعى إلى وراثة الدول الأوربية في الشرق الأقصى، وحيث أن تحقيق هذا الهدف دفعة واحدة يعتبر من المستحيلات. سعت إلى انتهاز فرصة الأزمات الأوربية للحصول على مكاسب في الشرق الأقصى.

وكانت السوق الصينية الكثيفة بالسكان محط أطماع اليابان، فضلا عن تطلعها إلى إستغلال مناجم الفحم والحديد التي عجز الصينيون عن استغلالها لهذا رأت الحكومة اليابانية أن استمرار الحلف البريطاني مع اليابان يفتح الطريق أمام استيلائها على المناطق التي كانت تسيطر عليها ألمانيا في الصين في خليج كياوتشاو وشانتونج بالذات.

ولهذه الأسباب أعلنت اليابان الحرب على دول الوسط في ٢٣ أغسطس — آب ١٩١٤ مؤملة أن تحقق تلك الأهداف، وأكثر منها حتى ولو كان ذلك على حساب دول الوفاق أنفسهم.

بعد أن وضعت اليابان يدها على ما كان لألمانيا من مناطق نفوذ في الصين *

تطلعت إلى التحكم فى مقدرات الصين نفسها مستخدمة فى ذلك التهديد باستخدام القوة والتهديد بإطلاق السياسيين اللاجئين إلى اليابان ، وكان فى استطاعة هؤلاء ان يثيروا القلاقل فى الصين ضد حكم (يوان تشى كاى) الدكتاتورى .

وقدمت حكومة اليابان يناير — كانون ثانى ١٩١٥ مذكرة مطولة تفصيلية إلى حكومة الصين تطالب فيها بإمتيازات سياسية واقتصادية وعسكرية تجعل الصين — بعد وقت ليس بالطويل — مجرد محمية يابانية . ووقفت حكومة الصين مهيضة الجناح أمام العملاق اليابانى رغم مذكرة الاحتجاج البريطانى على مغالاة اليابان فى مطالبها تلك ، ورغم مطالبة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية من اليابان تجنب تنفيذ المطالب التى تمس استقلال الصين مباشرة . ولهذا كان الاتفاق الذى توصلت إليه حكومتا الصين واليابان فى ٢٤ مايو — آيار ١٩١٥ يحفظ ماء وجه الصين من جهة ويعطى لليابان فرصا واسعة لإستغلال الصين من جهة أخرى ، واضطرت دول الوفاق إلى الموافقة على تلك الاتفاقيات اليابانية الصينية لانشغالها بميادين الحرب فى أوربا وفى الشرق الأوسط ، بل لقد وعدت بريطانيا اليابان بأن تحصل الأخيرة على الجزر الواقعة تحت يد ألمانيا فى المحيط الهادى .

(٩) الولايات المتحدة الأمريكية :

كانت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية قبيل الحرب العالمية الأولى قد انتقلت من « التوسع الإقليمى » فى داخل القارة إلى التوسع فى أقاليم القارة الجديدة (آلاسكا وهاواى) وإلى خلق مجال حيوى لها فى أمريكا اللاتينية . ثم لم تلبث أن أستولت على الفلبين من أسبانيا وسيطرت على قناة بنما وكوبا . وكانت ترقب بحذر شديد تورط الدول الأوربية فى التحالفات والتحالفات المضادة ، وكانت تسعى إلى أن تكون الحكم القوى الذى يفصل فى مشاكل القارة الأوربية ، إلا أن حدة الصراعات بين المعسكرين المتعاديين فى أوربا ، وعدم الحاجة الماسة لأى منهما إلى الولايات المتحدة ، وعدم رغبة هذه الأخيرة فى التورط فى مشاكل القارة ، أو

الالتزام بمواثيق ، أو عهود سياسية ثابتة كل هذا جعل الولايات المتحدة الأمريكية تتخذ موقف الحذر المنتظر لنتائج الصدامات الأولى بين المتحاربين :

ولعل مرد هذا الاتجاه الجديد يعود إلى تزايد نمو صناعتها وتجارتها وإلى تحولها السريع لأن تكون دولة كبرى عالمية . وقد برز هذا الميل أكثر من مرة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

فقد اشتركت الولايات المتحدة فى مؤتمر برلين (١٨٨٥) الذى عالج قضية توزيع مناطق النفوذ فى أفريقيا بين الدول الأوربية الاستعمارية ونظم مكافحة تجارة الرقيق . وكذلك تدخلت الولايات المتحدة فى الحرب الروسية — اليابانية سنة ١٩٠٥ كوسيط بين اليابان وروسيا .

وفى أثناء الأزمة التى قامت بين فرنسا وألمانيا (١٩٠٥ — ١٩٠٦) بسبب الصراع على النفوذ فى مراكش تدخلت الولايات المتحدة فيها ولعب الرئيس روزفلت بصورة خاصة دوراً هاما كما اشتركت الولايات المتحدة فى مؤتمر الجزيرة الذى عقد لحل هذه المعضلة .

وخلال العقدين السابقين على نشوب الحرب العالمية كان الشعب الأمريكى قد تعود رؤية أوربا على « حافة الحرب » ، ولا تكاد الأطراف المتعادية تقترب من إعلان الحرب حتى تتراجع إحدى هذه الدول الكبرى وتقبل نوعا من الحلول الوسط . ولهذا عندما جاءت أنباء مصرع الارشيدوق النمساوى ، قابله الشعب الأمريكى وكأنه واحد من حوادث الاغتيال العديدة التى وقت فى أوربا خلال سنوات ماقبل الحرب ، ولم يكن الرأى العام الأمريكى يعتقد أن مثل هذا الحادث الفردى قد يؤدى إلى حرب شاملة بين الدول الكبرى الأوروبية . ولهذا كانت دهشة الشعب الأمريكى كبيرة عندما توالت عليه أنباء التعبئات العامة من هذا الجانب أو ذاك ، وعندما توالى إعلان الحرب من جانب الدول المتواجهة .

نظر الشعب الأمريكى إلى هذه التطورات بنوع من الامتعاض والتقليل من

قيمة هذا العسكر الأوربى الذى كان عظيما ومتفوقا . واعتقد الشعب الأمريكى أن سياسة أوربا من نوع استمرأ المؤامرات السياسية والعسكرية ، وأنه قد أصبحت فى دمهم هذه الأساليب التى تتنافى والأخلاقيات السياسية الأمريكية .

حقيقة كانت حكومات الولايات المتحدة الأمريكية قبل ويلسون قد اعتمدت (سياسة الدولار) ، وحصلت الولايات المتحدة من وراء ذلك على مجالات واسعة زراعية وبترولية فى المكسيك وشعوب أمريكا اللاتينية ، إلا أن وودرو ويلسون — منذ تولية الرئاسة — سار على سياسة جديدة لاتأخذ (بسياسة الدولار) ، وتسعى إلى كسب ثقة وتعاون دول أمريكا اللاتينية . هذا التطور وضع الأخلاقيات السياسية[1] ، الأمريكية قبيل الحرب العالمية الأولى فى مكانة رفيعة جدا إزاء المعاهدات السرية والوفاقات الغامضة والتحالفات التى تضع السيف فى مواجهة السيف دون اعتبار لمستقبل حضارة أوربا .

ورغم تلك التطورات السريعة الأوربية ، ظل الشعب الأمريكى معتقداً أن هذه الأزمة الحادة الكبرى لن تلبث أن تجد من ينقذ أوربا من نفسها وأن يقنع الدول الأوربية بأن تضع السلاح مؤقتا حتى يمكن أن يكتشف مخرجا من هذه الأزمة الكبرى التى تهدد الحضارة الحديثة . وكانت هناك تطلعات شعبية نحو قيام حكومة الولايات المتحدة بهذا الدور السلمى الانقاذى الكبير ، خاصة وأنها بتورط الدول الأوربية فى هذه الحرب وضعت حكومة الولايات المتحدة فى مكانة عالية إنسانية ، وأبرزت قيمة المساعى المتتالية التى بذلها — قبل الحرب العالمية — كل من (ويلسون) ووزير خارجيته (بريان) من أجل عقد معاهدات سلم شامل بين الدول الأوربية وغيرها . أما كان يجدر — من وجهة نظر الشعب الأمريكى — بهذه الدول الأوربية أن تؤيد حكومة الولايات المتحدة الأمريكية فى مساعيها نحو (سلم

---

(١) قال ويلسون : فى أحد خطبه :

« The United States will never again seek one additional foot of territory by conquest. »

عامل) ؟ وكان هناك العديد من الدول الاوربية التى وافقت على هذه الجهود الإنسانية ، ولكن ألمانيا بدت راغبة عن أن توقع على أى من معاهدات للسلام هذه على اعتبار أنه سلام يضع إمكانيات التفوق والرفاهية فى يد دول الوفاق وحرمان المانيا والنمسا من فرص عادلة فى مجالات الاستعمار والتجارة . ولكن هذا الموقف الالمانى كان يعنى لدى الشعب الامريكى وجود روح عدوانية لامبرر لها لدى القيصر وحكومته . وكان من العسير على الألمان أن يقنعوا الشعب الامريكى بوجهة نظرهم وهى أن التوازن الدولى يقتضى فرصاً دولية متساوية للجميع وليس لدول الوفاق فقط ، بينما كان من اليسير جدا على أجهزة الدعاية الإنجليزية أن تظهر بريطانيا على أساس أنها دولة تريد وتسعى إلى السلام في وجه قوى عدوانية ألمانية.

ومن وراء هذه التيارات الكبرى السياسية، كانت اتجاهات الحكومة الامريكية فى الايام الاولى لنشوب الحرب تدعو إلى أن تظل الولايات المتحدة الامريكية بعيدة عن هذه الحرب التى أشعلها محترفو السياسة من الاوربيين وظهرت الصحافة فى الولايات المتحدة الامريكية ـ غداة نشوب الحرب الاوربية ـ تشيد بابتعاد الامريكيين عن الحرب ، وتهزأ من هؤلاء الاوربيين الذين يخوضون حربا شاملة لامبررات قوية لها ، من وجهة نظر الصحافة الامريكية .

فلقد ظهرت فى صحيفة شيكاغو هيرالد[1]، و « ليترارى ديجست » وغيرها من

---

(١) قالت Chikago Herald :

“Peace-loving citizen of this country will now rise up and tender a heavy vote of thanks to Columbus for having discovered America ».

وقالت أخرى :

«We never appreciate so keenly as now the foresight exercised by forefathers in emigrating from Europe ».

وقالت الليترارى ديجست Literary Digest:

«Our isolated position and freedom from entangling alliances inspire our press with the cheering assurance that we are in no peril of being drawn into the European quarrel ».

الصحف ، مقالات تحمد الله على اليوم الذى نجح فيه كولومبس فى اكتشاف أمريكا ليفتح أبوابها أمام من أسعدهم الحظ وغادروا تلك القارة الأوربية المليئة بالمؤامرات والاقتتال والحروب .

وهكذا كانت نظرية (الحياد الحقيقى) هى الأكثر انتشاراً بين الشعب الأمريكى ، بل وبين رجالات السياسة الأمريكية حينذاك . والحياد الحقيقى — فى مفهوم ذلك الوقت — كان يعنى أن تظل العلاقات السياسية والاقتصادية بين الولايات المتحدة الأمريكية والدول الكبرى الأوربية المتقاتلة على ما كانت عليه قبل الحرب ، وأن تظل هذه العلاقات دون تطور فى اتجاه معين منعا لإثارة حساسيات هنا أو هناك . ولقد أبدى الرئيس ويلسون إيمانه بهذه السياسة ، بقوله عند وصول أنباء اشتعال الحرب الأوربية إلى أسماعه :

« إنه على الولايات المتحدة الأمريكيه أن تظل بالنسبة لهذه الحرب على الحياد نظريا وعمليا .. وعلى الأمريكيين أن يكونوا محايدين فى أفكارهم كما فى أفعالهم » .

لقد كان واضحا فعلا فى تصريحات ويلسون وخطبه سواء قبل مرحلة انتخابات الرئاسة فى ١٩١٦ أو خلال معركة الانتخابات هذه أنه شديد الكراهية لمثل هذه الحرب الشاملة وأنه لابد من أن يستخدم كافة قدراته من أجل وقف هـــذه المذابح البشرية التى يذهب ضحيتها فى كل يوم عدد كبير من زهرة شباب أوربا .

وخلال معركته الانتخابية ضد خصمه « هيوز » — مرشح الحزب الديمقراطى — قام ويلسون بحملة كبرى ضد دعاة الحرب وأعلن نفسه داعية السلام العالمى الأول ، وأشار إلى أن تورط الولايات المتحدة الأمريكية فى الحرب الأوربية ليس سوى « جريمة ضد الحضارة » ولكن ليس معنى هذا أن الرئيس ويلسون معنيا فقط بإبعاد شبح الحرب الأوربية عن الولايات المتحدة الأمريكية ، وإنما كان قد أشار بوضوح

إلى أنه يعمل كوكيل على صيانة « شرف » الولايات المتحدة من عدوان أى من الدول المتحاربة الأوربية على المصالح الأمريكية .

في يناير ١٩١٦ — عندما كانت المعركة الانتخابية على أشدها — قال ويلسون :

أنا أعلم أنكم تعتمدون على فى تجنيب هذه الأمة ويلات الحرب ، لقد فعلت ذلك حتى هذه اللحظة ، وأنى أقطع على نفسى عهداً أن أعمل ذلك مستقبلا بمعونة المولى ، إذا كان ذلك مستطاعا . ولكنكم قد حملتمونى واجبا آخر ، لقد طالبتمونى بأن أصان شرف الولايات المتحدة وألا يلوثه أى شىء ، وهذا أمر لا سيطرة لى عليه ، لأنه يتوقف على ما يعمله الآخرون لا على ما تعمله حكومة الولايات المتحدة الأمريكية(١) »

وهكذا حدد ويلسون سياسته أزاء الحرب الأوربية ، وهو تجنيب الولايات المتحدة مخاطر التورط فيها بشرط أن لا يعنى ذلك تجاهل ما يمس شرف الشعب الأمريكى . وبذلك يكون قد انتقل من مرحلة (السلم الشامل) و(الحياد الحقيقى) إلى مرحلة الحياد القائم على الحفاظ على مصالح بلاده . ولكن كان يلف هذا الموضوع فى أطار قوى من الدعاية نحو السلام بحيث غدا هو داعية السلام الأول ، خاصة وأن منافسه (هيوز) كان يستخدم عبارات ملتهبة ويلوح باتخاذ إجراءات عسكرية . فكان أن نجح ويلسون فى الانتخابات ليتمتع بالرئاسة مدة جديدة ليشرع ولسون من بعد فى القيام بدور الوسيط بين الدول الأوربية الكبرى المتقاتلة . وفى ٢٢ يناير كانون ثانى ١٩١٧ عرض فى خطاب له على الكونجرس الخطوط العامة والرئيسية لمشروعه للسلام على النحو التالى :

---

(١) آلن نيفنز وهنر ستيل كوماجر : تاريخ الولايات المتحدة الامريكية ، نقله إلى العربية الأستاذ مصطفى عامر . مكتبة مصر . القاهرة . ص ٤٨٧ . وانظر . آلن نيفنز وهنرى كوماجر « موجز تاريخ الولايات المتحدة ج ٣ ص ٢٧٢ ترجمة محمد بدر الدين خليل . دار المعارف — القاهرة — .

١ — عقد سلام دائم بواسطة الأمريكان عن طريق (عصبة أمم)(١).

٢ — سلام بين الأقران (٢) لا بين غالبين أو مغلوبين . أى (سلام بلا نصر)(٣).

٣ — سلام تكون فيه الملاحة البحرية حرة أمام الجميع .

٤ — سلام يعتمد على التعامل لا على الارهاب بالقوة العسكرية والحرب . وبالتالى سلام يقوم على أساس (نزع السلاح)(٤) .

٥ — حق تقرير المصير(٥) للخاضعين للقوى المتسلطة .

ولكن كانت هناك قوى عديدة قادرة على أن تجعل من سياسة (الحياد الحقيقى) وسياسة (السلام الشامل) مجرد وهم يجب أن يبتعد الشعب والحكومة عنه نحو سياسة أخرى . وهذه القوى والعوامل هى :

(أ) العوامل الاجتماعية :

حقيقة كانت سياسة الولايات المتحدة الأمريكية تركز على (الحياد الحقيقى)، على أن يكون هذا الحياد سيادة للحكومة وللشعب على حد سواء . وإذا كانت المستويات الثقافية لدى الحكام والمسئولين قادرة على التحكم فى مشاعرها وميولها الذاتية فذلك كان من الأمور التى لا يمكن السيطرة عليها بين أفراد الشعب نفسه . وكان الشعب الأمريكى — من ناحية أخرى — حديث عهد بالتكوين ، وكانت أبواب الهجرة مفتوحة أمام عناصر جديدة أوربية تدفقت بكثرة من وسط أوربا

---

(١) League of Nations

(٢) Peace Between Equals

(٣) Peace without Victory

(٤) Disarmamen

(٥) National self - determination

ومن إيرلنده . وكان أن أصبحت فى الولايات المتحدة الأمريكية مجموعات قوية من الألمان والإيرلنديين . حقيقة كان هؤلاء لايمثلون سوى أقلية بسيطة من تعداد الشعب الأمريكى إلا أن الميول العدائية لديهم نحو بريطانيا وفرنسا كانت كبيرة ، وبرزت بسرعة وأصبح هؤلاء يمثلون اتجاه الأقليات المعادية لدول الوفاق .

ومن ناحية أخرى كانت هذه الأقليات الألمانية والإيرلندية منتشرة فى الولايات الغربية الأكثر فقراً ، بينما كانت الولايات الصناعية التجارية الغنية الشرقية ذات أغلبية ساحقة إنجليزية الأصل . وكانت الولايات الشرقية أكثر قدرة على التعبير عن وجهات نظرها بشكل يضيع الامكانيات اليسيرة المتاحة للولايات الغربية فى هذا الصدد .

ثم إن غالبية الشعب الأمريكى كانت منحدرة من أصول إنجليزية ، وكانت الثقافة الإنجليزية هى ثقافة الولايات المتحدة ، ومن هنا كانت الصحافة الأمريكية سريعة التجاوب مع الصحافة الإنجليزية ، وكانت الأفكار والاتجاهات الإنجليزية تجد صداها السريع وبدون جهد بين أفراد الشعب الأمريكى . ومن ثم كان الإنجليز أقدر وأسرع فى إقناع الشعب الأمريكى بوجهة نظرهم بينما كانت وجهات النظر الألمانية لا تنتشر إلا فى الدوائر الدبلوماسية أو ذات المستويات الرفيعة ، الأمر الذى جعلها عاجزة عن كسب الشعب الأمريكى إلى جانب ألمانيا .

وحتى فى هذه المستويات الدبلوماسية والحكومية فى الولايات المتحدة كانت هناك مقاومة اجتماعية للألمان . حيث أن موظفى الإدارات الحكومية ورؤساء المؤسسات الاقتصادية الكبرى وكانوا يتعاطفون مع بريطانيا تلقائيا ، ويسهلون للانجليز أعمالهم ويضربون صفحا أو يتغاضون عن التسهيلات فيما يتعلق بالمصالح الألمانية . وكان من العسير جداً التحكم فى مثل هذه المشاعر والأعمال رغم النداء الواسع النطاق الذى أصدره ويلسون بعدم الانحياز فى المعاملات إلى جانب هذا الطرف أو ذاك ، وقد كانت هذه المشاعر العاطفية لدى الأمريكيين

للمولودين فى بريطانيا أو من أسرات بريطانية الأصل قوية حتى على مستوى الوزراء والسفراء أنفسهم(١).

فقد كان سفير الولايات المتحدة الامريكية فى لندن هو والترهنزباج(٢) وكان بطبيعة وظيفته مسئولا عن الدفاع عن مصالح وطنه أمام وزارة الخارجية البريطانية وعندما أكثر الاسطول البريطانى من مصادرة البضائع الامريكية المصدرة إلى دول الوسط فى أوائل الحرب الاوربية ، تسلم (باج) من حكومته مذكرة احتجاج شديدة موجهة إلى الحكومة البريطانية وتدعوها إلى وقف مثل هذه الأعمال ، فذهب (باج) إلى وزير الخارجية البريطانى (ادوارد جراى)(٣) وقرأ عليه ذلك الاحتجاج ثم قال لجراى : « لقد قرأت الرسالة عليك ، ولكننى لا أتفق معها ، فلنبحث كيف يجب أن يرد عليها »(٤).

---

(١) فى ثورة غضب من اعتداء السفن البريطانية الحربية على السفن التجارية الأمريكية قال وزير الداخلية الأمريكى فرانكلين ك . لين F. K. Lane

« There is not a man in the Cabinet who has a drop of German blood in his veins, I guess. Two of us were born under the British flag. I have two cousins in the British army and Mrs Lane has three... Yet each day that we meet we boil over somewhat, at the foolish manner in which England acts. Can it be that she is trying to take advantage of the war to hamper our trade ..?

(٢) Walter Hines Page

(٣) Edwatd G. Grey

(٤) قال السفير باج ما نصه :

« I have now read the despatch, but I do not agree with it; let us consider how it should be answered » Edward Grey : Twenty years 1892-1912 New York, 1925, Vol. II. p. 110 qoutted by Thoma A. Barley : A Diplomatic History of the American People. 6th Edition New York 1969 p. 572.

(ب) العوامل الاقتصادية :

كانت سياسة الرئيس ويلسون تؤكد منذ نشوب الحرب الأوربية على أن تنتهج المؤسسات الاقتصادية في الولايات المتحدة الأمريكية سياسة (الحياد الحقيقي) وكانت هذه المؤسسات الاقتصادية - بسبب طبيعة النظام الحر الاقتصادي الأمريكي - ذات قدرات شبه مطلقة في التعامل مع هذه الدولة أو تلك على أساس الربح المادي والمصلحة الوطنية . وعندما تظهر مشروعات مادية مربحة أمام مثل هذه المؤسسات الاقتصادية تحاول أن تقنع حكومة بلدها بعلاقة ذلك بالمصلحة الوطنية . وحينذاك كانت الدول الكبرى المتقاتلة كلها في حاجة إلى قروض ضخمة ، وكانت هذه الدول مستعدة لأن تقدم عروضاً مغرية للمصارف الأمريكية .

ولقد حدث فعلا أن سأل (بيت مورجان)[1] — وكان واحداً من أكبر مؤسسات وول ستريت[2] — وزارة الخارجية الأمريكية عما إذا كان من الممكن تقديم قرض للحكومة الفرنسية ، وهل هناك أية اعتراضات على مثل هذا الارتباط المالي الذي كانت له سوابق عديدة قبل الحرب العالمية ؟ وقد أعد وزير الخارجية الأمريكي (بريان) مذكرة في هذا الشأن قدمها في ١٠ أغسطس — آب ١٩١٤ إلى الرئيس ويلسون أشار فيها إلى أن الارتباطات المالية في مثل هذه الظروف مع أي من الدول المتحالفة تؤدي إلى نتائج وتطورات غير متمشية مع سياسة الحياد الأمريكي ، على إعتبار أن المصارف والمؤسسات الاقتصادية التي تقدم مثل هذه القروض ستتخذ موقفا تلقائيا مؤيداً للدولة التي حصلت على القروض منها . ويصبح انتصار هذه الدولة أو هزيمتها ذا معنى اقتصادي للمصارف والمؤسسات الدائنة لها . فالنصر يحفظ لهـــذه المصارف والمؤسسات حقوقها والهزيمة تهدد هذه وتلك بضياع القروض وعوائدها جملة وتفصيلا . وكانت وجهة نظر (بريان) صحيحة جداً حين أشار إلى أن العلاقة وثيقة جداً بين المصارف

---

(١) House of Morgan

(٢) Wall Steet حي المال

والصحافة ، وأن هذه المصارف لن تلبث أن توجه الصحافة نحو تأييد الدولة المستدينة ضد الدولة الأخرى . وبالتدريج يصبح الحياد سياسة الحكومة ، وليس سياسة الشعب أو مؤسساته . وقد قبلت مؤسسات (وول ستريت) نصيحة وزارة الخارجية الأمريكية بالتريث فى أمر تقديم قرض للحكومة الفرنسية واستجابت المؤسسات الأمريكية حينذاك لتلك النصيحة ، وفضلت ألا تقدم على خطوة كذلك إلا بعد موافقة من جانب وزارة الخارجية الأمريكية ، ولم تلبث الأمور أن وضعت هذه المؤسسات المالية الأمريكية أمام عروض جديدة وملحة ، بل إن الأوضاع الاقتصادية فى داخل الولايات المتحدة الأمريكية أخذت تتأثر بتطورات الحرب الاوربية ، وإن كان هذا بعد عدة أشهر من نشوبها .

فقد كانت اقتصاديات الولايات المتحدة الأمريكية غير مستقرة عندما نشبت الحرب ، وبالتالى كان أى تغير فى موازين التصدير والاستيراد كفيلا بإصابة الاقتصاد الأمريكى بخسائر واضحة ، أو بمكاسب واضحة . وفعلا فى أوائل الحرب أقبل الحلفاء على شراء الذخائر والمنتجات الأمريكية فربحت المؤسسات الأمريكية جداً حتى نفذ الاحتياطى المالى المخصص لذلك لدى دول الحلفاء . فأصبح من المتعذر على الحلفاء شراء الإنتاج العسكرى الأمريكى إلا بقروض أمريكية ، وأصبحت عدة مؤسسات للانتاج العسكرى مهددة بالإفلاس إن لم يشتر الحلفاء إنتاجها على نفس المستوى الذى تحقق من قبل ، ومن هنا أصبحت هناك حاجة متبادلة بين الحلفاء من جهة والمصارف والمؤسسات الصناعية والغذائية والعسكرية الأمريكية من جهة أخرى[١] .

---

(١) عبر المؤرخ الأمريكى توماس بيلى عن ذلك بقوله :

« In short the munitions trade was about as essential to the economic life of America as it was to the military life of the Allies »

Thomas A. Bailey : A Diplomatic History of the American People. Eighth Edition Appleton Century Crofts Educational Division. New York Meredith Corporation, 1969 p 574.

والسبب فى أن بريطانيا وفرنسا — من دون دول الوسط — هما اللذان كانا الأقدر على الحصول على القروض من المؤسسات الأمريكية المالية هو أنهما كانتا الأكثر قوة من الناحية البحرية بالذات ، والأقدر على حماية أساطيل النقل بين شواطىء أمريكا وأوربا ، ومع أن ألمانيا كانت تدعى قدرتها على التحكم فى الملاحة المحيطية إلا أن السيطرة البريطانية على المحيطات هى التى كانت واضحة أمام أعين الأمريكيين ، ومن يعمل فوق سطح البحر بأسطوله المكون من بوارج ومدرعات ومدمرات أقوى من ذلك الذى يعمل بغواصات تحت سطح البحر . ولقد ثبت أن تيار التجارة المتبادلة بين الولايات المتحدة وبريطانيا كان ينمو ويزداد فى مطلع الحرب الأوربية ، بينما انهارت التجارة الأمريكية الألمانية فى الوقت نفسه. وكان الرئيس ويلسون يدرك هذا ، وكان قلقا من هذا التطور ، بل لقد لفتت الحكومة الأمريكية نظر بعض المؤسسات الأمريكية إلى أنها تنحاز إلى جانب بريطانيا مما يهدد سياسة الحياد الأمريكى للخطر ولكن دون أن تتخذ الحكومة الأمريكية سياسة إيجابية لمواجهة مثل هذه الحالات .

ولم يكن فى استطاعة ويلسون أن يقف ضد نمو مثل هذا النوع من التجارة بين الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ، حيث أدى ذلك الارتفاع فى حجم التجارة المتبادلة إلى امتصاص البطالة التى كانت قد انتشرت فى الولايات المتحدة الأمريكية قبيل وخلال الأشهر الأولى من الحرب الأوربية .

ومن ثم يصبح الرئيس ويلسون فى مواجهة أزمة شعبية واقتصادية فى حالة قيامه بإجراءات ضد المؤسسات المنحازة تجاريا إلى جانب دولتى الوفاق . بل كانت المشاعر الأمريكية تزداد ميلا إلى جانبهما وتزداد بغضا لدول الوسط ، حيث ثبت للشعب الأمريكى أن العلاقات مع دولتى الوفاق مربحة تجاريا بينما تقوم الغواصات الألمانية بإغراق السفن الأمريكية التى كانت تحمل البضائع العسكرية والمدنية إلى

موانى دولتى الوفاق . حتى لقد أحجمت شركات النقل البحرى الأمريكية عن نقل البضائع إليهما خوفا من إغراق السفن الأمريكية بالطوربيدات التى كانت تطلقها الغواصات الألمانية . وأدى ذلك إلى تكدس ضخم البضائع المعدة للتصدير على أرصفة الموانىء . ومرة أخرى انتشرت البطالة و فى هذه المرة وكان المسئول هو الألمان ، ولم يكن بوسع الأمريكى أن يناقش الأسباب العسكرية والسياسية التى كانت تدفع الألمان إلى تلك الإجراءات العسكرية العنيفة ضد السفن الأمريكية ،وإنما كان الأمريكى يرى ان الألمانى عرضه للبطالة وللخسائر الاقتصادية بعد ازدهار اقتصادى بفضل التعاون البريطانى الأمريكى .

ومن ثم كان تصعيد حرب الغواصات التى كانت تشنها البحرية الألمانية يعنى فى نفس الوقت زيادة الخسائر الاقتصادية بالنسبة للأمريكيين وتصعيد عدد المتعطلين خاصة فى موانىء أمريكا الشرقية . حتى لقد طغت موجة السخط الأمريكى ضد الألمان على الأعمال البريطانية العسكرية التى أضرت بالمصالح الاقتصادية للولايات المتحدة الأمريكية ، فالواقع أن كلا من دولتى الوفاق ودول الوسط أضر بطريقة أو بأخرى باقتصاديات أمريكا.وهناك العديد من الحوادث التى وقعت ضد الاقتصاد الأمريكى على يد الإنجليز فقد وسعت بريطانيا من مفهوم « الممنوعات » التى يجب أن تصادرها حتى لاتصل إلى ألمانيا ، فأدخلت فى قائمة (الممنوعات) المواد التى تشتريها الدول المحايدة من الولايات المتحدة الأمريكية بقصد أرسالها إلى ألمانيا أو أى من دول الوسط، وصادر الأسطول البريطانى فعلا بضائع كثيرة من هذا النوع وارتفعت شكاوى المؤسسات التجارية الأمريكية إلى حكومة الرئيس ويلسون من أن بريطانيا لاتفعل ذلك تحت ضغط الضرورات العسكرية فقط ، بل كذلك خدمة للمصالح والمؤسسات الاقتصادية البريطانية على حساب المصالح الأمريكية ، ولكن انتهى كل شىء عند تقديم الاحتجاجات حيث لم تتخذ حكومة ويلسون إجراءات إيجابية رغم

تـكرر هذه الحوادث . وهذا يرجع إلى طبيعة حجم التجارة الأمريكية مع دول الوفاق خلال الفترة الواقعة بين ١٩١٤ — ١٩١٦ من حوالى ٨٢٤ مليون دولار إلى حوالى ٣٢١٤ مليون دولا تقريبا . بينما كان حجم التجارة الأمريكية مع دول الوسط ينهار بسرعة جداً خلال نفس تلك الفترة من حوالى ١٧٠ مليون دولار فى ١٩١٤ إلى مليون دولار تقريبا فى ١٩١٦ والجدولان التاليان يمـكن أن يوضحا هذه الحقيقة .

التجارة الخارجية

للولايات المتحدة الامريكية مع دول الحلفاء

بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وروسيا

بين ١٩١٤ و ١٩١٦

السنة	القيمة بالدولار
١٩١٤	٨٢٤,٨٦٠,٢٣٧
١٩١٥	١,٩٩١,٧٤٧,٤٩٣
١٩١٦	٣,٢١٤,٤٨٠,٥٤٧

التجارة الخارجية

للولايات المتحدة الأمريكية

مع دول الوسط (ألمانيا والنمسا ـــ المجر)

بين ١٩١٤ و ١٩١٦

السنة	القيمة بالدولار
١٩١٤	١٦٩,٢٨٩,٧٧٥
١٩١٥	١١,٨٧٨,١٥٣
١٩١٦	١,١٥٩,٦٥٣

ومثل هذا النمو الضخم فى حجم التجارة كان يفرض على حكومة الرئيس ويلسون أن تعمل على المحافظة على الأقل على معدلات النمو هذه وأن تعمل على ضمان الكسب المادى للشعب الأمريكى سواء فى المستقبل القريب أو البعيد . خاصة وأن المؤسسات المالية الكبرى عادت وأخذت تضغط على الحكومة الأمريكية من أجل إنقاذ التجارة الأمريكية من الركود عن طريق تقديم قروض مالية إلى بريطانيا وفرنسا . وفى هذه المرة كانت وجهة نظر وزارة الخارجية الأمريكية قد تبدلت فى ١٩١٥ وسمحت فى أكتوبر تشرين أول ١٩١٥ بطرح قرض انجليزى فرنسى قدره ٥٠٠ مليون دولار ، وقد غطى هذا القرض بالاكتتاب العام الذى أسهم فيه الشعب الأمريكى بأمواله الخاصة بمحض رغبته الخاصة . وصحب ذلك نوع من الصدام بين مؤيدى الحلفاء ومؤيدى دول الوسط حيث حمل كل طرف لافتاته فى (وال ستريت) متظاهرا داعيا إلى تقديم القروض لهذا الطرف أو ذاك ولكن كان سيل الاكتتاب متجها نحو دول الحلفاء وليس نحو دول الوسط ، حتى أنه عندما دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب فى ٦ نيسان — أبريل ١٩١٧ كان ما اكتتب به الشعب الأمريكى لصالح الحلفاء ٢,٣ بليون دولار فى مقابل ٢٧ مليون دولار لصالح ألمانيا .

وجنت فرنسا وبريطانيا من وراء ذلك مكاسب عسكرية جوهرية إذ حصلتا على السيولة النقدية التى مكنتها من شراء العتاد والذخائر العسكرية من المؤسسات الأمريكية ، ولم تلبث أن تحولت الولايات المتحدة الأمريكية إلى « ترسانة الحلفاء العظمى » وذلك لأن حاجة دول الحلفاء إلى السلاح والذخائر كانت تتصاعد بسرعة كبيرة بعد أن تحولت حرب الجبهة الفرنسية إلى حرب خنادق وهجمات وهجمات مضادة متتالية ، وبعد اتساع نطاق الحرب فى شرق أوربا وفى العراق ومصر . وبذلك تكون الولايات المتحدة الأمريكية قد انحازت ماليا وتجاريا إلى جانب دول الحلفاء بشكل مباشر وانحازت عسكريا إلى جانبها أيضا ولكن بطريق غير مباشر ولقد لعبت المصارف والمؤسسات المالية الأمريكية الدور الكبير فى جعل الولايات المتحدة تنساق إلى الحرب والمشاركة فيها .

كان (بيت مورجان) من أكبر المؤسسات الأمريكية المرتبطة مع دول الحلفاء إقتصاديا . وقد استطاع ـ بعلاقاته الخاصة مع كبريات الصحف ـ أن يشن حملة دعاية كبرى ضد ألمانيا بصفة خاصة ، ودول الوسط بصفة عامة . وقد عبر أحد المتحدثين باسم بيت مورجان عن موقف هذه المؤسسة المؤيدة للحلفاء بقوله أنه في الوقت الذى كانت فيه سياسة الحكومة تحت على الحياد فكراً وعملا كان بيت مورجان منذ البداية منحازاً إلى جانب الحلفاء[1] . وبنمو هذه العلاقات الاقتصادية مع دول الحلفاء أصبح النصر فى جانب الحلفاء يمثل كذلك نصراً أمريكياً وأصبحت الهزيمة تعنى خسارة مهولة للولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك للأسباب التالية :

١ ـ فألمانيا لا يمكن لها أن تعامل حكومة الولايات المتحدة بعد الحرب معاملة الصديق ، وإنما ستعاملها كعدو تستر وراء بريطانيا وفرنسا للقضاء على ألمانيا .

٢ ـ إن انتصار ألمانيا البرى ـ بعد تلك المعركة البحرية السجال فى جوتلاند بين الأسطولين الألمانى والبريطانى ـ سيعطى للأسطول الألمانى انطلاقة ضد المصالح الأمريكية البحرية ، خاصة وأن أسطول أمريكا كان لا يزال محدوداً جداً بالنسبة للأساطيل الأوربية حينذاك .

٣ ـ إن قوى المعارضة لسياسة (الدولار الأمريكية)[2] فى أمريكا اللاتينية ستجد الفرصة مواتية لربط نفسها مع ألمانيا لإرغام الولايات المتحدة على تخفيف قبضتها الاقتصادية عن دول أمريكا اللاتينية .

---

(١) أنظر Manchester Guardian. January 27, 1920. p. 68 quotted in : Bailey. op cit. 574.

(٢) حقيقة كان ويلسون يحاول إثبات أن حكومته بدأت تبتعد عن (سياسة الدولار) إلا أن ذلك كان لايزال يحتاج الى بعض الوقت كى تقتنع دول أمريكا اللاتينية تماما بذلك .

(حـ) العوامل العسكرية :

وهذه العوامل العسكرية متداخلة جداً بالعوامل الاقتصادية ، فحرب الغواصات كانت أكبر عامل عسكرى دفع الولايات المتحدة الأمريكية إلى الدخول فى الحرب إلى جانب الحلفاء ضد دول الوسط. ولـكن كانت حرب الغواصات نفسها موجهة ضد التجارة الأمريكية ـ البريطانية على نفس المستوى الذى كانت توجهه به الأساطيل المتحالفة ، ويجمل المؤرخون الأمريكيون والانجليز والفرنسيون لحرب الغواصات الأهمية الأولى من حيث مسئولية الألمان فى (إرغام) الولايات المتحدة الأمريكية على الدخول فى الحرب، فيقول المؤرخ الفرنسى رينوفن :

« تحت تأثير أى الحوادث قطعت الولايات المتحدة علاقاتها مع ألمانيا ؟ إن نقطة الانطلاق كانت بتشبث ألمانيا وعزمها على القيام بحرب الغواصات إلى أبعد حد » ويؤكد المؤرخان الإنجليزيان جرانت وتمبرلى(١) هذا الاتجاه فيقولان :

« أبلغت الحكومة الألمانية الولايات المتحدة الأمريكية أن دول الوفاق المتحالفة أرغمت ألمانيا (بأساليبها الوحشية) على أن تستأنف حرية التصرف(٢) . وإزاء هذه الظروف ستواجه ألمانيا الإجراءات غير المشروعة من جانب الأعداء بأن تمنع بالقوة بعد أول فبراير ١٩١٧ فى منطقة حول بريطانيا وفرنسا وإيطاليا ، وفى شرق البحر المتوسط ، كل ملاحة بما فى ذلك الدول المحايدة ـ من انجلترا وإليها ومن فرنسا وإليها . . وستغرق ألمانيا كل سفينة تلتقى بها داخل هذه المنطقة » .

وكانت ألمانيا خلال الفترة الأولى من الحرب تسعى إلى توجيه ضربة قاضية لإخراج فرنسا من الحرب ، ولـكنها فشلت ، فتحولت إلى العمل على إخراج إنجلترا من الحرب عن طريق حرب غواصات تمنع عن الشعب الإنجليزى الغذاء والسلاح ، وأعلنت الحكومة الألمانية أنها ستغرق أية سفينة فى نطاق حددته حول الجزر

---

(١) كـذلك يسير المؤرخ الانجليزى Fisher فى نفس الاتجاه ، وكـذلك الأمريكيان بيلى وتومسون Bailey & Thomson

(٢) التخلص من القيود التى تفرض على ألمانيا عدم التعرض للسفن المحايدة .

البريطانية ، معللة ذلك بأن الحكومة البريطانية ضربت حصاراً على الشواطىء الألمانية بلغ به الأمر أن الأسطول البريطانى صادر المواد الغذائية التى تحتاجها النساء والأطفال . إلا أن حكومة ويلسون رفضت هذا التعليل وحملت الحكومة الألمانية مسئولية إجراءات كهذه (غير قانونية) . ولم تلبث أن أغرقت غواصة ألمانية السفينة لوزيتانيا(١) فى ٧ مايو أيار ١٩١٥ بمن عليها من سياح أمريكان ، واعتبر « تيودور روزفلت » ـ الزعيم الأمريكى الكبير ـ هذا الحدث فرصة يجب أن يقضى عليها .

كانت هذه الأزمة سبباً فى رفع حرارة العداء الأمريكى نحو الألمان . ولم تلبث تطورات الحرب أن أدت إلى المزيد من حوادث اغراق السفن التجارية الأمريكية . وجاء حادث إغراق الباخرة فيجيلنتيا ن ١٩ مارس ـ آذار ١٩١٧ ليصبح فى اعتبار الرئيس ويلسون آخر ما يمكن أن يتحمله الأمريكى ، فى الوقت الذى كانت فيه الأسلحة والذخائر الأمريكية تفتك يومياً بالجيش الألمانى فى جبهات القتال البريطانية والفرنسية . ولا شك أن ويلسون كان قد قرر الدخول فى الحرب إلى جانب الحلفاء منذ أوائل ١٩١٧ وكان ينتظر الحادث الذى يحمل الألمان مسئولية (إرغام) حكومة الولايات المتحدة على دخول الحرب ، حيث أننا نعتقد أن الأسباب الاجتماعية والاقتصادية هى العوامل الأولى والرئيسية التى جعلت الرئيس ويلسون يتحول من سياسة الحياد الحقيقى إلى الحرب .

(د) العوامل الأيديولوجية :

كانت هناك نداءات قوية فى الولايات المتحدة الأمريكية تدعو إلى الدخول فى الحرب إلى جانب الديمقراطيات ،ويقصدون بذلك فرنسا وبريطانيا ، على اعتبار أن ألمانيا والنمسا من الدول الدكتاتورية والأوتوقراطية التى لم يعد نظامها متلائماً مع العصر الحديث ، وإن من واجب الشعب الأمريكى أن ينقذ شعوب ألمانيا والنمسا من

---

(١) Lusitania

دكتاتورية حكامها، ومنحها الفرصة لتحكم نفسها بنفسها بأسلوب ديمقراطى . ولكن كان هناك نقد شديد موجه إلى هذه النظرية يتركز فى أن الدخول فى الحرب إلى جانب انجلترا وفرنسا ، يعنى كذلك الدخول إلى جانب حليفتهما روسيا القيصرية الأوتوقراطية الدكتاتورية الرجعية ، ولا يشرف الولايات المتحدة أن تدافع عن مثل هذه القيصرية . ولكن حدث ما غير الأوضاع ، إذ قامت الثورة فى مارس ١٩١٧ فى روسيا ، وأسقطت القيصرية ، ولم يعد هناك ما يمنع من دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانب الحلفاء بل لقد أصدرت الحكومة البلشفية ـ التى جاءت إلى الحكم فى أعقاب الثورة ـ بيانات ومبادىء بدت وكأنها تسير نحو ديمقراطية أوربية ، وبذلك أصبحت الحرب حرباً بين الديمقراطيات والأتوقراطيات . ولم يعش هذا التصور الأمريكى طويلا ، ولكنه كان كفيلا بأن يفسح الطريق أمام دخول الولايات المتحدة الحرب ضد الأتوقراطيات(١) . وهذا العامل الأيديولوعى واضح جداً فى خطب وتصريحات ويلسون بعد أن قرر التخلى عن سياسة (الحياد الحقيقى) والتحول إلى سياسة الحرب ، وكان لابد من أن تتعدل فى نفس الوقت مفاهيم الشعب بحيث تتشبع بهذه الأفكار حتى يصبح الفكر الأيديولوجى عاملا من عوامل دخول الحرب .

وكانت المهمة لا جدال صعبة ، حتى بعد وقوع الثورة الروسية. ولكن الذى كان يقوم بمهمة إقناع الشعب بالتحول عن الحياد إلى الحرب باسم الديمقراطية رجال

---

(١) « The March Revolution in Russia removed any repugnance that Americans felt to entering the war as an ally of reactionary, despotic tsardom The provisional government of Liberals and more moderate socialists Proclaimed ideas that chimed with the growing belief in the West that the war had become a war for Democratic and Liberal ideas ».

أنظر :

David Thomson : Europe Since Napoleon. 2nd Edition Longmans, 3rd Impriesson 1964 p. 529.

سياسة على جانب كبير من الذكاء والمقدرة على توجيه الشعوب نحو الهدف الذى يريدونه ، ومن هؤلاء كان روبرت لانسنج(١) ، وكان محاميا دوليا قديرا ، وشغل منصب المستشار الأول ثم وزيرا للخارجية بعد استقالة (بريان) فى ١٩١٥ . وكان (لانسنج) شديد الميل إلى جانب الحلفاء . ويمكن تحديد قدرته الهائلة فى توجيه سياسة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية عندما ندرك أنه كان صاحب تأثير قوى ومباشر على ويلسون وإنه كان هو المسئول عن كثير من القرارات الهامة الجوهرية التى أصدرها الرئيس ويلسون .

وقد أشار (لانسنج) بوضوح فى مذكراته أنه كان ينتظر الفرصة التى يمكن أن يستغلها كى يوجه الشعب الأمريكى نحو قتال الاستبداد الألمانى ، باقناع هذا الشعب بأن الدكتاتورية الألمانية تهدد حرياته كما تهدد كافة المؤسسات الديمقراطية فى أى جزء من أجزاء هذا العالم(٢) .

(هـ) العوامل الدولية :

تتعلق العوامل الدولية التى أثرت فى توجيه الولايات المتحدة نحو الحرب بالمشكلات التالية : —

١ — العلاقات بين الولايات المتحدة الأمريكية وجمهورية المكسيك المجاورة لها .

٢ — المشكلة اليابانية وهى مرتبطة بالتوازن الدولى فى الشرق الأقصى .

٣ — التوازن الدولى العالمى على ضوء تطورات الحرب فى قلب القارة الاوربية .

---

(١) Robert Lansing

(٢) يقول لانسنج فى مذكراته :

«... to make the American People perceive that German absolutism was a menace to their liberties and to democratic institutions everywhere ».

انظر :

Thomas A. Bailey : A Diplomatic History of the American People p. 573.

١ — المشكلة المكسيكية :

كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد خرجت من (سياسة الدولار) من وقت قصير ، وكانت هذه السياسة قد أعطتها فرصا لاستغلال الكثير من إمكانيات دول أمريكا اللاتينية بشكل أثار مشاعر هذه الدول دون أن تستطيع التصدى للعملاق الاقتصادي الأمريكى ، خاصة وأن القوة العسكرية لدى الولايات المتحدة الأمريكية كانت قادرة على ضرب أى من الدول اللاتينية المشاكسة . وكان الرئيس ويلسون يحاول إقناع هذه الدول بأن حكومته تريد أن تتعامل معها على قدم المساواة وليس من مركز القوة . ولكن التطورات الداخلية فى المكسيك جعلت تحقيق ويلسون لهذا أمراً صعباً ، إذ توالت الانقلابات الداخلية فى المكسيك وكان للرأسمالية الأمريكية دور فى بعضها وظهرت عصابات قوية فى منطقة الحدود المكسيكية — الأمريكية ، وبعث ويلسون بالجيش الأمريكى لضرب هذه العصابات الأمر الذى أثار حفيظة المكسيكيين . وبصفة عامة كانت العلاقات المكسيكية الأمريكية غير مستقرة ،وكان من الممكن أن تنتهزها أية دولة معادية للولايات المتحدة الأمريكية . وعندما تعاظم حجم التجارة العسكرية الأمريكية مع دول الحلفاء ، واعتقد الألمان أن حكومة الولايات المتحدة ستدخل الحرب ضدهم إن عاجلا أو آجلا سعت حكومة القيصر الألمانى إلى حث المكسيك على التحالف معها ضد الولايات المتحدة . وكان الألمان يلوحون للمكسيك بأن هذا التحالف سيمكن المكسيك من استرداد الأراضى التى سبق أن ضمتها الولايات المتحدة الأمريكية عليها وبوجه خاص (تكساس ونيو مكسيكو وأريزونا) . ولم تطف المشكلة المكسيكية بقوة على سطح العلاقات الألمانية — الأمريكية إلا فى أعقاب نشر برقية أرسلها ألفرد (زيمرمان)(١) مساعد أمين سر الدولة الألمانية فى وزارة الخارجية الألمانية — إلى سفير ألمانيا فى المكسيك . وقد وقعت هذه البرقية فى قبضة رجال المخابرات البريطانية الذين سلموها إلى حكومة وشنجتن وعملوا على نشرها على أوسع نطاق بين أفراد الشعب الأمريكى لما كانت

---

(١) A. Zimmermann

عليه المشكلة المكسيكية من حساسية شديدة ، وترتب على ذلك تحرك مشاعر الشعب الأمريكى ضد الألمان دون البحث عن حقيقة هذه البرقية ، حيث هناك اعتقاد أن قصة البرقية من أولها إلى آخرها كانت من تدبير وتنفيذ المخابرات البريطانية وليس لالفرد زمرمان ضلع فيها.

٢ — المشكلة اليابانية :

وكانت حكومة الولايات المتحدة تنظر بعين القلق إلى نمو اليابان فى الشرق الأقصى ، ذلك النمو الذى طفر فى أعقاب ذلك التحالف اليابانى مع بريطانيا ، ومع أن بريطانيا كانت حليفة اليابان إلا أنها كانت قادرة على أن تضع حداً للتوسع اليابانى، أما وقد أصبحت بريطانيا منشغلة بقضها وقضيضها فى حرب مصيرية فى أوربا والشرق الأوسط فالفرصة — من وجهة نظر حكومة الولايات المتحدة — أصبحت سانحة تماما أمام اليابانيين لكى يحلوا محل الدول الكبرى الأوربية فى الشرق الأقصى سواء المعادية منها لبريطانيا أو الحليفة .

وكانت اليابان سريعة الحركة حين أعلنت الحرب على ألمانيا واستولت على شبه جزيرة (شانتونج) فى الصين . ولم يكن فى استطاعة ويلسون أن يوقف مثل هذا التحرك اليابانى ، وإلا عرض نفسه لأزمة مع بريطانيا ، إلا أن ويلسون كان يقظا جداً لأى تحرك جديد يابانى . ولقد حاول اليابانيون فعلا أن يفرضوا على الصين فى مطلع ١٩١٥ معاهدة تكاد تجعل الصين مجرد تابع لليابان ، فما كان من ويلسون إلا أن إستعان بوساطة الحكومة البريطانية ، واضطرت اليابان إلى التخلى عن هذه المعاهدة ، وعقدت الحكومتان الأمريكية واليابانية معاهدة لانسنج أيشي(١) فى

---

(١) ورد فى معاهدة Lansing-Ishii;

« the territorial sovereignty of China, ... remain unimpaired, and the government of the United States has every confidence in the repeated assurances of the imperial Japanese Government that while geograhical position gives Japan such special interests, they have no desire to discriminate against the trade of other nations..»

R. N. Current, T. H. Williams, F. Freidel : American History A Survey New York; 1965. p 651.

نوفمبر ١٩١٧ تلك المعاهدة التي حفظت لليابان إعترافاً امريكياً بمصالحها في الصين بشكل يمكن أن يحول هذه المصالح إلى نوع من التسلط الياباني على الصين . أما ويلسون فيبدو أنه أكتفى بمنع اليابان من فرض حمايتها الفورية على الصين حتى تنتهي الحرب العالمية ، وتتضح صورة العالم من بعدها . وبذلك تكون العلاقات بين حكومة الولايات المتحدة واليابان — التي تشارك منذ البداية في الحرب إلى جانب الحلفاء — وقد سارت على أساس المفاوضات وتبادل المنفعة وتهدئة الأمور حتى يتضح الموقف الدولي .

٣ — التوازن الدولي :

كانت حكومة الرئيس ويلسون لاتعنى فقط بأوضاعها الاقتصادية وعلاقاتها بالدول المتقاتلة في أوربا فقط بل كانت معنية جداً بتصور ماذا سيكون عليه الموقف السياسي والعسكري والاقتصادي بعد أن تنتهي الحرب لصالح أي من الطرفين المتقاتلين . وكان هناك احتمال قوي بأن التفوق البري الألماني سيعطي لدول الوسط القدرة على التحكم في أوربا كلها ، وبالتالي في معظم الاتجاهات الدولية ، وبالتالي تفقد حكومة الولايات المتحدة مكانتها في مثل هذه الحالة التي تصبح فيها دولة أو دولتان فقط في أوربا هما المتعاملتان مع حكومة وشنجتن ، ولا شك أن انتصار ألمانيا في القارة الأوربية سيعقبه تخفيض شديد للمصالح التجارية الأمريكية وللمكانة الدولية ، بعكس انتصار الحلفاء الذين لا يرغبون في السيطرة المباشرة على أوربا ، ومن ثم كانت مصلحة الولايات المتحدة الأمريكية تكمن في عدم إعطاء الفرصة لدولة معينة تسيطر على أوربا وتوجهها .

وإذا ما وضعنا هذه العوامل الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والايديولوجية والدولية جنباً إلى جنب لتبين لنا بوضوح أن كافة الاتجاهات كانت تحث الرئيس ويلسون على التخلي عن مبدأ (الحياد الحقيقي) الذي نجح به في الانتخابات ليعلن شعارات أخرى تحبذ دخول حكومته وبلاده الحرب ، شعارات جديدة لاتعطي

العامل الحقيقى وهو العامل الاجتماعى الاقتصادى مكانه الأول . فهو حين دعا إلى خوض غمار الحرب ، نادى بأعلى صوته أن الديمقراطيات فى خطر ، مع أن حكومته مسئولة إلى حد كبير عن حماية العديد من الحكام الدكتاتوريين فى أمريكا اللاتينية ، ونادى بأعلى صوته أن حرية الفرد الأوروبى تداس تحت أقدام الدكتاتورية القيصرية .

وعلى أى حال ، تحول الرئيس ويلسون إلى جانب الحرب ، وقدم مبرراته إلى الكونجرس الأمريكى الذى وافق فى ٦ نيسان – أبريل ١٩١٧ على إعلانها .

ولم تدخل الولايات المتحدة الحرب كحليف لدول الوفاق ، وإنما كشريك فقط فيها وذلك حتى تحتفظ حكومة وشنجتن بحق الانسحاب من هذه الحرب عندما تشاء . وهذا الوضع القانونى يجعلها غير ملتزمة بأهداف دول الوفاق من الحرب ، ويعطى لوشنجتن الفرصة لأن تعمل وتتحدث من مكانة أعلى مستوى من مكانة الدول المتقاتلة عموما ، ولايدفعها هذا الوضع القانونى إلى الاعتراف بالاتفاقيات السرية المعقودة بين دول الحلفاء لتوزيع الأسلاب بعد الحرب .

ما هى تطلعات حكومة وشنجتن والشعب من وراء المشاركة فى هذه الحرب ؟

إن مسألة الدفاع عن الديمقراطية لاتشبع التطلعات الاقتصادية لرجال الأعمال الأمريكيين وإنما يجب أن يكون هناك عائد مناسب من وراء هذه المشاركة . فبادىء ذى بدء كانت هناك أولا المحافظة على الديون الأمريكية لدى دولتى الوفاق : انجلترا وفرنسا ، والإبقاء على باب التجارة مفتوحا معهما حتى يستمر حجم التجارة فى النمو .

ويحدثنا أحد المؤرخين الفرنسيين عن مكاسب الولايات المتحدة الأمريكية من وراء مشاركتها فى الحرب بقوله . إنها هى التى خرجت منتصرة من الحرب والرابح الأول فيها . فلقد زاد انتاج الفحم فيها ، وتضاعف إنتاج الصلب ، والإنتاج الزراعى ،

حتى إن « فائض الميزان التجارى » للفترة الواقعة بين ١٩١٤ — ١٩١٨ يعادل الفائض عن السنوات بين ١٧٨٧ و ١٩١٤ .

أما من حيث الفوائد التى جنتها دول الحلفاء من وراء دخول الولايات المتحدة الحرب إلى جانبهم فهى كثيرة للغاية أيضا .

١ — قويت الروح المعنوية لديهم على اعتبار أن الولايات المتحدة كانت تضم رصيداً بشريا وماليا وعسكريا ضخما كفيلا بقلب موازين الحرب ضد ألمانيا بدفعة تتسم بالطولة . وأصبح على كل من إنجلترا وفرنسا أن تصمدا وتردا الهجمات الألمانية المديدة حتى تصل القوات الأمريكية .

٢ — مع أن الأسطول الأمريكى كان صغيراً نسبيا إلا أن دخول وشنجتن الحرب جعل الأسطول مسؤولا عن سلامة سفن الحلفاء فى مسطح من الماء كبير يخفف من أعباء الأسطول البريطانى . وفوق هذا وذاك ، أصبح من مسئوليات الأسطول الأمريكى منع الغواصات الألمانية من إغراق السفن الأمريكية ، خاصة وأن متوسط ما كان يغرقه الألمان فى الشهر كان قد بلغ ٩٠٠ ألف طن . وفعلا تعاونت أساطيل فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية فى حماية قوافل السفن العاملة بين الولايات المتحدة والموانىء الفرنسية والبريطانية . وتم كذلك نقل حوالى ٢ مليون جندى أمريكى إلى الجبهة الفرنسية .

٣ — أصبح من اليسير على كل من بريطانيا وفرنسا أن تعقدا قروض حرب مع حكومة الولايات المتحدة الأمريكية بشروط أكثر سخاء وبسرعة . وفعلا وافق الكونجرس على تقديم قروض بثلاثة مليارات دولارا للحلفاء فى أعقاب دخول الولايات المتحدة الحرب .

كان دخول الولايات المتحدة الحرب فى ظروف تختلف عن تلك التى لابست دخول الدول الأوربية فيها . فلم تمر حكومة وشنجتن بأزمات تمهيدية ، وكانت سياسة التعبئة العامة العسكرية غير واردة فى الأذهان . وفوجىء الشعب بأن المبالغ

اللازمة للمشاركة فى الحرب ضخمة للغاية لم يسبق لها مثيل . وبدا على السلطات الأمريكية فى أول الأمر نوعا من الارتباك فى مواجهة مسئوليات الحرب ، بل إن البعثات الفرنسية والبريطانية التى وفدت فى وقت مبكر من الحرب على العاصمة الأمريكية لتطالب بأموال سائلة لمواجهة تحديات الحرب فى أوربا أصيبت بخيبة أمل كبيرة .

ويلاحظ أيضا أنه عندما وقعت الحرب العالمية الأولى لم تكن أجهزة وزارة الحربية والبحرية الأمريكية مستعدة للمضاعفات التى توالت ، فقد كان الأسطول صغيرا ، وكان انهيار الأسطول البريطانى فى معركة بحرية أمام الألمان يعنى خطراً كبيراً على الولايات المتحدة ، وكان الجيش مؤلفا من ٨٠ ألف جندى نظامى موزعين على المراكز الرئيسية فى داخل الولايات المتحدة نفسها ، وكان (الحرس الوطنى) وأن أكثر عدداً ولكن أقل تنظيما ، وأما سلاح الطيران فكان ملحقا بسلاح الاشارة دليل عدم إعداده للمهام الحديثة الحربية حينذاك .

بعد دراسة وافية لحاجات الولايات المتحدة من القوات المسلحة ، ولمواجهة الخسائر المتتالية فى السفن الأمريكية بواسطة الغواصات الألمانية ، وضع ويلسون ومستشاروه برنامجا للتسلح يرفع من قدرات الدولة البحرية إلى المرتبة الأولى فى (١٩١٥) .

وما أن عرض هذا البرنامج حتى أثار مناقشات حادة للغاية ، وكانت صيحات المعارضة داخل الكونجرس قوية وأكثر علوا ، ومع هذا استطاع ويلسون أن يحصل على موافقة من الكونجرس على تقوية القوات المسلحة عن طريق ضرائب فرضت على ذوى الدخول الكبرى بصفة خاصة (١٩١٦) .

ولهذا عندما دخلت الولايات المتحدة الحرب كانت أقدر على تجهيز قوات كثيفة للعمل فى أوربا .

١٠ — الدولة العثمانية :

كانت هناك عدة عوامل جعلت الدولة العثمانية تفضل خوض الحرب إلى جانب دولتى الوسط عن الوقوف على الحياد بين القوى المتقاتلة :

١ — كانت المصالح الألمانية فى الدولة العثمانية قد تزايدت بشكل كبير جداً خلال العقود القليلة التى سبقت وقوع الحرب العالمية . كانت هناك قروض ألمانية ، وسكك حديدية يتولى الألمان تنفيذها ، وكان الجيش يتدرب ويجهز على يد خبراء وأسلحة من ألمانيا . وكانت صفحة ألمانيا الإستعمارية — بالنسبة للدولة العثمانية — لاتزال بيضاء .

٢ — كانت المصالح والأطماع الفرنسية والبريطانية تشكل بوضوح سافرسياسة إستعمارية تستهدف تقويض الدولة العثمانية . وكذلك ضرب الشعوب الإسلامية عقائدياً واقتصادياً . فعلاوة عما استعبدته من الشعوب الإسلامية فى آسيا (وبخاصة فى الهند والخليج العربى وعدن) وفى إفريقية فى (وادى النيل وشمال إفريقية وفى إفريقية وراء الصحراء) كانت كل من فرنسا وبريطانيا تتطلمان بشره إلى العراق والشام والمضايق .

٣ — كانت روسيا تشكل الخطر الأعظم على مستقبل الدولة العثمانية التى هدتها الحرب الطرابلسية والحرب البلقانية وفشلت حكومة الأستانة فى الصيف الحار لسنة ١٩١٤ أن تصل إلى تفاهم حقيقى مع دول الوفاق يحفظ لها كيانها ويعيد إليها بعض ما فقدته فى البلقان وفى مصر . ولهذا كان اتجاه حكومة الأستانة صوب ألمانيا من الأمور الطبيعية .

حقيقة كانت هناك أصوات لها قيمتها تدعو إلى عدم التورط فى الحرب ، ولكن أنور باشا(١) كان موقنا أن النصر سيكون فى جانب الألمان لا محالة وأن الفرصة قد جاءت لتنتقم تركيا من أعدائها الكبار . وكانت سلطات وشخصية أنور باشا من القوة لدرجة أنه أقدم على عقد معاهدة دفاعية مع ألمانيا موجهة ضد روسيا فى ٢ آب — أغسطس ١٩١٤ أى فى اليوم التالى لإعلان ألمانيا الحرب على روسيا . ولم

---

(١) وزير الحربية ، وأحد ثلاثة كانوا يمسكون بدفة الدولة وهم طلعت (وزير الداخلية) و (جمال) وزير البحرية .

يعد هناك من عوائق أمام حكومة الأستانة لإعلان الحرب على دول الوفاق سوى وقوع الفرصة المناسبة ، خاصة بعد أن احتجزت بريطانيا سفينتين حربيتين كانت السلطات العثمانية قد اشترتهما من بريطانيا وكانتا لاتزالان فى الموانىء البريطانية بعد وقوع الحرب .

فلما وصلت السفينتان الحربيتان الألمانيتان جوبن وبرسلاو فى ١١ آب — أغسطس ١٩١٤ إلى المضايق العثمانية فارتين من مطارده الأسطول البريطانى،أعطيتا حق دخول المضايق والرسو فى الموانى العثمانية ، بينما أغلقت هذه المضايق فى وجه الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط وفى وجه الأسطول الروسى فى البحر الأسود. وكانت حجة الأتراك فى ذلك أن جوبن وبرسلاو قد أصبحتا ضمن الأسطول العثمانى، وأن هذا كان رداً على احتجاز السفينتين العثمانيتين فى الموانى البريطانية . ولكن لم تلبث أن ضربت فجأة قطع الأسطول العثمانى — بما فيها جوبن وبرسلاو — ميناءى اوديسا وسباستبول الروسيين فكان ذلك بداية الاشتراك الفعلى لتركيا فى حربها إلى جانب دولتى الوسط ضد دول الوفاق وأعلن السلطان العثمانى ـ خليفة المسلمين محمد الخامس الدعوة إلى الجهاد على أمل قيام المسلمين فى كل بلد يسيطر عليه الإنجليز والفرنسيون والروس بالثورة . واستعدت الجيوش العثمانية لقتال دول الوفاق فى عدة جبهات :

١ — الجبهة القوقازية الاناضولية .

٢ — الجبهة البلقانية .

٣ — جبهة الخليج العربى والعراق وفارس .

٤ — جبهة قناة السويس والشام .

٥ — جبهة اليمن .

وكان دخول تركيا الحرب فى هذا الوقت المبكر الذى كانت فيه الجيوش الروسية تعانى من هزائم مبكرة وجيوش ألمانيا تتقدم فى فرنسا ،كان ذلك من العوامل التى ألقت أعباء كثيرة على جيوش دول الوفاق ، وبوجه خاص روسية وبريطانيا ـ

وكانت حكومة الأستانة وكذلك حكومة برلين تؤملان كثيراً فى دعوى الجهاد كعامل مفتت لقوى بريطانيا وفرنسا بالذات ، إلا أن توقعات الاتراك والألمان لم تكن صائبة ، حيث لم تؤد الدعوة إلى الجهاد إلى ثورة إسلامية عامة ضد دول الوفاق ، بل ولا إلى ثورات متفرقة ذات تأثير فعال على تطورات الحرب. وعلى العكس استطاع التعاون بين الإنجليز والحسين بن على شريف مكة أن يتحول إلى تحالف وإلى أن يتزعم الشريف ثورة عربية فى ١٩١٦ ضد الخليفة العثمانى الأمر الذى كسر من قوة الدعوة العثمانية إلى الجهاد .

وكان طبيعيا أن تعمل دول الوفاق على اقتسام الدولة العثمانية فيما بينها بعد إحراز النصر النهائى . وبدأت هذه الخطوات بإعلان بريطانيا ضم قبرص وفرض الحماية على مصر ، وبمحاولة السيطرة على المضايق بحملة الدردنيل المشهورة الفاشلة فى ١٩١٥ ، واخيراً توصلت دول الوفاق إلى إتفاقية تقسيم الدولة العثمانية فيما عرف باتفاقية القسطنطينية فى ٤ — ١٠ إبريل نيسان ١٩١٥ وهى فى الحقيقة عبارة عن مراسلات متبادلة بين كل من روسيا وفرنسا وبريطانيا وافقت فيها هذه الدول على تقسيم الدولة العثمانية على النحو التالى :

١ — أن تحصل روسيا على الأستانة والمضايق ، على أن يكون ميناء الأستانة حراً للتجارة ومضايق الدردنيل والبسفور مفتوحة أمام السفن التجارية .

٢ — طمأنة دول البلقان عند استيلاء روسيا على الأستانة والمضايق .

٣ — تعديل الحدود الأفغانية — الروسية بما يلبى بعض المطالب الروسية .

٤ — تحصل فرنسا على إقليم السار — فضلا عن استرداد الألزاس واللورين .

٥ — تكوين دولة مستقلة جديدة على الضفة اليسرى من نهر الراين — أى على الأراضى الألمانية .

٦ — تتحول المنطقة المحايدة فى فارس المنصوص عليها فى الوفاق الودى لسنة ١٩٠٧ إلى منطقة نفوذ بريطانى .

٧ — تتولى بريطانيا وفرنسا اقتسام الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية فى

العراق والشام . وقد تم هذا فيما عرف باسم اتفاقية سايكس — بيكو المشهورة (١٩١٥) .

٨ — تستولى فرنسا على سورية وكيلكيا وخليج الإسكندرونة .

٩ — قيام حكومة إسلامية مستقلة فى الأراضى المقدسة الإسلامية .

١٠ — فصل الخلافة عن تركيا .

وعندما قررت إيطاليا دخول الحرب إلى جانب دول الوفاق شاركت فى مسألة تقسيم الدولة العثمانية على النحو التالى : —

١ — إعلان السيادة الإيطالية على جزر الدوديكانيز وانتقال حقوق السلطان العثمانى فى ليبيا إلى إيطاليا .

٢ — تحصل إيطاليا على جزء من إقليم آضاليا .

٣ — فى حالة استحواذ فرنسا وبريطانيا على مستعمرات ألمانيا فى إفريقية تحصل إيطاليا على ترضيات مناسبة فى مناطق الحدود الارتيرية والصومالية والليبية .

وكانت إيطاليا تتطلع إلى جانب هذا إلى سيطرة كاملة على السواحل البلقانية المواجهة لها وخاصة ساحل دلماشيا وميناءى فيومى وتريستا .

وكان تنفيذ مثل هذه الإتفاقيات والآمال يتوقف على النتيجة النهائية للحرب وعلى نوع المناورات الدبلوماسية والعسكرية التى كانت تدبرها بريطانيا بالذات ضد الوجود المحتمل لروسيا وفرنسا فى تركيا والمشرق العربى .

كذلك عملت دول الوفاق على تقويض الدولة العثمانية من الداخل عن طريق إثارة المشاعر والآمال القومية التى كانت متحفزة للتحرك ضد الحكم التركى العثمانى وبوجه خاص :

١ — الحركة العربية .

٢ — الطائفة [illegible] فى العراق .

٣ — الأرمن .

ولهذا ستقرر ميادين القتال والحركة العربية مصير هذه الإمبراطورية العثمانية .

تلك كانت القوى التى شاركت فى الحرب العالمية الأولى ويمكن أن نركز الأسباب الجوهرية التى أدت إلى نشوبها :

١ — عمق الصراع القومى فى أوربا .
٢ — التضارب في تحديد مفهوم التوازن الدولى .
٣ — التنافس الإستعمارى والإقتصادى .
٤ — تعرض إحدى الدول الكبرى للانهيار .

وعند وضع دراسة مقارنة بين القوى المتحاربة نجد أن الدولتين الديمقراطيتين (فرنسا وبريطانيا) وضعتا نفسيهما على قدم المساواة مع روسيا الرجعية الدكتاتورية الأوتوقراطية .

وفى الجانب الآخر نجد الدولة الألمانية الفتية القومية المتماسك شعبها القائمة على اقتصاديات حديثة وعسكرية متطورة متقدمة متحالفة مع إمبراطورية عفى الزمن على نظامها .وكانت كأنها ثوب ضم العشرات من الرقع جاهزة للتمزق تحت أى ضغط مناسب ، كما أن ألمانيا كانت قد تحالفت مع الدولة العثمانية الأشد رجعية وتفككاً وتخلفاً .

ومع أن كلا من الحكومات المتحاربة دعت شعبها إلى الترابط لمواجهة هذه المحنة ، فإن صدى ذلك كان متفاوتاً من دولة لأخرى فقد كان التضامن بين شعوب الدولة العثمانية فى مطالع الحرب مظهريا ، وكانت القوميات العديدة في المملكة الثنائية مستعدة لإثارة المشاكل إذا ما سنحت الفرصة .

كذلك نجد أن تعداد سكان دولتى الوسط يبلغ نصف مالدى دول الوفاق ، مع استبعاد المستعمرات . وبالتالى كان الاحتياطى البشرى كبيراً لدى دول الوفاق . ومع هذا فإن تعداد جيوش دولتى الوسط كان يقل قليلا عن تعداد جيوش خصومها الأمر الذى يجعل من العسير على دولتى الوسط إعادة تكوين فرق جديدة تحل محل الفرق التى تتلاشى فى المعارك . خاصة وأن الحرب طالت عن الأسابيع الستة التى كان يتوقعها قائد عام الجيش الألمانى فون مولتكه (الصغير) . وبينما كانت المعارك تحتاج إلى المزيد من الجنود كانت جيوش دول الوسط تعمل على أرض معادية فى فرنسا وبلجيكا والبلقان وروسيا والبلاد العربية .

ومن الناحية البحرية كانت قطع الأسطولين الفرنسى والبريطانى تعادل ضعف مالدى ألمانيا والمملكة الثنائية بل وأكثر ، ولم يدخل الاسطول الروسى فى هذه المقارنة لأنه كان محبوساً فى بحر البلطيق والبحر الأسود عقب إقفال كل من الدنمرك والدولة العثمانية المضايق التى تشرف عليها .

وبينما كانت نوعية المقاتل الألمانى ممتازة وكانت القيادة الألمانية منذ البداية لماحة عبقرية ، كان المقاتل الفرنسى والإنجليزى نسبياً أقل دربة ومقدرة عن منافسه الألمانى ولكنها كانت على مستوى عال من الصلابة والتضحية أما مستوى القيادة والجند فى الجيوش الروسية والإيطالية والصربية فكانت متدنية جداً إذا قيست بمستويات الألمان أو الفرنسيين أو الإنجليز .

ويعتبر اندلاع الحرب العالمية الأولى فى حد ذاته نتيجة لفشل الدبلوماسية التقليدية الاوروبية ، ونقلت بذلك مقدرات الأمور من يد رجال الحكم والسياسة إلى رجال الحرب والقتال . وكانت ضرورات العسكرية هى التى تحكمت فى التطورات السياسية ، فرغبة العسكريين الروس فى إجراء تعبئة عسكرية مبكرة لمواجهة بطء الإدارة الروسية كان له اثره الكبير فى إتساع الحرب ، واجتياح الجيوش الألمانية بلجيكا — دون أى احترام لحيادها — كان لإرغام فرنسا على الاستسلام فى أقصر وقت ممكن ، وتحكمت متطلبات التعبئة العامة فى فرنسا والرغبة فى حشد الجيوش على الجبهة الألمانية — الفرنسية فى سياسة الدولة الداخلية .

أما بريطانيا ، فهى الدولة الوحيدة التى لم تختل فيها متطلباتها العسكرية والمدنية عقب إعلان الحرب لاعتمادها على خط الدفاع الأول فى أوربا والثانى فى بحر الشمال وبحر المانش .

وكان هناك اعتقاد عام أن هذه الحرب لن تطول كثيراً ، ولكنها بدأت فى صيف ١٩١٤ وانتهت فى خريف ١٩١٨ ، فشغلت أربع سنوات وخمسة عشر أسبوعاً مليئة بالمحن والكوارث .

الفصل الثامن

تطورات الحرب العالمية الأولى

١٩١٤ — ١٩١٨

— المرحلة الأولى ١٩١٤ — ١٩١٦

— المرحلة الثانية ١٩١٧ — ١٩١٨

المرحلة الأولى من الحرب (١٩١٤ – ١٩١٦) :

بدأت التحركات العسكرية بحركة التفاف ألمانية واسعة النطاق عبر بلجيكا في إتجاه فرنسا بقصد توجيه ضربة حاسمة لها تخرجها من الحرب ، ولكن تعرقل الزحف الألماني حوالى أسبوعين بسبب مقاومة الجيش البلجيكي وحصون ليبج ونامور الشهيرة . وهناك اكتشف القائد الفرنسى (بوفر) خطأه في تركيز قواته على جهة اللورين الأمر الذى أتاح للألمان زحفاً سريعاً صوب قلب فرنسا واضطرت فرنسا إلى حرب التراجع في مختلف الميادين حتى خطوط نهر المارن . ولم يخفف من العبء الشديد الملقى على الجيش الفرنسى في هذه الجبهة سوى إضطرار القيادة الألمانية إلى نقل بعض من فرقها من الجبهة الفرنسية إلى بروسيا لإنقاذها من الإجتياح الروسى . إلا أن روسيا كانت قد منيت بهزيمة ساحقة في موقعة تاننبرج (١) قبل اشتراك الفرق المنقولة إلى بروسيا .

أضعف نقل تلك الفرق من قوة الجيش الألمانى فكان فرصة انتهزها (بوفر) فشن هجوماً مضاداً ناجحاً أرغم الجيش الألمانى على أن يتخذ موقف الدفاع ، وكان هذا في حد ذاته نصراً لدول الوفاق ، حيث أن خطة الحرب الخاطفة قد فشلت فعلا ، وكلما طالت الحرب سارت الأمور ضد مصالح دولتى الوسط . ومنذ أيلول ١٩١٤ ساهمت الخطة الدفاعية لدى الطرفين في فرنسا إلى أن تتحصن فرق المشاة في الخنادق وأن تتراشق المدفعية بالقنابل على جبهة طويلة للغاية تمتد من جبال فوج في الشرق إلى بحر الشمال في الغرب . وفي محاولة لزحزحة العدو من مكانه تبادل الطرفان الهجمات ، وكانت نتائجها متعادلة ففى فردون Verdum تحمل الفرنسيون عبء هجوم ألمانى شديد الوطأة كان هدفه إبادة فرق فرنسية عديدة . ونجحوا في منع الألمان من الإستيلاء عليها ، وكبدوهم خسائر تعادل تقريباً خسائرهم الفادحة (شباط – حزيران فبراير – يونيو ١٩١٦) وفي معركة السوم (يوليو – تموز ١٩١٦)

---

(١) Tannenberg. في النصف الثانى من آب – اغسطس ١٩١٤ .

كان الفرنسيون هم المهاجمون وكبدوا الألمان خسائر أخرى فادحة (١) .

أما وقد فشلت خطة كسب الحرب بحرب خاطفة فى الجبهة الفرنسية فى ١٩١٥ بسبب صلابة الجيش الفرنسى والمعاونة العسكرية الإنجليزية له ، اتجه القادة الألمان إلى العمل على إخراج روسيا من الحرب عن طريق حرب خاطفة . وكانت المظاهر العامة توحى بأن مثل هذه الخطة ستلاقى نجاحاً كبيراً فى روسيا لما كان يعوزها من مؤن وذخائر ووسائل نقل حديثة . ولقد أحرزت الحملة الألمانية على روسيا انتصارات كبيرة جعلت بولنده ولتوانيا وأجزاء عزيزة وغنية وواسعة من روسيا تقع تحت يد جيوش دولتى الوسط فضلا عن حوالى مليونين من الروس ذهبوا بين قتيل وأسير وجريح .

وزاد من حرج الموقف العسكرى العام لدول الوفاق ، وخاصة روسيا ، أن الحملة الإنجليزية إلى الدردنيل سبتمبر — ايلول ١٩١٥ باءت بالفشل . سواء فى معارك البر أو البحر واضطرت إلى الإنسحاب وضاع أمل روسيا فى فتح المضايق لتوصيل المواد العسكرية اللازمة لها . بينما اجتاحت فى تشرين أول ـ أكتوبر ١٩١٥ القوات الألمانية — النمساوية — البلغارية الصرب، ووصلت حتى تيرانا عاصمة البانيا ، دون أن تسهم إيطاليا — التى دخلت الحرب منذ وقت قصير — بشىء يذكر فى حملة الدردنيل أو فى القتال فى البلقان . حتى تعرضت إيطاليا نفسها إلى حملة مظفرة نمساوية ألمانية أنزلت الهزيمة القاسية بالجيش الإيطالى فى موقعة كابوريتو (٢) . فى ٢٤ تشرين أول ـ أكتوبر ١٩١٧ :

وفى الجبهة الشرقية العثمانية توقف الزحف البريطانى من البصرة فى إتجاه الشمال

---

(١) كانت هناك خطة مشتركة بين الروس والفرنسيين والايطاليين لتوجيه الهجمات ضد جيوش دولتى الوسط فى وقت واحد ، ولكن الهجوم الروسى توقف بسرعة الأمر الذى أوقع رومانيا ـ وكانت قد دخلت الحرب منذ قليل ـ تحت أقدام جيوش دولتى الوسط ، أما الهجوم الايطالى فى الجبهة النمساوية كان محدود النتائج جدا .

(٢) Caporetto.

عند كوت العمارة ، وهناك أرغم الأتراك جيشاً إنجليزياً ـ حصروه فيها ـ على الاستسلام فى أوائل ١٩١٦ ، أما فى الجبهة المصرية فكانت مبادرة الهجوم والتقدم من جانب جمال باشا حتى وصل إلى قناة السويس ، إلا أن الجيش الإنجليزى والثورة العربية (١٩١٦) أرغمت الاتراك على التراجع إلى ماوراء يافا والقدس .

وكما كانت قوى المتحاربين فى ١٩١٥/١٩١٦ فى الجبهات البرية متعادلة تقريبا ، كانت نتيجة المعركة الحربية البحرية الكبرى فى جوتلاند [١] (٢٩ آيار — مايو ١٩١٦) بين الاسطولين الإنجليزى والألمانى متعادلة ، وأن سارت موازين القوى البحرية بعد ذلك لصالح التفوق البريطانى ، حيث أن الخسائر فى الأسطول الألمانى كان من المتعذر تعويضها ، وحيث أن التفوق العددى كان لأسطولى بريطانيا وفرنسا. فقبع الأسطول الألمانى فى موانيه .

وحاولت ألمانيا أن « تجوع » بريطانيا وتمنع عنها امداداتها من الدول المحايدة وخاصة من الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق إغراق سفن بريطانيا وسفن الدول المحايدة المتعاملة معها بواسطة أعداد كبيرة من الغواصات بنتها على عجل ، ولكن نشلت الخطة فى النهاية بسبب استخدام الإنجليز نظام قوافل السفن التى تسير فى حراسة الاسطول ، ولأن عدداً كبيراً من هذه الغواصات دمرته قطع الأسطول الإنجليزى .

أخذت قوى الطرفين المتصارعتين تستنفد طاقاتها التى عبأتها لخوض حرب قصيرة ، وبدأت تعانى من متطلبات حرب طويلة المدى . ووقعت عدة حوادث فى داخل الدول المتحاربة دلت على مدى توتر الأعصاب بسبب هـذا التطور غير المنتظر .

ففى بريطانيا كانت وزارة اسكويث [٢] تواجه أزمة تموين قاسية . إذ كانت الذخائر تعوز الجيش الإنجليزى العامل فى فرنسا ، وكان من أسباب إشتداد هذه

---

(١) Jutland

(٢) Asquith ١٨٥٢ — ١٩٢٨ (حزب الأحرار) .

الأزمة وجود كتشنز وزيراً للحرب فى وزارة اسكويث ، وكان كتشنر محبوباً جداً من الشعب الإنجليزى ، ولكن لم يكن الرجل صاحب خبرات فى مثل هذه المشكلات التموينية وإن كان صاحب خبرة واسعة فى وضع المخططات السياسية الإنجليزية نحو المستعمرات . وتضاعفت المشكلة التموينية عندما أصبحت متطلبات حرب الخنادق فى فرنسا تحتاج إلى كميات أكبر من الذخائر .

وعندما أقدم اسكويث على تعديل وزارته أدخل لويد جورج [١] وزيراً للتموين (مايو ـ أيار ١٩١٥) ، وأبدى لويد جورج مهارة كبيرة فى سد النقص فى حاجات الجيش من الذخائر ، واستطاع أن يخطط لسياسة حرب طويلة الأمد ، فأعد لها جيشاً جديداً مؤلفاً من سبعين فرقة واستخدم لويد جورج سلطات واسعة — أقرب إلى الدكتاتورية — من أجل توجيه قدرات بريطانيا البشرية والإنتاجية نحو الحزب . وفى ديسمبر — كانون أول ١٩١٦ تولى لويد جورج رئاسة وزارة حرب مؤلفة منه ومن ثلاثة آخرين هم : لورد كيرزون[٢] ولوردملنر [٣] (وكلاهما من المحافظين) وآرثر هندرسون [٤] من (العمال) ، وكان هذا التطور من العوامل التى أدت إلى فرقة بين لويد جورج واسكويث ساهمت فى تدهور حزب الأحرار وانتهاء دوره كأحد الأحزاب الرئيسية الكبرى فى تاريخ بريطانيا .

٢ — فى فرنسا ، كان وزارة ارسطو بريان[٥] هى التى عاصرت الصمود الفرنسى الرائع فى فردون ولم يلبث بريان أن عدلها ثم استقال بريان وخلفته عدة وزارات ضعيفة قصيرة العمر حتى تولى فى ١٣ تشرين ثانى ١٩١٧ رئاسة الوزارة

---

(١) Lloyd George ١٨٦٣ ـ ١٩٤٥ .
(٢) Curzon. ١٨٥٩ — ١٩٢٥ .
(٣) Milner. ١٨٥٤ — ١٩٢٥
(٤) Henderson. ١٨٦٣ — ١٩٣٥ .
(٥) Aristote Briand (١٨٦٢ — ١٩٣٢) .

جورج كلنصو(١) الذى أعاد إلى البلاد وحدتها الوطنية وانتهت حركة التمرد التى برزت فى مطلع ١٩١٧ ، ووقف الرأى العام الفرنسى خلف كلنصو ، واستعادت فرنسا معنوياتها وقدرتها على التضحية الكبرى من أجل النصر النهائى . ولخص سياسته فى العمل على الإفادة من كافة طاقات فرنسا وشعبها ، أما بشأن الحرب فقد أبدى صلابة شديدة إزاء العدو وإصراراً على كسب الحرب وقال :

« إن سياستى الخارجية وسياستى الداخلية واحدة . سياستى الداخلية أن أحارب وسياستى الخارجية أن أحارب وأحارب دوماً » .

٣ — وكانت إيطاليا تضم عدداً كبيراً من الزعامات والأحزاب والهيئات المعارضة للحرب بشكل لا مثيل له فى أى من الدول المتحاربة الأخرى . ونظراً لعجزها عن إحراز نصر ما حتى ١٩١٦ أوجد ذلك قلقاً مريراً بين الشعب، وضاعف من ذلك أن المحاصيل الزراعية ١٩١٦ كانت أقل مما سبق ، وأدى نقص الفحم إلى تعطيل كثير من المصانع وتركت كثير من الحقول دون إنتاج ، وترتب على هذا إضرابات فى تورين ، وفرار الجند من الجبهة ، ثم أدت هزيمة الجيش الايطالى فى موقعة كابوريتو إلى سقوط وزارة بوزيللى . وتولى أورلاندو(٢) رئاسة وزارة الئتلافية . .

ويمكن أن نعتبر (أورلاندو) كلنصو إيطاليا حيث أنه استهدف الوحدة الوطنية على اعتبار أنها مفتاح النصر النهائى . فدعا الأحزاب السياسية المختلفة للتعاون فى الجهد المشترك من أجل توجيه طاقات إيطاليا نحو الحرب ومسح عار كابوريتو . ومع أنه لقى معارضة من جانب الإشتراكيين إلا أن (جيولتى) — الداعية الأكبر لسياسة الحياد — أعلن وقفة إيطالية ضد الغزو النمساوى — الألمانى ، وتأييداً لدولتى الوفاق وإصراراً على النصر .

---

(١) George Clemenceau (١٨٤١ — ١٩٢٩)

(٢) Orlando (١٨٦٠ — ١٩٥٢) .

٣ - وفى ألمانيا زادت معارضة الإشتراكيين لقروض الحرب الأمر الذى سيؤدى إلى أزمة داخلية فى يوليو - تموز ١٩١٧ .

٤ — إمبراطورية النمسا والمجر : كانت أكثر البلاد معاناة من طول الحرب ونفقاتها ومشاكلها . حتى لقد ظهرت أزمات إقتصادية بين النمسا من جهة والمجر من جهة أخرى . وفى نوفمبر - تشرين ثانى ١٩١٦ توفى الإمبراطور فرنسيس جوزيف(١) وخلفه ابنه شارل الأول الذى أخذ يغير فى الوزراء ، ودعا مجلس الريخسرات(٢) ، ولم يكن قد دعى منذ ١٩١٤ ، وجاءت هذه الخطوة الديمقراطية بالوبال على الإمبراطورية حيث جاء ممثلو القوميات الى هذا المجلس ليطالبوا فقط بحرية قومياتهم ، وبوجه خاص التشيك والبولنديين والسلاف ، وزاد من قدرات هؤلاء على العمل تخلى المقاتلين من هذه القوميات عن وحداتهم وعودتهم إلى أقاليمهم ، فضلا عن أن حكومات فى المنفى بولندية ويوغسلافية كانت قد تكونت برعاية دولتى الوفاق : فرنسا وبريطانيا .

٥ — وفى روسيا بدأت مقدمات الثورة الشيوعية تظهر منذ كانون أول - ديسمبر ١٩١٦ .

وبالرغم من مثبطات الهمم هذه ، أصرت الدول المتحاربة - ومنها روسيا المهيضة الجناح - وعلى متابعة الحرب رغم نداءات ودور ويلسون(٣) - رئيس الولايات المتحدة الأمريكية - لقبول صلح مرض لكافة الأطراف (١٩١٦) . ومثل هذا الصلح كان يتطلب تنازلات جوهرية من الطرفين ولقد رفضا الإقدام على مثل هذه التنازلات . بل لقد أتهمت الحكومة الألمانية ويلسون بأنه يريد صلحاً لصالح دول الوفاق فقط . فاستمرت الحرب دون أن يكون هناك فى ١٩١٦ من يستطيع أن يدرك من سيكسبها إلا أن تطورات عميقة حدثت جعلت من عام ١٩١٧ عاماً حاسماً فى هذه الحرب .

---

(١) حكم من ١٨٤٨ إلى ١٩١٦ .

(٢) Reicharat

(٣) أنظر د. عبدالعزيز نوار ود. عبدالمجيد النعنعى (تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية) دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٣ .

المرحلة الثانية من الحرب (١٩١٧ – ١٩١٨) :

ويعتبر عام ١٩١٧ من أهم أعوام الحرب ، حيث وقعت فيه عدة أحداث وتطورات كانت عميقة الأثر – إلى حد بعيد – على الشكل الذى انتهى إليه هذا الصراع المرير .

وكانت هذه التطورات الكبرى :

١ – الثورة الروسية ابتداء من مارس – آذار ١٩١٧ .

٢ – دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب فى ٢ نيسان — إبريل ١٩١٧ .

٣ – تدهور الجبهة الداخلية فى ألمانيا (١٩١٧) ثم فشل هجومها فى ١٩١٨ .

٤ – تدهور بلغاريا .

٥ – تصدع المملكة الثنائية .

٦ – فقدان تركيا للبلاد العربية (١٩١٧ – ١٩١٨) .

كانت روسيا(١) أول الدول خروجاً من الحرب وذلك بسبب تدهور جيوشها معنوياً وفنياً ، وأصابتها النكبات والمذابح المتتالية بسبب جهل القيادة ونقص الذخيرة المريع والمتاجرة فى تزويد الجيش بالأسلحة ، وانتشار المجاعة فى الريف ونقص قاتل فى تموينات الجند ، وعجز من جانب الحكومة القيصرية ودولتى الوفاق عن إنقاذ الموقف المتهور بسرعة . وقامت الثورة فى بتروجراد ضد القيصر ، ورفض الجيش التحرك ضد الثوار وأرغم القيصر على التنازل عن عرشه ، وانتهت بذلك أسرة رومانوف من الحكم ، وتولى الحكم ، حكومه مؤقتة برئاسة كيرنسكى ، وأرادت متابعة الحرب ، ولكن الإنقلاب الذى قاده لنين – زعيم البلشفيك – وضع الحكم فى يد هؤلاء ، وسرعان ما سعوا إلى الوصول إلى صلح مع ألمانيا وتم ذلك فى معاهدة برست ليتوفسك فى ٣ مارس آذار – ١٩١٨ .

---

(١) سنتعرض بالتفصيل إلى تاريخ الثورة الشيوعية فى روسيا ومبادئها .

المرحلة الثانية من الحرب (١٩١٧ - ١٩١٨) :

ويعتبر عام ١٩١٧ من أهم أعوام الحرب ، حيث وقعت فيه عدة أحداث وتطورات كانت عميقة الأثر - إلى حد بعيد - على الشكل الذى انتهى إليه هذا الصراع المرير .

وكانت هذه التطورات الكبرى :

١ - الثورة الروسية ابتداء من مارس - آذار ١٩١٧ .

٢ - دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب فى ٢ نيسان - إبريل ١٩١٧ .

٣ - تدهور الجبهة الداخلية فى ألمانيا (١٩١٧) ثم فشل هجومها فى ١٩١٨ .

٤ - تدهور بلغاريا .

٥ - تصدع المملكة الثنائية .

٦ - فقدان تركيا للبلاد العربية (١٩١٧ - ١٩١٨) .

كانت روسيا(١) أول الدول خروجاً من الحرب وذلك بسبب تدهور جيوشها معنوياً وفنياً ، وأصابتها النكبات والمذابح المتتالية بسبب جهل القيادة ونقص الذخيرة المريع والمتاجرة فى تزويد الجيش بالأسلحة ، وانتشار المجاعة فى الريف ونقص قاتل فى تموينات الجند ، وعجز من جانب الحكومة القيصرية ودولتى الوفاق عن إنقاذ الموقف المتهور بسرعة . وقامت الثورة فى بتروجراد ضد القيصر ، ورفض الجيش التحرك ضد الثوار وأرغم القيصر على التنازل عن عرشه ، وانتهت بذلك أسرة رومانوف من الحكم ، وتولى الحكم ، حكومه مؤقتة برئاسة كيرنسكى ، وأرادت متابعة الحرب ، ولكن الإنقلاب الذى قاده لنين - زعيم البلشفيك - وضع الحكم فى يد هؤلاء ، وسرعان ما سعوا إلى الوصول إلى صلح مع ألمانيا وتم ذلك فى معاهدة برست ليتوفسك فى ٣ مارس آذار - ١٩١٨ .

---

(١) سنتعرض بالتفصيل إلى تاريخ الثورة الشيوعية فى روسيا ومبادئها .

بمت معاهدة برست لتوفسك على ما يلى :

١ ـ التخلى عن دويلات البلطيق وفنلندا وبولنده .

٢ ـ الجلاء عن أكرانيا والإعتراف بمعاهدتها مع ألمانيا .

٣ ـ التنازل لتركيا عن أردهان وقارس وباطوم .

٤ ـ الامتناع عن نشر الدعاية .

وهكذا خرجت روسيا من الحرب بعد أن فقدت مساحات شاسعة من أراضيها ومن الأراضى التى كانت تسيطر عليها .

وحيث أن الولايات المتحدة كانت قد أعلنت الحرب فى إبريل ـ نيسان ١٩١٧ على ألمانيا ، وكانت فى حاجة إلى عام تقريباً للمشاركة الفعلية فى ميادين القتال فى أوربا، برز سؤال خطير : هل فى استطاعة ألمانيا أن تكسب الحرب خلال الفترة الواقعة بين توقف القتال على الجبهة الروسية ووصول الجيوش الأمريكية إلى ميادين القتال بكثافة كبيرة ؟

ولقد كان أمام الألمان حوالى أربعة أشهر كى يفرضوا على فرنسا الاستسلام قبل وصول القوات الأمريكية . وقبل أن تتمكن القوات الإيطالية من العودة إلى الهجوم بعد نكبتها فى معركة كابوريتو (أكتوبر ـ تشرين أول ١٩١٧) .

وكان من المفهوم أن القيادة الألمانية ـ بعد أن وقعت الهدنة مع روسيا ـ ستنقل كافة الفرق العاملة على الجبهة الروسية إلى الجبهة الفرنسية والقيام بهجوم كبير يرغم فرنسا على الاستسلام ولكن الذى حدث هو أن القيادة لم تنقل إلا اجزاءاً قليلا من قواتها تلك إلى فرنسا حيث أن (الهدنة) يمكن نقضها فى أى وقت بسهولة ، ثم إن الحكومة الألمانية والقواد الألمان كانوا لا يثقون فى الحكومة البلشفية الجديدة ويعتقدون أن الروس لن يتورعوا عن الإنقلاب ضد ألمانيا إذا سنحت الفرصة ، خاصة وأن عملاء الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا كانوا يعملون على إبقاء روسيا فى المعركة .

نصت معاهدة برست لتوفسك على ما يلى :

١ ـ التخلى عن دويلات البلطيق وفنلندا وبولنده .

٢ ـ الجلاء عن أكرانيا والإعتراف بمعاهدتها مع ألمانيا .

٣ ـ التنازل لتركيا عن أردهان وقارس وباطوم .

٤ ـ الامتناع عن نشر الدعاية .

وهكذا خرجت روسيا من الحرب بعد أن فقدت مساحات شاسعة من أراضيها ومن الأراضى التى كانت تسيطر عليها .

وحيث أن الولايات المتحدة كانت قد أعلنت الحرب فى إبريل ـ نيسان ١٩١٧ على ألمانيا ، وكانت فى حاجة إلى عام تقريباً للمشاركة الفعلية فى ميادين القتال فى أوربا، برز سؤال خطير : هل فى استطاعة ألمانيا أن تكسب الحرب خلال الفترة الواقعة بين توقف القتال على الجبهة الروسية ووصول الجيوش الأمريكية إلى ميادين القتال بكثافة كبيرة ؟

ولقد كان أمام الألمان حوالى أربعة أشهر كى يفرضوا على فرنسا الاستسلام قبل وصول القوات الأمريكية . وقبل أن تتمكن القوات الإيطالية من العودة إلى الهجوم بعد نكبتها فى معركة كابوريتو (أكتوبر ـ تشرين أول ١٩١٧) .

وكان من المفهوم أن القيادة الألمانية ـ بعد أن وقعت الهدنة مع روسيا ـ ستنقل كافة الفرق العاملة على الجبهة الروسية إلى الجبهة الفرنسية والقيام بهجوم كبير يرغم فرنسا على الاستسلام ولكن الذى حدث هو أن القيادة لم تنقل إلا جزءاً قليلا من قواتها تلك إلى فرنسا حيث أن (الهدنة) يمكن نقضها فى أى وقت بسهولة ، ثم إن الحكومة الألمانية والقواد الألمان كانوا لايثقون فى الحكومة البلشفية الجديدة ويعتقدون أن الروس لن يتورعوا عن الإنقلاب ضد ألمانيا إذا سنحت الفرصة ، خاصة وأن عملاء الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا كانوا يعملون على إبقاء روسيا فى المعركة .

وإلى جانب هذا وذاك من العوامل التى جعلت القيادة الألمانية تبقى على الجزء الأعظم من قواتها على الجبهة الروسية وإشتداد النقص فى المواد الغذائية الذى كانت تعانى منه ألمانيا تصاعديا بسبب الحصار البحرى المضروب على سواحلها وإن وجدت الحكومة الألمانية فى أوكرانيا مصدراً كبيراً لتموين الشعب الألمانى وجيشه بما يلزمه من هذه المواد كان لابد من وجود عشرين فرقة عسكرية على الأقل لضمان جمع وإعداد المحاصيل والمؤن اللازمة فى أوكرانيا ، حيث كان الاحتلال العسكرى لها هو ضمان إستغلالها .

ومن هذا كله يتبين لنا أن الألمان لم ينقلوا إلا القليل جداً من فرقهم من الجبهة الروسية إلى الجبهة الفرنسية ، وبالتالى لم يحدث تغير جوهرى فى ميزان القوى فى الجبهة الفرنسية عقب إنهيار الجبهة الروسية . خاصة وأن حلفاء ألمانيا كانوا فى حاجة إلى قواتهم لمواجهة الجبهات المسئولين عنها .

وفى هذه الظروف كانت القيادة العليا الألمانية قد أدركت أن قوى ألمانيا قد استنزفتها المعارك خلال السنوات الأربع السابقة . وأنه إذا قيض لها أن تكسب الحرب فذلك لن يتم إلا بتوجيه ضربات شديدة الوطأة على الجيوش الفرنسية والبريطانية الصامدة فى شمال فرنسا وتمزيقها والإستيلاء على باريس وعلى الساحل الشمالى الفرنسى .

ولقد صور لودندورف القائد الألمانى الموقف من وجهة نظره فى ذلك الوقت فقال أن ألمانيا « نزفت دماء ... إلى حد الموت طيلة سنوات أربع ، ولا يمكن أن يستمر الجهد لسنة خامسة . وكاد ينضب عندنا معين الرجال ، بل معين كل شىء : الخيول والبضائع والكيماويات والمعادن والمطاط . ولاتزال النمسا والمجر فى حالة أسوأ من العوز والحاجة . وهى تسير فى طريق الهلاك بشكل واضح . وأخفقت حملة الغواصات العاتية ، وفى أمريكا كميات لاتنفذ من المؤن والذخيرة ، ورجال يغمرون وجه الأرض . وغواصاتنا لاتملك سبيلا للحيلولة بينهم وبين أوربا فى أعداد ومقادير متزايدة . ولكن باب النصر لايزال مفتوحاً أمامنا ، فإن روسيا

قد خرجت أخيراً من الميدان ، ويمكن توجيه قوات ألمانيا بأسرها[1] نحو فرنسا ، ويمكن تعزيز الجبهة الغربية بنحو أربعين كتيبة وأربعمائة ألف جندى ، وبهذه القوة يكون لنا التفوق فى النهاية لقرابة أربعة أشهر . وسنحاول إنتزاع النصر فى نقطة التقاء القوات الفرنسية بالإنجليز ، ونفرق بين جيوشها ونكسب الحرب . فإذا وفقنا فى هذا كله فلن تستطيع أية إمدادات من أمريكا أن تؤثر فى الموقف » .

وفعلا شنت القيادة الألمانية هجماتها خلال الفترة الواقعة بين آذار وتموز (مارس — يوليو) ١٩١٧ فى أربع إتجاهات فى الجبهة الفرنسية :

١ — فى منطقة سان كانتين[2] قام لودندورف — القائد الألمانى الكبير — شق وصل الجيشين الفرنسى والإنجليزى عن بعضهما ، وكانا بقيادة بيتان وهيج . وكان التنسيق بينهما ضعيفاً جداً الأمر الذى أعطى للودندرف فرصة طيبة لتوجيه الضربات إلى الجيشين . إلا أن القيادة العليا للحلفاء أدركت الخطورة الكامنة وراء تعدد القيادات الفرنسية والبريطانية فى الجبهة الواحدة ، خاصة فى حالة تعرض الجبهة لهجوم عام يستهدف الجيوش الموجودة فيها . وفعلا توحدت القيادات وتولاها الجنرال فوش[3] . (آذار — مارس ١٩١٨) وآتت هذه الخطوة أكلها بعد وقت قصير إذ أعد فوش جيوشه فى تخطيط عسكرى موحد ، وتمكنت من مقاومة ثم صد الهجوم الألمانى الذى توقف فعلا فى أوائل أبريل — نيسان ١٩١٨ . حقيقة أحرز الألمان تقدماً كبيراً نسبياً ، ولكن الحقيقة هى أن الجيش الألمانى فى هذه الجبهة فقد منذ ذلك الوقت القدرة على شن هجوم حاسم على جيوش الحلفاء .

٢ — فى أوائل نيسان — أبريل ١٩١٨ شن الألمان هجوماً كبيراً فى جبهة

---

(١) سبق أن ناقشنا هذه المسألة وبينا أن ما نقل من القوات الألمانية من الجبهة الروسية إلى الجبهة الفرنسية كان محدوداً .

(٢) Saint-Quentin.

(٣) Foch.

أرمنتيير ـ (١)لاباس(٢). ومع أن الهجوم الألماني أرغم الجيش الإنجليزي هناك على التراجع إلا أن قدرات الألمان على متابعة الهجوم وهنت بسبب النقص في التموين وعدم كفاءة الجندي الألماني في هذه الجبهة. ثم أن هـذا الهجوم وقع بعد أن كانت القيادة الموحدة في يد فوش قد أصبحت قادرة على مواجهة الهجمات بالنظرة الشاملة للقدرات المتوفرة المتجمعة للفرنسيين والانجليز ولم تلبث القيادة الألمانية أن أوقفت هجومها في هذه الجبهة.

٣ ـ شن الألمان هجومهم في مايو ـ أيار وزحفت جيوشهم حتى وصلت إلى (المارن)، ولـكن استنفد الهجوم جزءاً كبيراً من طاقة الألمان، وتمكن (بيتان)(٣) من وقف التقدم الألماني، ومع أن الألمـان كسبوا مساحة واسعة من الأراضي الفرنسية إلا أن ذلك كان أقصى ما استطاعوه، ومن بعد ذلك لم تكن الجيوش الألمانية قادرة حتى على الدفاع عما كان تحت يدها.

٤ ـ وجه لودندورف هجومه الرابع في منتصف تموز ـ يوليو ١٩١٨ في منطقة شمباني، وشنت القوات الألمانية على المارن هجوماً كذلك. إلا ان فوش قام بهجوم مضاد(٤) أوقف الزحف الألماني ثم أرغم أعداءه على التراجع، كما أن الإنجليز شنوا هجوماً مفاجئاً أجهز على قدرة الألمان على الثبات في مواقعهم فشرعوا في التراجع، وفقدوا عشرات الألوف بين أسير وقتيل.

النتيجة العامة والجوهرية لهذه الهجمات الألمانية والمقاومة الناجحة لجيوش الحلفاء وقدرتها على امتصاص الهجمات المتعددة هي:

١ ـ استنفدت الجيوش الألمانية طاقتها على معاودة الهجوم الجدي، بينما كانت قدرات الحلفاء العسكرية تتصاعد.

---

(١) Armentière.

(٢) Le Bassée.

(٣) القائد الفرنسي Henri Philippe Pétain

(٤) عرف باسم معركة المارن الثانية.

٢ ـ أصبح عنصر الزمن ضد الألمان ، حيث أخذت القوات الفرنسية والإنجليزية تستعد لشن الهجوم فى مختلف الجبهات .

٣ ـ أن الصمود الفرنسى ـ الإنجليزى وعجز الألمان عن كسب الحرب كان قد حدث قبل وصول الجيوش الأمريكية إلى ميادين القتال ومن ثم ستقوم هذه الجيوش الأمريكية لا بإنقاذ جيوش فرنسا وبريطانيا من الجيوش الألمانية ، وإنما لإستكمال هزيمة هذه الجيوش الألمانية .

أعدت قيادة الحلفاء خططا لسلسلة من الهجمات ـ فى أكثر من جبهة ـ على الجيوش الألمانية المتعبة . ولم يعد فوش يفكر فى خطط دفاعية بعد وصول العديد من الفرق العسكرية الأمريكية ، وبعد أن تفوقت جيوش الحلفاء بما أصبح لديها من عدد كبير من الدبابات التى لم يكن لدى الألمان منها إلا قدراً يسيراً . وبعد أن سبر غور المقاومة الألمانية فى عدة هجمات محدودة النتائج شن (فوش) هجومه العام فى أيلول ـ سبتمبر ١٩١٨ فى الوقت الذى تحركت فيه الجيوش المتحالفة على طول الجبهات الأخرى فى اليونان وبلغاريا والشام والعراق . وتهاوت المقاومة فى الجبهات البلغارية والتركية والنمساوية والألمانية . واتجهت دول الوسط إلى طلب الهدنة الواحدة بعد الأخرى .

فلقد أصبح من الخير لهذه الدول أن تتصل بأعدائها للوصول إلى هدنة وتسوية إن أمكن . وكان إصدار الرئيس الأمريكى وودرو ويلسون لنقاطه الأربعة عشر للتسوية المنتظرة من أكبر العوامل التى شجعت دول الوسط على إلقاء السلاح حيث أن هذه النقاط الأربعة عشر كفيلة ـ كما تصور زعماء الدول المهزومة ـ بأن تحافظ على كيان دولهم على الأقل

ولأهمية هذه النقاط الأربعة عشر التى أعلنها ويلسون فى رسالته المشهورة إلى الكونجرس الأمريكى فى الثامن من أكتوبر ١٩١٨ نشير إلى أهم مضمونها :

١ ـ نبذ المعاهدات السرية الدولية . وهذا يجعل حكومة الولايات المتحدة

حرة فى مناقشة كافة الموضوعات التى تتعلق بخريطة أوربا والعالم فى المستقبل بعيداً عما عقدته فرنسا وبريطانيا وإيطاليا من اتفاقات سرية على حساب الخصوم والحلفاء — مثل العرب — فى آن واحد .

٢ — ضمان حرية الملاحة ، وكان هذا يتلاءم مع مصالح الولايات المتحدة التى أصبحت من أكبر الدول الكبرى حجماً فى التجارة الدولية ، وأصبحت قادرة على التفوق عند المنافسة الحرة الدولية . ولهذا نجدها كذلك تطالب بإزالة الحواجز الاقتصادية بين الدول ، والمساواة فى الفرص التجارية على اعتبار أنها هى الرابحة فى مثل هذه المجالات .

٣ — دعا إلى عصبة أمم تتولى الإشراف على المصالح الدولية والعلاقات الدولية بما يكفل عدم وقوع حرب دموية كهذه مرة أخرى .

٤ — طالب بخفض السلاح ، وكان هذا المطلب مقدماً دون أية تفاصيل تشير إلى مدى التخفيض الذى يمكن أن يجريه ويلسون على قوات الولايات المتحدة الامريكية نفسها وحتى ولو أجرى تخفيض متساو فستكون الكلمة العليا كذلك للدول الكبرى على اعتبار أن نسبة تسليحها ستظل مرتفعة ومتفوقة .

٥ — وطالب بأن تنظر الدول الاستعمارية إلى مستعمراتها بعين العدل وأن تراعى مصالح أهل المستعمرات . وعلى ما كان عليه هذا المبدأ من لفتة إنسانية رائعة فهو أقرب إلى الفكر المثالى الذى تعوزه قوة الحق وكان كالسراب جرى نحوه زعماء البلاد المستعمرة لعلهم يحققون عدلا لبلادهم ، ولكن دون جدوى لأن قبضة السلاح بعد الحرب كانت أشد تهديداً عنها خلالها بالنسبة للمستعمرات ثم إن ويلسون كان لا يستطيع أن يفرض رأيه على شركائه الاستعماريين : فرنسا وبريطانيا وإيطاليا .

٦ — بالنسبة للدول المهزومة فقد وضع عدة مبادىء تقضى بالجلاء عن بلجيكا

وفرنسا ، واستعادتها الالزاس واللورين . وعن رومانيا والصرب والجبل الأسود ومراعاة حقوق القوميات عن تسوية مشكلات البلقان ، وضم المناطق الايطالية الواقعة تحت يد النمسا إلى إيطاليا ، ومنح حق تقرير المصير للقوميات التى تتكون منها المملكة الثنائية ، والدولة العثمانية ، وحرية المرور فى المضايق وأوصى بإنشاء دولة بولندة .

وكانت مبادىء «حق تقرير المصير» وتسوية مشكلات أوربا على أساس احترام «القوميات» من أكبر الدوافع التى أقنعت حكومات دول الوسط أن الهدنة والتسوية ستكونان شريفتين ، وأن الخصوم سيكونون معتدلين غير متعنتين . خاصة وأنه كانت انتشرت شائعات قوية جداً فى الدوائر الدبلوماسية الأوربية أن الهدنة لن تكون أساس معاهدة الصلح ، وإنما ستوضع هذه بعد مجادلات ومفاوضات جديدة على أساس مبادىء ويلسون الأربعة عشر .

على أن التدهور العسكرى النهائى لدول الوسط هو — فى الواقع — الذى دفعها إلى طلب الهدنة ، فكيف تم ذلك ؟ .

١ — بلغاريا :

كانت المشكلة الرئيسية التى واجهت بلغاريا هى أنها كانت مكروهة فى البلقان ، وكانت القوات الانجليزية والفرنسية قد اتخذت من سالونيك قاعدة لها ولتجميع القوى البلقانية المناهضة لبلغاريا . ومع أن رومانيا — التى كانت تهدد بلغاريا من الخلف سحقت فى ١٩١٧/١٩١٨ إلا أن كفاءة الجيش البلغارى كانت دون الجيش الانجليزى فى البلقان . وكان ١٩١٧/١٩١٨ عاما لايستطيع فيه حلفاء بلغاريا أن يقدموا معونة مجدية لها عندما يتحرج موقفها مثلما حدث من قبل .

ثم إن كفاءة القيادة فى جانب الحلفاء وقدرتها على تنفيذ خطط جريئة ولكن

---

(١) — Franchet d'Esperey. قائد جيو سالونيك .

سلبية كان له أكبر الأثر فى القيام بهجوم مفاجىء ـ وضع خطته فرانشيه ديسبيرية ـ على الجيش البلغارى أفقده القدرة على الصمود .

وكانت فى صفوف القيادة العامة البلغارية دعوة قوية نحـــو التوصل إلى صلح منفرد مع دول الحلفاء بعد أن ثبت أن النصر أصبح بعيداً ، على أمل أن يكون الحلفاء كرماء فى معاملة بلغاريا مكافأة لها على الخروج عن حليفاتها . ومما شجع المسئولين فى بلغاريا على ذلك ، تلك الاتصالات التى أجراها القنصل الامريكى فى صوفيا .

وبعد اتصالات قصيرة وقعت الهدنة مع بلغاريا فى ٢٩ أيلول ـــ سبتمبر ١٩١٨ ، ولـكن شروطها كانت قاسية لا كرم فيها من جانب الحلفاء حيث اشترطت على البلغار .

(أ) تسريح الجيش البلغارى وتخليه عن عتاده ومعداته .

(ب) طرد الألمان من بلغاريا .

(ج) إحتلال قوات الحلفاء للمواقع الاستراتيجية الهامة باستثناء العاصمة .

أدى استسلام بلغاريا على هذا النحو إلى تعريض كل من تركيا والمملكة الثنائية إلى أخطار داهمة جديدة ساعدت على تقويضهما بسرعة أكبر . كما أن خروج بلغاريا من الحرب قضى على البقية الباقية من الآمال التى كانت لدى القيادة الألمـانية فى الحصول على صمود أشد فى مختلف جبهات القتال . الأمر الذى ساعد على تحطيم معنويات القيادة الألمانية .

٢ ـــ تركيا :

أصبحت قدرات الأتراك على الصمود أمام الجيوش البريطانية فى جبهتى (العراق الجنوبى) و (فلسطين) محدودة ، وكان نشوب الثورة العربية بقيادة الشريف حسين بن على فى ١٩١٦ وتعاونها مع الإنجليز قد أدى إلى أن تصبح الارض التى يعمل عليها الأتراك معادية ، وفصلت بين القوات التركية فى اليمن والقوات الرئيسية التركية فى الحجاز والشام .

وإذا كان عام ١٩١٧ عام استعدادات من جانب الإنجليز لشن هجوم شامل فى جبهتى العراق والشام ، كانت محاولات الأتراك لإخراج العرب من الحرب غير مجدية على الاطلاق رغم نشر نصوص معاهدة سايكس — بيكو[1] التى تقسم الولايات العثمانية العربية بين فرنسا وبريطانيا ، ورغم صدور وعد بلفور .

ونجحت الحملات الإنجليزية فى الشام وفى العراق ، فبينما سقطت العقبة فى ١٩١٧/٧/٦ والقدس فى ١٩١٧/١٢/٩ ، نجد دمشق تسقط فى أول تشرين أول ١٩١٨ وتليها بيروت وتراجعت القوات التركية من بعد ذلك فى اضطراب كبير حتى الأراضى التركية وكذلك سقطت بغداد فى مارس ١٩١٧ وزحفت القوات الإنجليزية حتى اقتربت من الموصل ، وكانت بلغاريا قد استسلمت وأصبحت الأستانة نفسها مهددة فطلبت حكومتها الهدنة ووقعتها فى نوفمبر ١٩١٨ ، وبعد توقيعها استولت القوات الإنجليزية على الموصل الأمر الذى سيسبب مشاكل عديدة حولها من بعد .

٣ — المملكة الثنائية :

كانت إمبراطورية النمسا والمجر منذ هزيمة جيوشها فى موقعة فينيتو قد اعتورها الكثير من الوهن ولجأت إلى الحرب الدفاعية فى الوقت الذى تحول فيه الحلفاء إلى الهجوم ، وفت استسلام بلغاريا فى عضد المملكة الثنائية ، حيث أنها أصبحت مضطرة لأن تحارب فى أكثر من جبهة ، وكان ذلك الفرصة الذهبية التى كانت تنتظرها القوميات المهضومة فشرعت مراكز الثورة فيها فى التجمع وشجعها على التحرك إعلان الحكومة الأمريكية عن رغبتها فى رؤية هذه القوميات وقد استقلت فتناثرت المملكة إلى أشلاء ، وخارت قوى جيوشها التى كان السلاف يكونون جزءاً مهماً فيها ، واضطر الإمبراطور إلى طلب الهدنة التى وقعت فى ٣ تشرين الثانى — نوفمبر ١٩١٨ .

---

(١) نشرتها الحكومة البلشفية بعد نجاح الثورة فى روسيا فى ١٩١٧ .

٤ — استسلام ألمانيا :

كانت القوى الهجومية الألمانية قد أصبحت عاجزة عن القيام بضربة شاملة ،ولم يعد أمام الجيوش الألمانية سوى الدفاع والتراجع(١)أمام القوى الهجومية المتزايدة لدى الحلفاء وزاد من اضطراب القيادة الألمانية أن الجبهة الداخلية بدأت تتداعى، فالتذمر كان يشمل رجال البحرية الذى أمضوا الوقت منذ معركة جتلاند (١٩١٦) دون عمل ، والمتنفذين اليهود حركوا قوى العصيان ، وانتشر التذمر فى المدن الكبرى بسبب النقص الشديد فى المواد الغذائية . واتجهت القيادة العسكرية إلى طلب الهدنة بوساطة الرئيس الأمريكى ويلسون تملقاً بمبادئه الأربع عشرة ، وخاصة مبدأ « حق تقرير المصير » .

كانت القيادة العسكرية الألمانية تعتقد أن الهدنة ستوقع مع إحتفاظ ألمانيا على الأقل بقواتها المسلحة وحكومتها . ولكن ويلسون وضع شروطاً قاسية على الألمان كان عليهم أن يقبلوها إن أرادوا عقد الهدنة . وكانت هذه الشروط تفرض على الامبراطور والقيادات التى تولت أمر ألمانيا خلال الحرب أن تعتزل مناصبها وأن تفسح الطريق أمام حكومة ديمقراطية تتولى التفاهم على الصلح مع الديمقراطيات الغربية المنتصرة . وتم لويلسون ما أرد وتنازل الامبراطور وفر من البلاد(٢)، واستقالت القيادات العسكرية والسياسية وعقدت الهدنة فعلا فى ١١ تشرين ثانى — نوفمبر ١٩١٨ .

أما ماستكون عليه خريطة أوربا بعد توقف القتال واتجاه زعماء الدول المنتصرة إلى عقد مؤتمر للصلح ، فهذا ماسنتناوله بالدراسة فى الفصل التالى .

---

(١) لا شك أن القيادة الألمانية مسئولة عن تدهور قوة الجيش الألمانى بسبب إقدامها على خطط هجومية قدروا لها النجاح فقط ولم يقدروا لها الفشل . فكان صمود الحلفاء سبباق منع الجيوش الألمانية من تحقيق أهدافها وبداية للهزيمة العسكرية :

(٢) بسقوط أسرة هوهنزلرن تكون امبراطوريات وسط أوربا وشرقها قد زالت فى وقت متقارب [هوهنزلرن — هبسبورج — روماتوف] :

الفصل التاسع

نتائج الحرب العالمية الأولى

١ – مؤتمر الصلح (١٩١٩)

معاهدات فرساى وسان جرمان ونايي وسيفر ولوزان .

٢ – عصبة الأمم .

٣ – النتائج الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

٤ – نمو نظرية الدولة الشمولية .

(١)

مؤتمر الصلح ١٩١٩

اختيرت باريس لتكون مقراً لمؤتمر الصلح . وكانت هناك دلالات سياسية معينة لهذا الاختيار وعلى رأسها : —

١ — كانت هناك دعوات إلى إتخاذ جنيف مقراً لمؤتمر الصلح على إعتبار أن سويسرا دولة محايدة ، ولكن الرئيس ويلسون كان يفضل باريس التى كانت حينذاك تعج بالقوات الأمريكية .

٢ — كانت فرنسا هى أكثر الدول المتحالفة خسائراً فى الأرواح والمساكن وفى حجم التخريب المروع الذى تعرضت له مناجم ومصانع ومدن شمال فرنسا التى كانت تصاب بالتدمير خلال العمليات العسكرية وبسبب التدمير الذى كان يتم على يد القوات الألمانية وهى تنسحب من موقع لآخر . فهى أحق بأن يعقد المؤتمر فيها على اعتبار أنها أكبر المضحين فى سبيل (العدالة) .

٣ — كان إختيار باريس مقراً للمؤتمر يمكن كامنصو (العجوز) من تولى رئاسة المؤتمر دون إثارة مشكلات معقدة حول موضوعات الرئاسة .

٤ — إن وجود المؤتمر فى باريس يجعل كلمة الشعب الفرنسى مسموعة بقوة أكثر داخل أروقة المؤتمر .

وقد تأخر انعقاد المؤتمر لبعض الوقت بسبب إصرار الرئيس ويلسون على إلقاء خطابه على الكونجرس فى ديسمبر — كانون أول ١٩١٨ ، وكانت ظروف بريطانيا السياسية قد ساهمت — هى الأخرى — فى تعطيل انعقاد المؤتمر بعض الوقت ، فقد كان (لويد جورج) يصر على أن تجرى إنتخابات جديدة فى بريطانيا حتى إذا

ماانجحت براجه ذهب إلى مؤتمر الصلح مسلحاً بتأييد شعبي وبرلمانى كاملين. وخاصة أنه كانت قد مرت حوالى ثمانى سنوات على بريطانيا دون إجراء انتخابات. وفعلا أجريت هذه الانتخابات فى منتصف ديسمبر.

وخلال هذه الانتخابات ترددت الدعوة إلى « شنق القيصر »[1] الألمانى، وإلى إرغام ألمانيا على دفع تعويضات مناسبة[2]، وكان من سوء حظ ألمانيا أن الفترة الأخيرة من الحرب شهدت أحداثاً إنسانية محزنة، وبوجه خاص إغراق الغواصات الألمانية لباخرة البريد الايرلندية (لنستر) بمن فيها من رجال ونساء وأطفال بلغ عددهم ٤٥٠ نفساً، وكان وقع هذه الكارثة شديداً على نفوس الانجليز الأمر الذى عمق من كراهيتهم للألمان، وزاد من حدة مطالباتهم لحكومتهم بالقصاص من ألمانيا.

وكان أول إنعقاد للمؤتمر فى ١٨ يناير – كانون ثانى ١٩١٩، ووقعت معاهدة فرساى مع ألمانيا فى ٢٨ يونيو – حزيران ١٩١٩ وهو الذكرى الخامسة لحادثة سيراييفو، وكان آخر انعقاد للمؤتمر فى ٢١ يناير ١٩٢٠، وبعد ذلك وقعت معاهدات الصلح مع كل من المجر وتركيا، ولم تستكمل الولايات المتحدة معاهدتها المنفردة مع ألمانيا إلا فى ٢٥ آب – أغسطس ١٩٢١، ومع تركيا لم توضع معاهدة لوزان – المعقودة فى يوليو، تموز ١٩٢٣ – موضع التنفيذ إلا فى أغسطس – آب ١٩٢٤.

حقيقة طالت مدة انعقاد المؤتمر، كما طالت الفترة التى أنجز خلالها توقيع وإبرام المعاهدات النهائية. وذلك لتعدد ولتشعب الموضوعات التى عرضت على مائدة المؤتمر. وكانت الغالبية العظمى من هذه الموضوعات شائكة وذات حساسيات متعددة الجوانب الأمر الذى كان يتطلب إجراء مشاورات مطولة للوصول إلى حل بشأنها.

---

(١) « Hang the Kaiser ».

(٢) « Make Germany Pay ».

اضف إلى هذا أن عدد مندوبى الدول فى المؤتمر كان حوالى السبعين مما كان يزيد من وقت المباحثات وتعقيدها أيضاً .

وكان المؤتمر مكوناً أساسا من دول الحلفاء(١) والدول المشاركة(٢) وقبلت عضوية دول جديدة وهى تشيكوسلوفاكيا وبولنده ، كما حضر مندبون عن هيئات وقوى ذات أثر فى الحرب مثل العرب واللبنانيين والمصريين والأكراد والأرمن والصهيونيين والسكوريين والروس البيض والايرلنديين .

أما الدول التى فرض عليها عدم المشاركة فى مؤتمر الصلح فكانت على أنواع :

١ — الدول المهزومة .

٢ — روسيا .

٣ — الدول المحايدة .

ولاشك أن غياب الدول المحايدة عن المؤتمر يشكل نقصاً خطيراً فى بنائه، حيث كان يجدر أن يكون لها رأى مسموع فيما ستكون عليه خريطة أوربا الجديدة .

أما استبعاد روسيا فكان لخروجها من الحرب من تلقاء نفسها ، وهذا أفاد الحلفاء فى رسم خريطة أوربا الشرقية بحيث تضرب حول روسيا حزاماً يمنع من إنتشار الشيوعية منها إلى بقية أجزاء أوربا .

أما غياب المانيا ، وفرض معاهدة فرساى فرضاً على حكومة الجمهورية الألمانية الجديدة ، فقد أعطى للزعامات الألمانية فيما بعد الفرصة للتنصل من معاهدة لم يكن لهم رأى فى إعدادها .

---

(١) Allies.

(٢) Associated Powers. وهى : كوبا والبرازيل وبنما وجواتيمالا ونيكاراجوا وهندوراس وسيام والصين وليبيريا ، كما أن هناك بعض الدول التى قطعت علاقاتها بدولتى توسط وشاركت فى توقيع بعض المعاهدات .

ووضعت طريقة معقدة لتوزيع عدد المندوبين فى المؤتمر على كل دولة . وكان من الطبيعى أن تحتفظ الدول الكبرى المنتصرة بعدد كبير نسبياً من الأعضاء . ولهذا خصص لكل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة واليابان وإيطاليا خمسة مندوبين . وأعطيت لبلجيكا والبرازيل وصربيا ثلاثة مندوبين ، أما بقية الدول الأخرى فلكل واحدة مندوب فقط .

وحيث أن كل هؤلاء المندوبين كانوا يمثلوا حوالى ٣/٤ سكان العالم ، فيمكن أن نقول أن مؤتمر صلح باريس كان أول مؤتمر صلح عالمى ، مع مراعاة أن مقدرات هذا المؤتمر كانت مركزة فى يد مندوبى الدول الخمسة الكبرى .

وعندما دارت عجلة العمل فى المؤتمر كان المتحكم فى مستقبل الدول المهزومة ، وفى أوضاع الدول المحايدة ، وفى تحقيق مكاسب الدول المنتصرة ثلاثة هم :

١ — كلمنصو Clémenceau .

٢ — لويد جورج Bloyd George .

٣ — وودرو ويلسن Woodronw Wilson .

٤ — أورلاندو Orlando .

وكانت اليابان تكمل عقد « الخمسة الكبار » ولكن دور اليابان كان قصيراً وصغيراً فى مؤتمر الصلح .

ونظراً للدور الهام الذى لعبه هؤلاء الأربعة الكبار — وخاصة كلمنصو ولويد جورج — فنلقى ضوءاً على شخصية كل منهم لكشف قدراتهم واتجاهاتهم .

(أ) كلمنصو :

كان أقوى الأربعة الكبار ، وأشدهم ذكاءاً ، كان يقترب من الثمانين ، دون أن تكل قواه عن المعارضة التى عاش حياته فى خضمها ، كان قوى الأسلوب عميقه ،

لاذع الكلم ، شديد الوطأة على معارضيه ، لا تفتر همته حتى ولو كان خصمه قوى الشكيمة رائع البيان مثل ويلسون أو داهية فى السياسة الأوربية مثل لويد جورج . كانت تجاربه فى الحياة الخاصة والحياة العامة والسياسة الأوربية والدولية كثيرة ومتزاحمة بل ومتناقضة قاسية ، شهد مذلة فرنسا فى ١٨٧٠ — ١٨٧١ ، والضياع الذى خيم على الشعب الفرنسى فى السبعينات والجهود المضنية الحثيثة الخطرة التى سارت فيها فرنسا حتى وقفت على قدميها أمام العملاق الألمانى ، وشهد روعة الصمود الفرنسى أمام الهجوم الخاطف الالمانى فى مطلع الحرب ، وصبر الشعب ، وتضحياته وتفوقه على آلامه والمصائب التى نزلت بمدنه وأرضه الزراعية وأبنائه من عسكريين ومدنيين .

وكان ينظر بألم دفين إلى كون الإمبراطورية البريطانية أوسع وأكبر وأضخم ثروة من الإمبراطورية الفرنسية فضلا عن أن الحرب لم تدر رحاها على الأرض البريطانيه ، وأن خسائر بريطانيا وإمبراطوريتها لا تكاد تعادل نصف ما خسرته فرنسا أرواحاً وعتاداً وثروات . ومع هذا كله كان يرى فى أفق السياسة الدولية خطرين عظيمين على فرنسا ، وهذه المرة من جانب أخوة لفرنسا فى السلاح : بريطانيا والولايات المتحدة . فى الوقت الذى لا يزال فيه الخطر الألمانى على فرنسا غير بعيد ، خاصة — من وجهة نظره — إذا أهملت فرنسا فرض القيود الشديدة على ألمانيا . ولقد كان كلنصو يدرك إلى حد بعيد كم كان ويلسون مثاليا لا يقدر مخاوف فرنسا وآلامها حق قدرها ، ويدرك أن لويد جورج يريد أن يلعب اللعبة البريطانية التقليدية ، وهى أن تظل فرنسا خائفة من ألمانيا حتى تنفرد بريطانيا بالإستيلاء على أكبر قسم من مستعمرات ألمانيا وولايات الدولة العثمانية . وتستطيع أن تتلاعب بكافة الأطراف بما يضمن لها أكثر المكاسب بأرخص التكاليف .

كان (كلنصو) ضليعا فى المشكلات الأوربية وخفاياها ، وكان يدرك بسرعة كل معانى المناورات السياسية التى مهر فيها سياسيو بريطانيا . وساعده على ذلك إتقانه للغة الإنجليزية ، بل كان الوحيد من بين الثلاثة الكبار الذى يتقن اللغات

الثلاث الفرنسية والإنجليزية والألمانية . وكانت واقعيته توقع مثالية ويلسون فى تخبطات مربكة قللت من هيبة الرئيس الأمريكى، وساهمت فى أن يصبح كلنصو ولويد جورج راسما خريطة أوربا والشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الاولى .

ولهذا كان كلنصو شديد اللهجة فى مجادلاته مع ويلسون ولويد جورج، وضاعف من ذلك ثقل السنين عليه، وخيبة أمله فى الإنسانية ، وتفوق الفكر الألمانى الفرنسى عليه تفوقاً لا حدود له .

وهناك ناحية شخصية أثرت فى توجيه المؤتمر إلى سياسات معينة ، فقد كان (كلنصو) يرغب فى أن يختتم حياته ببطولة قومية عظمى فى مؤتمر الصلح وكان يعتقد — وكان اعتقاده صحيحاً — أن الرأى العالمى يقف إلى جانبه ضد ألمانيا ، وأن الفرصة قد حانت لتصبح فرنسا صاحبة حدود آمنة ، وليس هناك من دولة أوربية فى داخل القارة تهددها بالغزو . وكان يرى أنه قد مر على فرنسا زمن طويل وهى تحت خوف الغزو من أكثر من جهة ، وأنه آن الوقت الذى تضع فيه فرنسا أسس سلام دائم يبعد عن فرنسا هذه المخاوف نهائيا إن أمكن .

كانت فرنسا تطالب بالكثير ، ولكن دون إسراف . وتركزت أهدافها فى :

١ — السار :

بحيث تعود حدوده إلى عام ١٨١٤/١٨١٥ ، وكان ذلك مثار جدل عنيف بين كلنصو ولويد جورج الذى حذر زميله من خلق مشكلة إلزاس ولورين جديدة، ومن وجهة النظر الأمريكية كان هذا يعتبر تجاوزاً لمبادىء ويلسون الاربع عشرة حيث أن السار كان ألمانيا بلا شك ، ويجب ـ وفقا لمبدأ تسوية المشكلات على أساس قومى ـ أن يظل ضمن الدولة الألمانية .

٢ — الإشراف على الضفة اليسرى لنهر الراين :

كانت فرنسا تهدف من وراء ذلك إلى خلق حاجز بينها وبين ألمانيا يكون على

الأقل مجرداً من السلاح إن لم يكن تحت إشرافها أو يكون دولة منفصلة عن ألمانيا وبمثل هذه الخطة تفقد ألمانيا الكثير من المصادر الصناعية اللازمة لإستعادتها قوتها العسكرية .

٣ — المستعمرات :

كانت تريد مساحات واسعة جداً من مستعمرات الدولة الألمانية وولايات الدولة العثمانية . وكانت هناك اتفاقيات نظمت إلى حد ما توزيع العراق والشام بين فرنسا وبريطانيا (اتفاقية سايكس — بيكو) ولكن بريطانيا بعد الحرب أخذت فى المماطلة مستندة إلى أنها هى التى تسيطر بجندها على كل تلك المناطق وأخذت تساوم فرنسا على تنازلات جديدة .

ومن هذا كله يتبين لنا كم كانت المناقشات معقدة بين كلمنصو وزميليه . الاستعمارى لويد جورج ، والمثالى الأمريكى ويلسون .

(ب) لويد جورج :

كان سياسياً بارعاً ، تكونت لديه ملكة الجدل نتيجة لسوابق خبرته فى مجال المحاماة، وتنوق فى المناقشات السياسية لخبراته خلال عمله فى البرلمان والوزارة ، واطلاعه الواسع على الشئون العالمية . ولم يمش ، كسياسى فى خط واحد تقريبا مثل كلمنصو الذى كان فى الغالبية العظمى من حياته معارضاً شديد اللسان على خصومه . أما لويد جورج فقد مارس الطرفين النقيضين : المعارضة والموالاة .

كانت حكومته ملكية ومستقرة ، بينما كانت فرنسا جمهورية متأججة . كانت بريطانيا هادئة الأعصاب بعد هذا النصر الكبير ، لأنه لم يكن أول نصر كبير نهائى تحرزه فهناك أوترخت (١٧١٣) وصلح باريس (١٧٦٣) ومؤتمر فينا (١٨١٥) وصلح باريس (١٨٥٦) . أما فرنسا فكان هذا النصر بمثابة تحطيم الأغلال التى ضربت حول المارد الفرنسى منذ قرون وليس منذ ١٨٧٠/١٨٧١ فقط .

كانت سلطانه تستند إلى تشجيع الملك وتأييد الشعب . وكان هو يدرك أن الشعوب قد تطالب بأكثر مما يجب ، بينما كانت هناك ضرورات سياسية تفرض على لويد جورج أن لاينساق وراء مطالب شعبه الكثيرة ، وفى نفس الوقت كان عليه أن يرضى هذا الشعب الذى أولاه ثقته . وبدت هذه الأزمة بوضوح عند التعرض لمشكلة التعويضات وتقليم أظافر ألمانيا ، إذ كان لويد جورج يرى أنه يجب الإبقاء على ألمانيا كقوة رادعة للتفوق الفرنسى [١] ، ويجب وضع تقديرات غير مبالغ فيها للتعويضات التى تفرض على ألمانيا . وهنا واجه لويد جورج ضغوطاً شديدة من جانب زعماء بريطانيا بل وكذلك تعرض لنقد شديد من جانب كلمنصو فى هذه المسألة ، وكذلك بسبب مطالبة لويد جورج بأن لايطبق التجريد من السلاح على ألمانيا وحدها ، وإنما طالب بأن يطبق على الجميع إذا أريد للسلام أن يستتب .

وكانت المطالب البريطانية مركزة فى خارج أوربا ، أما بالنسبة لخريطة أوربا الجديدة فكان لويد جورج فى حقيقة الأمر هو المخطط لها وهو المسئول مع كلمنصو، وإلى حد ما مع ويلسون ، عن رسمها على النحو الذى ظهرت عليه فى ١٩١٩ — ١٩٢٠ ، ذلك الشكل الذى ساعد على وقوع الحرب العالمية الثانية .

(ج) وودرو ويلسون [٢] :

الغالبية العظمى من المؤرخين يضفون عليه لقب الرجل المثالى فى مؤتمر الصلح، فمبادؤه الأربع عشر هى التى جعلته يأخذ هذا الطابع ، ولكن مثاليته كانت موجهة نحو أوربا أما سياسته فى أمريكا الشمالية وأمريكا اللاتينية فكانت تتهم بأنها «سياسة الدولار » وهى سياسة واقعية جداً تستهدف تحكم حكومة وشنجتن فى اقتصاديات — وبالتالى فى سياسات — دول أمريكا اللاتينية . وتنقل ويلسون بين هذه

---

(١) ستصبح ألمانيا بعد ذلك فى نظر الإنجليز ليست رادعاً لفرنسا فقط ، بل كذلك ضد انتشار الشيوعية من روسيا .

(٢) Woodrow Welson. (١٨٥٦ — ١٩٢٤).

الواقعية وتلك المثالية هو الذى جعله يفقد اتزانه أمام كلمنصو ـ الشديد الواقعية ـ ولويد جورج المرن .

كان ويلسون قد اشتهر بقدراته الخطابية ، إلا أنه لم يتمتع بدقة القانونى عند وضع الكلمات فى نصوص المعاهدات . ولعل هذا كان راجعا إلى تركيزه على المبادىء لا على المشكلات الواقعية نفسها . إلا أن بعد نظره فى الشئون العالمية أعطاه مركزاً عالياً كسياسى قدير ، وبوجه خاص دعوته إلى « عصبة للأمم » التى جاءته نتيجة لتخصصه فى العلوم والسياسة . وذلك أيضا لأن السياسى الأمريكى ينظر إلى المشكلات الدولية بصفة عامة ، والمشكلات الأوربية بصفة خاصة ، من بعيد بشكل يجعله يرى النظريات أكثر وضوحاً من المشكلات الملحة . ومن هنا اهتزت مبادئه الأربع عشر أمام مشكلات أوربا المعقدة . وكان هو مسئولا عن تعلق الشعوب المهضومة بمبدأ تقرير المصير ، وعن خيانته لهذه الشعوب وتركها فى مواجهة عملاقين استعماريين كبيريين منتصرين لا رادع لهما إلا ما بينهما من خلافات .

وحيث إن ويلسون كان يمثل بلدا يتبع الديمقراطية البرلمانية ، فإنه كان عرضة لفقد منصبه عقب فوز الحزب المنافس له . وفعلا عندما أجريت انتخابات الكونجرس فى نوفمبر — تشرين ثانى ١٩١٨ ربحها الحزب الجمهورى ، فأصبح مركز ويلسون دقيقا حيث أن زميليه (لويد جورج وكلمنصو) كانت تسندهما أغلبية برلمانية وأغلبية فى الرأى العام .

ويفسر بعض المؤرخين مبالغة ويلسون فى إبراز أهمية نظريته الخاصة بعصبة الأمم ، وبذله الجهود الكبيرة جداً من أجل الحصول على موافقة زميليه عليها ، بأنها نتيجة لذلك الخذلان الذى منى به فى الانتخابات . إذ أراد أن يعود إلى بلاده وفى الوفاض شىء . ويذهب بعض هؤلاء المؤرخين إلى أن ويلسون بلغت به اللهفة على ظهور « عصبة الأمم » إلى عالم الحقيقة أن ضحى ببعض من مبادئه السامية حتى يحصل على موافقة كل من بريطانيا وفرنسا على تكوين هذه العصبة .

(د) أورلاندو[1]:

كان أورلاندو قد تولى رئاسة الوزارة الإيطالية[2] فى أصعب الظروف وأدقها فى أعقاب نكبة كابوريتو[3]. واستطاع أن يدير دفة الأمور حتى النصر النهائى، ولكن الأمور فى داخل إيطاليا كانت لا تمكنه من أن يكون طليق اليد فى مناورات مؤتمر الصلح بسبب الخلافات الجوهرية التى كانت بين الأحزاب الإيطالية. وكانت إيطاليا أكثر البلاد الأوربية تأثراً بنكبات الحرب بسبب ضعفها فى مجالات الصناعة ونقص المواد الأولية بها. وكان برلمانها غير قادر على إتخاذ مواقف حاسمة إزاء القضايا الكبرى، وتعرضت الحكومة الإيطالية لهجمات اليمين واليسار على السواء، وإنتشرت الإضرابات فى معظم البلاد.

وكانت تطلعات الشعب الإيطالى إلى مكاسب بلاده من الحرب بعيدة جداً. وكانت ذكريات الإمبراطورية الرومانية وعظمتها أقوى من أن يكتشف الإيطاليون حينذاك حقيقة قدراتهم إزاء الدول الكبرى الأخرى المنتصرة. وكان أورلاندو يشعر بضعف موقفه داخل مؤتمر الصلح، ويعانى جداً من ثقل الضغوط الشعبية والسياسية عليه من أجل الحصول على مكاسب عظمى فى مؤتمر الصلح.

ثم إن علاقته برفقائه (ويلسون وكلمنصو ولويد جورج) غير طيبة، وخاصة مع زميليه الأمريكى والفرنسى. فقد كان كلمنصو يحتقر إيطاليا والدور الهزيل الذى لعبته فى الحرب، وكان ويلسون مزوراً عنها لا يعطيها قدرها المناسب وكان لويد جورج يعطف عليها عطفاً إنجليزياً خاليا من الوعود. والسبب فى هذه المواقف ليس وليد العاطفة والهوى وإنما وليد متطلبات الأمن للدولتين الفرنسية والإنجليزية.

---

(١) Vittorio Orlando. (١٨٦٠ـ ١٩٥٢) وهو صقلى وكان حقوقياً ممتازاً.

(٢) كان ملك إيطاليا حينذاك فيكتور عمانويل الثالث.

(٣) أنظر فيما يلى سبق ص.

فإيطاليا قبيل الحرب العالمية الأولى أصبحت إمبراطورية تجاور مستعمراتها مستعمرات كل من فرنسا وبريطانيا فى شمال افريقية وفى شرق افريقية ، وهى إلى جانب هذا أصبحت — بعد هزيمة ألمانيا والمملكة الثنائية — الدولة الأوربية التالية لفرنسا فى داخل القارة الأوربية . ولها الكثير من الميزات الاستراتيجية، فهى تستطيع أن تمد إحدى يديها إلى قلب القارة وأن تمد الأخرى إلى شمال أفريقية . وفوق هذا وذاك فالريفييرا الفرنسية إمتداد للايطالية ، وصقلية على الطريق بين فرنسا والشام الذى كان من نصيب فرنسا بمقتضى اتفاقيـة سايكس — بيكو ١٩١٦ .

ومن هذا كله نستطيع أن نفسر موقف كلمنصو العنيد إزاء (أورلاندو) ونائبه فى المؤتمر (سونينو)(١) .

وزادت من حدة الأزمات بين ممثل إيطاليا والكبار الثلاث أن الاتفاقات السرية المعقودة بين دول الوفاق وإيطاليا خلال الحرب لاقت معارضة شديدة من جانب الرئيس الأمريكى وودرو ولسون فى مؤتمر الصلح وأن بعض هـذه الاتفاقيات السرية كان لايحترم الحقوق القومية ، ومن ذلك أن إتفاقياتها مع دول الوفاق كانت تهدف إلى التوسع فى الأرض البلقانية بغض النظر عن جنسية السكان ، ولهذا لقيت معارضة شديدة من جانب ويلسون وكلمنصو حتى اضطر أورلاندو إلى إلى مغادرة مؤتمر الصلح تاركا « سونينو » ممثلا لبلاده فيه .

كانت المشكلات التى تقرر أن ينظر فيها مؤتمر الصلح عديدة ومعقدة ، وكانت أكثرها دقة تلك المشكلات المتعلقة بخريطة أوربا الجديدة والمطالب المتضاربة التى كانت تتنازع هذه القطعة من الأرض أو تلك . ولهذا تشكلت عدة لجان لدراسة المشكلات المعروضة . ولكن الحقيقة التى ظلت راسخة بمرور الوقت — خلال انعقاد المؤتمر — أن الثلاثة الكبار « لويد جورج » و « كامينصو » و « ويلسون »

---

(١) Sonnino

م الذين كان لهم الكلمة العليا فى رسم تلك الخريطة، وخاصة لويدجورج وكلمنصو إذ توخى كل واحد منهما أن تكون تلك الخريطة متمشية مع مصالح بلده أولا . وتم لهم ذلك فى سلسلة من المعاهدات فرضوها على الدول المهزومة وهذه المعاهدات هى :

١ ـ معاهدة فرساى[١] مع ألمانيا (٢٨ يونيو ١٩١٩) .

٢ ـ معاهدة سان جرمان[٢] مع النمسا (سبتمبر ١٩١٩) .

٣ ـ معاهدة نانى[٣] مع بلغاريا (٢٧ نوفمبر ١٩١٩) .

٤ ـ معاهدة تريانون[٤] (٤ يونيو ١٩٢٠) .

٥ ـ معاهدة سيفر[٥] مع تركيا ولكن عدلت بمعاهدة لوزان (٦).

معاهدة فرساى :

فى معاهدة فرساى اعترفت ألمانيا بمسئوليتها عن إشعال نيران الحرب ، ولكن كانت الشروط التى تضمنتها هذه المعاهدة مثار جدل طويل بين الدول المنتصرة . وكانت تسوية المسائل المتعلقة بألمانيا هى الأكثر أهمية ، رغم أن العديد منها لم يتطلب سوى القليل من الوقت للوصول إلى قرار نهائى بشأنها . فقد استعادت فرنسا الألزاس واللورين . وحصلت على استغلال فحم السار لمدة خمسة عشر عاما

---

(١) Treofy of versailles

(٢) St. Germain

(٣) Neuilly

(٤) Trianon

(٥) Sévré (1920)

(٦) Lousanne (1923)

تدير عصبة الأمم خلالها هذا الإقليم على أن يتحدد مصيره باستفتاء عام يجرى فى ١٩٣٥ .

أما فيما يتعلق برغبة فرنسا فى السيطرة المباشرة على أراضى الضفة اليسرى لنهر الراين ، فكانت دواعى الأمن العسكرى تدعوى كلمنصو إلى الإلحاح على تحقيق هذا المطلب ، إلا أن ويلسون ولويد جورج رفضا الموافقة على ذلك واكتفيا بتجريد منطقة الراين إلى عمق خمسين كيلو مترا من السلاح ، ولم يقبل كلمنصو بهذا إلا بعد أن وعده ويلسون ولويد جورج بتقديم مساعدة انجلو — أمريكية مشتركة لفرنسا فى حالة وقوع هجوم ألمانى عليها . واكتفى كلمنصو بهذا الوعد الدبلوماسى . إلا أن التطورات أفقدت هذا الوعد قيمته وبسرعة غير منتظرة ، فقد رفض السناتو الأمريكى إبرام معاهدة الصلح ، وبالتالى لم تعد حكومة الولايات المتحدة مسئولة عن ذلك الوعد ، وانتهزت بريطانيا هذا الحادث وأعلنت أن عدم تمسك حكومة الولايات المتحدة بوعد ويلسون لكلمنصو يجعلها — هى الأخرى — فى حل من تعهدها سالف الذكر . وبدا كأن فرنسا خدعت خديعة مروعة ستؤثر فى توجيه سياساتها الخارجية بعد ذلك .

أما الحدود الدنمركية — الألمانية فقد تقرر تعديلها عن طريق استفتاء فى فى شلزويج يحدد مصيرها وقد أجرى الإستفتاء وأدى إلى انضمام الجزء الشمالى منها فقط إلى الدنمرك وظل الباقى — وهو القسم الأصغر من شلزويج — جزءاً من ألمانيا .

وفقدت ألمانيا لصالح بلجيكا :

١ — أوبن (١) .

٢ — ماليدى (٢) .

---

(١) Eupen

(٢) Melmédy

وحصلت بولنده على مساحات من الأرض الألمانية ذات قيمة إقتصادية كبيرة على النحو التالى :

١ — الممر البولندى . ويضم بروسيا الشرقية وبوزن المنتهى على البلطيق بمدينة دانزج الألمانية تماما ، والتى أصبحت ميناء حراً تديره عصبة الأمم . وبذلك تكون بولنده قد أوجدت لنفسها منفذاً على البلطيق ، ولكنها فى سبيل ذلك أضرت بألمانيا ضرراً بليغاً للغاية ، حيث أن الممر البولندى هذا قسم ألمانيا إلى قسمين هما : بروسيا الشرقية وألمانيا . ومن الناحية الثانية كانت مدينة دانتزج ألمانية شعبا واقتصاداً وتاريخاً ، ويتعارض فصلها عن ألمانيا مع مبدأ وحدة القوميات .

٢ — تقرر إجراء إستفتاء فى سيليزيا لتحديد تابعيتها ، وبعد إجرائه انضمت سيليزيا العليا (جنوب سيليزيا) إلى بولنده بما فيها من مناجم فحم عالية الإنتاج ، بينما احتفظت ألمانيا بثلثى سيليزيا .

وبصفة عامة كانت مكاسب بولنده على حساب ألمانيا تضر بالأخيرة ضرراً بليغا ، فلا غرو إن كانت المنازعات بين ألمانيا وبولنده هى السبب المباشر لاندلاع الحرب العالمية الثانية .

وحصلت تشيكوسلوفاكيا — الدولة الجديدة — من ألمانيا على منطقة صغيرة قرب تروبو[١] .

وكان ميناء مميل[٢] — الألمانى السكان — عرضة لمطالبات لتوانية[٣] شديدة ، حتى لقد نفذ الليتوانيون — الذين يعتبرون مميل منفذاً لدولتهم الجديدة — خطة للاستيلاء عليه عنوة فى ١٩٢٣ ، وحتى لاتتسع المشكلة قرر الحلفاء وضع نظام دولى

---

(١) Troppau

(٢) Memal

(٣) Lithuania واحدة من ثلاث دول بلطيقية ظهرت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وحاليا ضمن الاتحاد السوفيتى منذ يوليو ١٩٤٠ .

(لميل) ، كان واحداً من النظم الدولية المعقدة التى ظهرت فى بعض المدن الهامة بعد الحرب العالمية الأولى .

أما فيما يتعلق بالمستعمرات . فقد جردت ألمانيا منها . واقتسمتها فرنسا وبريطانيا بصفة أساسية وشاركت فى الأسلاب — ولكن بدرجات أقل — كل من بلجيكا واتحاد جنوب أفريقية واستراليا ونيوزيلنده واليابان على النحو التالى :

١ — اقتسمت فرنسا وبريطانيا الكمرون .

٢ — حصلت بريطانيا على الإنتداب على تنجانيقا وتوجولاند .

٣ — تولى اتحاد جنوب إفريقية الانتداب على جنوب غرب إفريقية

٤ — حصلت اليابان على جزر المحيط الهادى الواقعة تحت السيطرة الألمانية وهى جزر مارشال وكارولينا وماريان ، وورثت المناطق الألمانية فى الصين (كياو ـ تشاو فى شبه جزيرة شانتونج) .

٥ — وورثت استراليا منطقة غينية الجديدة بجزرها . وانتدبت نيوزيلنده على جزر ساموا .

٦ — سحبت من ألمانيا كافة الإمتيازات التى كانت لها فى المغرب والصين وسيام وأفريقية الإستوائية .

٧ — نزع سلاح قناة كييل وتقرر حيادها .

وحيث أن الضمان الحقيقى — بالنسبة لدول الحلفاء لإستمرار تنفيذ هذه الشروط هو منع ألمانيا من معاودة الإنتقام — والإبقاء عليها ضعيفة من الناحية العسكرية فقد فرضت معاهدة فرساى على ألمانيا :

١ — أن لا يزيد تعداد جيشها عن مائة ألف مقاتل يجمعون بالتطوع حيث التجنيد الإجبارى أصبح محرماً على ألمانيا كما أشرف الحلفاء على التعليم العسكرى

٢ — أن لا تستخدم القوات المسلحة الألمانية الدبابات أو الطائرات الحربية وحدد الانتاج الحربي .

٣ — تسليم أسطولها الحربي وأن لا يزيد أسطولها الحربي في المستقبل عن ست قطع لا تزيد حمولتها عن عشرة آلاف طن ، وإلى جانبها عدد محدود من القطع الصغيرة الحربية .

٥ — تدمير القاعدة البحرية الألمانية في هليجولاند[1] ، وبذلك تكون بريطانيا قد ضمنت عدم قدرة البحرية الألمانية على استعادة قوتها .

٦ — عدم إقامة تحصينات على الشاطىء الأيمن لنهر الراين .

وفرضت على ألمانيا تعويضات غير محددة تدفع لدول الحلفاء عما أصابها من تخريب وخسائر والقيت تبعة كل هذا على ألمانيا ، وحتى ترغم ألمانيا على دفع هذه التعويضات تقرر احتلال أراضي واقعة على الضفة اليسرى لنهر الراين لحين تسديدها كي لا تماطل ألمانيا في تنفيذ شروط المعاهدة .

وكانت مشكلات «التعويضات» واحدة من أعقد ما جادل فيه الكبار الثلاث . كانت فرنسا مسرفة في مطالبها وكانت بريطانيا — رغم اعتدال لويد جورج تطالب بالحصول على قدر كبير من التعويضات ، وكان ويلسون يرى عدم شرعية هذا الإسراف في المطالبة بالتعويضات عن الخسائر المدنية والعسكرية على السواء .

وبلغ التهور في المطالبة عندما وضع بعض خبراء المال تقريراً طالبوا فيه ألمانيا بدفع ٢٤ ألف مليون جنيه استرليني مؤكدين قدرتها على ذلك ، ورد الاقتصادي المالي الكبير البريطاني (كينز)[2] بأن قدرات ألمانيا لا تتعدى ألفي مليون فقط[3] .

---

(١) Heligoland وكانت قد حصلت عليها ألمانيا من بريطانيا في الثمانينات من القرن التاسع عشر في مقابل حصول بريطانيا على منطقة ويتو witto في شرق أفريقية .

(٢) Keynes.

(٣) فرضت معاهدة فرساى على ألمانيا تسليم الجانب الأكبر من أسطولها التجارى وتعرضت لأزمة إقتصادية مروعة .

وأدرك كل من لويد جورج وويلسون أنه لابد من إبعاد قضية التعويضات عن تأثير الرأى العام المتطرف فى كل من فرنسا وبريطانيا. ونجحا فى إحالة الموضوع إلى لجنة[1]، وفهم الرأى العام أن وراء هذه اللجنة جهوداً لزيادة قيمة التعويضات بينما كان ويلسون ولويد جورج يهدفان إلى إنقاصها.

وعلى أى حال نقدت ألمانيا الكثير من قدرتها العسكرية ومنعت من تطويرها، ونقدت عشر سكانها وجانباً كبيراً من مناجم الفحم والحديد، وأصبحت مدينة للحلفاء بتعويضات ضخمة لاتدرى إلى أى مدى خيالى ستصل إليها الأرقام الفرنسية بالذات.

مماهدة سان جرمان (١٠ سبتمبر ١٩١٩).

كانت الدعوة إلى استقلال القوميات تعنى تفككك إمبراطورية النمسا والمجر تفككاً كبيراً. وقد وافقت النمسا فى معاهدة سان جرمان على مبدأ حق تقرير المصير للقوميات. وكان أول مظهر له هو انفصال النمسا عن المجر، ثم ثورة كل قومية وعملها على الاستقلال بنفسها. فكان أن ظهرت يوغوسلافيا[2] التى أصبحت مؤلفة جغرافيا من الصرب والبوسنة والهرسك ودلماشيا والجبل الأسود وكرواتيا حتى أعالى نهرى الساف والدراف، وعنصريا كانت تتكون من ثلاث عناصر: الصرب والكرواتيون والسلوفين. والأخيران كاثوليكيان بينما الصرب أرثوذكسية.

وظهرت تشيكوسلوفاكيا[3] وتعدادها ١٣ مليون بسلخ بوهمياومورافيا وسيليزيا النمساوية وأجزاء من النمسا السفلى. ولكنها لم تكن دولة متجانسة العنصر وإنما كانت تضم أقليات عديدة على النحو التالى:

(ا) ٣ مليون نسمة يتكلمون الألمانية، خاصة فى السوديت الألمانى و٧٠٠,٠٠٠ نسمة من المجريين.

(١) Reparations Commission انظر تفاصيلات أكثر عن مشكلة التعويضات فى الفصل الخاص بألمانيا من حكومة فيمار إلى النازية.

(٢) Yugoslavia

(٣) Czechoslovakia

(ب) مئات الألوف من البولنديين ومن الروثينيين .

واتسعت رومانيا على حساب جاراتها المجر والنمسا وروسيا . فاستولت من الأولى على ترانسلفانيا ومن الأخيرة على بوكوفينا ومن الثانية على بسارابيا .

وتنازلت النمسا لإيطاليا عن تريستا وإيستريا والتيرول وممر برنر الاستراتيجي بما فيه من ألمان فى الأديج الأعلى وكانت إيطاليا تطالب بميناء (فيومى) الذى احتله الشاعر الايطالى دانونزيو عنوة حتى سويت المشكلة مع يوغوسلافيا .

وهكذا أصبحت النمسا واحدة من دول شرق أوربا الصغيرة . إذ فقدت معظم مساحتها ورعيتها ، وحتى لا تضمها ألمانيا نص على منع إندماجها فى ألمانيا . .

معاهدة تريانون (٤ يونيو ١٩٢٠) :

وكانت خسائر المجر بمقتضى معاهدة تريانون أقل فداحة ، وإن اشتركت مع النمسا فى أنهما أصبحتا دولتين لا منافذ لهما على البحار . وقد فقدت المجر ثلثى أراضيها وتقريبا نصف سكانها لصالح رومانيا وتشيكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا .

معاهدة نايى (نوفمبر ١٩١٩) :

الدولة المهزومة الوحيدة التى لم تفقد الكثير من أراضيها هى بلغاريا ، حيث أعيدت إلى حدودها التى كانت عليها فى ١٩١٤ ، على اعتبار أنها خسرت الكثير من الأراضى فى حرب البلقان الثانية (١٩١٣) . وكانت الخسارة الرئيسية التى منيت بها مركزة فى تنازلها عن تراقيا الغربية لليونان . وأكدت معاهدة نايى هذه التسويات مع بلغاريا .

معاهدة سيفر (أغسطس ١٩٢٠) :

أما فيما يتعلق بالدولة العثمانية فقد أصبحت قاصرة على تركيا بعد أن إحتلت الجيوش البريطانية العراق حتى الموصل والشام حتى حلب . وسيطرت قوات الحلفاء على المضايق .

وفرضت على تركيا معاهدة سيفر (آب — أغسطس ١٩٢٠) ، وبمقتضاها وضع نظام خاص بالملاحة التجارية والحربية والطيران المدنى والعسكرى

خلال أوقات السلم أو الحرب[1] . وتنازلت تركيا لليونان عن كل مالديها فى أوربا فيما عدا القسطنطينية ومنطقة صغيرة على طول المضايق وبحر مرمرة بعمق يحول دون أطلالة يونانية على المضايق ، واستقلت أرمينيا ، وتولت اليونان — التى حصلت من تركيا على جزر بحر ايجه — أمر الإشراف على منطقة أزمير وماحولها ووضعت منطقة أضاليا تحت الإشراف الايطالى . كما تخلت تركيا عن حقوقها فى ولاياتها العربية ووضعت سوريا ولبنان تحت الإنتداب الفرنسى ، والعراق وفلسطين وشرق الأردن تحت الإنتداب الإنجليزى ، بينما أصبحت الاراضى الحجازية مستقلة تحت حكم الملك الحسين بن على .

معاهدة لوزان (٢٤ يوليو ١٩٢٣) :

على أن الذى وقع على معاهدة سيفر هو السلطان العثمانى ، بينما كانت الحركة الوطنية التركية بزعامة مصطفى كمال (اتاتورك) ترفضها وترفض التفريط فى أى شبر من الاراضى التركية ، وأعاد تكوين القوات التركية ، وقاتل اليونانيين حتى دحرهم ، وظل وراء الفرنسيين والإيطاليين حتى تخلوا عما كان تحت يدهم من أرض تركية ، وأخيراً توصل أتاتورك إلى معاهدة لوزان (٢٤ تموز — يوليو ١٩٢٣م) التى أنهت حالة الحرب وحددت الحدود مع بلغاريا واليونان ، ودعت إلى تحديد الحدود التركية — العراقية ، والتركية — السورية ، ووافق الحلفاء من جانبهم على إلغاء الإمتيازات الأجنبية . وفى نفس اليوم وقع « ميثاق المضايق » الذى يضمن حرية المرور فيها زمن السلم والحرب ونظم مرور القوات البحرية والجوية المسلحة عبرها زمن السلم والحرب ، وتألفت لجنة دولية للاشراف على سير العمل فى المضايق طبقا للميثاق الخاص بها .

وبمقتضى هذه المعاهدة أيضاً جلت القوات الفرنسية والبريطانية والإيطالية عن الأراضى التى كانت تحتلها من الجمهورية التركية الجديدة .

(1) J. Hurewitz, Diplomacy in the near and Middle East princeton: 1958, Vol II, : 123

إلى أى مدى كانت هذه التسويات عادلة ؟

لقد دار جدل طويل حول هذه المسالة ، وتضاربت الاحكام ، وسيطرت على هذه المناقشات فى كثير من الأحيان الأهداف القومية الخاصة . وبصفة عامة يمكن أن نضع الملاحظات التالية عن هذه التسويات :

١ — اعتبر الألمان أن الحلفاء غرروا بهم ، فما أن ألقوا السلاح حتى ظهر لهم أن الحلفاء سيعاملونهم معاملة المغلوب ، وهذا ما حدث فعلا بل أشد منه ، حيث كان من المتعارف عليه أن يتفاوض المنتصر مع المهزوم ، ويعرض عليه شروطه ويناقشه فيها . أما الحلفاء فقد تدارسوا ما يجب أن يفرض على ألمانيا ثم طلبوا منها توقيع معاهدة فرساى ، ومن هنا وصف الألمان هذا العمل بأنه إملاء المعاهدة عليهم من جانب الحلفاء . واتخذوا من ذلك ذريعة للتخلص من قيودها كلما أمكنهم ذلك ، وبذلك يكون هذا العمل مسئولا إلى حد كبير من تعميق الرغبة فى الانتقام لدى الألمان . فقد قلمت معاهدة فرساى من أظافر ألمانيا ، ووضعت بذور الحرب العالمية الثانية مثلما وضعت معاهدة فرانكفورت (١٨٧١) بذور الحرب العالمية الأولى . فحق تقرير المصير الذى كان أمل الألمان فى استمرار وحدة بلادهم لم يطبق عليهم وتوزع كثير من الألمان تحت حكم تشكوسلوفاكيا وبولنده وفرنسا ،وشطرت ألمانيا شطرين (بروسيا الشرقية ـ ألمانيا) . وكانت محاولات إستعادة هؤلاء تعنى وقوع حرب عالمية جديدة .

٢ — لم تتبع الدول المنتصرة أية خطة لنزع السلاح الدولى ، وبالتالى كان ذلك المشروع ـ فى نظر الألمان ـ مجرد خدعة لتجريد ألمانيا من السلاح دون نزع سلاح بقية الدول الكبرى .

٣ — كانت روسيا غائبة عن هذه المعاهدات ومن ثم لم تراع مصالحها عند وضعها ، بل كانت هذه المعاهدات تميل إلى ما يضر روسيا . ولعل ذلك الموقف المتشدد ضد روسيا يرجع إلى إنتشار الحكم الإشتراكى فى روسيا بسرعة ، وتخاوف الدول الرأسمالية من النظرية الشيوعية .

٤ ــ بدت الولايات المتحدة وكأنها تدافع عن الدول التى وضع لها نظام الإنتداب وبعثت بلجنة كنج كرين إلى الشرق العربى ، وعادت هذه اللجنة لتضع توصيات رائعة ، ولكن ضربت فرنسا وبريطانيا بها عرض الحائط، وعندما حصلت الولايات المتحدة على نصيب من بترول (الموصل) فى شمال العراق ، أوصدت بابها دون الحركات الوطنية التحررية فى المنطقة .

وعلى أى حال وضعت هذه المعاهدات بهدف إستقرار العالم ، وكان ويلسون يرى أنه لابد من منظمة دولية تعمل على المحافظة على إستمرار هذا السلام ، وكانت هذه هى المهمة الأولى لعصبة الأمم[١] .

League of Nations (١)

(٢)

عصبة الأمم

كانت الخسائر الفادحة التى منيت بها أوربا خلال الحرب العالمية وفقدها ملايين البشر من زهرة شبابها[١] ، دافعاً قوياً لأن تشتد حركة البحث عن وسيلة جماعية دولية لمنع تكرار هذه المجزرة البشرية الهائلة التى استمرت أكثر من أربع سنوات . وبادىء ذى بدء ليس وودرو ويلسون هو أول من نادى بفكرة تجمع أوربى للعمل من أجل السلام ، فلقد كان هناك العديد من المفكرين والفلاسفة الأوربيين الذين دعوا على مدى التاريخ الحديث لفكرة التجمع الأوربى . ولكن دون أن تجد هذه النداءات استجابة ــ لا من جانب الحكومات ولا من جانب الشعوب ــ لأنه لم تكن قد ظهرت بعد الحاجة الواضحة إليها .

ومن ناحية أخرى ، ليس ظهور فكرة عصبة الأمم ــ التى روج لها الرئيس ويلسون بكل قوة من عمله هو فقط ، وإنما هى نتيجة منطقية لتطور العلاقات الدولية بمختلف مظاهرها ، وتمدد جوانبها .

فلقد وجدت أوربا نفسها فى أكثر من مرة مضطرة إلى عقد مؤتمرات كبرى لتسوية المعضلات التى يستعصى حلها على دولة أو اثنتين . ومن هذا القبيل :

مؤتمر وستفاليا	١٦٤٨
« فينا	١٨١٥
« اكس لاشابيل	١٨١٨

---

(١) فقدت أوربا حوالى عشرة ملايين من القتلى في ساحات الحرب ونصفهم جرحى .

مؤتمر تروباو ١٨٢٠

« فيرونا ١٨٢٢

« باريس ١٨٥٦

« برلين (المسألة الشرقية) ١٨٧٨

« برلين (تقسيم إفريقية) ١٨٨٤ — ١٨٨٥

« لاهاى ١٨٩٩

« لاهاى ١٩٠٧

« مؤتمر لندن ١٩١٢ — ١٩١٣

وخلال القرن التاسع عشر كثر ظهور الإتحادات والهيئات والسياسات الدولية التى تعنى بموضوعات معينة تغطى مساحات شاسعة من الكرة الأرضية .

ومن ذلك :

— لجنة تنظيم الملاحة الدولية فى نهر الراين .

ونهر الدانوب بمقتضى معاهدة باريس

١٨١٤ ومؤتمر فينا ١٨١٥

— إتحاد التلغراف الدولى ١٨٦٥

— إتحاد البريد العام ١٨٧٤

— المكتب الدولى للموازين والمقاييس ١٨٧٥

— إتحاد حماية الملكية الصناعية ١٨٨٣

— إتحاد حماية الملكية الأدبية والفنية ١٨٨٦

— مكتب النقل الدولى ١٨٩٠

- إتحاد صناعة السكر ١٩٠٢
- المكتب الدولى للصحة ١٩٠٣
- الإتحاد الأمريكى(١) ١٩١٢

وإنه لمن المعروف أن المؤتمرات الدولية تمهد — أو على الأقل تساعد — على ظهور إتحادات وهيئات سياسية دولية تعمل على نطاقات أوسع . ولهذا أعدت تلك المؤتمرات والإتحادات أذهان أوربا إلى تقبل فكرة عصبة الامم فى ١٩١٨ ، ومن ثم كانت نظرية عصبة الامم نقلة بين التجمع الاوربى Eurapean Concert لحل مشكلة من المشكلات ذات الصبغة العامة وتجمع لأغلب دول العالم لمواجهة مشكلات تعرض السلام العالمى للخطر .

وكان اتساع نطاق الحروب من أوربا إلى اليابان إلى أمريكا ، وضخامة حجم التخريب وعدد الضحايا ، وتطلع الكثير من الدول المهضومة الحق إلى الإستقلال، ساعد على وجود استجابة واسعة النطاق لإنشاء « عصبة أمم » .

وإذا أردنا أن نحدد أهم هدف كانت فكرة عصبة الامم تسعى إليه فإننا نجده بسهولة فى « الحفاظ على السلام » وبالتالى التعاون بين الدول على ذلك ، بل وأن تعمل كل واحدة منها بمفردها على الحفاظ على السلم ، وفى نفس الوقت تسهم فى الدفاع عن الآخرين إذا ماتعرضوا الخطر، أو بمعنى آخر فإن فكرة «الدفاع المشترك» أو «الأمن المشترك» كان أحد الركائز الرئيسية جدا فى هذه المنظمة الدولية الجديدة، وكان النجاح فى تطبيقه يعنى نجاح التجربة ، وكان كذلك الفشل فى تطبيقه يعنى إنهيار عصبة الأمم .

وكان ويلسون يرى أن السلام العالمى يتعرض للانهيار بسبب الحكم الأوتوقراطى والإستبدادى وبسبب عدوان الدول الكبرى على الصغرى . ولهذا كان يرى السلام

---

(١) Pan American Union.

فى تخليص العالم من هذه الشرور ، وعبر عن ذلك فى الكلمة التى ألقاها فى مؤتمر الصلح فى باريس فى ٢٥ يناير — كانون ثانى ١٩١٩[١] .

كانت فكرة إنشاء العصبة أهم شىء كرس له الرئيس الأمريكى ويلسون جهوده خلال إنعقاد مؤتمر السلام . وكان يعتقد أنه بالدعوة إليها يتفوق مثاليا على السياسيين الأوربيين الذين اشتهروا بالمؤامرات السياسية ذات الطابع القومى الأنانى ، إذ كانوا ينظرون فقط إلى مصالح الشعب الذى يمثلونه ورفع مستواه حتى لو كان ذلك على حساب الغير . ولكن رغم الجدل الطويل حول طبيعة وشكل هذه العصبة الدولية بين ويلسون ولويد جورج وكلنصو لم ينزل ويلسون إلا قليلا من برجه العاجى بينما لم يستطع لويد جورج أو كلنصو أن يصعدوا إلا قليلا على سلم المثالية الويلسونية ، ولهذا تمخض مؤتمر الصلح عن عصبة أمم براقة ولكن مهزوزة .

وكان ويلسون يريد أن يجعل من عصبة الأمم حجر الزاوية فى أية معاهدة تعقد فى مؤتمر الصلح ، وأن تكون مسألة عصبة الأمم هى الأولى عند مناقشة مشا كل العالم فى ذلك المؤتمر . أما كلنصو فكان يرى أن موضوع عصبة الأمم ليس سوى موضوعاً ثانويا إذا ما قورن بموضوع مستقبل خريطة أوربا ، وكان سبب الخلافات هذه أن العصبة — من وجهة نظر الانجليز — لا تستطيع أن تقوم بمهمة الحفاظ على السلام العالمى ولا بمهمة الدفاع عن الدول ، لأن الحفاظ على السلام

---

(١) «... the select classes of mankind are no longer the governors of mankind. The fortunes of mankind are now in the hands of the plain people of the whole world ... we are here to see, in short, that the very foundations were the private choice of small coteries of civil rulers, and military staffs. Those foundations were the agression of great Powers upon small. Those foundations were the folding together of empires of unwilling subject by the duress of arms. Those foundations were the power of small bodies of men to work their will and use mankind as pawns in a game ».

يتطاب تسليح العصبة بأقوى الجيوش لتواجه الدول الكبرى إذا ما انحرفت إحداها نحو الحرب ، وكان هذا أمراً يستحيل تنفيذه حينذاك ، كذلك تمنى فكرة الدفاع عن سلامة الدول الموقعة على معاهدات مؤتمر الصلح أن هذه المعاهدة ستأخذ صفة الثبات ، بينما أكد ويلسون نفسه أن المعاهدات غير ثابتة والعصبة هي الثابتة، ولكن هذا أزعج فرنسا التي كانت تعترض على فكرة إعادة النظر في مقررات مؤتمر الصلح وذلك لأن فرنسا كانت تريد أن تطمئن على ديمومة مكاسبها منه إلى الأبد .

وعلى أي حال أقر ميثاق عصبة الأمم في ٢٨ نيسان إبريل ١٩١٩ على أساس أنها منظمة دولية تحمى السلام العالمي لا بقوة السلاح ولكن بقوة الرأى العام العالمي ، وبقوة التقاء الدول فيها وارتباطهم المعنوى بميثاق العصبة الذي ينص على عدم اللجوء إلى القوة لتسوية المشكلات التي تظهر بين الدول . وأصبح على الدول الأعضاء أن تلتزم بأهداف العصبة الأخرى وهي :

١ — عدم عقد معاهدات أو إتفاقيات سرية ، وإنما يجب أن تكون علنية .

٢ — العدالة والشرف والنزاهة يجب أن تكون هدف كل معاهدة أو إتفاقية .

٣ — إحترام قواعد القانون الدولي العام في علاقات الدول بعضها ببعض .

٤ — عندما تكون دولة كبرى مسئولة عن إقليم متخلف بواسطة (الإنتداب) يجب أن تعمل الدول المنتدبة على رقى مجتمع الدولة المتخلفة . وكانت عصبة الأمم هي التي أشرفت على نظام (الإنتداب) على الأراضي التي كانت تحت حكم الدول المهزومة (الدولة العثمانية والإمبراطورية الألمانية)(١) .

٥ — وفي مجالات العلاقات الدولية الاقتصادية دعى ميثاق العصبة إلى تأمين حرية النقل والتجارة .

٦ — في المجالات العمالية والاجتماعية دعت العصبة إلى ضرورة رفع مستوى

---

(١) بالنسبة لشعوب الجزر النائية تقرر أن تطبق عليها قوانين الدولة المنتدبة لإنعدام القوانين لديها .

العامل ورفع الإستبداد عنه وإعطائه حداً أدنى من الأجور يجعله قادراً على الحياة الكريمة .

٧ — حماية النساء والصبية من الإستغلال .

٨ — تدبير الوسائل لمكافحة الأوبئة والأمراض

وكان المفروض نظرياً أن تنضم كل دول العالم إلى عصبة الأمم. ولكن هذا لم يتحقق ، وتكون أعضاء العصبة من الدول التي وقعت على الميثاق والدول التي انضمت إليها فيما بعد .

ولتنفيذ تلك الأهداف تشكلت أجهزة إدارية وفنية وتنفيذية لعصبة الأمم على النحو التالي :

١ — الجمعية العمومية (العصبة) :

تتكون من ممثلي الدول الأعضاء[1]، ولكل دولة صوت واحد ، وكانت أهم مسئولياتها الحفاظ على السلام ، ولكن دون أن يكون تحت يدها الإمكانيات الكفيلة بتحقيق ذلك فلم تعط القوة العسكرية لفرض السلام ، ولم تنجح فى مهمة نزع السلاح . ومن هنا كانت سلطاتها محدودة جداً واستشارية . وكان مقرها فى (جنيف) .

٢ — المجلس :

يتألف من مندوبى الدول الكبرى[2] ومندوبى أربع دول أخرى تنتخبهم الجمعية العمومية . ومهمته إعداد الخطط اللازمة للحفاظ على السلام أو أية موضوعات أخرى من مسئوليات العصبة ، وبوجه خاص العمل على حل الخلافات بين الدول

---

(١) اعترضت فرنسا — ونجحت فى اعتراضها — على دخول أعدائها خلال الحرب فى العصبة . ولكنهم لم يلبثوا أن دخلوها ، ولكن لم تلبث ألمانيا أن انسحبت منها ، كما انسحبت من اليابان . وفى مقابل ذلك زاد عدد أعضاء الجدد فيها حتى بلغ عدد أعضاء العصبة ٦٢ دولة .

(٢) الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان .

سلمياً . وقد تولى (المجلس) مسئوليه إعداد النظم واللوائح التى ستسير عليها « محكمة العدل الدولية » .

٣ — الأمانة العامة :

وهى الجهاز الإدارى الدائم باستمرار بعكس (العصبة) أو (المجلس) . والتحق بالعصبة عدة مؤسسات وهيئات دولية جديدة أهمها :

(ا) محكمة العدل الدولية :

كانت هناك مشكلات بين الدول يمكن أن ينظر إليها من الناحية القانونية فقط ، من أجل هذا أنشئت « محكمة العدل الدولية »[1]، واتخذت من لاهاى — فى هولنده — مقراً لها .

(ب) مكتب العمل الدولى[2]:

كان الهدف منه رعاية مصالح العمال ورفع الغبن عنهم ، وإصدار التشريعات التى تحافظ على حقوقهم .

تلك كانت الظروف التى أدت إلى ظهور عصبة الأمم ، والشكل التى ظهرت به ، والأهداف التى تسعى إليها . أما مدى نجاحها وفشلها فإن تطور الأحداث خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية (١٩١٨ — ١٩٣٩) ساعدت على فشل العصبة فى أهم قضية قامت من أجلها وهى قضية السلام العالمى حيث أنها كانت غير قادرة على فرض كلمتها على الدول الكبرى إذا كانت إحداها طرفا فى مشكلة تعرض السلام العالمى للخطر ، وكانت العصبة ناجحة فقط فى العديد من المشاكل التى كانت تقع بين الدول الصغيرة .

فقد فشلت العصبة فى القضايا الكبرى التالية :

١ — استيلاء بولنده — تؤيدها فرنسا — على مدينة (فلنا) الليتوانية .

---

(١) Court of International Justice.

(٢) International Labour Organization

٢ — لم تستطع العصبة انقاذ الصين من عدوان اليابان عليها الأمر الذى أدى إلى الحرب الصينية — اليابانية الطويلة بل لم تعد اليابان تكترث بالعصبة وانسحبت منها فى ١٩٣١ .

٣ — لم تستطع العصبة إنقاذ الحبشة من مخططات إيطاليا الاستعمارية ، حتى استولت إيطاليا عليها .

٤ — وجدت ألمانيا — بعد أن انضمت إلى العصبة — أن فرنسا وبريطانيا توجهان هذه العصبة لخدمة مصالحهما ووجدت أنها غير مفيدة فى جمع شمل الأقليات الألمانية المبعثرة فى بولنده وتشيكوسلوفاكيا وغيرها ، فآثرت الانسحاب منها .

أما القضايا التى أحرزت فيها نجاحا .

١ — النزاع بين فنلنده والسويد حول جزر الاند [1] (١٩٢٠) .

٢ — النزاع بين بولنده وألمانيا حول حدود سيليزيا (١٩٢١) .

٣ — مشكلات الحدود اليونانية البلغارية (١٩٢٥) وبين بيرو وكولومبيا (١٩٣٣) .

وأيا كانت عوامل النجاح والفشل فإن نظرية كلمنصو ولويد جورج بشأن عصبة الأمم هى التى تفوقت وسيطرت على عملها بينما انسحبت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية من العصبة وآثرت العزلة على المشاركة فى السياسات الأوروبية، ففقدت العصبة بذلك القوة التى كانت كفيلة بأن تفرض نفسها على كل من بريطانيا وفرنسا .

---

(١) Aaland

(٣)

النتائج الاقتصادية والاجتماعية والاقتصادية

خلال الحرب العالمية الأولى نفذت الدول سياسة توجيه قدراتها الاقتصادية لخدمة متطلبات الحرب ، وطالت هذه الحرب ، وانهكت معها إقتصاديات أوربا ، وظهرت نظم وأساليب للسيطرة على الإنتاج تخالف كثيراً تلك التى كانت موجودة قبل ١٩١٤ .

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، كان الناس يتصورون أن الانتقال من إقتصاديات الحرب إلى إقتصاديات السلم أمر ميسور . بينما كان فى الواقع أمر معقد جداً ، حتى بالنسبة للدول المنتصرة نفسها. ولهذا ظلت آثار الإنهاك بادية على أوربا لفترة ليست بالقصيرة بعد الحرب .

ومما ضاعف من متاعب ما بعد الحرب ، النقص الشديد الذى منيت به الشعوب المقاتلة فى عدد الشباب العامل الذى سقط الملايين منه فى ميادين الحرب ، بينما كانت أوربا حينذاك فى حاجة إلى مزيد من الأيدى العاملة لإصلاح ماتخرب من الأراضى الزراعية ، وماتهدم من معامل ومصانع بل ومن مدن سوى بعضها — خاصة فى فرنسا — بالأرض .

وحيث أن أعداداً ضخمة من سفن النقل التجارى قد أغرقت خلال الحرب ، وأن طرق المواصلات التى دارت حولها معارك الحرب كانت مخربة ، فقد واجهت أوربا مشاكل معقدة لاستيراد حاجاتها من الخارج . بل إن عملية الاستيراد — الضرورية — كانت هى نفسها تواجه مشكلات مالية معقدة . إذ استنفدت الدول المقاتلة معظم رصيدها من الذهب فى سد حاجاتها العسكرية واضطرها ذلك إلى إصدار أوراق نقد ، سببت هى الأخرى انخفاضا فى قيمة العملة . بينما كانت الأسعار — بسبب ظروف الحرب قد ارتفعت بنسبة عالية . وقد أدت هذه الظروف

الاقتصادية إلى أن تتجه الدول الأوربية ـ بصفة عامة ـ إلى اتباع سياسة (الاكتفاء الذاتى) . وسياسة الإكتفاء الذاتى تؤدى إلى التقليل من حجم التجارة الدولية الأمر الذى أسهم فى تعميق الأزمة الاقتصادية العالمية فى ١٩٢٩ ! ..

وكان ارتفاع الأسعار قد سبب تدهورا فى القيمة الفعلية لدخل العامل ، ولم تستطع الحكومات أن ترفع المرتبات بما يعادل ارتفاع الأسعار ، إلا أن الحاجة الماسة إلى أيدى عاملة بأعداد متزايدة وضخمة لإعادة بناء ماتهدم من مدن ومصانع وإصلاح ماتخرب من أرض أدى إلى ارتفاع أجور العمال بعد الحرب ، ومن ثم كانت الضربة مركزة على أصحاب الدخول الثابتة من أمثال الموظفين وأصحاب العقارات والسندات . وإن ظهر فى مقابل هذا مجموعة من « أغنياء الحرب » أفادوا بالملايين من قيامهم بدور متعهد التموين أو وسيط لشراء السلع والأسلحة .

أما الفلاحون ، فكانت البلاد التى لم تتعرض للمعارك بكثرة لم يتعرضوا لهزات شديدة ، وإن كانت نسبة إنتاج المحاصيل قد قلت بسبب التجنيد العام . أما بعد الحرب فقد أدى نجاح الثورة البلشفية فى روسيا إلى ذعر فى الدول المجاورة ، وسعت حكومات هـذه الدول إلى مقاومة إنتشار البلشفية باتباع أساليب تكسب بها الفلاحين إلى جانبها ، وحيث أن الدعوة إلى تقسيم وتوزيع أراضى كبار الملاك على الفلاحين هى التى جذبت جماهير الفلاحين إلى المشاركة الإيجابية فى الثورة البلشفية ، فقد أسرعت هذه الحكومات إلى توزيع أرض كبار الملاك فيها على الفلاحين ، وحاولت الحكومات ـ قدر الامكان ـ أن تكون عملية التوزيع هذه على حساب كبار الملاك الأجانب .

والجدير بالذكر أنه بالرغم من أن ألمانيا خرجت مهزومة من الحرب ، وأنها فقدت بعض مراكزها الصناعية الهامة ، إلى جانب أسطولها التجارى ، رغم هذا كله لم تواجه ألمانيا مشكلات اقتصادية حادة مثل تلك التى واجهت الدول الأخرى . وذلك لأن الحرب لم تنتقل إلى قلب ألمانيا ، ولأنها كانت ـ خلال الحرب مضطرة للاعتماد على مواردها الذاتية فقط لعجزها عن الاستيراد من الخارج بسبب الحصار

البحرى المضروب عليها ، ولهذا خرجت ألمانيا من الحرب غير مدينة لأحد . ومن ناحية أخرى أدى ذلك الحصار البحرى إلى أن يكتشف الألمان بديلا لبعض المواد التى يلزم استيرادها من الخارج، ومن ذلك استخدامهم المطاط "سناعى، والمواد الكيمائية والبترول التركيبى والحرير الصناعى ، وقد أدت هذه الاكتشافات إلى خدمة اقتصاديات ألمانيا لا خلال الحرب فقط بل كذلك بعد أن وضعت أوزارها ، فأعانت على التخفيف من متاعبَ ألمانيا ومأساتها بعد الهزيمة ، فرنسا وبريطانيا فقط استدانتا بغزارة من الولايات المتحدة . حقيقة فرضت على ألمانيا تعويضات ـ غير محدودة ـ إلا أن الموقف الدولى خفف من ضخامتها وكانت تدفع بالتقسيط وليس دفعة واحدة الأمر الذى لم يعرض ألمانيا لانهيار عقب إنتهاء الحرب .

أما التغيرات الاجتماعية فيجدر أن نشير أولا إلى أن هذه الحرب كلفت الدول المتحاربة تضحيات فى الأرواح ضخمة جداً بالقياس إلى الحروب السابقة عليها . وكانت خسائر روسيا فى الأرواح هى الأكثر فداحة إذ تبلغ أكثر من مليونين ، وخسرت ألمانيا أقل من مليونين بقليل ، وفقدت المملكة الثنائية مليونا وربع المليون ، وأما بريطانيا وإمبراطوريتها ففقدت حوالى المليون ، وزادت فرنسا وإمبراطوريتها عنها بنصف مليون أما الولايات المتحدة فخسرت ١١٥ ألفا ، جزء كبير منهم كان بسبب وباء الأنفلوانزا الذى استشرى فى أوربا عقب الهدنة . وهكذا ذهب ضحية الحرب أكثر من عشرة ملايين كانوا زهرة شباب دولهم ، وأكثر من ضعفهم كان قد سقط جريحا وكتب عليه أن يعيش مقعداً أو عاجزاً حتى آخر حياته .

إن نسبة عدد الخسائر فى الأرواح إلى عدد سكان الدولة يكشف لنا عن أن الآثار التى تعرضت لها روسيا ـ أكثر الدول خسارة ـ أقل نسبيا من تلك التى تعرضت لها ألمانيا أو فرنسا بسبب ضخامة عدد سكان روسيا وبسبب ارتفاع نوعية المواطن الألمانى عن زميله الروسى . ولكن يخفف من هذه الآثار بالنسبة لفرنسا وبريطانيا أن أعدادا ليست بالقليلة من قتلى الحرب كانت من أبناء المستعمرات من غير الأوربيين .

وإذا قورنت الضحايا البشرية للحرب العالمية الأولى بالحرب الكبرى السابقة عليها نجد أنه لم يحدث لأوربا أن تعرضت لمثل هذه الخسائر الفادحة فى الأرواح ويقول الفرنسيون إن فرنسيا واحداكان يقتل كل دقيقة خلال الفترة الواقعة بين نشوب الحرب فى أغسطس ١٩١٤ وشباط ـ فبراير ١٩١٧ .

إن تعرض أوربا لهذه الخسائر فى الثروة البشرية وبين فئة معينة من الشباب بين العشرين والأربعين بالذات أربك كثيراً من المعدلات التى كانت تسود إحصاءات الزواج والتوازن بين تعداد الذكور والإناث والمواليد وأعمار التلاميذ فى المدارس وأعمار اليد العاملة فى بعض السنوات المعينة .

ولتفسير ذلك نشير إلى أن القتلى والجرحى خلال الحرب كانوا من الرجال ، ومن الشباب بصفة خاصة ، بينما كانت الخسائر بين النساء قليلة جدا ، ولاتصيب الفتيات فقط وإنما كافة الأعمار . وبذلك يكون قد اختل التوازن الاجتماعى بين الذكور والإناث ، والجدير بالذكر أن الغالبية العظمى من ضحايا الحرب كانوا من مواليد الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

وكان طبيعياً أن تهبط نسبة المواليد خلال فترة الحرب لإفتراق الأزواج عن زوجاتهم ، وبعد الحرب ارتفعت هذه النسبة بسرعة كبيرة ولدرجات عالية . وأثر ذلك على الحركة التعليمية وعلى اليد العاملة فيما بعد .

فبالنسبة للتعليم واجهت المدارس سنة ١٩٣٠ نقصا فى عـــدد التلاميذ الذين أعمارهم بين ١١ و ١٥ سنة . أما من ناحية اليد العاملة ، فقد وضعت السلطات الفرنسية خطتها لبناء خط ماجينو الدفاعى على أساس أن ينتهى العمـــل فى هذا المشروع فى ١٩٣٥ ، حيث أن المجندين للجيش سينقص عددهم إلى نصف العدد المطلوب فى كل سنة ، وذلك خلال الفترة بين ١٩٣٤ ـ ١٩٣٩ .

أثرت هذه الحرب فى سرعة منح المرأة الكثير من حقوقها فى وقت مبكر عما كان متوقعا ، فقد كانت المرأة تحصل على حقوقها السياسية والاجتماعية ببطء قبل وخلال الحرب . أما بعدها فكان هناك ميل واضح من جانب الحكومات لرفع كثير من القيود السياسية والاجتماعية التى كانت مفروضة عليها . فى بريطانيا تطلبت

الحرب بذل كافة الجهود وحشد كل الطاقات من أجل النصر ، وحيث أن الجيوش استوعبت ملايينا من الشباب أسرعت المرأة إلى أن تحل محله فى الاعمال المدنية مثل العمل فى المصانع والمتاجر وفى دواوين الحكومة والشركات وفى المستشفيات والمدارس ، ومنهن من تطوعن للعمل العسكرى . وبذلك تكون المرأة قد وقفت جنبا إلى جنب مع الرجل فى الكفاح فحق لها أن تحصل على حق الإنتخاب ما إن تبلغ الثلاثين من عمرها . وبذلك تكون بعض الحواجز التقليدية بين الرجل والمرأة قد أخذت تذوب .

وكما ضعفت الحواجز بين الرجل والمرأة فى بريطانيا بسبب ظروف الحرب قللت هذه الظروف كذلك من الفوارق بين البرجوازية الغنية والطبقة الكادحة . بسبب إتفاق الجميع على العمل من أجل هدف واحد هو النصر النهائى على العدو ، وكانوا أخوة سلاح داخل الخنادق الرطبة فى شمال فرنسا .

(٤)

نمو نظرية الدولة الشمولية

يعتبر ظهور الشيوعية ، ووقيام إتحاد جمهوريات السوفييت الاشتراكية ونجاحها فى توطيد دكتاتورية البروليتاريا(١) ، وظهور الفاشستية فى إيطاليا والنازية فى ألمانيا وتوطيدها دكتاتورية الزعيم : بنيتو موسولينى(٢) وأدولف هتلر(٣) وإنتصار دكتاتورية فرانكو فى أسبانيا ودكتاتورية سالازار فى البرتغال ، وانتشار تقليد مثل هذه الدكتاتوريات فى البلاد غير الأوربية . كل هذا كان يوحى بأن تياراً قوياً سياسياً كان قد غادر الديمقراطية وجرف الكثيرين من المسئولين عن النظم السياسية والجماهير فى بعض البلاد الى الأخذ بنظرية الدكتاتورية :

وقد دأب بعض المؤرخين الانجليز والفرنسيين والأمريكيين على جمل الدكتاتورية لدى السوفييت وتلك الدكتاتورية الفاشستية والنازية على قدم المساواة ، ولكن يجب التفرقة بين دكتاتورية طبقة وحزب ، ودكتاتورية ثورية فردية . ومن ناحية ثانية نجد الحزب فى السوفييت له قوته فى فرض سياسة على الزعيم بعكس الحال لدى الفاشست والنازى . ولكن مثل هذه الفروق لم تكن واضحة فى البداية .

والواقع أن هذا التحول عن الديمقراطية الغربية نحو الدكتاتورية كاد أن يكون تياراً واضحاً خلال الحرب العالمية الأولى لمواجهة ظروفها حتى فى أكثر الدول ديمقراطية مثل فرنسا وبريطانيا . إذ اضطرت حكومات هاتين الدولتين إلى الحصول على سلطات إستثنائية شبه دكتاتورية لحل مشاكل تجييش القوات وتجهيز التموين

(١) Dictatorship of the Proletariate

(٢) Benito Mossulini (١٨٨٣–١٩٤٥).

(٣) Adolf Hitler (١٨٨٩ – ١٩٤٥) .

العسكرى والمواد الغذائية . ومن ذلك أن بريطانيا أدخلت نظاما غير مألوف فى تشكيل الوزارات لديها عندما تشكلت وزارة ائتلافية برئاسة لويد جورج. وكان بها أربعة فقط من الوزراء هم الذين كانوا يديرون دفة الدولة والحرب. وفى فرنسا، منحت الرقابة البرلمانية سلطات أوسع للاشراف على المجهود الحربى . كذلك يلاحظ أن الحرب العالمية الأولى أذابت الفرد فى مجتمعه وضعفت صيحات (الفردية)[١] أمام (الجماعية)[٢] وما ذلك إلا نفقدان الثقة فى النظام الرأسمالى الذى سبق الحرب، أليس هو النظام الذى أعطى لأوربا تقدما عظيما فكريا ومديا، إلا أنه هو نفسه ـ بشركاته ومغامرة أفراده الرأسماليين وبنوكهم ـ هو الذى مهد لوقوع الحرب العالمية الأولى التى أصابت أوربا بويلات مروعة من تخريب المدن وفقدان للأرواح لم يسبق له مثيل ؟

ثم ألم تكن الإحتكارات الصناعية والتجارية من أكبر أسباب الصراعات المؤدية إلى الحرب الطويلة المدمرة ، بين أبناء عم ودول أوربية تعيش حضارة واحدة وتنميها ؟ إن الشركات التى انطلقت فى كل إتجاه تجر وراءها المدافع والمؤامرات السياسية الدنيئة هى التى جرت وراءها تلك الويلات ، لأنها لاتسعى إلا إلى زيادة نصيب المساهمين، ولايهمها إلا موازنة آخر العام . ألم تفسد هذه الشركات ذمم نواب البرلمانات الرأسمالية وجعلتهم يلجأون إلى الألاعيب الدبلوماسية والعبارات المطاطة، ولاأخلاقيات سياسية لاتقيم وزنا لمستقبل الحضارة القائم على التنمية البناءة للمجتمع ، تنمية تشمل الفلاح والعامل ؟

ثم ، من هم ضحايا الحرب الحقيقيون ؟ أليسوا الجنود والعمال الذين سخرتهم الشركات لخوض حروب تدافع عن إحتكاراتهم دون أن تمنح هـذه الشركات

---

(١) Individualism.

(٢) Totalitarianism.

حقوقاً مناسبة للعمال والفلاحين والجنود ؟ . لقد فقدت أوربا فى حربها الأهلية (العالمية الأولى) حوالى ثمانية ملايين ونصف المليون أغلبيتهم الساحقة من شباب الجنود والعمال زهرة الأمم الأوربية . أما وقد تم النصر ، وتوصل الساسة إلى معاهدة فرساى فقد حان الوقت لأن تعدل الحكومات من سياستها بحيث تجعل التقارب بين الطبقات هدفاً لها .

ولقد أدت هذه المقارنات إلى ثورة بلشفية كبيرة فى روسيا خشيت منها الدول الرأسمالية المنتصرة ، والدول المهزومة على السواء . حيث أن البرجوازية — رغم الضربات الاقتصادية التى حلت بها خلال الحرب — كانت لا تزال هى القادرة على توجيه أمور دول أوربا المنتصرة أو المهزومة . ولكن الحقيقة هى أن برجوازية الغرب لم تكن تعامل عامة الشعب على تلك الصورة البشعة التى كان يتعرض لها الشعب الروسى . ومن ثم كان أن وقعت الثورة البلشفية ، وحل المصير المحزن بأسرة (رومانوف) وجنرالات القيصر التافهين ورجالات بلاطه من ذوى النياشين العديدة والمخازى الأكثر عدداً وإذا كانت تلك الثورة جديرة بروسيا لإنقاذها من تلك الأوضاع التى جعلت تولستوى يتنازل عن أملاكه ولقبه النبيل ويعيش من كفاح يده وقلمه وقلبه وعقله ، بينما لم تكن دول أوربا الغربية بالذات فى حاجة إلى مثل هذه الثورة البلشفية الشيوعية لتحقيق إصلاح لأحوال الشعب ، وإنما كانت فى حاجة إلى نوع من العدالة الاجتماعية .

لقد أدى إنتشار هـــذه الأفــكار ، إلى جانب إنتصار الثورة البلشفية رغم المحاولات اليائسة الأمريكية واليابانية والفرنسية والبريطانية لخنقها فى المهد ، إلى أن تعمد بعض الحكومات والبرجوازية فى أوربا بصفة خاصة — إلى إتخاذ إجراءات لمنع إنتشار الفكر الشيوعى فى البلاد ، وهذا يفسر لنا موجة الإصلاح الزراعى التى إنتشرت فى دول أوربا الشرقية (بولنده / رومانيا / هنغاريا / استونيا / لتوانيا / فنلندا) . كذلك أدت تلك التطورات إلى قيام نظم تعنى أهم ماتعنى بإقامة دولة قوية وحكومة مطلقة ، وحزب واحد وخطة قومية شاملة .

وكثير من رجالات النظريات السياسية فى التاريخ الحديث تعرض لهذه المشكلة المعقدة الخاصة بنظم الحكم التى يجب أن تضع مقدرات الشعب فى يدها ، وليس فى يد أقلية تتحكم فيه ، سواء فى الحكم أو فى توزيع ثروات البلاد . ونذكر من ذلك :

١ — إشارات هوبز[1] إلى الدولة المطلقة .

٢ — نظرية العقد الإجتماعى[2] لروسو ودعوته إلى أن يصبح كل فرد جزءاً من جسم كلى (الدولة) التى لها (إرادة عامة) تتكون بمشاركة كل فرد فيها . وبالتالى تكون السلطة المطلقة بيد الشعب كله .

٣ — الإشتراكية الفابية[3] فى أواخر القرن التاسع عشر فى انجلترا التى دعت إلى نقل ملكية أدوات الإنتاج إلى المجتمع كله ، وتدخل الدولة من أجل تحسين أجور العمال وفرض ضرائب على ذوى الثراء . وهى نظرية إشتراكية تحترم الملكية الفردية ورأس المال الخاص

٤ — الماركسية التى فسرت التاريخ على أنه حرب طبقات إنتهت إلى الحرب بين الطبقة الكادحة والبرجوازية . ودعت إلى إلغاء الملكية الفردية حتى يصبح المجتمع خالياً من أية تناقضات أو صراعات .

كما أن بعض النظريات الإقتصادية الجديدة رفعت من شأن فكرة (الدولة المطلقة) ومنها :

١ — قول الإقتصادى لودرال[4] أن الحرية الإقتصادية هى المسئولة عن سوء توزيع الدخول والثروات الوطنية .

٢ — وانتقد فردريك ليست[5] نظرية حرية التجارة الدولية على إعتبار أنها

---

(١) Hobs.

(٢) Contract Social.

(٣) وتنسب الى الجمعية الفابية Fabian Society

(٤) Lauderdale (١٧٥٥ــ١٨٣٠)

(٥) Fredric List ١٧٨٩ــ١٨٤٦

ضربة قاصمة للدول غير النامية إذ تزيدها تدهوراً وفقراً بينما تزداد الدول الصناعية الكبرى غنى وثراء على حسابها .

كذلك لعبت الإتجاهات الإجتماعية دورها في تقوية الإتجاه نحو الدولة الشمولية ، من حيث المطالبة بإشراف الدولة على نظم التعليم وتوحيد مناهجه ، ومن حيث زيادة أعباء الحكومة من ناحية الخدمات بحيث تعنى بالمناطق الفقيرة أكثر من عنايتها بالمناطق الغنية .

لكن مثل هذه الإتجاهات لا تصل إلى مرحلة التطبيق إلا إذا كان الشعب نفسه متهيئا للحكم الدكتاتورى وإلا إذا ظهرت الشخصية القادرة على الإفادة من هذا الاستعداد لدى الشعب لتقبل بحكم دكتاتورى . وبالتالى ليست المسألة مسألة زعيم قوى الشكيمة وإنما مسألة متعلقة برغبات الشعب فى إيجاد طريقة جديدة لتخليصه من فترة انهزامية وللارتفاع بمكانته الدولية . ورغبات الشعب هذه ليست هوجاء، وليست سطحية وإنما هى نتيجة الشعور بنوع من التخاذل فى النظم الديمقراطية إزاء مطالب الشعب نفسه ، أو نتيجة للضغط الاستفزازى الهائل الذى تصبه القوى الدولية الكبرى والدول الكبرى على أحد الشعوب فتجعله يئن تحت أزمات إقتصادية أو عسكرية أو سياسية يتلمس الخلاص منها فى شخص زعيم استطاع أن يتحدث بلسانه ويحقق آماله . ومن هنا كانت مسئولية الدول الكبرى الاستعمارية كبيرة فى ظهور نظم دكتاتورية لأن هذه الدول الاستعمارية تعلم أن النظم الدكتاتورية هى مؤقتة وليست دائمة وعملت على دفع الدول نحو النظم الدكتاتورية أو التقليدية القديمة حتى تتعرض لأزمات عميقة تجعلها دون الديمقراطيات قوة .

وفى هذا النظام الدكتاتورى يصبح شخص الدكتاتور والدولة شيئاً واحداً تقريبا ، وتصبح إرادة الزعيم أقوى من أية إرادة أخرى . ومع أن هذا النظام يحدث لكل دولة من الدول فى فترات معينة من تاريخها (كرمويل فى إنجلترا — ونابليون فى فرنسا) فإن الدول الاستعمارية الغربية لم تنظر إلى هذه العهود الدكتاتورية إلا نظرتها إلى جزء من التطور التاريخى وإلى بطولات ناجحة أو فاشلة فى تاريخها

بينما تمدت الدول الديمقراطية الغربية (فرنسا وإنجلترا) إذلال كل من ألمانيا وإيطاليا بسبب الاتجاهات الدكتاتورية فى كل منهما أيام هتلر وموسوليني وما ذلك إلا جزءاً من الخطط السياسى العام لتوهين قوى هاتين الدولتين المناهضتين لفرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية .

وفي اعتقادنا أن المشكلة الحقيقية التى أدت إلى ظهور دكتاتورية ألمانيا النازية ودكتاتورية إيطاليا الفاشستية بشكل مكروه ، هو أنها ظهرت فى وقت كان فيه التيار الديمقراطى هو تيار العصر ، وأن النازية كانت عنصرية الإتجاه فى وقت أصبحت فيه العنصرية سبة فى جبين من يقتنع بها ، وأن الدول الديمقراطية الغربية سبق لها أن كانت دكتاتورية وعنصرية ثم عبرت هذه الفترة ووطدت ديمقراطيتها .

الفصل العاشر

الثورة الشيوعية

وظهور إتحاد جمهوريات السوفييت الاشتراكية

- الثورة
- المشكلات الداخلية
- نظام الحكم

ترجع أصول الثورة الشيوعية إلى النظرية التى دعا إليها كل من كارل ماركس[١] وزميله فردريك إنجلز[٢] إلى ما أصبح معروفاً باسم « الثورة الشاملة من أجل مجتمع المساواة المطلقة » .

وترتكز هذه النظرية الشيوعية على دراسة التطور التاريخى للبشرية على ضوء المادية الديالكتية القائلة بأن تاريخ البشرية يجب أن ينظر إليه من الزاوية الإقتصادية وأن يدرس على أساس التفسير المادى للتاريخ . فهناك العصور التى ساد فيها رجال الإقطاع والتى ساد فيها البرجوازيون ، وأصبح عصر حكم البروليتاريا (الطبقات الكادحة) قاب قوسين أو أدنى . وكان كارل ماركس أول من فلسف هذه النظرية وعمل على نشرها عندما أصدر البيان الشيوعى[٣] فى ١٨٤٨ وكتابه «رأس المال»[٤] . وتتبلور هذه النظرية فى الدعوة إلى اشتراكية علمية ، لا ملكية فيها ، ولا طبقات ، والمساواة فيها مطلقة بين الأفراد . ومن هنا كانت هذه النظرية حرباً على الطبقات : الاستقراطية والبرجوازية وكبار الملاك والاقطاعيين ، وأصحاب الأعمال ، وأصحاب المصانع ، والشركات المالكة لمؤسسات إنتاجية . على إعتبار أن كل هذا يمثل قوى إستغلال للطبقة الكادحة .

---

(١) Karl Marx : ١٨١٨ -- ١٨٨٣ ، كان يهوديا ألمانيا متطرفا ، وأول داعية للثورة الشيوعية ، فطردته الحكومة البروسية ، فهاجر إلى فرنسا ، وهناك أتيحت له الفرصة الاتصال بزميله الكبير فى وضع فلسفة الثورة الشيوعية فردريك انجلز . ولم يلبث أن طردته فرنسا فذهب إلى لندن ، وعندما دعته الجمعية الشيوعة فى بروكسل إلى وضع أسس الفلسفة الشيوعية فضمنها فيما عرف باسم المانفستو الشيوعى (١٨٤٨)
فكان ذلك أول بيان شيوعى .

(٢) Fredric Angles

(٣) Communist Manifesto ظهر فى انجلترا فى شهر فبراير - شباط - وهو نفس الشهر الذى نشبت فيه الثورة الفرنسية ١٨٤٨ ، ولكن لم يكن له دور فى الإسراع بها ، ولم يقرأ على نطاق واسع إلا بعد ذلك بعقدين لتعاد طبعاته فى ألمانيا وحدها اثنى عشر مرة وعرف باسم Communist Manifesto

(٤) Das Kapital وقد صدر فى ثلاثة أجزاء أولها فى حياة كارل ماركس فى ١٨٦٧ والآخران فى ١٨٨٥ ثم ١٨٩٤ .

وكانت النظرية ترى أن هذا النظام الرأسمالي الذى سيطر على أوربا سيقضى على نفسه بنفسه ويسقط[1] . ولكن ليس من العدالة — من وجهة نظر ماركس — أن تنتظر الطبقات الكادحة هذا السقوط الذى قد يتأخر إلى عدة قرون ، وإنما يجب الإسراع فى « عجلة التاريخ » للوصول إلى « المجتمع الشمولى »[2] عن طريق « الثورة الشاملة » ، وما أن يتحقق هذا المجتمع الشمولى ، يتهيأ بذلك مجتمع تكون فيه الحرية تلقائية واضحة المعالم والحدود ، وحرية إجتماعية وليس « حرية سياسية » .

ولا ينتقد ماركس الدول الرأسمالية والبرجوازية بسبب إستبداد طبقة بأخرى فقط ، بل ينتقدها لأنها تسير على نظام يعطى لبعض مؤسساتها استقلالا ذاتيا يتنافى مع وحدة المجتمع وشموله . فهو ضد مبدأ فصل السلطات[3] الذى دأبت تلك الدول الرأسمالية على تقديسه . ونادى بنظرية تفويض السلطات ، بشكل هرمى ينبع من القاعدة الشعبية على اعتبار أنها هى التى يجب أن تحكم ، ودعا إلى توزيع العمل على الأساس التالى : « لكل حسب حاجته ، ومن كل طبقا لقدرته » .

وحيث أن العمال والطبقة الكادحة هم الذين سيتولون الثورة وحرب الطبقات ، فيجب — من وجهة نظر الماركسيين — أن تتولى هذه الطبقة سلطات دكتاتورية تمكنها من النجاح ومن الوصول إلى المجتمع الشمولى .

وكانت توقعات كارل ماركس غير دقيقة بشأن قيام الثورة فى المناطق الصناعية من البلاد الرأسمالية فى أوربا الغربية ، لأن الحكم البرجوازى كان فى عنفوانه ، وكانت التكتلات العمالية مفككة ، بعكس الروابط القوية التى كانت بين النظم البرجوازية السائدة فى العالم حينذاك . ولأن الدول البرجوازية الغربية شعرت بسرعة

---

(١) Auto Destruction

(٢) Société Totale

(٣) يقصد بذلك السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية .

بخطورة الدعاية الشيوعية فأقدمت على إصدار العديد من التشريعات العمالية التى قضت على الكثير من شكوى العمال وربطت هؤلاء العمال بالفكر القومى وليس بالفكر العالمى الماركسى ، حتى إن الأحزاب الاشتراكية التى كانت ذات قوى جماهيرية فى أوربا الغربية كانت أقوى من القوى الثورية الشيوعية ، نظرا لأن الفكر الإشتراكى كان فى بريطانيا وفرنسا وألمانيا يقدر دور البرجوازية فيما وصلت إليه البلاد من رقى وتقدم وأن تحطيم البرجوازية بثورة كتلك التى دعا إليها كارل ماركس قد تؤدى إلى إنهيار اقتصادى تخسر فيه الطبقات العمالية أكثر من خسارة البرجوازية نفسها .

فلا غرو إن كانت الدولة التى قامت فيها الثورة الشيوعية ونجحت فيها هى روسيا القيصرية الزراعية الإقطاعية المتخلفة تعليمياً وصناعياً والتى كانت تحكمها قيصرية وارستقراطية فاسدة مرتشية مستندة إلى قيادة عسكرية جاهلة ، وتفتقر بشدة إلى برجوازية واعية أو بمعنى آخر كانت بيئة روسيا خلال الحرب العالمية الأولى — خاصة بعد الهزائم المروعة التى نزلت بالجيوش الروسية — مهيأة لنجاح ثورة ، وخاصة إذا أخذت هذه الثورة جانب أشد القوى تضرراً من الحرب ومفاسد الحكم (الجند والفلاحون والعمال) . وكانت الدعاية الماركسية قوية ومنظمة فى روسيا ، وعجزت سلطات القيصر عن استئصالها وإن كانت قد تمكنت من إبعاد عدد من زعمائها من أمثال (لينين) إلا أن شبكات النشاط الشيوعى ظلت منتشرة فى روسيا تنتظر الفرصة المواتية .

ومن هنا كانت تطورات الحرب من الناحية العسكرية ذات أهمية قصوى لفهم الظروف التى أدت إلى قيام الثورة الشيوعية فى روسيا ونجاحها .

فقد أحرزت القوات الروسية فى أول الأمر بعض الإنتصارات الأولية فى معارك بروسيا الشرقية . وذلك لإنشغال القيادة الألمانية بتوجيه ضربة حاسمة لفرنسا لعلها تكون ضربة كفيلة بإخراجها من الحرب ، ولكن صمدت فرنسا .

فتحولت القيادة الألمانية إلى ضرب روسيا ضربة حاسمة تخرجها من الحرب وتوالت على روسيا الهزائم ، حقيقة لم تخرج روسيا من الحرب ، ولكن كلفها ذلك سلسلة من النكبات المروعة فقدت خلالها أكثر من مليونين من أبنائها دون أن تكون هناك معركة مشرفة تشجع على إستمرار الصمود . والأدهى من ذلك أن نقصاً شديداً جداً فى التموين الغذائى والمواد العسكرية كان يسود كافة الجبهات حتى لقد تحولت بعض الهجمات الألمانية على الجيوش الروسية إلى مجرد مذابح . وكانت القيادة العسكرية على دراية تافهة بفنون الحرب والقتال ، وفقد الضباط سيطرتهم على جنودهم فى كثير من المواقع وأصبحت الحرب شيئاً لايحتمل بالنسبة للجندى الروسى .

وفى داخل البلاد كانت الأزمات تتطور بسرعة من سىء إلى أسوأ : إذ انتشر وباء الإضرابات والتمردات فى المدن الكبرى بين عمال المصانع وخاصة فى منطقة (سان بطرسبورج) مارس — آذار ١٩١٧ ، وكان القيصر نيقولا الثانى(١) يتولى إدارة دفة معاركه الخاسرة بعيداً عن عاصمته ، وعندما استولى عليها الثوار ، وأطلقوا عليها بتروجراد ، أراد أن يرسل جيشا للسيطرة عليها ، فرفض الجنرالات والجند المسير ضد إخوتهم وأبوا أن يوقعوا البلاد فى هوة الحرب الأهلية فى الوقت الذى كانت فيه الأراضى والأرواح الروسية تحت أقدام المنتصرين الألمان. وأسقط فى يد القيصر عندما ظهرت فى العاصمة هيئات تسعى إلى السيطرة على الحكم والإدارة ونعنى بذلك لجنة (الدوما)(٢) المؤقتة ذات الطابع البرجوازى و(السوفييت) فى (بتروجراد)(٣) الذى انتخب (لجنة تنفيذية سوفييتية) . واضطر القيصر — إزاء هذه التطورات وانعدم وجود قوة ذات شأن إلى جانبه — إلى التنازل عن العرش فى ١٥ مارس ١٩١٨ فكان ذلك نهاية لأسرة رومانوف الشهيرة .

---

(١) تولى القيصرية فى ١٨٩٤ حتى قتله البولشفيك فى ١٦ يوليو ١٩١٨ .

(٢) تعنى بالروسية اسم مجلس وهو المجلس الشعبى .

(٣) الإسم الجديد لسان بطرسبورج ، ثم أصبحت تعرف باسم لننجراد .

كان من المستحيل أن تظل لجنة الدوما المؤقتة وكذلك اللجنة التنفيذية لمجلس السوفييت[1] فى إدارة بتروجراد ، وبذلت المساعى لتجميع القوى الثورية الجديدة ، وكانت المجابهة قد بدأت بين لجنة الدوما البرجوازية ومجلس السوفييت الإشتراكى. وخلال ذلك أمكن تسكوين (حكومة مؤقتة) برجوازية تدعمها الأحزاب التى ظهرت قبل الحرب العالمية مثل حزب الاكتوبريين بزعامة جوتشكوف وحزب (الكادت) بزعامة مليوكوف ، وتولى (كيرنسكى)[2] الإشتراكى المعتدل عضو مجلس الدوما منصب وزير العدل ، وأعلنت هذه الحكومة أن هدفها هو إقامة دولة دستورية ديمقراطية ، ومواصلة الحرب فى صف الحلفاء ، فكان ذلك باعثا لأن لا تلتفت دولتا الوفاق إلى مصير القيصرية واعترفتا بالحكومة الجديدة . هذا بينما كانت نداءات مؤتمرات السوفييت التى انعقدت فى أبريل — نيسان ١٩١٧ تدعو إلى :

١ — وقف الحرب وعقد صلح عادل .

٢ — حق تقرير المصير .

٣ — وقف متابعة سياسة القيصرية الإستعمارية .

وكانت ميادين الحرب مرة أخرى هى السبب فى سقوط الحكومة فى روسيا ، فقد منيت الجيوش الروسية مجدداً بهزائم مريرة ، ودبت الفوضى فى الجيوش وفى الريف ، وانتشرت المجاعة والنقمة على كبار الملاك والأشراف وحكام الأقاليم وانطلق الفلاحون يقتسمون الأراضى عنوة دون أن تكون هناك قوة لردعهم ، فلقد كانت الثورة شاملة تقريبا .

وحيث أن الحكومة المؤقتة فشلت فى أن تخوض حربا ناجحة ، فإنها تكون بذلك قد فقدت وجودها ، وبدأت معاول سقوطها تضرب فى جنباتها بشدة على

---

(١) كانت تشد أزره مجالس السوفييت العديدة التى ظهرت فى مختلف أرجاء روسيا .

(٢) A. Kerensky

يد زعماء البلشفيك[(١)] جناح الأغلبية فى الحركة الشيوعية بزعامة لينين[(٢)] الذى سهل له الألمان فى ١٩١٧ العودة إلى بتروجراد حتى يسهم فى تحقيق هدف الثوار الخاص بإخراج روسيا من الحرب . وهو أمر كانت تسعى إليه ألمانيا والنمسا بكل مافى وسعهما .

بعد فترة ليست بالقصيرة دبر لينين حركة إنقلابية فى ١٦ يوليو — تموز ١٩١٧ إعتمد فيها على العناصر البلشفية فى العاصمة بتروجراد فقط . ولكن تمكنت الحكومة المؤقتة من ضربها . فكان درساً وعاه لينين ، وأعاد وضع خطته على أساس أن يكون انقلابه التالى عبارة عن تحرك عام للسوفييتات فى بتروجراد وفى الأقاليم لقب الحكومة المؤقتة[(٣)] .

ونجح لينين فى خطته هذه المرة فى أكتوبر ، وأسقط حكومة كيرنسكى ، وتولى لينين رئاسة مجلس مفوضى الشعب[(٤)] ، وشرع فى تنفيذ برنامجه :

١ — الصلح والسلام للجيش ووقف الحروب الإستعمارية .

٢ — المصانع للعمال .

٣ — الأرض للفلاح .

٤ — إحلال مجالس الشعب محل مجالس الشركات .

٥ — استبعاد البرجوازية .

٦ — العمل على نشر وتقوية الأحزاب الشيوعية فيما وراء روسيا .

---

(١) فى ١٩٠٣ دار خلاف حول أسلوب العمل فأيد البلشفيك — أى الأغلبية — (ليلنين) ، وسميت الأقلية (منشفيك) وهم أنصار الاصلاح التدريجى ، بينما كان لينين زعيم المتطرفين .

(٢) Vlaimir Ilgich Lenin ١٨٧٠ — ١٩٢٤

(٣) أصبح كيرنسكى رئيسها .

(٤) Soviet of the People's Commissers.

١٩١٧ ، وبتكتيك جدلى استطاع تروتسكى (١) — الذى كان يرأس وفد المفاوضين الروس — أن يؤخر توقيع المعاهدة تسعة أسابيع على أمل أن تمتد الثورة إلى ألمانيا والنمسا ، ولكن الألمان — وقد أقلقهم هذا التسويف — عادوا وتابعوا هجومهم وتوغلوا كثيراً فى عمق روسيا مما جعل لينين يقبل شروط الألمان فى ٢٨ فبراير ١٩١٨ ثم وقعت روسيا معاهدة برست ليتوفسك (٢) فى مارس — آذار ١٩١٨ التى قضت بتنازل روسيا عن كل من فنلنده وبولنده ومقاطعات البلطيق (٣) (استونيا (٤) ولاتفيا (٥) وليتوانيا (٦)) وأوكرانيا (٧) والقوقاز (٨) ، ولكن هذه المعاهدة أصبحت غير سارية المفعول بالهدنة التى عقدتها ألمانيا فى الجبهة الغربية .

بعد عقد هذه المعاهدة تفرغ لينين لتصفية أعداء ثورته ، وكانوا على النحو التالى : —

١ — الارستقراطية الحاكمة زمن القيصرية والضباط السابقون .

٢ — كبار رجال المال وأصحاب المصانع والشركات .

٣ — الإقطاعيون وكبار الملاك .

٤ — رجال الدين .

٥ — الجمهوريون المعتدلون .

بل لقد ظهرت حكومات مناهضة للثورة فى روسيا الجنوبية بزعامة القائد

---

(١) Lev Davidovich Trotsky (١٨٧٩ — ١٩٤٠)

(٢) Brest — Litovsk

(٣) Baltic Provinces

(٤) Estonia

(٥) Latvia

(٦) Lithuania

(٧) Ukraine

(٨) Caucasus

الكسييف ، وفى منطقة الفولجا بزعامة لوبيديف ، وبزعامة كولتشاك فى سيبيريا وبقيادة يودنيتيس بالقرب لننجراد، حتى بدت روسيا وكأنها على وشك تمزق شامل وليست على وشك تغيير جذرى نحو دكتاتورية الطبقة الكادحة .

حقيقة كانت تلك القوى المحلية مدعومة بقوات من الجيوش الروسية ، إلا أن معنوياتها كانت ضعيفة ، وكان الهدف الذى تحارب من أجله غير واضح ، بعكس البلشفيك الذين كانوا يعيدون بسرعة تشكيل قوات تحمى الثورة وترد العدوان عنها ، وشحنوها بالايديولوجيات التى لقيت قبولا فى صفوف الطبقة الكادحة .

ولم تكن هذه القوى المحلية هى التى رأت حكومة لينين أن تصفيها فقط ، بل كذلك واجهت قوات أجنبية شرعت فى النزول فى أماكن متفرقة ومتباعدة من روسيا وكانت هذه القوات تابعة لكل من فرنسا وإنجلترا واليابان وبولنده ورومانيا .

كانت فرنسا ناقمة جداً — مثل إنجلترا — من جراء خروج روسيا من الحرب ، ولأن الحكم الجديد فى روسيا أعلن عدم إعترافه بديون أجنبية عقدتها القيصرية ، وكانت لفرنسا ديون ضخمة لدى روسيا .

ومن ناحية ثانية ، كانت هناك مخاوف شديدة من جانب الدول الغربية من جراء النجاح الذى كانت تحرزه الثورة الشيوعية يوما بعد آخر ، إذ قد يؤدى هذا إلى انتشار الثورات العمالية ضد الحكومات الرأسمالية . فعملت فرنسا وبريطانيا على ضرب الثورة فى مهدها ، فاستولت الأولى على أوديسا فى ١٩١٩ واستولت الثانية على منطقة من إيران وعلى أجزاء من القوقاز حتى باكو .

أما اليابان فرأت فى التدهور الكبير الذى منيت به روسيا فى الخارج والداخل فرصة للاستيلاء على فلاديفوستوك فأرسلت قواتها إلى هذا الميناء الهام لعلها تستطيع الاستيلاء على ما وراء ذلك من أرض روسية فى سيبيريا .

أما بولنده ورومانيا ، فكانتا جارتا روسيا ، ويدركان كم سيصيبهما من جراء

انتشار الشيوعية فيهما ، ولذلك عملت على إرهاق روسيا وانتهاز الفرصة لإقتطاع أجزاء منها كانت كل منهما تطمع فيها . فبالنسبة لبولنده ، كانت حدودها مع روسيا قد خططت تقريبا بواسطة الحلفاء ، واعتبر خط (كيرزون) حدا فاصلا بين الدولتين ، ولكن بولنده ، وقد وجدت روسيا فى خضم أزمات كبرى ، انتهزت الفرصة وأعلنت الحرب عليها واستولت على أجزاء كبيرة مدعية أن عناصر بولندية تعيش فيها .

كذلك استولت رومانيا على إقليم بسارابيا[1] الذى كانت تتطلع إليه منذ وقت طويل ، وكان يحتوى على أكثرية من الرومانيين ، وقد أيدها الحلفاء فى ذلك .

كانت الصورة أمام حكومة لينين معتمة للغاية إلا أنه وحكومته استطاعوا مواجهة هذه المشكلات . فقد استطاع (الجيش الأحمر) أن يصد جيش الروس البيض ، ولم يلبث أن تلاشى هذا الأخير . واستطاع الجيش الأحمر كذلك أن يصفى كافة الحكومات التى ظهرت هنا وهناك ، بينما أعلنت جمهوريات — تكونت فى روسيا وفى أطرافها — انتماءها إلى إتحاد جمهوريات السوفيت الاشتراكية الذى كان قد أعلن فى دستور ١٩١٨ .

ما أن تخلص لنين من الأخطار الداخلية هذه حتى فرض نفسه على القوى الخارجية ، حتى اضطرت إلى الانسحاب من مراكزها التى احتلتها باستثناء رومانيا وبولنده ، وبالنسبة لبولنده استطاع الجيش الأحمر أن ينزل الهزيمة بالبولنديين ، وانتهى النزاع بعقد معاهدة ريجا فى ١٨ مارس — آذار ١٩٢١ كسبت فيها بولنده أرضا واسعة من روسيا البيضاء . وبالنسبة لرومانيا احتجت حكومة الإتحاد السوفيتى على موافقة الحلفاء على ضم بسارابيا وطالب بإجراء إستفتاء فيها ، ولكن سيمر وقت طويل قبل أن يستعيدها الإتحاد السوفييتى .

أما بالنسبة للسياسة الخارجية ، فكانت نظرية الثورة الشاملة تستحوذ على

---

(١) Bessarabia

حكومة الإتحاد السوفيتى ، ولهذا دعا لينين إلى عقد (الدولية الثالثة)[١] فى آذار — مارس ١٩١٩ فى موسكو ، بقصد توحيد الحركات العمالية والإسراع فى عجلة التاريخ نحو الثورة الشاملة . وقد ترتب على ذلك تكوين (الكومنترن)[٢] الذى كان له دور فى تأجيج الثورات الشيوعية فى عدد من الدول الأوربية، وبوجه خاص فى ألمانيا والمجر وإيطاليا بين ١٩١٩ — ١٩٢٠ إلا أن هذه الثورات لم تؤد إلى نجاح يذكر بل أدت إلى أن تزداد علاقات الإتحاد السوفيتى مع الدول الأوربية سوءاً بل زاد ذلك من تشدد الدول الأوربية فى مجالات التعامل التجارى مع الإتحاد السوفيتى .

ولقد عبر عن ذلك المؤرخ تومسون[٣] بقوله أن جميع أحزاب فرنسا — فيما عدا اليسار المتطرف — أصبحت تعتقد أن هناك عدوين خطرين يهددان فرنسا أحدهما تقليدى قوى وهو ألمانيا ، والثانى جديد إشتراكى (شيوعى) هو الإتحاد السوفيتى .

لقد كانت فترة حكم لينين تمتاز بجهود ضخمة من أجل تصفية المشكلات الداخلية التى أثارها أعداء الثورة ، وبحثاً عن سياسة خارجية ملائمة للاتحاد السوفيتى . وبعد وفاة لينين فى ١٩٢٤ فوجئت الدول — بصفة عامة — بأن الذى خلفه هو ستالين[٤] سكرتير الحزب الشيوعى — وليس تروتسكى[٥] رفيق لينين فى بناء الثورة .

---

(١) الدولية الأولى لتوحيد عمال العالم فى ١٨٦٤ ، ولكن اختلاف الجماعات العمالية أدى إلى توقف نشاطها فى ١٨٧٣ ، والدولية الثانية فى ١٨٨٩ وتوقف نشاطها عند اندلاع الحرب العالمية الأولى .

(٢) Comintern يطلق على الدولية الثالثة (١٩١٩) وأصبح أول هيئة شيوعية دولية ذات فعالية مؤثرة لأنها أصبحت تعتمد على تدعيم دولة (الاتحاد السوفيتى) وهذا ما لم يتوفر للحركة الشيوعية من قبل .

(٣) « ... all French Parties except the extreme left felt that they had two enemies in Europe — the traditional enemy, Germany and the new social enemy : The Third International or Comintern, founded in Moscow in 1919 and dominated by Lenin and the Bolsheviks ». David Thomson : Europe Since Napoleon Second Edition. Longmans. London, 1964, p 579.

(٤) J. Stalin (١٨٧٩–١٩٥٣).

(٥) Trotskey. (١٨٧٩–١٩٤٠).

ولقد حدث فعلا إنقسام فى الرأى حول أى من الرجلين ستالين أم تروتسكى يخلف لينين ، وهذا الخلاف ليس على أساس المقارنة بين شخصية كل منهما . وإنما على أساس أى من المسلكين السياسيين أوفق للمرحلة حينذاك :

١ — الإستمرار فى الدعوة إلى الشيوعية العالمية وعالمية الثورة .

٢ — أم العمل من أجل الإتحاد السوفيتى أولا ثم الثورة العالمية ثانيا . وإنتصر جناح ستالين ، وأخذ فى تصفية خصومه ، وجرد تروتسكى من كل مناصبه ونفاه ، وقام بحركة دموية كبيرة فى مختلف الدوائر حتى غدا هو زعيم الإتحاد بلا منافس فى أواخر الثلاثين وظل كذلك حتى وفاته .

ركز ستالين جهوده من أجل تطوير إمكانيات الإتحاد السوفيتى الإقتصادية . وكانت المشكلة الزراعية أكثرها تعقيدا . لقد تدهور الإنتاج ودخل الفلاح ، بينما أثرت مجموعات أخرى ؛ فالأرض حتى تولى ستالين الحكم كانت بيد الفلاح وليست تعاونية ، واستطاع بعض الفلاحين الذين عرفوا باسم (الكولاك) أن يجمعوا ثروات لها قيمتها . ولعلاج هذه الأوضاع أصدر ستالين قراراً فى ١٩٢٩ بتحويل كل الأراضى إلى مزارع جماعية خلال ثلاث سنوات . فقضى على (الكولاك) وظهرت هذه المزارع الجماعية بسرعة .

حقيقة أصيب دخل الفلاح خلال فترة الانتقال بتدهور واضح ، ولكن تنفيذ « مشروع السنوات الخمس » الأول رفع مستويات الدخل والإنتاج ، وتوالى بعد ذلك النمو فى مجالات الإنتاج الزراعى وحالة الفلاح الروسى .

ويعتبر دستور ١٩٣٦ أهم منجزات ستالين وكذلك أهم دساتير الإتحاد السوفيتى وأطولها عمراً ، وإن كان يعتبر إمتداداً معدلا لدستور ١٩٢٤ ، وبمقتضى دستور ١٩٣٦ أخذ فى الاعتبار أهمية الاستقلال الذاتى لأية جمهورية — ضمن الإتحاد — ذات

قومية خاصة بها ، وأهمية المساواة بين الجمهوريات ، وأخذ بالنظام الهرمي التمثيلي ولهذا ظهر مجلسان :

١ — مجلس سوفييت الاتحاد(١) :

وهو يقوم على أساس هرمي يبدأ من الوحدات الصغيرة التي تنتخب وحدة المحافظة ، وهذه تنتخب وحدة الإقليم ووحدات الأقاليم تنتخب وحدة الجمهورية ، ووحدات الجمهوريات تنتخب مجلس سوفييت الاتحاد . وبذلك يمثل كافة مواطني الاتحاد .

٢ — مجلس القوميات(٢):

تمثل فيه الجمهوريات والأقاليم ذات الحكم الذاتي بنسب مختلفة حسب عدد السكان تقريبا . وهو على قدم المساواة مع سوفييت الاتحاد .

أما الرابطة التي تربط كافة المنظمات السياسية والدستورية في الجمهوريات فهي الحزب الشيوعي ، وهو الحزب الوحيد الذي نص عليه الدستور ، ومكتبه السياسي هو الذي يخطط للسياسة العامة المحلية والعالمية ويضع البرامج للحكومة وهو ممتزج بها .

أما السلطة التنفيذية ففي هيئتين :

١ — الهيئة العليا للسوفييت(٣):

يقوم مجلس سوفييت الاتحاد وكذلك مجلس سوفييت القوميات بإنتخابها . وهذه الهيئة هي التي تتولى أمر تعيين قادة الجيش والممثلين السياسيين وإعلان الأحكام العرفية وحل مجلسي البرلمان وإجراء الإنتخابات والاستفتاءات الشعبية .

---

(١) Le Soviet de l'Union

(٢) Soviet de Nationalités

(٣) Presidium

٢ — مجلس قوميسير الشعب :

وهو يعادل مجلس الوزراء ، ويعينه مجلسا البرلمان . ولهذا المجلس رئيس وثمانى وكلاء وعدد كبير من الوزراء .

ونص الدستور على الحقوق التالية :

١ — حق العمل .

٢ — حق التعليم .

٣ — حرية المعتقدات الدينية ، وإن لم يطبق هذا الحق بدقة فى جزء من أيام لينين وستالين .

٤ — حرية الرأى ، ولكن الصحافة ملك الحكومة وتوجهها . إلا أن هناك نوعا من النقد الذاتى تمارسه الهيئتان والأفراد لإعادة النظر فيما قاموا به وليس فى النظام نفسه .

٥ — الحرية الشخصية ، وهى متاحة للجميع ، ولكن هناك قيود سياسية على الفكر الخاص عانى منه عدد من كبار الأدباء والفنانين والمفكرين .

٦ — المساواة ، وهى مطبقة بدقة إلى حد كبير حيث لايمتاز فرد على آخر فى شىء إلا من حيث الجهد الإنتاجى .

والغيت الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وحلت محلها الملكية الإشتراكية ، وبالنسبة للأرض الزراعية وضع نظامان لإستغلالها :

١ — الكولخوز :

يتولى العمل فيها فلاحون على هيئة جمعية تعاونية تقوم بزراعة نوع من

المحاصيل تحدده الحكومة . وجزء من الناتج يرسل إلى الحكومة والباقى يوزع على العاملين فى الكولخوز .

٢ — السفخوز :

تستغلها الدولة برجال لهم أجر ، وبها أنواع متعددة من الإنتاج الزراعى أو المرتبط به مثل تربية المواشى .

ومن وجهة نظر السوفيت ، أن الحرب العالمية الأولى كانت نتيجة طبيعية للصراعات والمنافسات بين القوى الامبريالية ، وحيث أن ثورة أكتوبر فى روسيا لم تقض على هذه الصراعات إلا فى ⅙ العالم فقط ، كان لابد من أن تقع حرب عالمية كبرى أخرى بسبب الأطماع الأمبريالية . على اعتبار أن الأمبريالية تتضمن بالطبيعة قوى دافعة نشطه باستمرار لغزو الأسواق وبيع الفائض من الإنتاج والإستيلاء واستمرار التسلط على المستعمرات لضمان تدفق المواد الخام وفتح الأسواق الإستهلاكية باستمرار ، وكل هذا يقود بالتدريج إلى نمو فكرة السيطرة على مقدرات العالم لصالح الأنانية الرأسمالية الحاكمة ، أو لصالح شعب زيدت رغبته فى استعباد الآخرين .

ولهذا قامت سياسة الاتحاد السوفيتى الخارجية عقب نجاح الثورة على أساس نبذ التطلعات القومية التوسعية والإمبريالية . وعقدت معاهدات مع الدول التى نشأت على أطرافها والتى كانت تحت حكم القياصرة من قبل مثل فنلنده واستونيا ولاتفيا ولتوانيا (١٩٢٠) وعقدت معاهدات صداقة سنة ١٩٢١ مع إيران وتركيا وافغانستان .

وقدتبين الاتحاد السوفيتى أنه فى حاجة ماسه إلى الغرب لتطوير إنتاجه الزراعى والصناعى وتنشيط تجارته ، ولهذا عدل من سياسته المعادية على طول الخط ، وسعى

إلى عقد معاهدة تجارية مع بريطانيا ، وتم ذلك فى ١٩٢١ ، ولكن لم تستطع العلاقات التجارية أن تنمو بقوة بين الاتحاد السوفيتى وبريطانيا رغم قيام حكومة العمال برئاسة (ج . رمزى مكدونالد) بعقد إتفاقيات تجارية مع السوفييت وذلك بسبب عدم إبرام تلك الإتفاقيات وسقوط حكومة العمال .

كانت الاتصالات البريطانية ـ السوفيتية ذات نتائج محدودة إلا أنها فتحت الباب أمام السوفييت والدول الأوربية للتفاوض والتعاقد . فقد دعى الاتحاد السوفيتى وألمانيا إلى حضور المؤتمر الاقتصادى للدول الكبرى فى جنوه (١٩٢٢)[٢] . وفى نفس العام عقد الاتحاد السوفيتى مع ألمانيا معاهدة راباللو فى ١٦ إبريل ١٩٢٢[٣] وقيمة هذه المعاهدة :

١ ــ أنها جعلت الاتحاد السوفيتى لأول مرة معترفاً به من قبل دولة أوربية وتوالى بعد ذلك إعتراف الدول الكبرى والصغرى .

٢ ــ لقد تحطم جزء من الجدار الذى ضرب حول السوفييت .

٣ ــ وطدت المعاهدة العلاقات بين الدولتين (السوفيت وألمانيا) الأمر الذى أثار رعب الدول الأوربية الأخرى ، ولقد أشيع أن الاتحاد السوفيتى كان يزود ألمانيا ــ بعد عقده المعاهدة ــ بالسلاح رغم تعارض ذلك مع معاهدة فرساى .

٤ ــ أعفيت ألمانيا من ديونها قبل الاتحاد السوفيتى ، حيث تنازلت كل من ألمانيا والاتحاد السوفيتى عن مطالبها المالية كل إزاء الأخرى .

---

(١) J. Pamsay Mac) Donald (١٨٦٦ ـ ١٩٣٧)
(٢) World Economic Cenference at Genva
(٣) Treaty of Rapallo

وإذا كانت هذه المعاهدة قد فتحت مجالات العلاقات الدولية على مصراعيها أمام الاتحاد السوفيتي ، إلا أن عقد معاهدات لوكارنو[1] بين بلجيكا وفرنسا وإيطاليا وبولنده وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا فى ١٩٢٥ آثار مخاوف الاتحاد السوفيتي من أن يكون وراء ذلك محاولة ذكية لتوجيه الشكيمة الألمانية صوب الشرق : الاتحاد السوفيتي .

رأى السوفييت فى معاهدة لوكارنو وفى مشروع دوس Dawes plan [1] لتسوية مشكلة التعويضات الألمانية فى ١٩٢٤ وفى القروض السخية التى قدمتها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لألمانيا رأى فى كل هذا خطة ثلاثية فرنسية بريطانية أمريكية لدفع ألمانيا — بل واليابان كذلك — إلى محاربة الاتحاد السوفيتي ، وبذلك تضرب تلك الدول الثلاث عصفورين بحجر واحد :

١ — ضرب السوفييت والقضاء على الثورة فيه والسيطرة عليه .

٢ — أن يؤدى الصراع بين السوفييت من جهة واليابان وألمانيا من جهة أخرى إلى إضعاف هاتين الدولتين فتظلا تحت رحمة الدول الثلاثة بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة .

وحيث أن دور ألمانيا كدولة كبيرة كان قد تعرض لمؤامرات بريطانية وفرنسية أزعجت الألمان ، وحيث أن السوفيت كانوا مرتابين فى نيات ألمانيا عمدت الحكومة الألمانية إلى طمأنة الاتحاد السوفيتي بأن عقدت معه معاهدة فى ١٩٢٦ أكدت معاهدة راباللو وتعهدت كل منهما بالوقوف على الحياد فى حالة تعرض أى منهما

---

(١) Treaties of Locarno وقد تضمنت هذه المعاهدات الحدود بين ألمانيا وبلجيكا وبين ألمانيا وفرنسا ونزع سلاح أراضى الرين .

لهجوم دولة ثالثة . وخلال السنوات التالية بدا كأن العلاقات الألمانية — السوفيتية تزداد مكانة . حتى إذ ما دعت النازية وقويت تحولت الأمور الدولية إلى تيارات جديدة خطرة . إذ اعتقد الاتحاد السوفيتى أن حكومات الغرب الإمبريالية — وخاصة بريطانيا — تحث النازى على غزو النمسا وتشيكوسلوفاكيا تمهيداً لضرب ألمانيا للاتحاد السوفيتى .

الفصل الحادي عشر

الحركة الفاشستية

- دور موسوليني
- نظامه الفاشستي
- علاقة الحكومة الفاشستية بالبابوية .
- النشاط الفاشستي التوسعي الإستعماري .

- فيومى
- ألبانيا
- طنجة
- الحدود المصرية — الليبية
- الحدودالتونسية — الليبية
- تونس

تطور الفكر الإيطالى نحو الفاشستية :

إن توقعات المؤرخين خلال القرن التاسع عشر لمستقبل إيطاليا — كدولة برلمانية تقوم على المبادىء الحرة الديمقراطية — لم تكن تشير إلى أنها ستصبح بعد سنوات ثلاث من عقد الصلح فى ١٩١٩ دولة فاشستية دكتاتورية وضمت جانبا الحكم الديمقراطى البرلمانى .

فإيطاليا فى الواقع بدأت القرن التاسع عشر بتيار قوى من الفكر الحر الديمقراطى بسبب تأثير الثورة الفرنسية عليها ، وارتبطت الحركة الوحدوية فيها بالحركة الدستورية . فلقد أصدر شارل ألبرت دستوراً لبيدمونت، وعندما حاول الامبراطور النمساوى إرغام ملك بيدمونت فيكتور عمانويل على التخلى عن الدستور صمم على الاحتفاظ لبلاده بالدستور ، ثم تحققت الوحدة مع الحياة البرلمانية فى آن واحد .

ولكن الشعب الإيطالى كان ينظر إلى الأساليب — التى تمت بواسطتها الوحدة الإيطالية[1] ، والطريقة التى انتقلت بها إيطاليا من التحالف الثلاثى إلى جانب دول الوفاق الثلاثى — نظرة إستياء واتهام للحكومات بأنها مجرد مؤامرات دنيئة كان يجب على الإيطاليين — مؤسسى الإمبراطورية الرومانية — إن لا يقدموا عليها .

وخلال تلك الفترة الطويلة من الحياة البرلمانية ، والمشاركة فى السياسة الدولية كانت صورة الساسة الايطاليين لدى الشعب سيئة للغاية ، كانوا فى نظره مجرد متآمرين على الصعيد الدولى ، يستخدمون هذه الدولة ضد تلك ليحصلوا على مكاسب ما ، ويديرون أمور الدولة من منصة البرلمان بشكل من التآمرات الحزبية ، والتكتلات القائمة على المصالح المشتركة التى تهم الحاكمين دون المحكومين .

---

(١) يقصد بذلك تحقيق الوحدة الإيطالية بالسيوف الفرنسية والتآمر مع نابليون الثالث ، ثم مع بسمارك .

وقد وصف أحد المؤرخين إيطاليا حينذاك بقوله :

« لقد كان الناس فى إيطاليا يمقتون رجال البرلمان والموظفين المدنيين . والحق إن الفئة الوحيدة من موظفى التاج التى تتمتع باحترام الناس هى فئة رجال الجيش ، فهؤلاء — سواء من الضباط أو من الجنود — كانوا يعيشون عيشة بعيدة عن الترف مكرسين أنفسهم لخدمة التاج دون نظر إلى أى كسب لأشخاصهم » .

كان هذا قبل الحرب العالمية الأولى ، ولكن بعدها كانت هزيمة الجيش الايطالى وفراره مذعوراً أمام الجيش النمساوى الألمانى خلال موقعة كابوريتو الأمر الذى تألم له كل إيطالى . أما الانتصار الأخير الإيطالى ، على الجيش النمساوى المنهار المتداعى فكان فى موقعة فيتوريو فينيتو[1] ، ولكنه لم يخفف من آلام الشعب النفسية .

وأخيراً تحدث الحلفاء ، وبالذات الفرنسيون ، عن ضآلة المجهود الحربى الذى بذلته إيطاليا خلال الحرب ، وأن حصول إيطاليا على تريستا وإيستريا والترينتينو والأديج الأعلى يتناسب تماماً مع ذلك المجهود الإيطالى المتواضع . وهزىء الفرنسيون من الإيطاليين خلال مؤتمر الصلح عندما طالبوا بمستعمرات جديدة تضاف إليهم ولهذا خرج الإيطاليون من مؤتمر الصلح ومن معاهدة فرساى دون أن يحققوا أهدافهم التوسعية ، وعبر موسولينى عن ذلك بقوله :

« لقد خرجت إيطاليا من الوليمة الاستعمارية الفاخرة خاوية الوفاض » إذا قيس ما حصلت عليه إيطاليا بما حصلت عليه كل من فرنسا وبريطانيا من مستعمرات كثيرة على حساب الامبراطورية العثمانية والإمبراطورية الألمانية . وكانت لإيطاليا أطماع واسعة فى أملاك لكل من هاتين الإمبراطوريتين .

ولقد كانت الآمال معقودة لدى الجماهير على أن إيطاليا وقد خرجت من الحرب منتصرة لن تحصل فقط على مكانة دولية رفيعة ، أو على مكاسب أرضية كبيرة ، بل

---

(١) Vittorio Venetto

وأيضا على ارتفاع مستويات الدخل الفردى وازدهار بين مختلف أفراد الشعب ولكن انتهت الحرب بخيبة أمل إيطالية إزاء موقف الحلفاء المعارض للأطماع الإيطالية ، وإزاء الأزمة الإقتصادية الكبيرة التى تعرضت لها إيطاليا فى أعقاب الحرب . فقد عانت إيطاليا من نقص شديد فى الفحم والحديد وارتفعت الأسعار بشكل جنونى ، وقلت الكميات المعروضة من المواد الغذائية. ووقع الضرر أكثر ماوقع على الفئات محدودة الدخل وخاصة العمال الذين كانوا أكثر من غيرهم تعرضاً لمشاكل الغلاء وللتوجيهات الدعائية التى كان يطلقها دعاة الإصلاح من الإشتراكيين الإيطاليين . وقد ثبت أن حكومات السياسيين القدامى عجزت عن معالجة الأهداف الوطنية بما تستحقه هذه الأهداف من جرأة وحزم وتنفيذ . وكان موقف الحكومة فى الداخل هو فى حقيقته أيضا موقف التخاذل حيث أن القوى الكبرى الاشتراكية والفاشستية[1] كانت تنمو وتتصارع وبدلا من إن تدخل الحكومة طرفا فى هذا الصراع بطريقة أو بأخرى تركت الأمور تسير على عادتها على أمل أن ينتهى الصراع إلى تدهور الإشتراكيين والفاشست فى آن واحد ، وهذه سياسة خرقاء حينذاك .

فالقوى الداخلية المتمردة على الحكومة كانت عديدة وقوية . وكان طبيعيا إزاء هذا الضعف من جانب الحكومة أن تتعدد الإضرابات والتمردات، فى ١٩١٩ وفى ١٩٢٠ و ١٩٢٢ ، خاصة فى الأوساط العمالية المتأثرة بالأفكار الاشتراكية وبالإتجاهات اليسارية . بل لقد بلغ الأمر بالعمال أن احتلوا المعامل ، بينما احتل العمال الزراعيون فى بعض الأماكن الأملاك الزراعية وكانت الأحزاب الإيطالية نفسها عاجزة عن خلق نوع من الحكومة القوية أو الزعامة القادرة على الارتفاع إلى مستوى القيادة الوطنية القادرة على أن تمسك بزمام الأمور كما كانت أحزاب اليمين التقليدية مفككة ، و كانت أحزاب اليسار الاشتراكية مفككة كذلك . ومع أن « نيتى » رئيس حكومة إيطاليا فى ١٩١٩ كان نزيها ومحاميا

---

(١) Fusci وهم جماعة معادية للشيوعية والاشتراكية أيدها موسولينى قبل الحرب العالمية ثم طورها إلى حزب واسع النطاق فى إيطاليا .

(التاريخ المعاصر)

قديرا ، ولكنه ليس برجل الدولة ، إذ ليست له صفات القيادة السياسية أو الجماهيرية .

أما جيوليتى Giolitti فكان من ذلك الطراز القديم من رجالات السياسة المتمرنين على المناورات البرلمانية والمباريات الدبلوماسية والطموح القائم على التفاعلات الحزبية والأزمات بين قوى المعارضة . كان ينظر بعين الحسد والغضب إلى نمو عدد الاشتراكيين الايطاليين ، وبنفس العين كان ينظر إلى نمو عدد الفاشست من أتباع موسولينى(١) .

لقد كان موسولينى اشتراكيا وقوميا كان الفكر الاشتراكى يملى عليه أن يقاوم دعاة الحروب ، ولكن شاهد بنفسه كيف أن الاشتراكيين الألمان وقفوا إلى جانب حكومتهم من إعلان الحرب (١٩١٤) ، وإعداد البلاد بكافة إمكانياتها لخوض حرب طويلة ، ولم ينتقد الاشتراكيون الألمان تعدى حكومتهم وجيشهم على حياد بلجيكا . لقد تأكد أن الاشتراكيين الألمان وضعوا الأهداف القومية قبل الأهداف الاشتراكية ، فلماذا يتشبث هو بهذه الأهداف الاشتراكية العالمية . وما هو مصير الاشتراكية لو وقفت هكذا متمسكة بالمثالية الحديثة خارج ألمانيا ، بينما هى تشن حرب توسع وسيطرة بالتعاون مع حكومتها الألمانية .

إزاء هذا كله ، غير موسولينى من مبادئه تغييراً يخدم فكره القومى ، فأخذ ينادى بضرورة دخول إيطاليا الحرب بصف الحلفاء حتى تتمكن إيطاليا من تحقيق

---

(١) ولد بنيتو موسولينى B nito Mussolini فى ٢٩ يوليو ١٨٨٣ فى بريدابيو Predappio فى إقليم رومانى Romagne وهى منطقة عرفت بالثورات والتمردات منذ القدم . كان أبوه حداداً معدما ، وكانت أمه معلمة ، واشتغل هو نفسه بالتدريس ثم كرهه وسافر إلى سويسرا واشتغل هناك بناء . ونظراً لأنه كان يخالط الفوضويين كان يطرد كثيراً من الأعمال التى يوظف فيها وحكم عليه بالسجن غير مرة ، ثم غادر سويسرا الى باريس ليطرد منها بتهمة التشرد ثم انخرط فى الجيش . وبعده اشتغل بالصحافة وعارض دخول إيطاليا الحرب ضد تركيا ١٩١١ وحرض العمال على تخريب السكك الحديدية لمنع إرسال الجنود والمؤن الى ساحات القتال . ثم عمل محرراً فى صحيفة اشتراكية . ولكن عارض الاشتراكيين المنادين بعدم دخول إيطاليا الحرب . وطالب بدخولها الحرب . وبدأ نجمه السياسى يبزغ بعد الحرب العالمية الأولى .

مكاسب أرضية على حساب النمسا وغيرها . ونملا دخلت إيطاليا الحرب لتخرج منها بمكاسب بسيطة من وجهة النظر الايطاليه ، بل وبخذلان قومى في (فيومى) .

فعندما طالبت إيطاليا بالساحل الدلماسى لم تطالب به هو فقط ، وإنما مدت مطالبها حتى ميناء فيومى(١) . وهنا عارضها الرئيس الأمريكى ولسن ، على اعتبار أن ذلك توسيعا لنطاق الأطماع الإيطالية بشكل غير متفق عليه .

ومن ناحية أخرى كانت حكومة يوغسلافيا تنظر إلى المطالب الإيطالية فى فيومى بكل قلق ومعارضة لما كانت عليه فيومى من قيمة تجارية واستراتيجية . هذا فضلا عن وجود أقلية سلافية فى المدينة وضواحيها بجوار الأغلبية الإيطالية فيها . إلا أنه لم يكن فى استطاعة أى من الدولتين الإيطالية أو اليوغوسلافية تحديدمستقبل فيومى بنفسها حيث أن المدينة وضعت تحت الاحتلال الفرنسى والإنجليزى لحين تحديد مصيرها .

فدخلت المفاوضات فى طور دولى انتهى إلى حل وسط ، كان فى الواقع على حساب تقدم ونمو المنطقة . نقد اتفقت الدول على جعل فيومى مدينة حرة مثل دانتزج . ولكن الرأى العام الايطالى ثار على هذا متهماً حكومته بالتخاذل إزاء هذا المطلب القومي العام . وقام الكاتب الإيطالى الشهيردانونزيو(٢) بجمع المتطوعين فى البندقية ليقوم هو بنفسه وبمساعدة هؤلاء الوطنيين الإيطاليين بما لم تجرؤ الحكومة الإيطالية على القيام به ، وهو الهجوم على (فيومى) ووضعها تحت الحكم الإيطالى . وكان الرجل قوى البيان ، وكانت حركته تشد إليه العيون وتجتذب القلوب وتجعله بطلا وطنياً إزاء حكومة متخاذلة . وكان الموقف الدولى يخدم حركته كذلك . فإن الدبلوماسية الإنجليزية والفرنسية الكارهة لضم إيطاليا لمدينة فيومى كانت فى نفس الوقت غير قادرة على مواجهة هذه الجماعة من الوطنيين الإيطاليين رفقاء السلاح بالأمس ، ولذلك نجحت حركة (دانونزيو) فى السيطرة على المدينة

(١) Fiume

(٢) Gabriele d'Annunzio.

بل وفى إقناع القوات الفرنسية والإنجليزية بالتخلى عن المدينة التى تسلم زمام الحكم والإدارة فيها (دانونزيو) كاشفا أمام إخوانه الوطنيين بقوة بيانه كم كانت الحكومة الإيطالية متخاذلة إزاء هذا المطلب القومى الكبير . وهكذا بدت الحكومة أمام الشعب الإيطالى ضعيفة غير قادرة على الارتفاع إلى مستوى المسئوليات القومية الملقاة على عاتقها (١٩١٩) .

وأدركت الحكومة الإيطالية أن أمر (فيومى) يمكن أن يكون فى متناول يدها رغم المعارضة الواضحة من جانب الرئيس الأمريكى ولسن . نقررت الحكومة الإيطالية التفاوض مع الدولة الأخرى المعنية بالموضوع والمتصلة به اتصالا مباشراً ، وهى يوغوسلافيا . ودارت هذه المفاوضات فى خريف ١٩٢٠ وأدت إلى أن تصبح مدينة فيومى حرة ،

لقد أخفق الساسة القدامى فى تحقيق أهداف إيطاليا ، ومن ثم فهى مسئولية موسولينى لكى يحقق هذه الأهداف الخارجية والداخلية . وشرع فى تنظيم حزبه (الفاشستى) منذ ١٩١٩ . وبدأ بتكوين مجموعات من الأعضاء الخامدين الذين يكرهون الفكر السياسى التقليدى القديم والذين يخشون على إيطاليا من نمو الفكر الشيوعى الاشتراكى المتطرف فى البلاد . ومن هنا كانت الحركة الفاشستية ضد الشيوعية بعنف لا يقل عن عداوتها للنظام التقليدى القديم المتداعى . فالشيوعية عالمية الأهداف ، أما الفاشستية فهى إيطالية الأهداف قومية وطنية لا تؤمن بحرب الطبقات وإنما بالتعاون بين البرجوازية والعمال .

كذلك إنضم إليه فى أول الأمر عدد من الجنود المسرحين من الجيش بلا عمل فى أعقاب توقف الحرب العالمية . وبدأت تنمو قوائم أتباع الحزب فى مختلف مدن إيطاليا ، حتى أصبحت له فى كل مدينة (رابطة) قوية قادرة على التحرك والقيام بأعمال واضحة رغم أنها كانت مجرد أقلية . واجتذب الحزب أعضاء كثيرين من البرجوازية لوجود تفاهم وأهداف مشتركة . فالبرجوازية تخشى نمو الفكر الشيوعى ، وفى نفس الوقت كان الحزب الفاشستى فى حاجة إلى هذه البرجوازية ، وخاصة الشباب البرجوازى

لأنه كان يتحدث عن زعامة وطنية ولأنه كان قد كفر بالتقاليد البرلمانية العتيقة ولأنه كان يرى فى الحزب الفاشستى فكراً منظماً على الطريقة الإيطالية . وهذا يفسر انضمام أساتذة الجامعات وطلبتها إلى موسولينى .

وركز موسولينى جهوده من أجل كسب العمال إلى جانبه فهو بكسبه العمال يكون قد وجه ضربة قاضية إلى الجناح الشيوعى فى إيطاليا وسلبه الأداة التى يستخدمها للوصول إلى الحكم . وفى أول الأمر لم يكن الكثير من العمال قد دخلوا بعد فى الحزب الفاشستى . ولكن منذ خريف ١٩٢١ بذل موسولينى جهوداً كبيرة لكى يسيطر على نقابات العمال قبل الاشتراكيين . فألف موسولينى « النقابات الفاشستية » وحاول أن يخرج العمال من دائرة الجذب الاشتراكى . ولكن جهوده كانت محدودة فى هذا الصدد حتى تولى الحكم .

إلى جانب هذا التنظيم الحزبى ، واستخدام موسولينى الدعاية لتحطيم الأحزاب المناهضة له . كان رجال الحزب مسلحين ، لايتورعون عن مقاتلة المعارضين ، وخاصة الإشتراكيين والشيوعيين ، ويهاجمون الخصوم ويحطمون ممتلكاتهم .

وكانت هذه التعديات غير القانونية ، والتى ذهب ضحيتها — فى خضم هذا الصراع — من هم أصحاب رأى حر وفكر قومى ، تؤكد يومابعد يوم أن الحزب وزعيمه لن يقبل إلا تسلم السلطة والانفراد بها . ومع أن الحكومة القائمة حينذاك كانت تعلم تفاصيل ما يحدث من تحركات عسكرية ، ومؤامرات نهب وقتل يشنها الحزب الفاشستى ضد الاشتراكيين إلا أنها لم تقدم على عمل تسيطر به على هذا الحزب أو حتى الحد من أعماله ضد الأموال والأرواح . ولعل ذلك لا يرجع فقط إلى عقلية الوزراء التقليدية القديمة فقط بل ترجع إلى الاعتبارات الرئيسية التالية : —

١ — لقد كانت الحكومات الايطالية حينذاك ضد الاشتراكية ومبادئها ومن ثم كان قيام موسولينى بضرب الاشتراكيين يكفى الحكومة عناء القبض عليهم والتورط فى محاكمات تفضح مخازى الحكم والحكومة .

٢ — إن الفكر العام الإيطالى كان يعارض الفكر الشيوعى .

٣ — لم يكن لدى الاشتراكيين زعيم على مستوى موسولينى من حيث قوة الشخصية والقدرة على كسب أنظار الجماهير بالخطب النارية القومية .

ومن ثم كانت الظروف تخدم موسولينى وحزبه وتعده لتسلم السلطة عندما تصبح الأمور واضحة أمامه . خاصة بعد أن أصبح الحزب الفاشستى أقوى الأحزاب وإن لم يكن بعد صاحب الاغلبية .

كان موسولينى يدرك أن حصوله على الأغلبية العددية بالنسبة لباقى الأحزاب من الأمور المتعذرة أو التى تتطلب وقتا طويلا حتى بعد أن ثبت أن الحركة الفاشستية تفوقت على الحركة الاشتراكية . ولذلك شرع موسولينى فى التمهيد للوصول إلى الحكم . فأعلن أن الحكومة يجب أن تعيد النظر فى توزيع الحقائب الوزارية بما يعود عليها بالقوة ، وهذا لايتأتى إلا بإعطاء الحزب الفاشستى خمسة حقائب منها . ولكن رفضت الحكومة القائمة أن تتخذ إجراءات ما بهذا الصدد . فأقدم موسولينى على الخطورة التالية وهى إحراج مراكز الحكومة ، وذلك عندما أعلن « الزحف على روما »(١) (١٩٢٢) .

و « الزحف على روما » هو نقطة تحول كبيرة فى تاريخ إيطاليا بصفة عامة، وتاريخ موسولينى وحزبه الفاشستى بصفة خاصة . فقد طلب موسولينى من أعضاء حزبه فى الأقاليم والمدن الإيطالية أن يأتوا من مقارهم ليتجمعوا فى ساعة محددة فى ضاحية روما . وكان هذا اختياراً حاسما وصداماً لا رجعة فيه بين الوزارة التقليدية برئاسة (فاكتا)(٢) والحركة الفاشستية بقيادة موسولينى .

---

(١) March on Rome

(٢) Facta

وكان (فاكتا) الضعيف يدرك أن الموقف لم يعد يحتمل التغاضي عنه واتخذ تدبيراً هو في الحقيقة يهدف لإعادة هيبة الحكومة إزاء حزب خرج عن قواعد الأمن وحشد رجالا شبه عسكريين في العاصمة بقصد إسقاط الحكومة بالعنف . كان (فاكتا) يطالب باتخاذ خطوة قوية عسكرية ضد الفاشست ومنعهم من التجمع في العاصمة ، وطلب من الملك إعلان الأحكام العرفية . ولكن شعور الملك بأن البلاد ستهوى في غياهب الحرب الأهلية آثر أن يرفض طلب (فاكتا) وأن يعطى فرصة لحل وسط . واستقالت حكومته في ٢٨ أكتوبر ١٩٢٢ وطلب الملك من سالاندرا أن يشكل وزارة يكون بعض وزرائها من الفاشست . ولكن هذا الضعف من جانب الحكومة السابقة ومن جانب الملك جعل موسوليني يقدم على الخطوة التالية بسرعة وهي أن ينفرد هو بالزعامة في البلاد . ولذلك رفض أن يتخلى عن مطالب جديدهو إسناد رئاسة الوزراء إليه فما كان من الملك إلا أن رضخ لهذا الطلب الجديد وتولى موسوليني الحكم في تشرين الثاني نوفمبر ١٩٢٢ ليستمر حتى إعدامه في ١٩٤٥ .

كانت هناك اعتبارات جوهرية تمنع موسوليني من أن يحتكر دفعة واحدة الحكم والوزارة والمناصب العليا للفاشست . وهذه الاعتبارات هي :

١ — لقد كان يؤكد أنه ليس ضد النظام الملكي . ومن ثم كان عليه أن يبقى الملك في مكانه ، وإن كان يضمر سلبه كل الصلاحيات والسلطات التي يستطيع أن يستخدمها ضد الحزب الفاشستي في المستقبل . وكان هناك عدد كبير من المواطنين من أنصار الملكية لم يكن موسوليني في حاجة إلى الصدام معهم في وقت كانت فيه الأذهان التقليدية لا تزال تنظر بعين الحذر إلى النمو السريع للحزب الفاشستي وترى فيه ظاهرة غير قابلة للدوام .

٢ — لقد كان موسوليني في حاجة إلى كسب ثقة الجيش الإيطالي ، ولذلك أسند وزارة الحربية إلى الجنرال دياز Diaz بطل موقعة فيتوريو فينيتو Vittorio Venetto

٣ — لم يكن الحزب الفاشستى بقادر على التحدث باسم الأغلبية بعد . ومن ثم كان موسولينى فى حاجة إلى فترة يستطيع خلالها أن يضع السلطات فى يده بشكل يمكنه من استصدار المراسيم التى تجعل الهيمنة فى النهاية له ولحزبه الفاشستى . وكانت أهم خطوة فى هذا السبيل هو إصداره قانون اشيربو[1] ١٩٢٣ .

فقد كانت الأحزاب متعددة فى إيطاليا ، ولم يكن فى استطاعة أى حزب منها أن يتحدث باسم الأغلبية . ولكن عرف موسولينى كيف يهيء الأمر كى ينفرد الحزب الفاشستى بالتفوق فى البرلمان عندما استصدر قانون أشيربو ١٩٢٣ الذى يعطى لأكثر الأحزاب أصواتاً ثلثى مقاعد المجلس النيابى . وحيث أن الأحزاب الأخرى كانت مفككة ، ولا يستطيع أى منها أن يكون له العدد الأكبر من الأصوات ، وحيث أن الحزب الفاشستى كان منظما وديناميكيا . فقد استطاع أن يحصل على أكبر الأصوات عدداً ، دون أن يحصل على الأغلبية ، ولكن طبقا لقانون أشيربو يصبح له $\frac{2}{3}$ المقاعد وبالتالى تصبح له الأغلبية فى البرلمان . وبذلك أصبح لموسولينى الأغلبية البرلمانية ، وأصبحت له بالتدريج سلطات واسعة[2] يستطيع أن يمارسها فى تنفيذ مشروعاته الداخلية والخارجية ، وبالتالى اتجه موسولينى إلى بناء الدولة الإيطالية الجديدة .

ما هو شكل الدولة التى يريد موسولينى بناءها ؟

---

(١) Acerbo

(٢) من الظروف التى ساعدته على ضم الكثير من السلطات فى قبضته اتهامه بأنه شارك بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر فى حادث مصرع النائب الاشتراكى ماتيوتى Matteoti أحد زعماء المعارضة فى روما . وطالبت كثير من الزعامات الايطاليه والصحافة بأن يقدم موسولينى استقالته وأن يبرىء نفسه من هذه الجريمة . ولكن موسولينى لم يستقل ، بل أعلن فى إصرار عنيد أنه لن يترك خصومه هكذا ، وأنه قد آن الأوان لضرب هؤلاء الخصوم ضربة حاسمة قائلا : « عندما يتنازع عنصران ويتعذر فض النزاع فالحل هو القوة » ، فتخلص من خصومه السياسيين ، وأعلن أن السلطة ستوضع فى يد الفاشست فقط وأن الوقت قد أزف لتجديد مؤسسات الدولة .

الدولة يجب أن تكون تحت حكم قوى نافذ ، وأن الحكم البرلمانى أفسد البلاد حكومة وشعبا ، بسبب أولئك السياسيين الذين مهروا فى المناورات السياسية والألاعيب البرلمانية دون أن يضعوا مصلحة البلاد فى مقدمة الأهداف. ولقد وصف موسولينى ذلك بقوله إن تلك الحرية التى يتشدق بمجدها أولئك الزعماء البرلمانيون، ليست سوى «جثمان الحرية المعفن». إن الحرية الفردية يجب أن تخدم الدولة بأسرها. بل إن الفرد يذوب فى المجتمع وهو جزء منه يضحى من أجله بكل إمكانياته . وعلى هذا الأساس وضع موسولينى نظام الحكم الجديد .

فهو الزعيم (الدوتشى) [١] صاحب السلطة العليا فى البلاد، وكرئيس للحكومة فى يده كل السلطات . وهو الذى يعين الوزراء ويعزلهم ، ويقود الجيش ، وليس الملك أية سلطات سوى توقيع المراسيم والقرارات فقط .

حقيقة ظلت إيطاليا تحت الحكم الملكى (نظريا) على أساس من الدستور الذى صدر منذ أيام شارل ألبرت (١٨٤٨). ولكن الحقيقة — خلال حكم موسولينى — كان الملك والدستور نفسه لا يجديان أمام قوته الطاغية .

أما المظهر البرلمانى للحكم فقد أبقى عليه موسولينى ، وأدخل على مجلس الشيوخ ومجلس النواب تعديلات معينة تجعلهما عند أوامره ولا تجعلهما قادرين على القيام بعمل إيجابى فى توجيه سياسة الحكومة أو محاسبتها . فمجلس الشيوخ كان بالتعيين ، ومن ثم لم يكن يحصل على مقعد فيه إلا من كان يرضى عنهم الدوتشى (موسولينى).

أما مجلس النواب ، فكان يتكون عن طريق فرض قائمة معينة من الأسماء التى يرشحها الحزب الفاشستى ، وبالتالى كان الناجحون كلهم من أعوان موسولينى .

ومع أن موسولينى كان بذلك قد ضمن أن يكون أعضاء مجلسى الشيوخ والنواب غير معارضين له ، فقد أبى إلا أن يضع فى يده كل السلطات حتى التشريعية منها

---

(١) Il Duci.

وذلك بأن أعطى للحكومة الحق فى إصدار التشريعات والقوانين والقرارات فى حالات الضرورة القصوى أو المستعجلة . وتستطيع الحكومة أن تجد المبرر لاستصدار القانون الذى يريده استناداً لحالة الضرورة القصوى تلك .

وفوق هذا وذاك ، كانت الحكومة مستقلة عن البرلمان . ولم يكن فى استطاعة الأخير أن يسحب الثقة منها أو يسقطها لأنها غير مسئوله أمامه . وبذلك يكون البرلمان قد فقد أسس وجوده .

وبعد هذا سعى موسولينى إلى إدخال تعديل جوهرى على نظام التمثيل الشعبى، فجعله يقوم على أساس اقتصادى نقابى فيتجمع العمال فى نقابات وهذه النقابات تصبح القوة الحقيقية فى البلاد ومنها يخرج ممثلو الشعب ، وبالتالى يجنب البلاد ويلات الصدام بين الطبقات . وفى ١٩٣٠ أعلن تأسيس (المجلس الوطنى) الذى ينتخب من رجال النقابات ، ولم يهمل فى نفس الوقت تمثيل البرجوازية والمثقفين .

كانت تحت يد موسولينى أداة قوية قادرة على الهيمنة على جميع المؤسسات الحكومية وغير الحكومية ، وهو الحزب الفاشستى الذى لم يلبث أن تحول إلى الحزب الوحيد فى البلاد الذى يجب أن يحتوى على القوى الوطنية حتى يتوحد الشعب فى أعماله المنتجة دون ما تعرض للمتاعب التى كانت تثيرها الأحزاب المتنافسة أو زعامات تلك الأحزاب التافهة من وجهة نظر موسولينى .

ومن أجل توطيد وتنفيذ سياسته كان يجب أن تمتنع كل مؤسسات المعارضة عن عملها على اعتبار أن الدولة كلها تتحرك — بفضل الفاشست — فى اتجاه الإنتاج والتطور والنمو بما يجعلها جديرة بأن تكون خليفة للامبراطورية الرومانية . فسيطر الفاشست على الصحافة بالأساليب القانونية أو بالأساليب غير القانونية حتى لقد كتبت إحدى الصحف الفاشستية عن مهمة الصحافة بأنها مجرد الدعاية الموجهة بواسطة الفاشست .

وسعى من بعد ذلك إلى تخليص إيطاليا من نظم الدوائر الانتخابية العتيق ،

الذى كان يقسم البلاد إلى أقسام كل واحد منها مسئول عن إخراج نائب للبرلمان من أولئك النواب الذين أوهنوا إيطاليا خلال الفترة السابقة .

كانت وجهة نظر موسولينى فى نظام الحكم الأمثل تقوم على الأسس التالية :

١ — زعيم مطلق أوحد بيده كافة السلطات . ولهذا كان هو صاحب ثمانى وزارات فى وزارته المؤلفة من ١٨ وزيراً ، وكان رئيس الحزب الوحيد فى البلاد (الحزب الفاشستى) والموجه الحقيقى (للمجلس الأعلى للحزب الفاشستى) الذى كان أقوى سلطة فى البلاد بعد تدهور سلطان البرلمان ، وكان القائد الأعلى للجيش .

٢ — تنظيم الشباب والفتيان والفتيات فى جماعات شبه عسكرية تلقن الإيمان بدور إيطاليا الحضارى والولاء للزعيم موسولينى .

٣ — توجيه العمل الإقتصادى نحو الخدمة الوطنية والتركيز على أن الفرد يذوب فى المجتمع وتنشيطه من أجل رفعة مكانة إيطاليا فى المجتمع الدولى .

فى المجال الخارجى ، كان لموسولينى النشاط الجرىء والأخاذ الذى ساعد على توطيد حكمه فى الداخل . ونعنى بذلك موقفه من الآمال الإيطالية خارج إيطاليا فيما يتعلق بالنواحى التالية :

١ — علاقة الحكومة الفاشستية بالبابوية .

٢ — نشاطه التوسعى الإستعمارى .

١ — علاقة الفاشستية بالبابوية :

كانت البابوية على علاقة غير طيبة بالحكومة الإيطالية منذ ١٨٧٠ أى منذ دخل فيكتور عمانويل روما . وكانت هذه العلاقة السيئة بين هذين الطرفين نقطة ضعف فى حركة البعث الإيطالية . حقيقة حققت إيطاليا وحدتها بضم الأراضى البابوية أولا فيما عدا روما ، ثم ضمت روما فى ١٨٧٠ وكان اللورد آكتون — المؤرخ الإنجليزى الكبير — صادقا حين قال « إن كافور وضع بقدميه أقدس من تيجان

الملوك » . ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن ما أقدم عليه كافور وفيكتور عمانويل وغيرهم من ساسة وقادة حركة البعث الإيطالية والوحدة الإيطالية إزاء مكانة البابوية ليس بأبشع مما أقدم عليه الإنجليز والفرنسيون إزاءها هذا فضلا عن أن الإيطاليين كانوا يواجهون موقفا معقداً وهو اصطدام فكرة الوحدة الإيطالية بنظرية الحقوق الزمنية للبابوية .

وعلى أى حال ، لم يمس فيكتور عمانويل مكانة البابوية الدينية ، وإنما حرم البابا من سلطته كحاكم دنيوى ، إذا ترك له ملكية الفاتيكان . وكان الاتجاه العام الدولى يؤكد على أن شخص البابا مقدس ، وأن الكرسى متمتع بالحصانة إزاء السلطات المدنية الملكية ، وأن للبابا الحق فى عقد صلات مع الخارج عن طريق إرسال مندوبين سياسيين ، وإن كان هذا يتم فى إطار قوانين إيطاليا بالذات وليس فى إطار القانون الدولى. إن تلك المكانة العالمية ، وذلك الارتباط الإجبارى بإيطاليا هو الذى جعل البابوية فى حرج إزاء حكومة إيطاليا ، وجعل الأخيرة فى حرج إزاء البابوية التى كانت أشبه بأن تكون دولة داخل الدولة ، خاصة بعد أن نمت مكانة البابوية دوليا خلال الحرب العالمية الأولى ، وبسبب إعتزام دول كبرى مثل فرنسا وبريطانيا تبادل التمثيل الدبلوماسى مع البابوية . هذه المكانة الدولية للبابوية ، وحاجة موسولينى إلى التفاهم مع البابوية والوصول إلى اتفاقية تنظم العلاقة بينهما كانت كلها ظروفاً ممهدة لعقد اتفاقية لاتران[1] فى ١١ شباط (فبراير) ١٩٢٩ .

لقد كانت هذه الاتفاقية تتضمن معاهدة وكونكوردات[2] . وفيها اعترفت حكومة إيطاليا «بدولة الفاتيكان» وبأن لها منفذاً إلى البحر وتشمل قصر الفاتيكان وملحقاته ، وبأن للبابا فيها حقوق السيادة ، وله شخصية دولية ، ومنحت الكنيسة حق النظر فى القضايا الكنسية دون أن تجد معارضة من جانب الحكومة طالما أن ذلك لا يشكل خطراً على الدولة الإيطالية . كما أكدت الحكومة عدم تدخلها فى تعيين الأساقفة بواسطة البابا إلا إذا ظهرت أسباب سياسية قوية تضر بكيان

(١) Lateran
(٢) Concordat هى اتفاقية تعقد بين البابا وأية سلطة حكومية

الحكومة ، كما أقرت الحكومة بإدخال التعليم الدينى فى المدارس الحكومية .

لقد أحرز موسولينى بعقده المعاهدة والكونكوردات مع البابوية كسبا كبيراً ، حتى لقد قيل عن ذلك :

« إن البابا أضفى على الحكومة الفاشستية رونقا وبهاء ودعم بقاءها واستمرارها بصورة لم يكن فى استطاعة أى حاكم آخر أن يأتى بمثلها . ولا شك أن بقاء دكتاتورية موسولينى أكثر من إحدى وعشرين سنة كان جانب كبير من الفضل فيه راجعا إلى توفيقه فى مسايرة الحبر الأعظم »[١] كما قال موسولينى نفسه فى هذا الصدد :

« يستطيع المرء فى النهاية أن يكون فى الوقت نفسه إيطالياً صالحاً (أى فاشستيا) وكاثوليكيا صالحاً »[٢] .

٢ — النشاط الفاشستى القومى والاستعمارى :

كان نشاط موسولينى مركزاً عند البداية على أن تصبح إيطاليا هى الدولة الأولى فى حوض البحر المتوسط . ولو ألقينا نظرة على القوى الكبرى المطلة على البحر المتوسط لتحديد مكانة إيطاليا ومدى خطورة أهداف موسولينى لوجدنا الأمور على النحو التالى :

١ — الجمهورية التركية تعمل على التخلص من آثار الهزيمة فى الحرب العالمية الأولى ، ولكنها كانت لا تزال فى الخطوة الأولى فقط ولا تستطيع أن تلعب دوراً إيجابيا فى توجيه مقدرات حوض البحر المتوسط .

٢ — الانتداب الفرنسى على سورية ولبنان، والانجليزى على فلسطين يشل هذه البلدان العربية على أن تلعب دوراً فى تحديد مستقبل حوض البحر المتوسط بل

---

(١) جرانت وتمبرلى : أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ج ٢ ، ص ٣٨٢ .
(٢) المرجع السابق نفسه.

إن فرنسا التى كانت تضع قدما فى لبنان وسورية وأخرى فى تونس والجزائر ومراكش ، كانت قادرة على أن تلعب دوراً خطيراً فى المنطقة لا يقل عن الدور الذى يمكن أن تلعبه بريطانيا من مواقعها فى فلسطين ومصر وقبرص ومالطه ، وجبل طارق . خاصة وأن فرنسا المجاورة لإيطاليا تطل بسواحلها على البحر المتوسط .

٣ — كانت اليونان قد خرجت مهزومة أمام تركيا فى ١٩٢٢ بعد نجاح القوات التركية فى طرد الجيش اليونانى من الأناضول ، وبالتالى فقدت اليونان فاعليتها كقوة قادرة على التحرك سياسيا وعسكريا بعد أن ثبت فشلها أمام دولة مهزومة فى الحرب العالمية الأولى (تركيا) .

٤ — أسبانيا : كانت منقسمة على نفسها ، وتتعرض لأزمات داخلية تحول دون قيامها بدور جوهرى فى حوض البحر المتوسط .

٥ — أما إيطاليا فكانت ذات تطلعات كبرى ، فقد كانت تحتل فعلا فى البحر المتوسط جزر الدودكانيز[1] وجزيرة رودس وليبيا وتتفوق على بريطانيا باتهامها الإنجليز بأنهم دخلاء ، وأن من يجب أن يدير أمور البحر المتوسط هم أهله . حقيقة تتفق فرنسا من حيث هذه النظرية فى تساويها مساواة مع إيطاليا ، ولكن الفرنسيين لا يقبلون بأى يتساوى الإيطاليون مع فرنسا التى عاشت فى دبلوماسية وحروب البحر المتوسط زهاء أربعة قرون كاملة هى تاريخ أوربا الحديث ، وكانت فرنسا تلعب الدور الأكبر فى توجيه مقدرات حوض البحر المتوسط خاصة منذ بداية القرن التاسع عشر .

إلا أن موسولينى — والايطاليين من ورائه — كانت لهم دوافع تاريخية وأمجاد تليدة تجعل تلك الإدعاءات الفرنسية تتضاءل أمام الحجج الإيطالية . ولقد كانت إيطاليا قلب الامبراطورية الرومانية النابض ، وكان حكمها على كل حوض البحر المتوسط من أقصى شرقه إلى أقصى غربه .

---

(١) Dodecanese

ففى خطاب ألقاه موسولينى فى ٤ أكتبر (تشرين أول ١٩٢٢) قال فى هذا الصدد :

« إذا ألفينا الإيطاليين كقوة وحيدة نحو مهام عالمية وجعلنا من البحر المتوسط بحرنا(١) ارتبطنا مع من يعيشون فى البحر المتوسط وطردنا من هم طفيليات فيه ، إننا إذا قمنا بهذا العمل الشاق .... نكون حقاً قد بدأنا عهداً عظيماً فى التاريخ الإيطالى » .

لقد أصبحت سياسة جعل البحر المتوسط مجرد بحيرة إيطاليا هى سياسة موسولينى التى ألهبت مشاعر الإيطاليين .

فكان طبيعياً أن تقف كل من فرنسا وانجلترا موقف الحذر الشديد من تحركات إيطاليا السياسية والعسكرية حفاظا على مكاسبها غير المشروعة فى المنطقة . ولكن إيطاليا كانت تضغط بقوة لمشاركة تلك الدول الأوربية فى بعض مكاسبها . ومن هنا نشأت المفاوضات بين إيطاليا والدول المعنية حول الموضوعات التالية :

١ — إيطاليا وضم فيومى .

٢ — إيطاليا والمشكلة الألبانية .

٣ — المشاركة الإيطالية فى إدارة طنجة .

٤ — تعديل الحدود بين ليبيا ومصر (بريطانيا) .

٥ — تعديل الحدود بين ليبيا وتونس (فرنسا) .

٦ — تقوية مكانة الإيطاليين فى تونس .

٧ — استعمار الحبشة .

---

(١) Mare Norum

١ — ضم فيومى :

كان تقاعس حكومة جيوليتى عن تأييد وتثبيت الجهود التى قام بها الشاعر الإيطالى دانونزيو فى فيومى ، بل إقدامها على طرده منها كان واحدة من النقاط السود فى تاريخ الحكومات قبل موسولينى ، وكان نقطة ضعف استخدمها موسولينى بمهارة. أما وقد تولى المسئولية ، فعليه أن يحقق هذه الرغبة الشعبية ،وكان موسولينى يدرك أن القوة العسكرية البرية والبحرية هى الكفيلة بأن تفرض الأمر الواقع على الخصوم ، وأن المشاكل التى تواجه أوربا فى العشرينات كفيلة بأن تحث الدول الأوربية الكبرى على إرضاء إيطاليا . ولقد ثبت لديه أن الدول الأوربية وقفت عاجزة أمامه عندما أعلن فى ١٩٢٣ ضم جزر الدوديكانيز[1] التى كانت قد استولت عليها من تركيا — مع رودس — فى ١٩١١ وأقدمت بعد ذلك على الخطوة الأخطر .

ففى السنة التالية أقدمت على ضم (فيومى) ، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت دول البلقان تنظر إلى إيطاليا على اعتبار أنها قوة تهدد أمن وسلامة المنطقة . خاصة وأن هذا النصر السريع الذى احرزه الفاشست ضخمته أجهزة الإعلام الإيطالية بحيث أصبح الشعب ينتظر المزيد . وكانت الخطورة الموجهة صوب ألبانيا مثيرة للمخاوف .

٢ — إيطاليا والبانيا :

كانت البانيا وليدة الحرب البلقانية — التركية ١٩١٢ / ١٩١٣ وكانت مساعى حكومتى النمسا — المجر وإيطاليا فى ظهور البانيا مستمدة من رغبتهما فى منع وصول الصرب إلى البحر الأدرياتى . وفى ١٩١٤ اقتسمها اليونان والإيطاليون . ثم استعادتها النمسا فى ١٩١٥ لتحررها القوات الصربية والإيطلية والفرنسية فى ١٩١٨ . وتشكلت فى ديسمبر — كانون أول من نفس السنة جمعية وطنية وحكومة ، وعادت

Dodecanese Island. (١)

حدود ألبانيا — بعد إنسحاب قوات الحلفاء منها — إلى ما كانت عليه فى ١٩١٣ ودخلت عصبة الأمم، رغم المطالبات الإيطالية القوية بأن تصبح ألبانيا تحت الإنتداب الإيطالى . إذ كان الرئيس ويلسون الأمريكى أشد المعارضين للاطماع الإيطالية فى ألبانيا .

وفى مطلع العشرينات أصبح أحمد زوغو — وهو زعيم مسلم ، أقوى شخصية فى ألبانيا وتولى منصب رئيس الوزراء ، ولكن واجهه تمرداً خطيراً تزعمه الأسقف (نولى)[1] فى ١٩٢٤ واضطر زوغو إلى الفرار من البلاد ، ولكن فشلت حكومة (نولى) فى السيطرة على البلاد ، وتمكن أحمد زوغو من العودة إلى بلاده بمساعدة يوغوسلافية ، وأعلن قيام الجمهورية الألبانية (١٩٢٤) وأصبح رئيسا لهذه الجمهورية فى ١٩٢٥ .

اتجه زوغو بعد ذلك إلى إنقاذ إقتصاديات بلاده ، ولكنه سلك الطريق الخطر وهو الإقتراض المالى من دولة طامعة فى بلاده وهى إيطاليا . ولهذا نجد موسولينى يقدم له القرض بعد الآخر ، حتى جعل إقتصاديات ألبانيا وسياستها فى قبضة الحكومة الإيطالية . وتبلور هذا فى معاهدة تيرانا بين البانيا وإيطاليا فى ١٩٢٦ .

اعتبرت يوغوسلافيا هذه المعاهدة موجهة ضدها فتقاربت من فرنسا وتعاهدت معها ، الأمر الذى جعل فرائص حكومة ألبانيا ترتعد وتزداد التصاقاً بإيطاليا ، وتجددت معاهدة تيرانا فى ١٩٣١ وكان قبل ذلك بعامين قد أعلن زوغو نفسه ملكا دون أن يسعى إلى توطيد الديمقراطية المتدهورة فى بلاده .

وأدرك زوغو — بعد فوات الأوان — أن التغلغل الإيطالى أصبح يهدد كيان البانيا ، فاتخذ سلسلة من الإجراءات المناهضة للمصالح الإقتصادية والثقافية الإيطالية فى ألبانيا (١٩٣٢) ، فما كان من موسولينى إلا أن بعث بقطع الأسطول إلى ميناء

(١) Noli.

دورازو ، فاضطر زوغو إلى أن يوقف تلك الإجراءات ، ولكن لم تلبث توسعات هتلر فى أوربا أن حثت موسوليني على أن يكسب شيئا هو الآخر فوجه قوانه ضد ألبانيا واستولت على عاصمتها فى ١٩٣٩[1].

٣ — طنجة :

قبيل الحرب العالمية الأولى أصبحت يد فرنسا مطلقة فى مراكش ، إلا أن بريطانيا كانت ترفض أن تسيطر فرنسا وحدها على طنجة (المواجهة لجبل طارق) ولهذا أقيمت إدارة دولية لطنجة بمقتضى معاهدة وقعتها فرنسا وبريطانيا فى ١١ مايو (أيار) ١٩٢٤ واعترفتا بحيادها ، ولكن كان واضحا أن فرنسا هى صاحبة الكلمة الأعلى فى هذه الإدارة بالتعاون مع بريطانيا . ووجد موسوليني أن توقيع مثل هذه الاتفاقية يتنافى مع سياسته الهادفة إلى أن تقوم إيطاليا بالدور الاول فيما يتعلق بقضايا البحر المتوسط . وساعد موسوليني فى الضغط على كل من فرنسا وبريطانيا أن أسبانيا لم تلبث إن أيدت المشاركة الإيطالية فى إدارة طنجة (١٩٢٦)، وأثمر الضغط وأعيد النظر فى نظام إدارتها بحيث اشتركت إيطاليا بثلاث أعضاء فى المجلس التشريعى للمدينة الذى يضم أعضاء فرنسيين وإنجليز وأسبان وأقلية من المندوبين الوطنيين .

لقد ضخمت الصحف الإيطالية ذلك الكسب الذى أحرزته دبلوماسية موسوليني . والحقيقة أنه كان كسباً مظهريا لا أكثر ولا أقل، ولم تحصل إيطاليا على ربح واضح من وراء المشاركة فى إدارة طنجة باستثناء ذلك الربح الأدبى الذى يتمشى مع المبدأ الإيطالى الموسوليني (بحرنا) Mare Nostrnm ولقد كان موسوليني من ذلك النوع الذى يرى فى كل نصر أو كسب جديد خطوة كبرى فى طريق الهدف الأعظم ويجب أن تتحدث عنه الصحافة ودوائر الحكومة والحزب الفاشستى بملء الحناجر .

---

(١) أنظر فيما بعد ص :

٤ — تعديل الحدود الليبية ـ المصرية :

كانت إيطاليا ـ بالتآمر مع كل من فرنسا وبريطانيا ـ قد أقحمت حربا ضد الدولة العثمانية للاستيلاء على ليبيا . وتم لإيطاليا ذلك فى ١٩١١ / ١٩١٢ . ولكن الشعب العربى فى ليبيا الذى غلب على أمره مؤقتا لم يلبث أن امتشق الحسام مرة أخرى خلال الحرب العالمية الأولى ضد المستعمر الإيطالى ، واستمرت الحرب بين الطرفين حتى بعد إنتهاء الحرب العالمية إلا أن تسلم الفاشست الحكم وتزعم موسولينى سياسة تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة إيطالية أدت إلى أن يشن موسولينى حرب إبادة ضد الوطنيين العرب فى ليبيا إبتداء من ١٩٢٤ . واستطاعت إيطاليا بعد جهد أن تعيد سيطرتها على ليبيا وحيث أن الحركة السنوسية كانت مصدر المتاعب والثورة ضد إيطاليا . وحيث أن واحة جغبوب كانت مقر الحركة السنوسية فقد عملت الحكومة الإيطالية على أن تضع هذه الواحة ـ التى كانت داخلة ضمن الحدود المصرية ـ تحت رقابتها حتى لاتستخدمها الحركة السنوسية ضد الاستعمار الإيطالى فى ليبيا .

وحيث أن مصر كانت تحت الهيمنة البريطانية حينذاك فقد تعرضت مصر — وكانت فى السنوات الأولى من عهدالاستقلال ـ لضغط متواصل من جانب إيطاليا ، ومن جانب بريطانيا التى أرادت أن تحسن علاقاتها مع إيطاليا على حساب مصر . فوضعت إيطاليا يدها على واحة جغبوب .

٥ — قضية الحدود الليبية — التونسية :

كانت قضية الحدود هذه تتسق بأمرين ، هيبة إيطاليا التى كان موسولينى يريد أن يفرضها على فرنسا . وأن يجعل إيطاليا قادرة على أن تخاطب فرنسا من مركز الندية . ولعل المستقبل يؤدى إلى أن تتحدث إيطاليا مع فرنسا من مركز القوة . وكانت مشكلة الحدود الليبية التونسية واحدة من نقاط الاحتكاك المباشر بين إيطاليا وفرنسا . وفى هذه المشكلة واجهت إيطاليا خصما عنيداً صلبا بعكس الحال

بالنسبة لقضية وحدة جغبوب . ولهذا لم تحصل الحكومة الإيطالية من فرنسا إلا على تعديل جزئى فى الحـــدود يمنح إيطاليا طريقا للقوافل يربط بين ليبيا وإفريقية الوسطى .

٦ — قضية الإيطاليين فى تونس :

المعروف أن إيطاليا كانت هى التى تأمل فى أن تستعمر تونس إلا أن فرنسا سبقتها إليها واتفقت مع بريطانيا على احتلالها وتم ذلك لفرنسا فى ١٨٨١ الأمر الذى دفع إيطاليا إلى التحالف مع كل من ألمانيا والنمسا حتى غيرت إيطاليامن موقفها ودخلت الحرب العالمية الأولى بجانب الحلفاء . وخلال تلك السنوات التى انقضت منذ الاحتلال الفرنسى لتونس حتى العشرينيات من القرن العشرين كانت فرنسا تحث مواطنيها على الهجرة إلى تونس لتقوية الأقلية الفرنسية هناك لتثبيت الاستعمار الفرنسى، ولكن فرنسا لم تكن منطقة طرد بشرى الأمر الذى أدى إلى هجرة الإيطاليين ليعملوا فى تونس فى إطار السياسة الاستعمارية الفرنسية فهم على أى حال أوربيون . وحيث أن البطالة كانت منتشرة فى إيطاليا فقد تدفقت أعداد كبيرة من إيطاليا على تونس حتى أصبحت الجالية الإيطالية هناك كبيرة للغاية . فقد كانت نسبتهم عشرة أمثال عدد الفرنسيين المقيمين فى تونس فى ١٨٨١ . ولم تنجح الجهود الفرنسية لتغلب

الفرنسيين على الإيطاليين من الناحية العددية. وكان هذا الضغط المتواصل الإيطالى سبباً فى أن ترضى الحكومة الفرنسية بتسوية المشكلة فى ١٨٩٦ على أساس اعتراف إيطاليا بالحماية الفرنسية على تونس فى مقابل إعطاء الإيطاليين فى تونس الامتيازات التالية :

١ — للايطالى فى تونس الحق فى الاحتفاظ بجنسيته الإيطالية إذا أراد ذلك .

٢ — يتساوى الإيطالى مع الفرنسى فى الحقوق المدنية .

٣ — حق الإيطاليين فى الهجرة إلى تونس .

اعطت هذه الإمتيازات الإيطاليين فى تونس الفرصة لا لأن يصبحوا جالية قوية بل وإن يصبحوا فى مطلع العشرينيات من القرن العشرين أشبه بدولة داخل الدولة. وحاولت السلطات الاستعمارية الفرنسية أن تكسر شوكة الجالية الإيطالية فى تونس بالطرق القانونية ولكن الحكومة الإيطالية كانت بالمرصاد لكل محاولة من هذا النوع .

فعندما حاولت الحكومة الفرنسية إلغاء اتفاقية ١٨٩٦ احتجت الحكومة الإيطالية بشدة على هذا الإجراء ، وقامت الصحف الإيطالية بشن حملة كبيرة ضد فرنسا (١٩٢٦ — ٢٧) وظلت المشكلة معلقة حتى وقع التقارب الإيطالى الفرنسى فى ١٩٣٥ واتفقت الدولتان على تسوية مشكلة الإيطاليين في تونس لصالح فرنسا ، أى بإلغاء اتفاقية ١٨٩٦ بالتدريج وفي مقابل هذا ، على ما يبدو ، حصل موسولينى من رئيس الوزراء الفرنسى (لافال) على وعد منه بعدم اعتراض فرنسا على السياسة الإيطالية نحو الحبشة . وكان هذا فى نظر إيطاليا يعنى أن لها حرية العمل بما يكفل لها السيطرة على الحبشة .

٧ — شنت إيطاليا الفاشستية هجوما عدوانيا على الحبشة واستولت عليها (١٩٣٦) رغم قرارات عصبة الأمم[١] .

وقد صور أحد المؤرخين إيطاليا فى الثلاثينات بقوله :

« لقد ارتمت إيطاليا تحت أقدام موسولينى ، وبهذا استطاع أن يحقق سيطرة تكاد أن تكون كاملة على كل ألوان النشاط فى الحياة الإيطالية . وقد سرى الفساد فى جسم النظام الاجتماعى الإيطالى كله من جراء التأثير الفاشستى الذى كان ينخر فيه كما ينخر السوس . وكان البنيان كله قد انتابه الوهن والفساد حتى ١٩٤٠ ، بحيث لم تعد هناك وسيلة تستطيع بها إرادة الشعب الإيطالى أن تقاوم

---

(١) سنتعرض لهذا الموضوع فيما بعد .

مشيئة دكتاتوره التى أدت بالشعب إلى الهلاك . أما أعضاء ما كان يسمى تأدبا بالحكومة الإيطالية ، فلم يكونوا إلا أدوات لموسولينى . ورغم أن الزعماء الفاشستيين كانوا على علم بمبلغ جهل الدوتشى وعناده وتورطه فى الخطأ دون تبصر ، فإن مشيئته كانت لديهم بمثابة القانون . وذلك لأنه ما من فرد فى إيطاليا من الملك إلى وزرائه ، ومن القواد إلى أقطاب الصناعة ، كان يجرؤ على معارضته »[١] .

(١) أنظر ما ذكره سمرولز أعلاه فى جرانت وتمبرلى : تاريخ أوربا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ج ٢ : ص ٣٨٣ .

الفصل الثاني عشر

ألمانيا

من حكومة فيمار إلى النازية

حكومة فيمار

كانت الحكومة التى تشكلت بزعامة الإشتراكى إيبيرت[1] مسئولة عن مواجهة نتائج الهزيمة ، وكان عليها أن تواجة نتائج مؤتمر الصلح ، والأزمة الإقتصادية والأزمات التى كان يثيرها الشيوعيون والرجعية الملكية فى آن واحد .

١ — فالمعروف أن معاهدة فرساى[2] أمليت إملاء دون أية مناقشة على حكومة إيبرت ، بينما كانت بعض القوات الألمانية لا تزال تحتل أرضا فرنسية. فوجدت هذه الحكومة نفسها فى موضع الإتهام على أساس أن المدنيين الانهزاميين هم الذين جعلوا ألمانيا هى المسئولة عن هزيمة لم تقع . وترتب عن ذلك ظهور سلسلة من الأعباء والتبعات المريضة :—

(أ) تمزيق الألمان بين أكثر من دولة مجاورة وتطلع الألمان إلى استعادة وحدتهم .

(ب) اقتطاع أراضى غنية ألمانية .

(حـ) مطالبة فرنسا بالحصول على قدر ضخم جداً من التعويضات .

(د) تعرض حكومة إيبيرت البرجوازية لهجمات اليسار واليمين على حد سواء.

٢ — كان انتصار الشيوعية فى روسيا قد حرض التشكيلات الشيوعية فى أوربا على التحرك للوصول إلى الحكم ، ولكن حكومة إيبرت قضت على الحركة الشيوعية

---

(١) C. Ebert وهو رئيس الحزب الديمقراطى الاشتراكى Social Democratic

(٢) ٢٨ يونيو— حزيران ١٩١٩ .

لتواجه بعد ذلك تطلع الرجعية اليمينية إلى العودة إلى الحكم الذى أبعدت عنه بعد عقد الهدنة ، وتفوقت حكومة (فيمار) — وهذا ماعرفت به منذ صدور دستور يوليو ١٩١٩ —(١) على الحركة الرجعية وأدى استخدام حكومة (فيمار) للجيش فى ضرب هذه الحركات المناهضة لها إلى أن تحتفظ للضباط بمراكزهم التى كانوا فيها خلال الحرب ، الأمر الذى جعلها عرضة للنقد الشديد .

٣ — أما مشكلة التعويضات — وتلازمها مع المشكلة الإقتصادية — فكانت أعقد ما واجهته حكومة (فيمار) . فقد كانت فرنسا تطالب بأكبر قدر من التعويضات ، وكان رئيس الجمهورية الفرنسية بوانكاريه شديد التصلب فى هذه القضية وكانت هناك محاولات للتقريب بين وجهات النظر الألمانية والفرنسية للوصول إلى تسوية للقضية ، ولكن كان الطرفان — الفرنسى والألمانى — على طرفى نقيض . هذا مبالغ فى المطالبة وهذا مبالغ فى عدم الدفع . فما كان من فرنسا إلا أن أقدمت على خطوة قوية بأن احتلت الراين والروهر (١٩٢٣) فى مقابل وفاء ألمانيا بالتعويضات . وتحركت حكومة برلين دولياً ومحلياً . فقد شنت حملة دبلوماسية ضد فرنسا كان لها قبولا فى الدوائر السياسية البريطانية والأمريكية . فقبلتا وجهة نظر ألمانيا فى أن هذا الإحتلال الفرنسى لا يتمشى مع معاهدة فرساى ، ولقد أعانت بريطانيا فعلا عدم شرعية هذا الإحتلال .

فقد كانت الحكومة البريطانية لا تهدف فقط من وراء ذلك إلى تحويل ألمانيا إلى قوة رادعة لفرنسا — التى أصبحت بعد الحرب أكبر قوة فى القارة — وإنما هدفت كذلك إلى توسيع تجارتها مع ألمانيا ، وألمانيا الموحدة أكثر قدرة على النشاط التجارى بالنسبة لبريطانيا من ألمانيا المشتتة . وعلى أى حال ، فقد عانت ألمانيا بقسوة من جراء الإحتلال الفرنسى لأراضى الراين على تلك الصورة ، فقد تدهور سعر المارك الألمانى حتى لقد أصبح لا يساوى شيئاً تقريباً ، وانتشرت المجاعة

---

(١) بمقتضى هذا الدستور تولى ايبرت منصب رئيس الجمهورية

والاضطرابات وقويت مكانة الشيوعيين فى سكسونى ، وسمت بافاريا إلى الإنفصال ، وفشلت محاولات الحكومة فى إنقاذ الموقف حيث إن إجراءاتها كانت سلبية تعتمد على فصل الوظفين ، وإصدار عملة جديدة ، حيث أن المشكلة الرئيسية التى كانت تواجه ألمانيا هى ضياع المراكز الصناعية الكبرى فى الروهر وإغلاق الأسواق الخارجية فى وجه التجارة الألمانية ، والحاجة الماسة إلى رءوس الأموال لإنهاض صناعتها . ولم تجد حكومة فيار مخرجا من هذه الأزمة إلا بعد تحرج مركز بوانكاريه أمام معارضة كل من بريطانياوالولايات المتحدة ، وسقوطه فى إنتخابات ١٩٢٤ . وجاء هذا فى وقت تولى فيه سترسمان [١] منصب مستشار الجمهورية الألمانية .

وكان الرجل معتدلا يدرك متاعب إستمرار عزلة ألمانية وأزمتها الإقتصادية ، وقرر إنتهاز فرصة الليونة التى ظهرت فى حكومات وشنجتن ولندن وباريس ، خاصة بعد تولى « أدوارد هيريو »[٢] — الراديكالى الإشتراكى — رئاسة وزارة ائتلافية من اليسار الفرنسى . وحينذاك ظهر مشروع « دوز » [٣] لتسوية مشكلة التعويضات (١٩٢٤) على أساس الجلاء الفرنسى عن الروهر وتقديم قرض كبير يعيد الثقة بالمارك الألمانى وإنشاء بنك مركزى ألمانى . وفعلا جلت القوات الفرنسية عن الروهر واستعاد المارك الألمانى ثباته .

ودفعت ألمانيا قسطامن التعويضات وأدى هذا التقارب إلى أن يعيد الحلفاء النظر فى طبيعة العلاقات مع ألمانيا ، وكان هذا مقدمة لمفاوضات فى صيف ١٩٢٩ أدت إلى إنهاء إحتلال قوات الحلفاء أرض الراين فى ميعاد أقصاه يونيو — حزيران ١٩٣٠ . وقد تم ذلك فعلا . وأدت إلى أن تتابع ألمانيا دفع التعويضات وفق مشروع جديد لتسويتها وضعه (يونج)[٤] ، كما تخلت فرنسا عن الرقابة على

---

(١) G.stav Steresemann (١٨٧٨ — ١٩٢٩) .

(٢) Edouard Herr.ot (١٨٧٢ — ١٩٥٧) كانت وزارته ائتلافية من اليسار الفرنسى بوانكاريه للحكم مرة أخرى ١٩٢٦ — ١٩٢٩ .

(٣) C. Dawas. وهو اقتصادى أمريكى

(٤) قدم Young مشروعاً للتسوية كان قد قبله هندنبورج .

نزع سلاح ألمانيا ، تلك الرقابة التى كانت معاهدة فرساى قد نصت عليها . وما أن حصلت ألمانيا على هذه المكاسب الكبيرة حتى سمت وراء أهداف جديدة تخفف عنها شيئاً من أعباء معاهدة فرساى ، فقد ظهرت الدعوات فى ألمانيا بأن الوقت قد حان ليعيد الحلفاء إقليم السار إلى الدولة الأم ، وبرفع الحظر عن تسليح أراضى الراين، وأن تثبت فرنسا أنها دولة مسالمة بتخفيض قواتها المسلحة .

كان من سوء حظ ألمانيا أن جاء هذا فى ظروف دولية بالغة الدقة بسبب الأزمة الإقتصادية العالمية التى طحنت الدول الكبرى وجعلتها تسعى إلى الحصول على أى مبلغ ينقذها من الأزمة (١٩٢٩) . ولهذا طالبت فرنسا بأن تستمر ألمانيا فى دفع التعويضات ، ولكن الأدهى من ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية — التى قدمت الكثير من القروض والأموال للصناعة الألمانية وللحكومة الألمانية — قد طالبت ألمانيا بأن تعيد إليها رءوس أموالها كى تواجه الأزمة الإقتصادية .

وكان من المستحيل على ألمانيا أن تواجه هذه الأزمة الإقتصادية وأن تدفع لفرنسا ، وتحت ضغط من جانب الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا أتفق على تصفية مشكلة الديون . ولكن ظلت أحوال ألمانيا معرضة لأزمات كبرى داخلية وسياسية وإقتصادية وإجتماعية مهدت لظهور هتلر وحزبه النازى على مسرح السياسة الألمانية والدولية مستفيداً من تلك الأزمات التى ألمت بألمانيا بعد الحرب العالمية الأولى . ومن اهتزاز مكانة حكومة فيمار سنة بعد أخرى .

ظروف وصول هتلر إلى الحكم وتوطيده

كانت ألمانيا فى عهد حكومة فيمار تعانى من فترة ضياع سياسى لا تكاد تعثر على حقيقة السياسة التى يجب أن تسير عليها لتصبح على مستوى الدول الكبرى الأخرى، بعد أن أذلتها معاهدة فرساى ، وطحنتها الأزمات الداخلية والاضطرابات والتدهورات الإقتصادية المتعددة ، ولكن قيمة حكومة فيمار يتركز فى أنها ثبتت الأوضاع عند أشكال معينة وأصبح من الممكن لشخصية قوية أن يضع برنامجا يلفت إليه الأنظار وتجمع حوله القلوب إذا ما احتوى هذا البرنامج على آمال الشعب . وعلى تطلعاته .وكان هتلر هو هذا الزعيم الذى أفاد من كل تلك الأزمات حتى وصل إلى الحكم المطلق .

كان أدولف هتلر مواطناً نمساويا ، لم يتلق من التعليم إلا شطرا بسيطاً . وكان يتعيش من حرفة النقش وبيع الصور ، وخلال الحرب العالمية الأولى تطوع فى الجيش الألمانى وفى النمسا وفى ميونيخ كانت الحركة الإشتراكية نشطة بعد الهزيمة . وكان مثل أى ألمانى حينذاك يتطلع إلى القوة التى تسعى إلى إعادة ألمانيا إلى مكانتها العالمية ، وإلى تخليص ألمانيا من قيود معاهدة فرساى المذلة ، وبتخليص ألمانيا من اليهود الذين غدروا بالوطن الذى يعيشون فيه . وكانت هذه هى مبادىء حزب العمال الإشتراكى فى ميونيخ ومنذ أن التحق به هتلر أثبت قدرته على توجيه الحزب وقيادته، ولم يلبث أن أصبح هتلر نفسه صاحب حزب « العمال الإشتراكى الوطنى »(١) الذى اشتهر باسم الحزب النازى(٢) (١٩٢٠) .

يعتبر الحزب النازى ونظرية النازية التى وضعها هتلر واحدة من أهم نظريات الحكم الدكتاتورى التى ظهرت خلال القرن العشرين . وظهرت فى وقت كانت ألمانيا

---

(١) National SocialistParty.

(٢) Nazi

فى حاجـة إلى مثل هـذه النظرية القومية المتطرفة . وتتبلور فى :

١ — كتاب (كفاحى) الذى ألفه وهو فى السجن[١] بعد فشل حركته الثورية ضد الحكومة فى ١٩٢٣ ودفاعه عن نفسه خلال محاكمته .

٢ — برنامج حزبه . ومنشوراته . وما صدر عنه قبل توليه الحكم وبعده . وفيما يلى أهم مبادىء وأهداف هتلر وحزبه .

١ — يرى هتلر أن الجرمان هم سادة الجنس البشرى ، وهم أعلى مرتبة فيه ، والذين يجب أن يتولوا دائماً توجيهه ، ولهذا وضعت قائمة للعناصر البشرية كان العنصر الآرى فى ألمانيا على قمتها وهم (الأقوياء)[٢] ، ويليهم النورد (الدنمركيون والنرويجيون والسويديون) والنورمانديون والأنجلو ساكسونيون ، أما فى آخر القائمة فكان السلاف والعرب واليهود والزنوج . وبذل العلماء الألمان جهدهم لتأكيد أن العنصر الآرى هو أبو الأجناس البشرية كلها ، وأنه هو الذى حمل مشعل الحضارة منذ الأزل ، بل إنه هو الذى حملها إلى العالم الجديد (أمريكا) بل هناك من ذهب إلى القول بأن عقيدة المسيح الأولى كانت يهودية ولكنه هو نفسه من سلالة آرية والأصل أهم من العقيدة .

وتحدث عن الشعب الآرى على إعتبار أنه يحتوى على صفات خاصة به تجعله هو الوحيد القادر على تحمل أعباء تلك المهام العظام ، خاصة من حيث أن الفرد الآرى أقدر من غيره على التضحية بشخصه وفرديته فى سبيل الدولة الآرية .

وحيث أن هـذا هو العنصر الآرى ، وتلك هى المهام التى قيض الله شعبه المختار الآرى أن ينفذها . فلابد من أن تبذل كافة الجهود من أجل الحفاظ على نقاء دمه ، ومنع الشعوب الأخرى الضعيفة من الإختلاط به ، حتى لا يحدث لألمانيا ما يحدث — من وجهة نظر هتلر — فى فرنسا . وما يحدث فى الولايات المتحدة

---

(١) قضى فى السجن حوالى تسعة أشهر

(٢) Volksgenosse.

الأمركية حينذاك ، إذ كان يرى أن تصدر واندماج اليهود فى فرنسا وانتشار اليهود والزنوج فى الولايات المتحدة الأمريكية هو المسئول عما أصاب الشعبين الأمريكى والفرنسى من انحطاط فكرى وخلقى ووطنى .

بل لقد كان دعاة النازية يؤكدون أن حضارة العالم فى القرن العشرين حضارة متخاذلة منحلة ، بلا شرف ، وما ذلك إلا بسبب تولى اليهود الصدارة فى أكثر من مجال حيوى عالمى ، وفى أكثر من حكومة من حكومات الدول الكبرى . وأن السبب الرئيسى فى هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى هو تولى اليهود المراكز الحساسة فى الدولة حينذاك .

فالأحرى بالمسئولين عن مستقبل العنصر الآرى أن يخلصوا ألمانيا أولا من اليهود بتهجيرهم أو بأية وسائل تحقق هذا الهدف . هذا فيما يتعلق بالألمان فى داخل ألمانيا نفسها ، أما بالنسبة للمناطق المفقودة الألمانية الواقعة تحت حكم أجنبى ، فيجب أن تركز حكومة ألمانيا جهوداً كبرى من أجل إعادتهم إلى الدولة الآرية الأم بأراضيهم. وحيث أن تلك الأعباء كانت ضخمة وثقيلة على كاهل الرجال ركز الفكر النازى على ربط المرأة بالبيت وبإنجاب أقوى الأطفال وباحتقار العقيم من الرجال أو النساء . ومع ماعليه هذه النظرية العنصرية القومية المتطرفة من قدرة على تحريك مشاعر الشعب الألمانى ، إلا أنها كانت تختلف مع الحقائق العلمية التى ثبتت قبل ظهور وبعد ظهور هتلر ونعنى بذلك الحقيقة القائلة أنه ليس هناك عنصر فى العالم إحتفظ بنقائه ، وإنما كل العناصر القديمة تداخلت وتزاوجت واندثرت بعضها فى بعض .

٢ — حيث أن العنصر الآرى هو الذى يجب أن يسود العالم — من وجهة نظر هتلر — فإن أية نظرية أخرى ذات طابع دولى (١) يجب أن يقضى عليها ، ومن هنا كانت عداوته القاسية ضد الشيوعية التى تهدف إلى دكتاتورية البروليتاريا العالمية ، وضد المذاهب المسيحية البروتستنتية والكاثوليكية لعدم اقتناعها بما ذهب إليه من

---

(١) Internationalism.

تفوق العنصر الآرى وضرورة تسلمه السلطة ، واعتبار أن جسد الجرمانى وروحه لأمته الجرمانية أولا وأخيراً . ومن ثم يجب قصر حقوق المواطنة على الجرمانى النقى ومنعها عن غيره ، وإعداده إعداداً شاقاً لتولى أشد الأعباء في المستقبل .

٣ — إن إدارة دفة الأمة الجرمانية نحو أهدافها تلك يجب أن تكون فى يد زعيم أوحد قوى ، تساعده فى تحقيق الأهداف الآرية « نخبة ممتازة » وقوى منظمة تنظيما دقيقا . قد لا تكون صاحبة الأغلبية فى البلاد ، ولكن بآريتها وبدقة تنظيمها وقدرتها على التضحية في سبيل الأمة الجرمانية والزعامة القوية كفيلة بأن تكسر الحواجز التى توضع أمام وصول هذه النخبة المختارة إلى الحكم . ووضع الزعيم (هتلر) نفسه فى المكان الأعلى الذى يستطيع منه أنه يكرس كافة الجهود من أجل تكوين دولة واحدة جرمانية تتولى مسئولياتها العظام نحو سيادة العنصر الآرى .

وقد عبر هتلر عن وجهة نظره هذه واصفا أمثل نظام حكم دستوى لألمانيا بقوله « أن أفضل دستور وشكل للدولة هو ذلك الذى يكفل بأضمن طريقة طبيعية وضع أقدر عقول المجتمع الوطنى في أبرز المراكز وأعظمها أهمية ونفوذاً ›.. وأن تكون لكل رئيس سلطة على مرءوسيه ، وأن يكون مسئولا أمام رؤسائه . . . وينبغى أن يكون الحكم للقوى بحيث لايذوب فى الضعيف فيضحى بذلك بما يتصف به من عظمة » .

٤ — وبناء الدولة الجرمانية إقتصاديا يجب أن يكون على أساس التكامل الإنتاجى الزراعى الصناعى وليس على أساس التوجيه نحو الصناعة فقط ذلك التوجيه الذى سيطر على ذهن حكام الدول الأوربية الأخرى ، حتى لا تصبح الدولة الجرمانية عندما تقع الحرب معرضة للانهيار الاقتصادى بسبب الحصار الذى سيضرب عليها ، ولهذا كانت سياسة « الإكتفاء الذاتى » حد أركان النظرية النازية .

٥ — بعد أن تتم وحدة الألمان وتصعيد قواهم الإقتصادية يجب العمل على « جرمنة » أوربا ، بضم الأجزاء الألمانية أو ذات القربى مع الآريين والعمل

على تقوية الصفات الآرية فيها بكافة الوسائل . وبالتالى العمل على منع ظهور دولة عسكرية قوية على الحدود الألمانية ، حتى لقد رأى هتلر « إن إبادة فرنسا هى التى تسمح فيما بعد لألمانيا بأن تكتسب أراضى فى الشرق » .

٦ — أن الفرد الآرى يجب أن يبذل أقصى طاقته فى تحقيق الأهداف الكبرى الملقاة على عاتق أمته . ومن ثم فإن أى توقف من جانبه أو من جانب الحكومة عن قيامه بالعمل يعتبر تقاعساً لا يغتفر . ويجب كذلك أن يعد له العمل والدخل ولأولاده التعليم القويم الوطنى الذى يعمق فيهم هذه الإتجاهات الآرية .

تلك كانت مبادىء وأهداف هتلر وحزبه ؟ وهى شديدة التطرف فى القومية ، فرضت على الناس تفوقاً عنصريا غير مقبول ، وهضمت حقوق شعوب كانت ذات حضارات كبرى مهدت لألمانيا نفسها سبل النهوض . وفوق هذا وذاك ثبت أن النظرية العنصرية أو القول بأن هذا الشعب مختار وذاك غير مختار لا تقوم إلا على أساس التطرف الأنانى لدى عنصر أو قومية أو طائفة الذى يسعى إلى العثور على مبرر لسياسات عدوانية تضمرها . وهذه اتجاهات تتنافى مع الإسلام ومع المسيحية ومع الديمقراطية الحديثة فكلها تعطى حق المواطنة فى الدولة بغض النظر عن العقيدة والعنصر .

وفى اعتقادنا أن هذه الدعوى العنصرية المتطرفة لم تلق رواجاً فى ألمانيا إلا بسبب تلك الهزيمة التى منيت بها ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى وحاجة الشعب إلى قوة دافعة جديدة ترفع معنوياته المنهارة وتفتح أمامه أبواب الآمال . خاصة وأن هذا الشعب عاش على تاريخ شبه أسطورى لبروسيا أيام فردريك الأكبر وأيام بسمارك ، كانت فيها القلة البروسية الآرية قادرة على التصدى لقوى تفوقها عشرات المرات دون أن تكل .

ووطد هتلر نفسه على أن يفرض نفسه وحزبه على ألمانيا حتى لو وقفت الحقوق الدستورية المعمول بها حينذاك فى وجهه . ولهذا ألف نوعين من المنظمات شبه العسكرية .

١ — فرق القمصان الرمادية[1] (S.A.) (العاصفة) .

٢ — فرق الحرس الأسود(S.S) .

والواقع لم يكن النظام النازى هو الذى يتبع وحده مثل هذه الأساليب الإرهابية فى فرض كلمة الحزب على رجل الشارع والحكومة ، بل كانت هناك منظمات أخرى تستند إلى مثل هذه هذه المنظمات ، ونذكر بصفة خاصة منظمات الشيوعيين نظراً لما كان بين الحزب النازى والشيوعيين من خلاف لا يحتمل بقاء الاثنين معاً ، كان الصدام بينهما يتوالى بلا إنقطاع تقريبا .

ومهر رجال النازى فى إستخدام أساليب فى الدعاية لحركتهم والحط من قدر خصومهم لم تكن متوفرة من قبل لغيرهم . فقد استخدموا الإذاعة والنشرات والإجتماعات والاستعراضات والمؤامرات العلنية والسرية وسائل لخدمة أغراضهم .

والحق أن النازى حين إستخدموا مثل هذه الوسائل لم يكونوا أول من استخدمها ، ولكن امتازوا بأنهم توسعوا فى استخدامها بشكل لم يسبق له مثيل ، ومن ناحية أخرى ضخم خصومهم من مثل هذه المسائل حتى بدا كأن الألمان فقط هم الذين فعلوا ذلك دون غيرهم .

كان الوصول إلى الحكم هو الذى يسعى إليه هتلر منذ أن ألف حزبه (النازى). ولم يكن متروياً فى خططه ، إذ كان يعتقد أن ظروف ما بعد فرساى كفيلة بأن تجعل الشعب ينقلب على الحكومة ويؤيده بسهولة . إلا أن محاولته الأولى منيت بفشل ذريع وقبض عليه وحوكم وسجن (١٩٢٣) . ولكن هذه الأحداث لفتت الأنظار إليه وإلى حزبه وفلسفته ، كما أن هذا الفشل جعله يعيد النظر فى الطريقة التى كان ينظم بها حزبه ، والتى أثبتت عدم جدواه خلال حركته الفاشلة فى ١٩٢٣ .

---

(١) Sturmabteilung.

(٢) Schutzstaffel.

وهنا يتشابه هتلر ولينين فى أن كلا منهما أدرك بعد فشله الأول قيمة الشمولية(١) فى الثورة وانبعاثها من الاقاليم إلى جانب المدن ، وهكذا تشابهت الوسائل ولكن اختلفت الأهداف بين الرجلين .

عمل هتلر على بث نظام الخلايا ، ونشطت هذه الخلايا فى بث الدعوة النازية ، وفى تجميع القوى المحلية وراء أنصار الحزب خلال المعارك الإنتخابية التى كان يخوضها من أجل الحصول على أكبر قدر من مقاعد الريخستاج .

وفى نفس الوقت نشر الحزب برنامجه على أوسع نطاق وكان برنامجاً جريئاً يلبى تطلعات الشعب الألمانى خصوصاً أولئك الشباب الذين استنكروا انهزامية حكومة فيمار .

على أن الأزمة الإقتصادية التى تورطت فيها حكومة فيمر سنة ١٩٢٩ تعد أكبر ممهد لنجاح حزب هتلر فى الوصول إلى الحكم ، وقد تم ذلك على خطوات .

ففى ١٩٢٩ زادت البطالة زيادة مخيفة ، وتدهورت حالة الأسرات الألمانية ، وتعرضت البلاد لموجة من السخط الشعبى أفزعت حكومة فيمار البرجوازية وجعلت مجالس الشركات الكبرى تتحرك بحثا عن مخرج من الأزمة قبل أن يتحول التيار الشعبى نحو الشيوعية على غرار ما حدث فى روسيا .

انتهز هتلر هذه الظروف ، وشن حملات قاسية على حكومة فيمار ، التى بدت ضعيفة عاجزة عن مواجهة التحديات ، حتى لقد تقربت الشركات من هتلر وحزبه وساندته ماليا وسياسيا على إعتبار أن البلاد فى حاجة إلى شخصية قوية ذات قدرة على مواجهة الأزمات بحزم . ومن ناحية أخرى كانت هذه الشركات تجارى التيار الشعبى العام الذى أخذ يلتف حول هتلر وشعبه وبدا واضحاً أنه سيصبح أقوى زعماء الأحزاب بعد وقت ليس بالطويل .

---

(١) Totalitarianism

ونملا كان عدد المؤيدين لهتلر ولحزبه يتزايد بسرعة حتى لقد حصل على أكبر عدد من مقاعد الريخستاج فى انتخابات ١٩٣٢ بالنسبة لبقية الأحزاب . ومع أن هتلر لم يفز فى إنتخابات رئاسة الجمهورية أمام هندنبورج (مارس — إبريل ١٩٣٢) إلا أنه كفته وحزبه أصبحت ثقيلة حيث أن مستشار الجمهورية فى ١٩٣٢ كان فون بابن[1] الذى كان يفضل وصول هتلر إلى منصب المستشارية حتى لا يستطيع منافسه فون شليخر[2] الإستئثار بالمنصب وحتى لا يتمكن الشيوعيون — الذين زادت قوتهم — من الوصول إلى الحكم. وكان أمام هندنبورج طريق واحد لشل الشيوعية ، ولهذا قبل - وهو غير راض - نصيحة فون بابن بشأن إسناد منصب المستشارية إلى هتلر فى يناير - كانون الثانى ١٩٣٣ .

وحيث أن حزبه لم يكن صاحب أغلبيه ، فقد اعتمد على قوى أخرى ذات شوكة ساعدته على الوصول إلى سدة الحكم المطلق ، كما ساعدته ظروف ألمانيا فى ١٩٢٩ - ١٩٣٣ على ذلك . ويمكن أن نركز هذه القوى - إلى جانب الحزب النازى - فيما يلى :

١ — الجيش النظامى الألمانى :

كان يشد أزر الحكومة ، ولهذا كان هتلر معنيا بعدم تحكم أية شخصية غيره فى توجيهه ، وهذا يفسر لنا - تدبير هتلر إعدام (روهم) قائد قوات العاصفة التى لعبت أكبر دور فى وصول هتلر إلى الحكم . إذ حاول (روهم) أن يدمج قوات العاصفة فى الجيش لتصبح فى يده القيادة العسكرية العليا فقضى عليه هتلر بسرعة .

٢ — الزعامات الوطنية والمؤسسات الاقتصادية :

ما أن تولى هتلر المنصب حتى شرع فى تنفيذ برنامجه ، وكان معنيا فى أول الأمر

---

(١) Von Papen.

(٢) Von Schleicher

بتصفية خصومه والحصول على الحكم المطلق . وحدث أن احترق مقر الريخستاج في ليلة ٢٦ – ٢٧ شباط – فبراير ١٩٣٣ ، وبسرعة اتجهت أصابع الإتهام نحو الشيوعيين ، وشن عليهم هتلر – والسلطة بيده – أعنف الحملات وشتت تجمعاتهم وزعاماتهم ، وفي نفس الوقت قضى على غير الشيوعيين من خصومه ، ولم يلبث بعد ذلك أن ألغى الأحزاب ، وجعل الحزب الوحيد الذي يحق للألماني أن يلتحق به هو الحزب النازي . واستطاع أن يحصل على سلطات واسعة (دكتاتورية) من مجلس الرايخستاج ثم حله . ووصل إلى هدفه في الحكم الفردي المطلق بعد وفاة الرئيس هندنبورج في الثاني من آب – أغسطس ١٩٣ ليصبح هو رجل الدولة الأول وبدأ بذلك الرايخ الثالث .

يعتبر الرايخ الثالث وزعيمه هتلر صورة من صور الحكم المطلق العنصري المتطرف ، فهو – أي هتلر – كان الزعيم الأوحد ، وحزبه هو الحزب الوحيد ، فإما أن تكون نازيا أو تكون خائنا . وإقتصاديات ألمانيا يجب أن توجه بدقة لتنفيذ مخططات الحكومة العنصرية والتوسعية . وقد وصف أحد المؤرخين الإنجليز بصدق هذا النظام بقوله :

« إن الخطر الكامن في دولة الحكم المطلق هو أنها تمثل سلطة واضحة غير معقدة ولكنها سلطة مجتة لا رقيب عليها »(١)

وكانت مظاهر هذه الدولة الجديدة خلال السنوات التالية تعطي صورة من صور الدول الشمولية(٢) الدكتاتورية ، دولة تعمل على وضع إمكانياتها كلها في خدمة خطة موضوعية موحدة . وهذا كان يستدعي : من وجهة نظر هتلر :

١ – إعادة النظر في التكوين السياسي والإداري لألمانيا التي كانت دولة

---

(١) ا . جرانت و هـ تمبرلي : أوروبا في القرنين التاسع عشر والعشرين وزارة التعليم العالي قسم الترجمة والألف كتاب الإدارة العامة للثقافة . مؤسسة سجل العرب القاهرة ١٩٦٧ ترجمة محمد علي أبو درة ولويس أسكندر ، الجزء الثاني ، ص ٤٠٢ .

(٢) Totalitaire

اتحادية شبه فيدرالية تحتفظ فيها بعض الأقاليم والولايات بحقوق خاصة . ولهذا ألغى هتلر هذه الحقوق ، وأصبحت الإدارة والحكم مركزية . ويكون هتلر بذلك قد أقدم على الخطوة التي لم يقدم عليها بسمارك أو ولهلم الثانى ، وأصبحت ألمانيا فعلا وإداريا دولة واحدة موحدة (١٩٣٤) يسودها نظام إشتراكي قومي عنصري جرمانى .

٢ — القضاء على القوى الداخلية المناهضة أو المتناقضة مع هذه الخطة الموحدة للدولة ، ولهذا شكل « البوليس السرى » الذى اشتهر بالجستابو الذى وضعت فى يده سلطات واسعة وسريعة التنفيذ ضد معارضى النظام الجديد . وكان رجال الجستابو منبثقين فى القرى والمدن وفى كل هيئة وإدارة حكومية أو خاصة .

وكان الجستابو يكاد أن يكون مستقلا بعيداً عن الرقابة القضائية ، يستطيع أن يصادر الحريات ، وأن يزج بأعداء النظام فى معسكرات الإعتقال .

٣ — تطهير ألمانيا من العناصر (المنحطة) وخاصة اليهود[١] فأصدر قوانين نورمبرج وهى تقضى :

(ا) طرد جميع الموظفين اليهود من المناصب العامة .

(ب) منع المحامين والصحفيين والأطباء والصيادلة والناشرين منهم من مزاولة مهنتهم .

(ح) تحريم وراثة الأرض عليهم .

ويبدو من هذه القوانين الشيء الكثير من التطرف العنصرى البغيض ، إلا أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن اليهودية الصهيونية على تطرف عنصرى يكاد يفوق ذلك التطرف الألمانى ، فاليهود الصهيونيون يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار ولا قيمة للدولة التى يعيشون فيها إلا من حيث أنها مجال للاستثمار الخاص لليهود .

---

(١) وصف ريفنتلو اليهود بأنهم كالدود ينخر فى الإنسان فيجب إهلاكه .

٤ — تنظيم الشباب وتعليمه على أساس النظرية النازية القومية العنصرية الجرمانية.

٥ — توحيد السياسة الإقتصادية للدولة بحيث تسيطرة الأداة الحكومية على الإنتاج وتصريفه ، على العمال والفلاحين ومسئولياتهم وحقوقهم ، ومن ثم لم تعد هناك حاجة — من وجهة نظر النظام الهتلرى — إلى نقابات تدافع عن مصالح العمال وأصحاب الحرف ، ولهذا حلت النقابات العمالية ، وأنشئت فى مكانها «جبهة العمل» التى كانت مسئولة أساسا عن توجيه العمال نحو تنفيذ خطط الحزب النازى .

وهناك عدة وجوه شبه بين نظام ألمانيا النازى ونظام إيطاليا الفاشستى :

١ — الزعامة المطلقة القومية .

٢ — الفرد يذوب فى المجتمع الشمولى[1] .

٣ — الحزب (الفاشستى أو النازى) هو الوحيد فى الدولة .

٤ — الإستناد إلى تنظيم القوى الشعبية والوطنية فى نقابات أو منظمات شباب .

٥ — منع أية قوى محلية من معارضة النظام الفاشستى .

٦ — استخدام وسائل بوليسية وإرهابية لفرض النظام الجديد ووجهة نظره .

٧ — التخطيط المحدد للسياسات الخارجية والداخلية .

٨ — العداء الشديد للنظام الشيوعى .

٩ — التطلع إلى تعديل مواد معاهدة فرساى .

١٠ — التطلع إلى التوسع فى أوربا .

١١ — الأخذ بنظرية المجال الحيوى (ألمانيا فى البلطيق وأوروبا الشرقية وإيطاليا فى البحر المتوسط[2] وإفريقية) . والعمل على الحصول على مجالات إمبريالية تعادل ما تحت فرنسا وبريطانيا على الأقل .

---

(١) Totailtriana

(٢) فى هذا قال هتلر «إننا نعلم أن البحر المتوسط بحيرة إيطالية كما أن البلطيق بحيرة ألمانية» .

١٢ — الإستناد إلى مثل عليا تاريخية (الآرية لدى النازى والإمبراطورية الرومانية لدى الفاشست) .

وكانت السياسات الداخلية الألمانية تثير بعض انشا كل مع الدول الأخرى ، مثل دفاع فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة عن حقوق اليهود فى ألمانيا ، ولكن سياسة إعادة توحيد جميع الألمان فى تشيكوسلوفاكيا وفى النمسا وفى إيطاليا وفى بولنده وإعادة الإتصال المباشر بين ألمانيا وبروسيا الشرقية . كان كل هذا السبب فى تصاعد الأزمات .

حقيقة كانت إعادة تجميع الألمان تحت دولة واحدة نازية هدف هتلر الأول، ولكن كانت هناك عدة خطوات يجب أن يقوم بها أولا وهى تخليص أراضى ألمانيا نفسها من التسلط الأجنبى (الفرنسى) ، أو بمعنى آخر : عودة تسليح ألمانيا واسترداد (السار) من فرنسا . وعودة القوات الألمانية إلى أراضى الراين المنزوعة السلاح بمقتضى معاهدة فرساى .

وكانت مشكلة إعادة تسليح ألمانيا مثار جدل جديد بين حلفاء الأمس (فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة) وكان هتلر لا يطرح المشكلة على أساس أنها خرق من جانبه لمقررات فرساى ، وإنما اتهام للحلفاء بعدم الوفاء بالتزاماتهم الخاصة بنزع السلاح الذى نصت عليه تلك المقررات . أما وقد رفضت دول الحلفاء نزع سلاحها فلا أقل من أن تعطى ألمانيا حقها فى إعادة تسليح نفسها ،وكان رأى الولايات المتحدة الأمريكيه وبريطانيا ، هو أن تكون على قدم المساواة من حيث التسليح نظر لتعذر نزع السلاح الشامل .

وتصلبت فرنسا على اعتبار أنها هى التى تواجه الضربة الألمانية الأولى ، وكما حدث من قبل فى حرب السبعين وفى الحرب العالمية الأولى ، ولكن الظروف كانت أقوى من معارضة فرنسا ،فقد عزم هتلر على إعادة تسليح بلاده ، وعلى عدم الالتزام بعضوية ألمانيا فى المنظمة الدولية (عصبة الأمم) وأجرى استفتاء حول البقاء

عضواً فيها أو الإنسحاب منها ، تقرر هذا الإستفتاء الخروج منها فى أكتوبر ـ تشرين أول ١٩٣٣ .

وأثبت هتلر للعالم أنه بخروجه من العصبة لا يهدف إلى شن حملات عدوانية على أحد ، بل أنه دخل فى مفاوضات مع بولندة ـ أكثر الدول توسعا بعد الحرب العالمية الأولى على حساب ألمانيا ـ لعقد معاهدة عدم اعتداء ، وقعت فى يناير ـ كانون الثانى ١٩٣٤ ، ونصت على علاج المشكلات بين الدولتين بالطرق السلمية . ولقد اختار هتلر وقتاً مناسباً جداً لعقد مثل هذه المعاهدة . فقد كان الحكم شبه الدكتاتورى فى بولنده حينذاك معجبا بالتنظيم النازى ، ومعتقداً أن وقوع بولنده بين عملاقين (الإتحاد السوفيتى وألمانيا النازية) يجعلها أقدر على اللعب على الطرفين خاصة وأنها كانت مطمئنة إلى تعهدات كل من بريطانيا وفرنسا بالدفاع عنها ضد عدوان ألمانى عليها . وإلى جانب هذه كانت بولنده تعتقد أنها تستطيع أن تحقق بعضا من أطماعها فى تشيكوسلوفاكيا بالتعاون مع ألمانيا النازية الأكثر قوة من فرنسا التى تتنازعها الإنقسامات الداخلية والأزمات مع بريطانيا ، وربح فعلا هتلر من هذه المعاهدة مع بولنده إذ وقفت على الحياد عندما صمم ونفذ هتلر خطته لدخول القوات الألمانية إلى (الراين) فى ١٩٣٦ ، وفى الضغط على تشيكوسلوفاكيا خلال أزمة (ميونخ) فى أيلول ـــ سبتمبر ١٩٣٨ .

كانت مشكلة السار واحدة من القضايا الدقيقة وإن كانت النصوص الخاصة بها فى معاهدة فرساى واضحة : أن يظل السار تحت سيطرة فرنسا تستغله خمسة عشر عاما ليجرى فيه استفتاء بعد انتهاء هذه المدة لتحديد تبعيته . وكان هتلر يطالب بالسار وبضمه دون إجراء استفتاء ، إلا أنه وجد أن إجراء استفتاء سيكون فى صالح الإنضمام إلى ألمانيا ، ولهذا قبل إجراءه ، وأعلن الألمان فيه انضمامهم إلى ألمانيا (أوائل ١٩٣٥) .

ولايكاد يتم ذلك حتى جاءت الفرص تباعاً أمام هتلر لإعلان سياسته الخاصة

بالتسليح على اعتبار أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لعودة القوات الألمانية إلى أراضى الراين المنزوعه السلاح .

وقد أعلنت الحكومة البريطانية عن برنامج جديد للتسلح ، وكان برنامجاً ضخماً، فرد عليه هتلر بأن أعلن فى ٩ مارس — آذار ١٩٣٥ عن برنامجه لتدعيم القدرات العسكرية الألمانية وأسرعت الدول المهددة بالنمو العسكرى الألمانى الجديد — فرنسا وبريطانيا وإيطاليا — إلى عقد مؤتمر (ستريزا)[1] فى إبريل — نيسان ١٩٣٥ ، ولقد استنكرت هذه الدول خرق ألمانية لقرارات فرساى الخاصة بتحديد القوات المسلحة الألمانية ولكن دون أن تتخذ أى منها خطوة إيجابية رادعة . بل كانت إيطاليا تقترب بسرعة من ألمانيا وكانت بريطانيا مشغولة بالعدوان الإيطالى على الحبشة ، ولا ترغب فى توسيع نطاق الأزمة مع إيطاليا حتى لا ترمى هذه فى أحضان ألمانيا . وتريد توجيه ألمانيا إلى شرق أوربا . ولهذا عقدت معاهدتها البحرية مع ألمانيا فى ١٩٣٥ وهى المعاهدة التى تحدد قوة الأسطول الألمانى .

وتبدو مهارة هتلر السياسية ، أنه فى الوقت الذى كسب فيه بولندة إلى جانبه ، سعى إلى كسب إيطاليا (حزيران — يونيو ١٩٣٤) ، كما كان يشد أزر النازيين النمساويين العاملين ضد حكومة (دلفوس) والذين اغتالوه فى ٢٤ يوليو — ١٩٣٤ ، وكان كذلك هادئا عندما أرسل الدوتشى قواته إلى ممر برنر رداً على مصرع (دلفوس) بيد النازيين ولم يثر هتلر أزمة مع الدوتشى بل ضمأنه بعقد اتفاقية تعهدت فيها ألمانيا باحترام استقلال النمسا ١٩٣٦ ، حتى بعد عقد المعاهدة الفرنسية — الايطالية فى ٧ يناير كانون الثانى ١٩٣٥ ، التى أكدت إستقلال النمسا وسلامتها ، واجتماع إيطاليا وبريطانيا وفرنسا فى ستريزا فى إبريل ١٩٣٥ للاحتجاج على إعادة هتلر تسليح ألمانيا . حتى نجح هتلر أخيراً فى كسب إيطاليا إلى جانبه ليتكون المحور (Axis) الإيطالى — الألمانى لما كان بين الطرفين من تشابه فى التكوين والأهداف ، ولما أدت إليه التطورات من تقوية هذا التشابه ، وخاصة من حيث : —

---

(1) Stresa.

١ – العداء للامبراطوريات الديمقراطية الإستعمارية أيديولوجيا وإقتصاديا ، والعداء للشيوعية .

٢ – حاجة كل من ألمانيا وإيطاليا إلى مستعمرات جديدة لاستيعاب التزايد السريع فى السكان لديهما ولفتح أسواق جديدة لمنتجاتهما .

٣ – إتفاق الأهداف في الحرب الاسبانية الأهلية[1] .

٤ – الإتفاق فى تكوين دولة شمولية اشتراكية برجوازية قومية تسلطية .

٥ – كل من إيطاليا وألمانيا كانت تحتقر عصبة الأمم ولقد خرجت إيطاليا منها فى ١٩٣٧ بعد أربع سنوات من خروج ألمانيا منها وبعد عام واحد من انسحاب اليابان منها .

ولهذا كان من اليسير على هتلر أن يقنع الدوتشى بالانضمام إلى الميثاق الألمانى اليابانى المعادى للشيوعية الدولية[2] والذى سبق أن عقد فى ٢٥ نوفمبر تشرين الثانى ١٩٣٦ ، وفعلا انضمت إليه إيطاليا فى نوفمبر ١٩٣٧ .

أما فرنسا فقد أزعجها هذا التصاعد فى قوة ألمانيا وسعت إلى تنفيذ سياستها التقليدية ، وهى التحالف مع الإتحاد السوفيتى حتى لا يستطيع الألمان الإنفراد بفرنسا وحتى يصبحوا مهددين بالحرب فى جبهتين على الأقل (١٩٣٥ — ١٩٣٦). وعندما علم هتلر بذلك أعلن أن هذه المعاهدة تعرض السلام وكيان ألمانيا للخطر ، وأقدم مغامرة اعتبرها إعادة للتوازن الدولى وهى إرسال قواته إلى أراضى الراين المنزوعة السلاح .

وهناك نقد شديد موجه لحكومة فرنسا التى قبلت هذا التحدى دون تحرك مضاد قوى من جانبها مع أن الجيش الألمانى كان أضعف من الجيش الفرنسى . ولأن الأسطول الألمانى كان فى المهد وكذلك سلاح الطيران . ولكن يجب أن نضع فى

---

(١) أنظر فيما بعد .

(٢) Anti Commentern Agreement.

الإعتبار أن مثل هذه التقديرات كانت واضحة بعد انتهاء الأزمة وليس خلالها. وكانت فرنسا بصفة خاصة تخشى صداماً منفرداً مع ألمانيا. وكان الشعب الفرنسى بصفة عامة يكره عودة الحرب .

ولم تكن حكومة فرنسية واحدة هى المسئولة عن هذه القضية وإنما أكثر من واحدة ، فوزارة لافال كانت تتداعى تحت وطأة العدان الإيطالى على الحبشة ، وجاءت وزارة لإجراء الإنتخابات التى انتصرت فيها (الجبهة الشعبية) اليسارية الفرنسية[1] . ومن ثم كانت حكومات فرنسا فى هذه الأزمة عاجزة عن اتخاذ سياسة محددة إزاء هذه المشكلة الخطيرة .

وكانت الضربة ناجحة جداً لدرجات ربما لم يكن هتلر نفسه يتوقعها . فقد أدت إلى إهتزاز مكانة فرنسا فى المجال الدولى إذ اتخذ حلفاء فرنسا (بولنده وبلجيكا وانجلترا) سياسات غير معادية لألمانيا ، وخففت من حدة توترها معها .

---

(١) انظر الباب التالى .

الفصل الثالث عشر

فرنسا وبريطانيا بين الحربين العالميتين

كان هاجس فرنسا حكومة وشعباً هو ألمانيا ومدى قدرتها على النمو الإقتصادى والعسكرى والسكانى . وكانت هذه المخاوف مثار حديث كافة الأوساط ، وفى نفس الوقت كانت مثار خلاف شديد فيما بينها ، وبسبب عدم قدرة حكومات فرنسا على التحكم فى السياسات الدولية من جهة ، وبسبب فشل هذه الحكومات فى أن تحصل على أغلبية برلمانية ، وذلك لأن فرنسا كانت دولة كثيرة الأحزاب، لايستطيع واحد منها أن يحصل على أغلبية فى البرلمان ، ومن ثم كانت الحكومة الائتلافية تراعى أحيانا سياسات حزبية متعارضة الأمر الذى يجعل الحكومة الفرنسية غير قادرة على وضع سياسة خارجية أو داخلية واضحة المعالم ثابتة الأهداف .

بل ، إن بعض الوزارات لجأت إلى أسلوب إصدار المراسيم بدلا من تقديم مشروعات هذه المراسيم إلى مجلس البرلمان وفقاً للاصول البرلمانية الديمقراطية ، وذلك كى تستطيع تنفيذ هذه المراسيم دون عرقلة متطاولة من جانب البرلمان . وكان هذا ما لجأ إليه (لافال)(١). وإن كان لهذا الأسلوب ميزته إلا أنه كان محل نقد شديد من جانب أنصار الديمقراطية بل ومن جانب أصحاب الدعوة إلى تقوية الهيئة التنفيذية .

حدث هذا فى وقت أخذ العالم بقيمة تركيز السلطات التنفيذية فى يد زعيم قوى يستطيع أن يدفع عجلة الدولة الإنتاجية والسياسية نحو التفوق والعظمة . ولقد شاهد الفرنسيون ذلك فى عدوتهم التقليدية ألمانيا ، فانزعجت ، وقويت نداءات الإصلاح والتغيير الجذرى ومقاومة الفساد الإدارى وتقوية قدرات الدولة العسكرية والإنتاجية .

ولقد كان يحق لفرنسا فعلا أن تزداد خشية سنة بعد أخرى من ألمانيا . فلم يكن حلفاء فرنسا يساندونها بقوة بعد الحرب العالمية الأولى ، وأصبح عليها أن تعتمد على

---

(١) Pierre Laval.

قدراتها الذاتية فى مواجهة ألمـــانيا المتطورة . ومع أن فرنسا عقدت سلسلة من المحالفات مع الوفاق الصغير يوغوسلافيا — رومانيا — تشيكوسلوفاكيا) ومع بولنده ، إلا أن مثل هـــذه الدول الشرقية لاتستطيع أن تشكل جبهة ردع لألمانيا وظلت مخاوف فرنسا قائمة من صدام بين الدولتين على شاكلة ما حدث بين بسمارك ونابليون الثالث ، خاصة بعد ذلك النمو السريع فى إقتصاديات ألمانيا فى الثلاثينات ، وهو نمو إقتصادى يعطى الفرصة لنمو عسكرى سريع .

كان ذعر فرنسا من نمو ألمانيا (المهزومة) حقيقيا ، خاصة فى أوائل الثلاثينات من القرن العشرين ، ومابعد ذلك .وقد تحدثت إحدى الصحف البريطانية فى أوائل يناير — كانون الثانى ١٩٣٣ عن نمو ألمانيا قائلة :

أصبحت ألمانيا ... أقوى دولة فى أوربا من الناحية الإقتصادية ، فهى تملك الصناعات .وأكثرها كفاية وهى على استعداد لإغراق العالم كله بالسلع الرخيصة. فهى منافس حاد وخطر إقتصادى لا على دول أوربا الوسطى وحدها وإنما على جميع الدول الأوربية دون استثناء .

لقد أصبحت فرنسا فى حاجة إلى حكومة قومية تستطيع أن تواجه حكومة برلين النازية الهتلرية وحكومة موسولينى الفاشستية . ولـكن الحـكومة الفرنسية ما كانت لتصبح على شاكلة هذين النظامين إذ أنهما لايتلاءمان مع طبيعة الشعب الفرنسى ، الذى كان قد ذاق حلاوة الحكم الإستبدادى المطلق (لويس الرابع عشر) والثورى المستبد (زعماء الثورة الفرنسية) والجماعى المضطرب (حكومة الإدارة) والملـكى الدستورى الضعيف (لويس الثامن عشر وشارل العاشر) والإمبراطورى الفردى (نابليون الاول) والإمبراطورى الدستورى (نابليون الثالث) ، والجمهورى الديمقراطى الحزبى الإنتخابى الإمبريالى (الجمهورية الثالثة) . واستقرت أوضاع الحكم عند دستور هذه الجمهورية ، وأصبحت تشبع ميول الفرنسى الديمقراطية وأعطته فرصة العظمة الحقيقية التى كان يبحث عنها منذ واترلو (١٨١٥) .

إذاً ، كانت فرنسا تبحث عن حكومة قوية لا فاشستية ولا نازية وإنما ديمقراطية حزبية ، رغم ما كانت تتعرض له الديمقراطية الغربية من هجمات ونقد مرير. ومن ثم كانت محاولات اليمين للسيطرة على الحكم ، ومحاولات اليسار المتطرف للوصول إليه لاتجدى ، وحيث أن العصر أصبح عصر الطبقة الكادحة ، وقيمة الحكومة تتركز فى برنامجها الإشتراكى ، وقيمة الحزب فى مدى ارتباطه بالطبقة العمالية والفلاحين ، وحيث أن العديد من الأحزاب اليسارية كان قد ظهر فى فرنسا ، فإن مثل هذه الأحزاب اليسارية تكون مرشحة لتسلم السلطة لو إتحدت فما بينها .

ولكن ما كان بين الأحزاب اليسارية من خلافات ظل يحول لفترة طويلة بين تكوين جبهة منها ، حتى شعرت هذه الأحزاب أن هناك خطراً مشتركاً عليها لو ظلت هكذا مفككة ، إذ سيؤدى الأمر — من وجهة نظرها — إلى تفوق حزب فاشستى أو على طراز الفاشست . ومن هنا تكونت (الجبهة الشعبية) من الأحزاب اليسارية للوصول إلى الحكم ولتنفيذ برنامج إصلاحى شامل .

وكانت هذه الجبهة الشعبية مؤلفة من عشرة أحزاب تختلف فى ميولها نحو البروليتاريا ونحو البرجوازية وهى :

١ — الحزب الراديكالى .

٢ — الحزب الشيوعى .

٣ — « الإشتراكى .

٤ — عصبة حقوق الإنسان .

٥ — حركة الكفاح .

٦ — الإتحاد العام الكونفدرالى للعمل الموحد .

٧ — الإتحاد العام الكونفدرالى للعمل .

٨ — لجنة المثقفين المناهضة للفاشست .

٩ — اللجنة العالمية ضد الفاشية والحرب .

١٠ — الإتحاد الإشتراكى الجمهورى .

كانت هناك مجموعة من العوامل الداخلية والخارجية قد أسهمت فى ظهور « الجبهة الشعبية »[1] فى ١٩٣٥ فى فرنسا وأهمها :

١ — كانت الثقة فى الحكومة الفرنسية قد إهتزت بشدة بسبب عدم وجود حزب قوى صاحب أغلبية يسندها ويعطيها القدرة على الاستمرار لمدة طويلة نسبياً فى الحكم . وكانت الخلافات بين الزعامات السياسية المتعددة المتتالية تحول دون أن يكون لفرنسا سياسة خارجية أو داخلية محددة المعالم باستثناء سياسة التصلب ضد المانيا .

٢ — تعدد الأحزاب دون أن يتفوق واحد منها وضعف الحكومة عن تنفيذ خطط إصلاحية راديكالية بسبب النقص فى سلطات الهيئة التنفيذية الأمر الذى أدى إلى تقوية السلطة التنفيذية خاصة بعد ذلك التركيز الهائل فى سلطاتها فى إيطاليا الفاشستية وألمانيا النازية .

٣ — الفضائح المالية الضخمة التى تورط فيها رجال الحكم والبرلمان والموظفين والدعوة التى قويت لإجراء تطهير فى النظام الفرنسى الديمقراطى الذى كان مجال تهكم كل من موسولينى وهتلر .

٤ — كان توقيع المعاهدة السوفيتية الفرنسية وإبرامها فى ١٩٣٦ دافعا لمهادنة الشيوعيين الفرنسيين للحكومة الفرنسية ، بل والدخول فى تكتل للأحزاب اليسارية لمقاومة النظم الفاشستية والنازية .

---

(١) Popular Front.

هـذا التجمع اليسارى لم يلبث أن وجهه تجمع قوى يمينى كان مستمداً للملاسب بعمر الفرنك نكاية باليسار الأمر الذى عمق البغضاء بين اليسار الفرنسى والاوليجاركية المالية المتحكمة فى مقدرات البلاد . إذا كان بنك فرنسا موجه بواسطة كبار أصحاب الأسهم فيه ، وهؤلاء كانوا قادرين على التحكم فى اقتصاديات البلاد .

كان هذا التجمع اليسارى معداً لمواجهة الإنتخابات الجديدة ، وقد تفوقت فيها (الجبهة الشعبية)[1] برئاسة ليون بلوم[2] وتشكلت وزارة من كبار اليسار الفرنسى دون أن يشترك فيها الحزب الشيوعى ، وإنما أيدها النواب الشيوعيون .

وسارت خطة « الجبهة الشعبية » على أساس إحداث تغييرات راديكالية فى التنظيم والإدارة والتشريع المالى والاقتصاديات الإنتاج والمال بشكل يكفل لفرنسا قوة قادرة على التصدى لألمانيا النازية المتطورة .

ولهذا عملت الجبهة الشعبية بعد أن تسلمت الحكم على وضع سلطات قوية فى يدها كى تصبح قوة تنفيذية فعالة وهو أمر كانت تطالب به هيئات فرنسية متعددة . وفى نفس الوقت عملت على تصفية الهيئات الفاشستية التى انتشرت فى فرنسا .

ومن حيث الإصلاح الإدارى ، كان للجبهة الشعبية برامج وأهداف عديدة ، وأقدمت على الكثير ولكن العبء كان أعظم والفساد الإدارى كان أعمق من أن تتمكن حكومة واحدة من هذه الإدارة وتطويرها . إلا أن مراسيمها لتحسين حال العاملين من حيث ساعات العمل وزيادة الأجر كانت أكثر توفيقاً وأكثر الإصلاحات تعرضاً للنقد بعد ذلك . فقد قللت « الجبهة الشعبية » من ساعات العمل وجعلتها أربعين ساعة فى الأسبوع ، وزادت من أجر العامل ، وأممت بعض الصناعات المتعلقة

---

(١) Popular Front

(٢) Leon Blum

بالإنتاج الحربى . ومع هذا كانت النتائج غير كبيرة ، وكان النقد أكبر ، وكان الخلاف بين الزعامات فى داخل « الجبهة الشعبية » واضحاً . ولهذا لم تمش هذه الجبهة الشعبية فى الحكم طويلا ، وسقطت وزارة (ليون بلوم) لعدم قدرتها على مواجهة الأزمة الإقتصادية فى فرنسا مواجهة فعالة (يونيو ١٩٣٦ إلى يونيو — حزيران ١٩٣٧) .

ولاشك أن قدرات «الجبهة الشعبية» على إحداث تغيير جذرى كانت محدودة ، ولاشك أيضا أن الظروف التى حكمت فيها أعطت للمشكلات الدولية أهمية أكبر بكثير من المشكلات الداخلية ، فقبل أن تتولى الجبهة الشعبية الحكم كانت القوات الألمانية تستولى على الراين ، وتوالت العمليات العدوانية من جانب الدكتاتورية الإيطالية على الحبشة ، والدكتاتورية اليابانية على الصين ، والتدخلات الإيطالية والنازية والسوفيتية فى الحرب الأهلية الأسبانية فطغى كل هذا على جهود « ليون بلوم » فى إصلاح الوضع الداخلى .

* * *

وظلت بريطانيا ذات استقرار سياسى على أساس التنافس بين الأحزاب الثلاثة الكبيرة : —

١ — حزب المحافظين .

٢ — حزب الأحرار .

٣ — حزب العمال .

وكان يدور جدل حول النظام الوزارى البريطانى . ولكن دون التعرض له .

وكانت الأزمات الكبرى الداخلية التى تعرضت لها بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى تتركز فى :

١ — إضراب ١٩٢٦ وأزمة الصراع بين العمال والمحافظين .

٢ — الأزمة الإقتصادية الدولية الكبرى ١٩٢٩ .

٣ — المشكلة الإيرلندية المزمنة .

٤ — تنازل الملك ادوارد الثامن عن العرش ١٩٣٦ .

كانت قوة التيار الإشتراكى قد ظهرت فى بريطانيا — مثل غيرها من دول أوربا — بعد الحرب العالمية الأولى . فمنذ ١٩٢٠ كانت تقع — من وقت لآخر — اضرابات يقوم بها عمال المناجم وتشكلت لجنة لدراسة أسباب هذه الاضرابات برئاسة سيرجون ساكى(١) . وفى التقرير الذى أعدته هذه اللجنة إتهام واضح للنظام الذى كان متبعا بشأن ملكية مناجم الفحم ومطالبة بإعادة النظر فيه لصالح نظام يتضمن نوعاً من الإدارة العامة لتلك المناجم تراعى مصالح العمال . إلا إن حكومة المحافظين — التى تغلبت فى إنتخابات ١٩٢١ على كل من الأحرار والعمال — أهملت متعمدة الأخذ بتلك التوصية الثمينة .

وكان أن هدد العمال بإضراب عام فى ١٩٢١ ولم تتجنبه حكومة المحافظين إلا إلا بشق الأنفس . ولكن قرر عمال المناجم الإضراب مرة أخرى فى مايو ١٩٢٦ بعد أن فشلت مفاوضاتهم مع الرأسمالية المتحكمة والتى كانت تسعى إلى تخفيض أجر العمال . ويختلف إضراب ١٩٢٦ عن سابقه بأنه كان واسع النطاق إذ أعلنت تجمعات عمالية عديدة تأييدها لإضراب عمال المناجم ، وهى :

١ — عمال السكك الحديدية والنقل .

٢ — عمال المطابع .

٣ — عمال البناء .

٤ — عمال مناجم الحديد والصلب .

وإلى جانب ذلك بعض المشتغلين فى الميدان التجارى ، وأصبح هذا الاضراب المحك الذى سيكشف مدى صلابة العمال فى مواجهة أصحاب رؤوس الأموال والدولة .

عزمت حكومة المحافظين على عدم نجاح الإضراب عن طريق إدارة المحطات والمراكز الصناعية والسيطرة على أحواض الشحن والتفريغ والمواصلات الداخلية ، وصمدت حكومة المحافظين بقوة أمام هذا التكتل العمالى . بل عملت على تفتيت

(١) Sir John Sankey

قوى الإضراب العام بإصدار مرسوم في ١٩٢٧ بعدم شرعية الإضرابات المؤيدة(١) أو الإضراب التي تحرج الحكومة وتهدد الأمة .

وعندما ونمت الأزمة الإقتصادية الدولية (١٩٢٩) وتدهور سعر الجنيه الإسترليني ، كان العمال — برئاسة رمزى مكدونالد — قد وصلوا إلى الحكم. ولكن كانت المعضلة الإقتصادية معقدة اضطرت مكدونالد إلى تكوين حكومة إتحاد وطني (صيف ١٩٣١) ، عملت على تخفيض النفقات والمرتبات تجنبا للتضخم النقدي. وزيدت الرسوم الجمركية على الواردات وتقوية الروابط الإقتصادية بين بريطانيا ومستعمراتها . وكل هذا كان يعد بريطانيا عن سياستها التقليدية الخاصة (بالتجارة الحرة) . ولكن بصفة عامة كانت قدرات بريطانيا الإقتصادية في نمو مطرد ساعدها في ذلك اتساع امبراطوريتها .

وإذا كانت السياسة الداخلية والإقتصادية مستقرة في بريطانيا وتؤدي إلى تنمية مواردها وزيادة إستغلالها لإمبراطوريتها كانت سياستها الخارجية في نظر العديد من المؤرخين — وخاصة المؤرخين السوفييت — هي المسئولة عن تشجيع هتلر على متابعة مغامراته العدوانية ضد معاهدة فرساى وضد أوربا الشرقية، فيتهم هؤلاء المؤرخون حكومة بريطانيا بعد الحرب بما يلي :

١ — تحريض ألمانيا على التوسع في إتجاه أوربا الشرقية والإتحاد السوفيتي .

٢ — تقوية البرجوزية القومية المتطرفة النازية عسكريا بمدها بالسلاح والخبرة الفنية والعسكرية . وسارت الولايات المتحدة الأمريكية في نفس الإتجاه الخطر .

٣ — وقفت حكومة بريطانيا إلى جانب النازية الهتلرية بصراحة عندما عقدت معها اتفاقاً بحرياً في حزيران (١٩٣٥) الذى يمنح لألمانيا الفرصة لبناء الغواصات بمعونة مالية وفنية بريطانية . وقضت بذلك حكومتا بريطانيا والولايات المتحدة على تنفيذ نظرية (الأمن الجماعي) التي كان يتمسك بها الإتحاد السوفيتي . فأدى ذلك الى نكبة (ميونخ) الشهيرة خريف (١٩٣٨)(٢).

---

(١) Sympathetic Strikes .

(٢) أنظر الباب الثاني .

وكان تشمبرلن – زعيم المحافظين[1] – يعتقد أن التفاهم المباشر مع ألمانيا خير من السير وراء وهم (الأمن الجماعى) حتى لقد استبعد فكرة عقد مؤتمر اقترحه روزفلت – رئيس الولايات المتحدة الأمريكية – لتخفيف حدة التوتر العالمى ، وآثر أن يستمر فى مفاوضات ومساومات مع هتلر حتى لقد عرض على هتلر فكرة التسوية الشاملة للمشكلات الدولية ، وإعادة بعض المستعمرات إلى ألمانيا . ولكن هل كانت حكومة لندن صادقة فى مساعيها ، أم أنها كانت تريد شراء السلام من هتلر بأى ثمن مؤقتاً حتى توقعه فى أزمة حياة أو موت مع الإتحاد السوفيتى وفرنسا ؟ وأغلب الظن أن تشمبرلن كان يلعب لعبة كبيرة للغاية تجلت فى موقفه المحايد من ضم هتلر للنمسا ومن مفاوضات ميونيخ ١٩٣٨ .

---

(١) انتصروا فى انتخابات أكتوبر – تشرين أول ١٩٣٥ .

الفصل الرابع عشر

الأزمات الدولية قبيل الحرب العالمية الثانية

١ — العدوان الاستعماري الياباني على الصين .

٢ — الإستعمار الإيطالي للحبشة .

٣ — الحرب الأهلية الأسبانية ودكتاتورية فرانكو .

٤ — هتلر وإعادة توحيد الألمان .

العدوان الاستعمارى اليابانى على الصين

كانت المشكلة الصينية اليابانية واحدة من الأزمات الدولية التى أقلقت العالم قبيل الحرب العالمية الأولى . وأساس هذه المشكلة أن اليابان أصبحت دولة كبيرة ، على النظام الاوربى ، وتزايد عدد سكانها وإنتاجها بشكل كبير لايتناسب مع العدد القليل من المستعمرات التى ورثتها عن الأمبراطورية الألمانية فى الشرق الأقصى أو فى فورموزا وكوريا . وكان إستيلاؤها على ميناء بورت آثر يحثها باستمرار على التوسع الإستعمارى فى منشوريا . إلا أن منشوريا كانت صينية ، وكانت حكومة الصين الوطنية بزعامة تشان كاى تشيك قد خرجت منذ وقت قصير من حروب أهلية مريرة فى الوقت الذى تحولت فيه سياسة اليابان إلى شن عدوان إقتصادى على منشوريا تمهيداً للاستيلاء عليها .

فقد تمت صادرات وواردات اليابان من وإلى منشوريا . ونفذ اليابانيون مشروعات إقتصادية وسكك حديدية واسعة النطاق ، وهاجر إلى منشوريا عشرات الالوف من اليابانيين . وأصبحت السياسة اليابانية إزاء منشوريا واحدة من الاسباب التى ترفع هذا الجناح المتحمس إلى الوزارة أو تسقط الوزارة التى لاتتابع سياسة السيطرة اليابانية على منشوريا . وكانت القيادة العسكرية اليابانية شديدة التحمس لتحقيق التوسع اليابانى فى منشوريا خلال فترة العشرينات والثلاثينات من هذا القرن .

وكانت الحكومة الصينية — وهى عضو فى عصبة الأمم — تحاول لفت أنظار الدول الكبرى إلى مخططات العدوان اليابانى عليها دون أن تتحرك هذه الدول

تحركا إيجابياً ، وذلك لأن الظروف كانت غير مواتية بسبب الأزمة الإقتصادية الدولية (١٩٢٩) التى شغلت العالم ، وبسبب نمو الفاشستية فى إيطاليا والنازية فى ألمانيا ، وإنشغال الإتحاد السوفيتى [1] بمشاكله الداخلية وعدم وجوده عضواً فى عصبة الأمم وتدهور مكانة هذه العصبة خاصة بعد إنسحاب ألمانيا منها فى ١٩٣٣ ، وإنسحاب إيطاليا منها فى ١٩٣٦ .

ومن ثم كان على حكومة الصين الوطنية مضطرة إلى الاعتماد على قواها المحلية المتماسكة أمام العدوان اليابانى الإقتصادى والعسكرى . وكان طبيعيا أن يكون رد الفعل شديداً فى الدوائر العسكرية والإقتصادية اليابانية ضد المشروعات الإقتصادية وخطوط السكك الحديدية الصينية ، وضد الهجرة العمالية الصينية إلى منشوريا ، وكانت هجرة مدبرة إلى جانب الهجرة الطبيعية الصينية إلى منشوريا .

وبتزايد المنافسات الإقتصادية اليابانية الصينية ، فى منشوريا تعددت فرص الحوادث بين الشعب الصينى واليابانيين فى منشوريا ، ووقوع قتيل من هذا الجانب أو ذاك ، الأمر الذى يؤدى إلى تأجيج المشاعر القومية فى كل من الدولتين ، وتصاعد الدعوة بين التوسعيين اليابانيين لإستغلال مثل هذه الحوادث لشن هجوم شامل ضد الصين . وقويت هذه الدعوات فى إعقاب إرتفاع نسبة البطالة فى اليابان بسبب الأزمة الدولية الإقتصادية . وهكذا أصبحت الحرب ضد الصين علاجاً لمشكلتى البطالة والإقتصاد القومى اليابانى والحاجة إلى مجالات خارجية لاستيعاب الفائض البشرى اليابانى المتراكم .

استغلت حكومة اليابان حادثة تخريب ضد الخط الحديدى اليابانى فى منشوريا ، ودون إعلان حرب زحف جيش (كوانتونج) مستولياً على المواقع الرئيسية الإستراتيجية فى جنوب منشوريا . (سبتمبر - ايلول ١٩٣١) .

---

(١) كان صن يات سن قد سعى إلى التحالف مع الإتحاد السوفيتى ضد التوسع اليابانى المتطرف ١٩٢٣ .

واستنجدت حكومة الصين بعصبة الأمم مستندة فى ذلك أنص المادة الحادية عشرة التى تحث على إتخاذ الإجراءات لمنع وقوع عدوان على سلامة إحدى الدول. واستنجدت كذلك بالولايات المتحدة الأمريكية استناداً إلى ميثاق سبق أن تولت حكومة فرنسا ووشنجتن أن عقدته ووقعته إيطاليا وألمانيا والإتحاد السوفيتى واليابان (آب ـ أغسطس ١٩٢٨) من أجل منع الحروب والعمل على تسوية المشكلات بين الدول بالطرق السلمية . وعرف باسم ميثاق برياند ـ كلوج[١] .

كانت عصبة الأمم عاجزة عن فرض رأى محدد إيجابى فى مواجهة صلف اليابان وتقاعس الدول الكبرى الأخرى عن اتخاذ تدابير حازمة ضدها . ويحتاج تقاعس الولايات المتحدة بالذات إلى تحليل نظرا لأن نمو قوة اليابان كان يهدد تطلعات واشنجتن الامبريالية فى الشرق الأقصى . والسبب فى وقوف حكومة الولايات المتحدة سلبية إزاء العدوان اليابانى واكتفائها بالاحتجاج الدبلوماسى انها رأت فى التوسع اليابانى على حساب الصين تهديداً مباشراً للاتحاد السوفيتى الذى منطلقا لنشاط الحركة الشيوعية فى الصين . ومن ثم كانت اليابان من وجهة نظر المسئولين الأمريكيين رادعاً للسوفييت . ويجب إطلاق يدها فى مثل هذه الإتجاهات حتى لو تعارضت جزئياً مع تطلعات الولايات المتحدة الأمريكية .

تابعت القوات اليابانية الإستيلاء على كل منشوريا ، وبعد أن تم لها ذلك تكونت حكومة محلية أعلنت استقلال منشوريا تحت اسم جديد هو مونشوكو[٢] (١٩٣٢) ، ووضع اليابانيون على رأس هذه الدولة الهزيلة امبراطور الصين السابق (بو ـ يى)[٣] .

ثم تابعت حكومة اليابان توسعها واستولت على إقليم (جيهول)[٤] قرب بيكين.

---

(١) Briand-Kellogg Pact

(٢) Manchukuo

(٣) Pou-Yi.

(٤) Jehol

وكان ضعف الصين عسكريا وانصراف الدول الكبرى عنها ، وتدهور قوة عصبة الامم سبباً في نمو أطماع اليابان وعدم الإكتراث — بل وانسحبت منها في ٢٧ آذار ـ مارس ١٩٣٣ ، وشرعت في القيام بدور سياسي كبير في شرق آسيا مشابه لدور الولايات المتحدة الامريكية ومبدأ مونرو في العالم الجديد ، وذلك عندما أدعت أن لا حق للدول غير الآسيوية التدخل في شئون الشرق الأقصى ، ومن أجل تحقيق هذا الهدف عملت على تنمية أسطولها البحرى ليكون نداً للاسطولين الامريكي والإنجليزى . فخلق ذلك تسابقاً بحرياً وسياسياً بين هذه الدول .

أدى هذا النمو الإستعمارى اليابانى إلى أن تعدل الولايات المتحدة من سياستها في الشرق الأقصى نحو الإتحاد السوفيتى إذ إعترفت به تمهيداً لوضع سياسة مشتركة ضد الخطر اليابانى . ولكنها في نفس الوقت كانت لا تزال ترجو من اليابان تبقى على باب الصين مفتوحا(١) أمام الجميع للافادة استعماريا منها ولهذا ظلت الخطوات المناهضة لليابان في محيط السلبية ولذلك أقدمت اليابان على خطوة جديدة وأخطر هى وضع الصين كلها تحت السيطرة الإقتصادية اليابانية سواء بالرضا أو بالقوة . ورفضت حكومة الصين أن تصبح بمحض إرادتها مستعمرة يابانية ، فكان أن وقعت الحرب الصينية ـ اليابانية في ١٩٣٧ وقد تعللت اليابان كذلك بأن أرواح اليابانيين في خطر بسبب سياسات الصين المعادية وكان ذلك تمهيداً للحصول على سبب للحرب والتوسع وضرب الصين قبل أن تستكمل استعداداتها العسكرية بقيادة شيان كاى تشيك الشديد العداء لليابان .

ولما وقعت حادثة حدود بين القوات الصينية — واليابانية عند مدينة « وان ـبنج » (٢) في أوائل تموز ـ يوليو ١٩٣٧ طالبت حكومة اليابان بسحب الجيوش

---

(١) سياسة الباب المفتوح Open Door

(٢) Ouen-Pin?

الصينية من شمال الصين . وكان هذا يعنى أن مصير هذا الشمال سيصبح كمصير منشوريا ورفضت حكومة تشان كاى تشيك ، فزحفت الجيوش اليابانية — ابتداء من منتصف تموز إلى بكين واستولت عليها (١٨ تموز ١٩٣٧) وعلى شنغهاى ونانكين فى السنة التالية . بن وعلى الصين الشمالية كلها وجزء من الصين الوسطى وشواطىء الصين الجنوبية بينما لجأت حكومة تشانج كاى تشيك إلى تشونج كنج (1) ولكن وهى مصرة على القتال .

ورغم النكسات المتتالية التى نزلت بحكومة الصين الوطنية وفقدانها الملايين من شبابها فى ساحات المعارك واتشار الجيوش اليابانية فى أحسن الأراضى الصينية إلا أن التصور الصينى للنصر كان يقوم على أسس ثابتة وهى : —

١ — أن اليابان كانت تخطط لحرب سريعة تقضى على قوة الكفاح الصينى وترغم الحكومة الوطنية على قبول شروط اليابان ، فإذا باليابان تجد نفسها متورطة فى حرب طويلة المدى ومسطحات واسعة .

٢ — كانت القوات اليابانية تسيطر على المدن والمواقع الإستراتيجية ولكن الريف الصينى ظل تحت سيطرة الوطنيين الأمر الذى يهدد اليابانيين بحرب عصابات مرهقة للغاية .

٣ — كان اليابانيون يعتقدون أن حكومة تشان كاى تشيك ستسقط بعد الضربات الأولى ولكن استمر الرجل متحكماً فى المقاومة الشعبية المستميتة رغم التفوق الضخم فى المعدات العسكرية لدى اليابان .

٤ — بدأت سياسة اليابان الإقتصادية فى الأراضى الصينية المحتلة تهدد الإمتيازات

---

(١) Tch. ng-King.

الاوربية فى الصين الأمر الذى كان يزيد من تحرك الدول الأوربية وأمريكا ضدها عندما تحين فرصة لذلك .

ولقد استمرت هذه الحرب حتى وقعت الحرب العالمية الثانية لتصبح جزءاً منها ، وجزءاً مهما للغاية بعد ضرب اليابان لبيرل هاربر[١] فى ١٩٤١ .

---

(١) Pearl Harbour

(٢)

الإستعمار الإيطالى للحبشة

كانت أفريقية السوداء خلال النصف الأخير من القرن التاسع عشر هدفا للاستعمار الاوربى حتى أنه لم يعد فيها من دولة مستقلة سوى الحبشة[١] المسيحية التى كان يحكمها حاكم وطنى هو هايلاسلاسى . ولكن هـــذه الدولة كانت قد أصبحت دولة داخلية منذ أن انتشرت المستعمرات الإيطالية فى ارتريا والصومال الإيطالى ، والمستعمرات البريطانية والفرنسية فى السودان والصومال الإنجليزى والصومال الفرنسى (جيبوتى) وكانت إيطاليا الحاقدة على وراثة كل من فرنسا وبريطانيا ألمانيا فى أفريقية ترى أن الحبشة هى مجالها ، خاصة وأن استيلاء الإيطاليين يجعل هناك اتصالا مستمراً غير منقطع بين المستعمرات الإيطالية فى شرق إفريقية .

كان الإستيلاء على الحبشة يحقق عدة أهداف أخرى إيطالية وأوربية :

١ ـــ كان الشعب الإيطالى لايزال يذكر الهزيمة القاسية التى أنزلها الملك منليك بالجيش الإيطالى فى موقعة (عدوه) فى ١٨٩٦ . وكان موسولينى من أولئك الزعماء الذين يسعون إلى إثبات القدرة على النصر حيث هزم غيره توطيدا لنظرية التفوق الإيطالى على يد الدوتشى والفاشست .

٢ ـــ كانت أوربا على تعصب لنظرية تفوق الأوربى ورسالة الرجل الأبيض الإنسانية ، حتى لو تمت هذه الرسالة على جثث الإفريقيين ، ومن ثم كانت السيطرة

---

(١) كانت ليبيريا مستقلة كذلك . ولكنها دولة تكونت من العائدين من أمريكا إلى أفريقية متحررين من العبودية ، ولكن فارضين سيطرتهم على أجدادهم بنوع من التفرقة العنصرية .

الإيطالية على الحبشة تلقى ترحيبا من الأوربيين ولا يعارضها إلا الحكام الأوربيين لأسباب سياسية .

٣ — كان الفاتيكان قد أعلن حياده من الاستعدادات الإيطالية لغزو الحبشة . ولكنه فى نفس الوقت لم يعارض هذا التسلط ، وأغلب الظن أنه كان يرى فى التوسع الإيطالى فى الحبشة فتحاً لمجال أوسع أمام البعثات التبشيرية الكاثوليكية لتقويض الكنيسة القبطية فى الحبشة وتحويلها إلى الكاثوليكية .

ولكن كانت هناك عقبات قوية تحول دون تحقيق هذا الهدف بسهولة ودون تعريض العالم إلى أزمة كبيرة تقلب بعض الدول الكبرى ضد إيطاليا ، وأهم هذه العقبات :

١ — كانت فرنسا وبريطانيا منذ ١٩٠٦ متفوقتا النفوذ فى الحبشة . وأى توغل إيطالى فيها يعنى التصدى لهاتين الدولتين معا . ولكن فى الثلاثينات ضعفت إمكانية هذا التصدى الانجلو-الفرنسى بسبب إختلافات جوهرية في مجالات السياسة الدولية بين فرنسا وبريطانيا . إذ كانت فرنسا تخشى التصدى لمشروعات إيطاليا الإستعمارية في شرق إفريقية إذ قد يؤدى ذلك إلى تقارب بين إيطاليا وألمانيا أو إلى تركيز نشاط إيطاليا الإستعمارى فى حوض البحر المتوسط الامر الذى يثير الكثير من المتاعب فى وجه الفرنسيين هناك .

٢ — كانت الحبشة قد دخلت عضوا فى عصبة الأمم منذ ١٩٢٣ ، واستعمارها بواسطة إيطاليا يعتبر سابقة خطيرة تهز كيان عصبة الأمم هزة قاتلة ، إذ أن العصبة تقوم على أساس نظرية الأمن الجماعى للدول الأعضاء وضمان سلامة هذه الدول . وما كانت الدول لتقبل مثل هذا الإنتهاك على عضو فى العصبة حيث قد تتعرض أية واحدة منها لنفس المصير ولكن ورغم كل هذا — فإن موقف الدول الكبرى هو الذى يمكن أن يعطى لهذه المفاهيم القوة اللازمة أو التخاذل الذى يجعل قيمة هذه المفاهيم فى الحضيض .

وكان موسولينى يدرك أن كل شىء يمكن التفاوض عليه والمساومة عليه مع حكومة بريطانيا الإستعمارية ومع حكومة فرنسا الإستعمارية التى تخشى صباح مساء من وقوع تحالف ألمانى — إيطالى . ومن هنا سارت الإستعدادات العسكرية الإيطالية جنباً إلى جنب مع المفاوضات السرية مع حكومتى باريس ولندن . .

وكان العامل الإقتصادى واضحاً فى وقوع العدوان الإيطالى على الحبشة . وكان عاملا من شقين : —

١ — لقد قامت بعثات علمية إيطاليا بدراسة إمكانيات الحبشة الإقتصادية ، وكتبت هذه البعثات الكثير من التقارير التى تتحدث عن الثروات الضخمة الزراعية أو المدفونة فى باطن الأرض ، حتى لقد أكدت هذه التقارير وجود معدن البلاتينيوم فيها .

٢ — كانت معالجة الفاشست للأزمة الإقتصادية التى تعرضت لها إيطاليا منذ ١٩٢٩ — كجزء من الأزمة الإقتصادية الكبرى العالمية — لا ينطوى على حل جذرى وبالتالى تعرضت إيطاليا لموجة متصاعدة من البطالة . فاتجه الفاشست إلى امتصاص هذه البطالة عن طريق التوسع فى التجنيد العسكرى والتوسع فى التجهيزات العسكرية ، وهذا يضع فى يد الحكومة إمكانيات عسكرية كبيرة تمكنها من تحقيق التوسع الإستعمارى ومواجهة أزمة البطالة وأزمة الكساد فى آن واحد .

ثم إن إيطاليا وهى تحتل اريتريا — كانت تستطيع أن تفرض كلمتها على بريطانيا إذا ما أرادت هذه القيام بمشروعات لتنظيم عمليات تخزين مياه الروافد الحبشية لنهر النيل . فعندما أرادت بريطانيا إقامة سد على بحيرة تانا[1] ، دخلت معها إيطاليا فى مساومات إنتهت فى ١٩٢٥ إلى . —

١ — لبريطانيا الحق فى إقامة سد عند مخرج بحيرة تانا .

---

(١) Tana

٢ — أن يكون الجزء الغربي من الحبشة منطقة نفوذ إيطالية .

وكانت العلاقات الإقتصادية بين الحبشة و إيطاليا تنمو بسرعة وفق خطة مدروسة إيطالية ، فمع أن إيطاليا وقعت ميثاق صداقة مع الحبشة في ١٩٢٨ ، إلا أن التغلغل الإقتصادي كان ينمو بشكل يهدد إستقلال الحبشة لدرجة أن هيلاسلاسي سعى إلى جذب رءوس الأموال الأمريكية تجنباً لرءوس الأموال الإيطالية من جهة وحتى يوقف الضغوط الإقتصادية على الحبشة من جهة أخرى . ولكن قوة الجوار الإيطالي للحبشة ، وعدم وجود مواضع قدم أمريكية في المنطقة ، ووقوف بريطانيا وفرنسا موقفاً سلبياً إزاء هذا التغلغل الإيطالي ، جعل موسوليني يشدد من ضغوطه على الحبشة ، في انتظار الفرصة الملائمة للاستيلاء عليها .

وجاءت هذه الفرصة في وقت كانت فيه العلاقات الدولية معقدة في ١٩٣٤ ١٩٣٥ ، ففي ديسمبر — كانون أول ١٩٣٤ وقع نزاع مسلح بين القوات الحبشية والإيطالية حول تبعية قرية (وال وال)(١) ، وقتل في هذه الحادثة حوالى الثلاثين من الجند الإيطالي .

ومع أن القوات الإيطالية إستولت على (وال وال) إلا أن موسوليني أمعن في المطالبة بالتعويضات ، ورفض أية مناقشة بشأن التحقيق عن تبعية (وال وال) للصومال الإيطالي .

أما الحبشة فقد استنجدت بميثاق العصبة ، وطلبت التحكيم طبقاً لميثاق الصداقة الإيطالي الحبشي ، ولكن تابعت إيطاليا ضغوطها وحشودها العسكرية (٢) رغم مطالبة عصبة الأمم لإيطاليا بتسوية الأزمة على أساس من ذلك الميثاق الإيطالي الحبشي . ولكن ضربت إيطاليا عرض الحائط بالحلول السلمية وزحف جيوشها إلى قلب الحبشة .

---

(١) Walwal.

(٢) الطريف أن هذه الحشود كانت تتضخم في الوقت الذي انعقد فيه مؤتمر ستريسا وحضرته إيطاليا وبريطانيا وفرنسا من أجل الاحتجاج على إعادة تسليح الجيش الألماني خلافاً لمقررات معاهدة فرساي (ابريل — نيسان ١٩٣٥) .

وكانت هذه الجرأة الإيطالية ترجع : —

١ — قوة شخصية موسوليني وصلابته في تحقيق الإستيلاء على الحبشة ليكرس بها سياسته الفاشستية الإمبريالية .

٢ — نجاح محادثاته مع الوزير الفرنسي بيير لافال (١) الذي وافق على أن يغض الطرف عن تحركات إيطاليا في الحبشة .

٣ — اتضاح ضعف عصبة الأمم بشكل أكد أنها لا تستطيع أن تضع « الأمن الجماعي » — دفاعاً عن إستقلال الحبشة — موضع التنفيذ .

٤ — التجاء بريطانيا إلى سياسة إرضاء إيطاليا بجزء كبير من الحبشة — وليس كلها — ودخولها في مفاوضات مع فرنسا في هذا الصدد . وإن كان صمويل هور (٢) في نفس الوقت يعتقد أن التوصل إلى تفاهم مع فرنسا واستخدام الأسطول البريطاني كقوة ضغط على إيطاليا وإصدار قرار من عصبة الأمم ، بأن إيطاليا معتدية يحق إتخاذ العقوبات ضدها ، قد يحد من غلواء إيطاليا .

لم تضعف عزيمة موسوليني ، رغم تحرك الاسطول البريطاني إلى البحر المتوسط ، ورغم موافقة عصبة الأمم على فرض العقوبات ضد إيطاليا ، حيث أن بريطانيا كانت تناور فقط ولا ترغب في أن تكون الحبشة سبباً في حرب مع إيطاليا ، وحيث أن العقوبات التي فرضتها عصبة الأمم كانت ذات طابع إقتصادي فقط ، لم تكن مجدية ولم تقلل من تحركات إيطاليا العسكرية .

وكانت آخر محاولة بذلت لإنقاذ الحبشة تلك التي قام بها « هور » خلال محادثاته مع « لافال » حول تنازل الحبشة عن قسم متسع جداً من أراضيها لإيطاليا في مقابل حصول الحبشة على مخرج لها إلى البحر عند ميناء عصب الواقع تحت يد الإيطاليين. ولكن لم يقبل البرلمان البريطاني بهذه الخيانة لإستقلال عضو في عصبة الأمم فاستقال « هور » ، وكذلك سقطت وزارة « لافال » . بينما كان الإيطاليون يستولون على

---

(١) Pierre Laval (١٨٨٣ — ١٩٤٥) .

(٢) Samuel Hoare. (١٨٨٠ — ١٩٥٩) الوزير البريطاني .

كل الحبشة ويولون فيكتور عمانويل الثالث إمبراطوراً عليها ، وظهر إلى الوجود « شرق أفريقية الإيطالى » فى منتصف ١٩٣٦ ، وهو نفس العام الذى إندلعت فيه الحرب الأهلية الأسبانية التى شاركت فيها إيطاليا مشاركة عنيفة .

وحيث أن التآزر الإيطالى الألمانى كان فى تزايد فقد سعت بريطانيا ـ بصفة خاصة ـ إلى محاولة إبعاد إيطاليا عن ألمانيا بعد أن انتهت المشكلة الحبشية على تلك الصورة ، على أساس إعتراف بريطانيا بالوضع الجديد فى الحبشة فى مقابل سحب إيطاليا قواتها من أسبانيا وعدم تحصين إيطاليا للحدود الليبية المصرية . وتم ذلك فعلا فى اتفاقية عقدت فى إبريل ١٩٣٨ .

(٣)

الحرب الأهلية الأسبانية

ودكتاتورية فرانكو

كانت أسبانيا تعانى من من التدهور العام الذى أصابها بعد فقدانها مستعمراتها فى أمريكا الجنوبية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وبعد حربها الخاسرة ضد الولايات المتحدة الأمريكية فى ١٨٩٨ . وكانت الملكية الحاكمة تستند على كنيسة كاثوليكية متزمتة ، وعلى الحكم الدكتاتورى وعطلت العمل بالدستور . إلا أن قوى التغير كانت أقوى من الرجعية الحاكمة ، وانتشرت الأفكار اللبرالية فى الجامعات والأفكار الاشتراكية بين العمال ، وزاد من هذا التطور اللبرالى عمق الفساد فى البلاط الملكى وبين الأرستقراطية المتنفذة .

ونظراً لعدم وجود زعامة قادرة على تشكيل قوى المعارضة للأتوقراطية الحاكمة ، ونظراً لنمو نفوذ العسكريين المؤيدين للملكية ، كانت الثورات التى قامت قبل الحرب العالمية الأولى غير فعالة ، مثل ثورة برشلونة ١٩٠٩ . ولكن جاءت الهزة الشديدة التى هزت المجتمع الأسبانى بكافة قواه من المغرب .

فى ١٩٢١ تمكن زعيم مجاهد عربى فى الريف الأسبانى من تجميع القوى الوطنية حوله ضد الإستعمار الأسبانى ونجح عبد الكريم الخطابى فى إنزال كارثة بالجيش الأسبانى راح ضحيتها أكثر من عشرة آلاف قتيل (١٩٢١) .

كانت الهزيمة العسكرية شديدة الوطأة على الحكومة والشعب الأسبانى ، ولكن الأشد منها ماتبع ذلك من ذيوع الفضائح التى انغمس فيها الملك الفونسو الثالث عشر نفسه .

ولكي ينقذ الملك نفسه ورجاله من أن تكشف الأمور على حقيقتها أمام الشعب لو تولى الوزارة وطنيون من ذوي النزاهة خاصة بعد أن وقف البرلمان والعمال والطلبة إلى جانب تقصي حقائق النكبة العسكرية وأسبابها ، عمل على إسقاط الحكومة القائمة حينذاك ، وإقامة حكومة دكتاتورية برئاسة الجنرال بريمو دي ريفيرا[1] (سبتمبر — ايلول ١٩٢٣) .

وسرعان ما حل البرلمان ، وقيد الحريات ونفى المعارضين ، وسيطر بقبضة من حديد على البلاد . ولكن مثل هذا الأسلوب من الحكم الدكتاتوري الذي لا يعالج المشكلات الحقيقية المسببة لقلق الشعب لا يعيش طويلا إذ يفقد شهراً بعد آخر المؤيدين حتى يجد نفسه أعزلا معتمداً على القوة العسكرية فقط ، فإن هو فقد تأييدها سقط بسرعة ، وهذا ماحدث لبريمودي رفيرا في ١٩٢٩ واضطر إلى الإستقالة في ١٩٣٠ بين مظاهر المطالبة بالحكم الإنتخابي النيابي الدستوري .

وجد الملك أن التيار التقدمي أقوى من أن يقاوم ، ولهذا أصدر مرسوما بإجراء الإنتخابات وإطلاق الحريات . فكانت فرصة كبيرة لزعماء الحركات الإشتراكية للوصول إلى المجلس النيابي وإلى كرسي الوزارة . وكان أن أحرزت الأحزاب الجمهورية نصرا إنتخابيا ضخما ، وآثر الملك أن يغادر البلاد بينما أعلنت الجمهورية في ١٩٣١ . وتولى زامورا[2] رئاستها المؤقتة وتشكلت حكومة إشتراكية يسارية مناهضة للكنيسة والملكية وللدكتاتورية العسكرية .

ووضعت حكومة (زامورا)[3] الإئتلافية برنامجها الإصلاحي على الأسس التالية : —

١ — حكم جمهوري برلماني ديمقراطي انتخابي .

---

(١) Jose Antonio Primo de Rivera.

(٢) Zamora

(٣) Zamora

٢ — الحرية الدينية ، وإلغاء المدارس الإكليريكية حفاظا على وحدة أبناء الشعب الثقافية .

٣ — تنفيذ الإصلاح الزراعى وتأميم أملاك الكنيسة .

٤ — وضع إمكانيات البلاد الإقتصادية فى خدمة الصالح العام .

وسارت حكومة (أرانا) .[1] — التى خلفت وزارة (زامورا) — شوطاً كبيراً فى تنفيذ هذا البرنامج ، ولكنها لم تلبث أن تخبطت بسبب هجمات اليسار المتطرف عليها المطالب بثورية أعمق من هذه ، وبسبب نقمة العناصر الملكية والعسكرية والإقطاعية والكاثوليكية التى أضيرت من جراء تلك الإصلاحات . وفى الوقت الذى كان فيه الحكم اليسارى يضطرب بين يدى أصحابه كانت قد بدأت تشكيلات يسارية متطرفة ويمينية تتكون من أجل إسقاط حكومة (أزانا) .

تعرض الحكم فى أسبانيا بعد ذلك لأزمة ثمة خاصة بعد أن تولى الوزارة من ليس له شعبية أو مقدرة على مواجهة الظروف ، وتعرضت البلاد لثورة شيوعية محدودة (١٩٣٤) اخمدت بسرعة ولكن تركت إنعكاسات سيئة بين الجماهير ، وشعرت القوى اليسارية أن الأمور تكاد تفلت منها واليمين يكاد أن يضرب ضربته ، ولهذا أتبع الأسلوب التقليدى من أجل الحصول على أغلبية برلمانية فى الإنتخابات الجديدة التى تقرر إجراؤها فى ١٩٣٦ وفعلا حصلت الجبهة الشعبية على ٢٦٧ مقعداً ، ولكن هذا التفوق أحرزته على حساب حزب الوسط (المعتدل) الذى لم يحصل إلا على ستين مقعداً ، بينما حصلت أحزاب اليمين — العدو العنيد لليسار — على ١٣٢ مقعداً ، الأمر الذى جعل الصدام بين الخصمين أمراً لابد منه بعد أن جنح اليمينيون إلى استخدام الإرهاب المسلح وسيلة للقضاء على خصومهم .

عملت الجبهة الشعبية على إبعاد (زامورا) عن رئاسة الجمهورية وأسندوها إلى

---

(١) A. Zana

إلى (أزانا) لعله يسيطر على الموقف إلا أن الأمور زادت اضطرابا لتعدد القوى المتوثبة بعضها ببعض واهمها :

١ — الشيوعيون فى معاقلهم فى استورياس[١] وسرفيل[٢] .

٢ — التحالف بين بعض الزعامات الإشتراكية وزعماء بعض النقابات .

٣ — الفالانج[٣] ، وكان قد أسسه «خوسيه بن انتونيو دى ريفيرا الدكتاتور السابق من عدد من ضباط الجيش .

أصبحت البلاد فى فوضى مريعة ، القوى المتصارعة تتقاتل فى الشوارع ، والإرهاب يهدد كل أسرة ، والقاضى الذى يحكم على عضو بالفالانج توجد جثته بالطريق بعد أيام قليلة ، والصحفيون كانوا يقتالون إذا هاجموا جناحا من هؤلاء أو أولئك . وأثار الفوضويون والشيوعيون إضرابات مروعة فى مدريد ، وزادت الأزمة الإقتصادية وسوء المحاصيل من عدد العمال العاطلين الأمر الذى أعد البلاد للحرب الأهلية . والثورة على الحكومة الضعيفة .

كانت بداية الثورة على يد عدد من الضباط بقيادة كالفو سوتيلو[٤] الذى كان وزير مالية فى وزارة الدكتاتور ريفيرا . ولكنه قتل فى ١٣ تموز — يوليو ١٩٣٦ فثار الجنرال سان جورجو فى مراكش الأسبانية واستولى على سبته ومايله . ولما مات في حادث طائرة خلفه فى قيادة الحركة الجنرال فرانسسكو فرانكو[٥] .

وبسرعة انضمت العناصر الناقمة على الحكومة إلى جيش فرانكو ، وبدا

---

(١) Austurias

(٢) Seville

(٣) Falang

(٤) Calvo Sotelo

(٥) Francisco Franco

كأن الثورة لن تواجه متاعب كثيرة فى طرد الحكومة . إلا أن الحكومة كانت تعتمد على قوة لا بأس بها من الجيش ، وعلى الجماهير الكارهة للدكتاتورية العسكرية والجيش وفرانكو الذى كان يضم قوات مغربية . على أن التدخل الأوربى فى الحرب من جانب كل من روسيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا هو المسئول عن إطالة المذابح الأهلية من ١٩٣٦ إلى ١٩٣٩ .

لقد قدمت إيطاليا عشرات الألوف من جندها لمساعدة فرانكو ، ونظراً لأن الحكومة الجديدة برئاسة الاشتراكى كاباليرو (١) التى تعمل على صد فرانكو عن مدريد تضم اشتراكيين وشيوعيين عمل الإتحاد السوفيتى على تأييد هذه الحكومة عسكريا ، وأصبح الصراع فى أسبانيا بين الإشتراكية البرجوازية القومية من جهة والشيوعية العالمية من جهة أخرى . ولكن هل كانت هذه الأيديولوجيات هى وحدها السبب فى هذا التدخل الباهظ التكاليف فى الحرب الأسبانية الأهلية من جانب الإتحاد السوفيتى وإيطاليا وألمانيا . لقد كانت هناك أهداف عميقة لدى كل من هذه الدول من وراء تدخلها على النحو التالى :

إيطاليا :

كانت أكبر الدول المساهمة فى الحرب حتى لقد بلغ عدد الجند الإيطالى فى أسبانيا أكثر من أربعين ألف مقاتل ، وكانت تتوقع أن تحصل من فرانكو على جزر البليار المواجهة لجبل طارق الإنجليزى أو أن تشارك فى استعمار مراكش مع أسبانيا .

ألمانيا :

كانت تتوقع الحصول على إمتيازات كبيرة لإستغلال المناجم الأسبانية فى نفس

---

(١) Capallero

الوقت كان وجود فرانكو — صديق ألمانيا — على كرسي الحكم فى مدريد يرغم فرنسا على الإحتفاظ بجزء كبير من جيشها عند البرانس الأمر الذى يوهن قوى فرنسا العسكرية ويشتتها خاصة وأن الصداقة الإيطالية الألمانية قد بدت واضحة ومهددة لفرنسا فى أكثر من موقع .

الاتحاد السوفيتى ٠

كان يسعى إلى تقوية الشيوعية فى وجه طغيان الفاشية فى أوربا الغربية (ألمانيا — إيطاليا — أسبانيا — البرتغال) (١) .

وكانت المساعدات تتدفق على الجانبين ، وفشلت كافة المجهودات لتدخل عصبة الأمم فى الأزمة أو لوقف تدفق السلاح والرجال إلى أسبانيا إلا أن قرب المسافة من إيطاليا وعدم تحمس فرنسا للجمهوريين وإيثار بريطانيا الحياد جعل فرانكو فى موقف قوى مكنه من الاستيلاء على مدريد (مارس — آذار — ١٩٣٩) وبذلك انتهت الحرب الأهلية الدموية .

كانت النتائج التى ظهرت بعد انتصار فرانكو فى كثير من جوانبها مخيبة لآمال دولتى المحور (ألمانيا وإيطاليا) رغم ظهور موسولينى بالذات وكأنه خرج منتصراً من هذه الحرب وفى رأينا أن الذى خرج من هذه المعركة منتصراً إلى حد ما هو إيطاليا وبريطانيا وفرنسا وألمانيا ، وفيما يلى أهم تلك النتائج التى ترتبت على الحرب الأهلية الأسبانية والتى تؤيد وجهة النظر هذه : —

١ — كان فرانكو يحكم أسبانيا حكماً دكتاتوريا ومثل هذا النظام لا يقبل الخضوع لدكتاتور آخر ، وما أن يتخلص من المشكلات المعقدة التى يواجهها يعمل

---

(١) كان يحكمها دكتاتور هو سالازار ٠

على إثبات شخصيته فى وجه القوى الأخرى الطامعة فى السيطرة عليه أو التى تنتظر منه أن يرد لها جميل المساعدات الباهظة التى سبق أن قدمتها إليه وهو فى قلب المحنة. وهذا ما حدث فعلا بين فرانسكو وهتلر وموسولينى ، وبالذات بين موسولينى وفرانسكو حيث أن إيطاليا قدمت من التضحيات وكأنها تدافع عن أرض إيطالية. وعندما تفاوضت إيطاليا مع أسبانيا على عقد معاهدة كانت المعاهدة التى توصل إليها الطرفان لاتعطى لإيطاليا أية ميزات استثنائية ، كذلك رفض فرانسكو الإنضمام إلى المعاهدة المعادية للشيوعية[1] مصراً على الوقوف على الحياد.

٢ — اعترفت حكومتا بريطانيا وفرنسا بنظام حكم فرانسكو الدكتاتورى ، ومع أن فرنسا أعطت أهمية أكثر لمتطلبات الدفاع عن حدود البرانس إلا أن فرنسا لم تكن كلها ضد فرانسكو خلال الحرب الأهلية. فقد كان (ليون بلوم) — المعاون لفرانسكو — مضطراً إلى عدم إتخاذ خطوات شديدة ضده حفاظا على سلامة (الجبهة الشعبية) التى كان يتزعمها فى فرنسا.

٣ — كان انتصار فرانسكو فى حد ذاته انتصارا للفاشستية الجديدة وهزيمة للديمقراطية الغربية ، لكن إيطاليا فى نفس الوقت خسرت مراكزها فى شرق أوربا أمام اهتزاز هتلر — فرصة اشتغالها فى الحرب الأسبانية — ومده نفوذه إلى البلقان على حساب إيطاليا ، وقد علق أحد المؤرخين على هذا بقوله إنه ليست هذه هى المرة الأولى ولا الأخيرة التى استخدم فيها هتلر إيطاليا كمخلب قط له كذلك كانت هذه الحرب الأسبانية قد شغلت بريطانيا وفرنسا عن مخططات ألمانيا فى أوربا الشرقية لفترة ليست بالقليلة.

٤ — أعطت الحرب الأسبانية الأهلية الفرصة لإيطاليا وألمانيا لتنسيق عملهما

---

(١) « Italy, not for the first or last time, had been used as Germany's cat's -paw ».
David Thomson : Europe Since Napoleon. 2nd Edition, 3rd Impression, Longmans 1964, p 677.

إزاء مشكلة معينة الأمر الذى مهد لتكوين (المحور)[1] بينهما ومهد لعقد الميثاق الثلاثى الألمانى اليابانى فى نوفمبر ـ تشرين الثانى فى ١٨٣٦ ضد الشيوعية[2].
Anti - Commintern Pact

ه ـ ضاعت هيبة « عصبة الأمم » ولم يعد هناك قيمة لنظرية « الأمن الجماعى » ، أو « حل المشكلات بالطرق السلمية » ، الأمر الذى فتح الطريق أمام استخدام العنف لتحقيق الأهداف القومية .

لكسر ذلك المحور ، سعى تشمبرلن إلى جذب إيطاليا إلى جانب بريطانيا ، وحيث أن المشكلة الحبشية كانت قد إنتهت لصالح إيطاليا ، وانتصر فرانكو فى أسبانيا واستولى هتلر على النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، فالأجدى لبريطانيا الوصول إلى تفاهم مع إيطاليا بدلا من استمرار الصدام فى كل مكان لعل ذلك يخفف من ارتماء موسولينى فى أحضان هتلر باستمرار . وكان موسولينى كذلك يدرك قيمة الوصول إلى تفاهم مع بريطانيا يثبت مكاسبه السابقة . وفعلا عقد «اتفاق الجنتلمان» بينهما فى يناير ـ كانون الثانى ١٩٣٧ ، وفيه إعترفت كل منهما أن للآخر مصالح حيوية قومية فى حوض البحر المتوسط . وكان ذلك مقدمة للوصول إلى تفاهم أوسع نطاقاً حول علاقات الدولتين بشأن أمور البحر المتوسط . وفعلا تم التوصل إلى اتفاق أوسع فى أبريل ـ نيسان ١٩٣٨ :

١ ـ عدم مطالبة إيطاليا لأسبانيا بأية توسعات أرضية ، وسحب القوات الأجنبية منها .

---

(١) تعبير أطلق على التعاون بين ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشستية بين ١٩٣٦ إلى ١٩٤٥ وظهر هذا التعبير على لسان موسولينى فى خطبة فى ميلان فى نوفمبر ١٩٣٦ وأصبح هذا التعاون تحالفا بعقد الميثاق الحديدى فى ٢٢ مايو ١٩٣٩ Pait of steel .

(٢) اتفاق بين ألمانيا واليابان فى ٢٥ نوفمبر ١٩٣٦ انضمت إليه إيطاليا فى نوفمبر ١٩٢٧

٢ — وقف حرب الدعاية بين الطرفين .

٣ — الحفاظ على الوضع الراهن فى قناة السويس .

٤ — اعتراف بريطانيا بالسيادة الإيطالية على الحبشة .

ولكن كانت الروابط الإيطالية — الألمانية أقوى من أن تفصمها معاهدة كهذه .

(٤)

هتلر وإعادة توحيد الألمان

(١) الانشلوس[١]

بعد أن قويت ألمانيا عسكريا ودوليا وضمت السار وحصنت أراضى الراين ، وتحولت بلجيكا إلى الحياد وبولنده وكذلك بريطانيا أقدم هتلر على العملية الكبرى التى كان يدبرلها منذ وقت طويل وهى ضم النمسا رغم أنف الدول المتمسكة بنصوص معاهدة فرساى ورغم معاهدته مع فرنسا باحترام استقلالها (١١ تموز — يوليو ١٩٣٦) . ولكن الذى أعطى الحجج قوية لتدخل هتلر فى شئون النمسا الداخلية نمو قوة الحزب النازى داخلها وتطلعه إلى التأييد الألمانى الفعال له . ولهذا نجد هتلر — الذى تنكر لإقدام النازى النمساوى على قتل (دلفوس) ، رئيس وزراء النمسا فى ١٩٣٤ — يوجه فى فبراير — شباط ١٩٣٨ إنذارا إلى رئيس وزراء النمسا الجديد (شوشنج)[٢] بإعطاء النازى عددا هاما من الحقائب الوزارية ، ثم اتبعه بإنذار آخر بعد وقت قصير بضرورة إسناد الحكم إلى (سايس انكوارت)[٣] الزعيم النازى النمساوى .

ورغم المعارضة المستميتة التى أبداها رئيس الجمهورية النمساوية (كولاس) ، تمكن (انكوارت) من الوصول إلى كرسى رئاسة الوزارة ، وأسرع هتلر إلى إعلان ضم النمسا إلى ألمانيا .

---

(١) Auschluss. تطلق على دمج النمسا فى ألمانيا .

(٢) Kurt Von Schuschung.

(٣) Arthur Seyss Inquart

وحتى يقطع هتلر الطريق على تدخل الدول المتشبثة بمعاهدة فرساى فى الموضوع، اجرى استفتاء تمخض عن ٩٧ ٪ موافقاً على الإنضمام إلى ألمانيا .

ما هى نتائج هذه الخطوة الجريئة : —

١ — أثبت هتلر أن لاقيمة للرأى العام الدولى المفكك .

٢ — أن معاهدة فرساى كانت واجهة القوى المنتصرة فى الحرب العالمية الأولى ، وأصبحت تحت أقدام الدول المهزومة والمنتصرة على السواء .

٣ — أن عصبة الأمم أصبحت منظمة لاجدوى منها بعد أن فقدت دولتان من أعضائها استقلالهما .

٤ — كانت إيطاليا تكره مثل هذا الاندماج النمساوى فى ألمانيا ولكنها قبلت الوضع الجديد . وقدر هتلر كم كان هذا ثقيلا على نفس الدوتشى الامر الذى سيجعل هتلر مدينا بهذه النهاية السعيدة للانشيلوس إلى موقف موسولينى الهادىء وآل على نفسه أن يراعى مصالح موسولينى فيما يجد من موضوعات كبيرة . ولكن مما لاشك فيه أنه إبتداء من ضم ألمانيا للنمسا تحولت مراكز القوى فى دولتى المحور ، كانت إيطاليا قبل ١٩٣٨ — على الأقل — على قدم المساواة مع المانيا ، أما بعد ضم النمسا فقد أصبح موسولينى موجها بالسياسة الهتلرية .

٥ — كانت المزايا الإستراتيجية التى حصلت عليها المانيا من ضم النمسا ضخمة للغاية . فبضربة واحدة زاد تعدادها ٦ ½ مليون المانى متحمس . وأصبحت المانيا متصلة إتصالا مباشراً بأكبر دولتين بلقانيتين (يوغوسلافيا والمجر) هذا فضلا عن الاتصال المباشر والأكثر سهولة مع الحليفة إيطاليا .

٦ ـ أثار ضم النمسا إلى ألمانيا أشد المخاوف من جانب الإتحاد السوفيتي بالذات فقد اقترحت موسكو « إنقاذ السلام بصورة جماعية » فرفضت بريطانيا الإقتراح مستبعدة قيمة نظرية الضمان الجماعى ، مبدية الميل نحو ضم النمسا لألمانيا ، ويتهم الإتحاد السوفيتى بريطانيا والدول الرأسمالية بالتواطؤ مع هتلر بشأن النمسا حتى توجه قوة ألمانيا النازية إن آجلا أو عاجلا ضد الإتحاد السوفيتى ، ويؤكد المؤرخون السوفييت أن مفاوضات سرية كانت تجرى بين برلين وواشنجتن من أجل اقتسام أسواق العالم فى مقابل قيام هتلر بتصفية الشيوعية فى روسيا .

٧ ـ أصبحت تشيكوسلوفاكيا ـ الهدف التالى للوحدة الألمانية ـ محاطة بالجيوش الألمانية ، وفى هذا قال الجنرال يودل النازى :

« كانت أراضى تشيكوسلوفاكيا تمثل حتى هذا التاريخ اندفاعاً بارزاً يتوغل فى الأراضى الألمانية ، وحزاماً ضيقاً يتجه نحو فرنسا ويصلح كقاعدة جوية للحلفاء ولاسيما روسيا ، أصبحت تشيكوسلوفاكيا نفسها الآن محاطة بفكى كماشة ، وبات وضعها الإستراتيجى سيئا ، بحيث بات من المحتوم سقوطها فريسة لأى هجوم عنيف من جانبنا قبل أن يكون فى إمكان أية مساعدة جوية من الغرب الوصول إليها » .

أدت هذه المشكلات الدولية المعقدة إلى أزمة ثقة بين حكومات الدول الكبرى ، وتفوقت نظرية (الدبلوماسية المتآمرة) على نظرية (الضمان الجماعى) . وكانت ألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد السوفيتى أكثر الدول انقساما فى هذه الدبلوماسية المعقدة التى حولت تاريخ السنوات القليلة التى سبقت

الحرب العالمية الثانية إلى ما يشبه « الفوضى الدولية » . فالمواثيق لا تحترم ، والمعاهدات قصاصات من الورق ، وإستقلال الدول الصغيرة يمكن أن يتلاشى على مائدة الأطماع القومية والامبريالية . وستزداد هذه « الفوضى الدولية » إشتداداً عندما يقدم هتلر على خطوته التالية فى توحيد ألمان السوديت وألمان بولنده مع ألمانيا .

(ب) ضم تشيكوسلوفاكيا

كانت تشيكوسلوفاكيا واحدة من أكبر الدول التى ظهرت فى أوربا الشرقية بعد الحرب العالمية الأولى . ولكن زعماء العالم لم يتعظوا من مصير امبراطورية النمسا والمجر التى تفككت بسبب تعدد قومياتها وأجناس شعوبها(١)، وخلقوا هذه الدولة المتعددة الأجناس المحصورة بلا منافذ على البحر ، ولكن استطاعت - بسبب مواردها الخاصة - أن تكون صاحبة صناعة متقدمة وذات ارتباطات تجارية هامة مع دول أوربا ومع الإتحاد السوفيتى خاصة من حيث تزويده بالآلات والسيارات ، وكان ستالين لديه من الدبلوماسية الدفاعية مايجعله مقدراً قيمة تشيكوسلوفاكيا ، لا من حيث العلاقات الإقتصادية ولكن من حيث أنها الخط الأمامى الأول للدفاع عن الإتحاد السوفيتى ، وأن بولنده هى الخط الثانى والأخير.

ونظراً لطبيعة موقع تشيكوسلوفاكيا . وتعدد جنسياتها عدلت من نظامها فى الحكم إلى الأخذ باللامركزية التى تعطى كل جنس فى البلاد نوعا من الإدارة الذاتية . وكان أن ظهر الألمان فى السوديت ككتلة قومية واضحة شد من عزمها ضم النمسا إلى ألمانيا . وشرعت ألمانيا فى مد يد العون إلى ألمان السوديت . وجاهر هتلر بضرورة ضم السوديت.وهو فى ذلك لم يستند إلى الهدف القومى الألمانى فقط ، بل وكذلك أدعى أنه بضم السوديت يوجه ضربة قاسية للشيوعية الدولية لما كان عليه الرئيس التشيكى بينيش من صداقة مع ستالين . على أن نمو التحرك الألمانى النازى من داخل تشيكوسلوفاكيا نفسها بزعامة كونراد هنلن(٢)زعيم حزب

---

(١) كانت تشيكوسلوفاكيا تضم العناصر التالية : التشيك ، والسلوفاك ، والروثينيون والمجريون إلى جانب ألمان السوديت وألمان موزعين فى داخل تشيكوسلوفاكيا نفسها ، وقال عنها هتلر : إنها دولة مصطنعة .

(٢) Kourad Heulein.

السوديت الألمانى[1] الفرصة التى كان هتلر ينتظرها حتى يبدو تدخله دفاعاً عن حقوق الألمان وليس عدواناً على تشيكوسلوفاكيا . ولقد كان هتلر يدبر الأمرين معاً : العمل على ضم ألمان السوديت بشكل يؤدى إلى ضم كل تشيكوسلوفاكيا . وكانت الدول الأوربية الغربية تعتقد أن السوديت هو الهدف فقط .

كانت تشيكوسلوفاكيا متحالفة مع كل من الإتحاد السوفيتى وفرنسا (١٩٢٤) ، وكان من الأمور التى اعتمدت عليها حكومة (براغ) أن هتلر لايمكن أن يجازف بحرب كبيرة ضد الإتحاد السوفيتى وفرنسا من أجل السوديت . ولكن كان هناك سؤال آخر لايقل خطورة وهو : هل كانت فرنسا والإتحاد السوفيتى مستعدتين لحرب ضد ألمانيا بسبب السوديت ؟ الواقع أن الدول الكبرى كثيراً ما تضحى بالصغيرة فى سبيل الوصول إلى تسوية ما . ومن ناحية أخرى ظهر جلياً الوضع الجغرافى لتشيكوسلوفاكيا التى لايمكن إرسال جيوش إليها إلا عبر دولة أخرى ، مثل بولنده والمجر ويوغوسلافيا ، ولقد كان لهذه الدول أطماع فى تشيكوسلوفاكيا ، ولايمكن — من ناحية أخرى — أن تقبل بسهولة مرور الجيوش عبرها حتى لاتتعرض هذه الدول لأزمة مع ألمانيا .

لقد كان التحالف التشيكى السوفيتى الفرنسى قوياً على الورق ضعيفاً عند التنفيذ ، وكان الغرض منه — فى اعتقادنا — هو تثبيت استقلال تشيكوسلوفاكيا فى مواجهة ألمانيا ، أما تحويل هذا التحالف إلى برنامج عملى فكان أمراً معقداً للغاية . فلاغرو أن لعبت بريطانيا الدور الأول فى تسوية المشكلة التشيكية ، ولم يقم به لا الإتحاد السوفيتى ولا فرنسا . وذلك يرجع إلى الأسباب التالية : —

١ — كان التدخل السوفيتى أو الفرنسى لايعنى إلا الوقوف إلى جانب الحليف (تشيكوسلوفاكيا) ، بينما لم تكن بريطانيا ملتزمة بشىء بالنسبة لها .

٢ — كان التدخل البريطانى فى المشكلة يهدف — من وجهة نظر بريطانيا —

---

(١) Sudeten German Partr,

السوديت الألمانى[1] الفرصة التى كان هتلر ينتظرها حتى يبدو تدخله دفاعاً عن حقوق الألمان وليس عدواناً على تشيكوسلوفاكيا . ولقد كان هتلر يدبر الأمرين معاً : العمل على ضم ألمان السوديت بشكل يؤدى إلى ضم كل تشيكوسلوفاكيا . وكانت الدول الأوربية الغربية تعتقد أن السوديت هو الهدف فقط .

كانت تشيكوسلوفاكيا متحالفة مع كل من الإتحاد السوفيتى وفرنسا (١٩٢٤)، وكان من الأمور التى اعتمدت عليها حكومة (براغ) أن هتلر لايمكن أن يجازف بحرب كبيرة ضد الإتحاد السوفيتى وفرنسا من أجل السوديت . ولكن كان هناك سؤال آخر لايقل خطورة وهو : هل كانت فرنسا والإتحاد السوفيتى مستعدتين لحرب ضد ألمانيا بسبب السوديت ؟ الواقع أن الدول الكبرى كثيراً ما تضحى بالصغيرة فى سبيل الوصول إلى تسوية ما . ومن ناحية أخرى ظهر جليا الوضع الجغرافى لتشيكوسلوفاكيا التى لايمكن إرسال جيوش إليها إلا عبر دولة أخرى ، مثل بولنده والمجر ويوغوسلافيا ، ولقد كان لهذه الدول أطماع فى تشيكوسلوفاكيا ، ولايمكن — من ناحية أخرى — أن تقبل بسهولة مرور الجيوش عبرها حتى لاتتعرض هذه الدول لأزمة مع ألمانيا .

لقد كان التحالف التشيكى السوفيتى الفرنسى قويا على الورق ضعيفاً عند التنفيذ، وكان الغرض منه — فى اعتقادنا — هو تثبيت استقلال تشيكوسلوفاكيا فى مواجهة ألمانيا، أما تحويل هذا التحالف إلى برنامج عملى فكان أمراً معقدا للغاية . فلاغرو أن لعبت بريطانيا الدور الأول فى تسوية المشكلة التشيكية ، ولم يقم به لا الإتحاد السوفيتى ولا فرنسا . وذلك يرجع إلى الأسباب التالية : —

١ — كان التدخل السوفيتى أو الفرنسى لايعنى إلا الوقوف إلى جانب الحليف (تشيكوسلوفاكيا) ، بينما لم تكن بريطانيا ملتزمة بشىء بالنسبة لها .

٢ — كان التدخل البريطانى فى المشكلة يهدف — من وجهة نظر بريطانيا —

---

(١) Sudeten German Partr,

إلى تسويتها على أساس من التوازن الدولى . وهذا التوازن الدولى مطاط يمكن أن يصل إلى حد اقتسام دولة من الدول .

٣ — كانت الإيحاءات السياسية الصادرة عن الدوائر البريطانية تشير إلى أن بريطانية حين تتوسط لحل المشكلة ستكون على أساس إرضاء ألمانيا من الناحية القومية على الأقل .

٤ — كانت حكومة المحافظين برئاسة نيفيل تشمبرلن غير شديدة العداء لألمانيا وتعتبر الشيوعية أخطر عليها من النازية . وكان الإتفاق البحرى بين ألمانيا وبريطانيا منذ ١٩٣٥ يطمئن بريطانيا كثيراً .

كان نيفيل تشمبرلن هو الذى تولى مهمة الوصول إلى اتفاق مع هتلر . وكان يعتقد أن التوصل إلى اتفاق حول المشكلة التشيكية لايتطلب مفاوضات بين طرفى النزاع ، ألمانيا ، وتشيكوسلوفاكيا . وكان هذا فى حد ذاته من الأمور التى انتقدها السياسيون والمؤرخون بشدة . ولكن فى إعتقادنا أن هذه لم تكن الحالة الأولى أو الأخيرة من دبلوماسية المؤامرات الدولية التى مهر فيها سياسيو بريطانيا منذ أمد طويل . وكانت حكومات بريطانيا من ناحية أخرى تنظر إلى شعوب أوربا الشرقية نظرة تتضمن استصغاراً لشأنها ، وكانت فى نظرتها العنصرية هذه أكثر مهارة من هتلر ، الذى كان يبدى ما يعتقده بشأن نظرية تفوق الجنس الآرى ، فاستخدمتها بريطانيا بمهارة ضده وهى فى نفس الوقت تتبع سياسية عنصرية غير معلنة . وكانت تشيكوسلوفاكيا واحدة من الدول التى لقيت حتفها على مذبح المصالح البريطانية الألمانية وبسبب احتقار بريطانيا وألمانيا النازية الشعوب السلافية ، كل بطريقته الخاصة .

هذه كانت الصورة الدولية إلى جانب محاولات مستميتة من جانب دولتى الأمبريالية (فرنسا وبريطانيا) من أجل سلام يحفظ لهما إمبراطوريتهما من اضطراب شامل يستطيع عملاء النازى والفاشست إثارته ، ويعطيهما الفرصة لوقف

تيار التفوق الإقتصادى الألمانى اليابانى الذى شعرت بوطأته الإمبريالية البريطانية والفرنسية .

ولكن هتلر كان يدرك أن بريطانيا وفرنسا يجب أن لا يناما على مستعمراتهما بيال هادىء ويجب أن يدفعا الكثير فى مقابل سلامتهما ، وأن الثمن هو سيادة ألمانية فى أوربا الشرقية . خاصة وأن التورط البريطانى فى المشكلة التشيكية أبرزها كدولة متآمرة من الطراز الأول إذ أنها كانت قد استبعدت دور الإتحاد السوفيتى من التسوية رغم معاهدة التحالف التشيكية — السوفييتية . وكانت وجهة نظر هتلر أنه قد شق صفوف الدول الكبرى ولم تعد قادرة على أن تجتمع تحت لواء التحالف ضده ، وإنه يستطيع التلاعب ببريطانيا وفرنسا بينما يقف الإتحاد السوفيتى بمعزل عن هذه الأحداث الجسام وكأنه ليس من المسئولين عن المشاكل الأوربية . بل يعتقد المؤرخون السوفييت أن مؤامرة واسعة النطاق كانت تنفذ ضد الإتحاد السوفيتى لمنعه من أى تحرك مناصر للقضية التشيكية . فى ذلك الوقت شنت القوات اليابانية هجوما ضد الأراضى السوفييتية على مقربة من بحيرة هاسان (صيف ١٩٣٨) . وأصبح الإتحاد عاجزا تماما عن أن يمد يد الإنقاذ إلى تشيكوسلوفاكيا المهيضة الجناح .

عندما التقى نيفيل تشمبرلن بهتلر (١٥ أيلول — سبتمبر ١٩٣٨) فى برختسجادن كانت لديه صورة شبه واضحة عن مطالب الأخير ، وكان مستعدا لتلبية هذه المطالب الخاصة باسترداد السوديت الألمانى والمناطق التى تقطنها أكثرية ألمانية على أن تحصل تشيكوسلوفاكيا بعد ذلك على ضمانة دولية بحدودها الجديدة . وفعلا توصل الرجلان (تشمبرلن وهتلر) إلى اتفاق على هذا الأساس . وبدا — من وجهة نظر بريطانيا — أن السلام أصبح مهدداً لا من جانب ألمانيا ولكن من جانب تشيكوسلوفاكيا إذا ما رفضت هذه التسوية التى لم تشارك فيها تشيكوسلوفاكيا والتى تفرض عليها فرضاً من قبل دول (ديمقراطية) ، بل وشاركت فى هذا الضغط حكومة فرنسا (حليفة) تشيكوسلوفاكيا والمتشدقة بالدفاع عن الدول الجديدة التى تشكلت بمقتضى معاهدة فرساى .

فرضت بريطانيا وفرنسا التسوية سالفة الذكر على تشيكوسلوفاكيا. وكان قبول مثل هذه التسوية يعني في حقيقة الأمر تصفية هذه الدولة التي تتكون من قوميات مختلفة ستطالب هي الأخرى بالإنفصال أو بالإنضمام إلى الدولة الأم. ولكن الضغط البريطاني — الفرنسي كان شديداً للغاية. ووجد بنش رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا أن الأصدقاء أشد عليه من الأعداء، واضطر إلى الموافقة على مطالب ألمانيا. وأخذ تشمبرلن هذه الموافقة فخوراً (بإنقاذ السلام) وذهب إلى جودزبرج[1] على الراين لمقابلة هتلر ثانية، وهناك فوجيء بتغير في موقف هتلر حيث قدم له مذكرة[2] طالب فيها بضم فوري وعاجل لأراضي السوديت الألمانى وإجراء استفتاء في بقية الأجزاء موضع الخلاف حول هويتها التشيكية أو الألمانية.

أسقط في يد تشمبرلن، ووجد أن الأمور تحولت إلى استهتار من جانب هتلر لقوة الردع البريطاني أو الفرنسي وشرع تشمبرلن في علاج هذا التدهور الخطير في مكانة بريطانيا عن طريق استخدام المناورات العسكرية ضد ألمانيا فعبأ الاسطول واتجه تشمبرلن — في هذه الخطة — إلى الإتحاد السوفيتي كقوة قادرة على تهديد ألمانيا من أقصى الشرق فاقترح التشاور معه، وتبادل الإنجليز والفرنسيون وجهات النظر، وعبأت تشيكوسلوفاكيا بعضا من قواتها وزادت من استعدادها العسكرى. ولكن خلال كل هذا كان فقدان الثقة بين هذه الدول هو المسيطر على هذه المشاورات بينما كان هتلر يحاول أن يتلاعب بها كلها. وأصبحت الصورة العامة التي كانت تواجه العالم هي أنه على شفى الحرب وكان الناس يكرهون هذه الكارثة ويودون لو أمكن العثور على مخرج لهذه الأزمة خاصة وأن هتلر لعب دوره بمهارة حين أعلن لتشمبرلن أن مطالبه الجديدة هي آخر ما سيطلبه في أوربا، ومن ثم لو تحققت آمال ومطالب ألمانيا هذه المرة فالسلام سيكون طويلا. ومن ثم كان باب التوصل إلى تسوية مفتوحا أمام الساعين إلى السلام بأى شكل.

كان نداء روزفلت — لإنقاذ السلام عن طريق مؤتمر دولى — الأمل الذى

---

(١) كانت المجر تتربص لحصول على روتينيا Ruthenia وبولنده على تشن.

(٢) عرفت باسم مذكرة جودزبرج Godesberg Memorandum

تعاقب به الدول الغربية ، واجتمع تشمبرلن وهاليفاكس عن بريطانيا ولاديه وبونيه عن فرنسا وهتلر وروبنتروب عن ألمانيا وموسوليني وتشيانو عن إيطاليا في مؤتمر ميونخ (٢٩ — ٣٠ سبتمبر — أيلول ١٩٣٨) . ولم يدع الإتحاد السوفيتي في هذا المؤتمر ، ولهذا كان معذوراً في أن يعتقد أن هناك مؤامرة ضده هو الآخر ، خاصة وأن الحديث عن أن ألمانيا تتطلع إلى ضم أوكرانيا كان يثير مخاوف الإتحاد السوفيتي ولديه أكثر من دليل عن أن الديمقراطيات الأمبريالية لاتتورع عن ذلك بحثا عن إبعاد الخطر الألماني عنها .

في هذا المؤتمر ، تقرر تحطيم تشيكوسلوفاكيا بالتدريج وفرض التسوية فرضاً على هذه الدولة . وعندما عرضت هذه الجريمة الدولية على البرلمان البريطاني وافق عليها بأغلبية ساحقة ، وراحت الصحف البريطانية تمجد بناة السلام من الإنجليز . كما وافقت الجمعية الوطنية الفرنسية على هذه الجريمة . واستولى هتلر على تشيكوسلوفاكيا . ولم يكن في وسع الإتحاد السوفيتي أن يقدم شيئا لها حيث لاتوجد حدود مشتركة مع تشيكوسلوفاكيا ولأن دول أوربا الشرقية ، ما كانت لتقبل — لو تحركت القوات السوفيتية — مرورها عبر أراضيها بسبب عدم الثقة المتبادل بين السوفييت وحكومات أوربا الشرقية ، ولخوف هذه الدول من غضبة هتلرية ، كذلك كان هناك تقاعس سوفيتي لما كان عليه الجيش السوفيتي من ضعف حينذاك ولإضطرار السوفييت لرصد جيوش كبيرة في أقصى الشرق بسبب ظروف العدوان الياباني على الصين وبسبب الهجمات المتقطعة اليابانية على الأراضي السوفيتية نفسها في نواحي منغوليا .

ماذا كانت نتيجة هذا التوسع الجديد الألماني ؟

١ — كان صدى هذا التوسع الألماني في أوربا الشرقية قويا للغاية حيث أصبحت دول أوربا الشرقية على يقين من أن دول الغرب الديمقراطية لاتتورع عن بيع الدول الصغرى — حتى ولو كانت أوربية — في سبيل الحفاظ على مكاسبها الأمبريالية.

٢ — شجعت هذه الأحداث إيطاليا على تحقيق أطماعها فى « ألبانيا »[١] فى وقت أصبحت فيه دول أوربا الشرقية تخشى تماما شكيمة المحور (ألمانيا ـ إيطاليا) . فوجهت إيطاليا الفاشستية إنذاراً إلى حكومة ألبانيا فى ٧ أبريل ١٩٣٩ اتبعته بتحرك وحداتها العسكرية البرية والبحرية واستولت على البانيا بعد بعض مقاومة وطرد الملك زوغو من البلاد وقبل ملك إيطاليا عرش البانيا واعترفت يوغوسلافيا بهذا الوضع الجديد .

٣ — تقربت رومانيا من ألمانيا وعقدت معها معاهدة مارس آذار ١٩٣٩ .

٤ — سعت بريطانيا إلى إبعاد إيطاليا بقدر المستطاع عن ألمانيا فعقدت معها معاهدة أبريل — نيسان ١٩٣٩ ولكن دون جدوى .

٥ — سقطت هيبة بريطانيا أمام هتلر ، وازدادت شراهته للتوسع والقيام بمغامرات عسكرية ، فأخذ يطالب بدانتزج (الألمانية) و بـ (ممل) ، فما كان من تشمبرلن إلا أن تحول من سياسة الملاينة إلى التشدد ، وأصدر مجلس العموم قراراً بالتجنيد الإجبارى فى وقت السلم ، ولكن هتلر كان دكتاتوراً عنيداً فرد على ذلك بإعلانه سقوط ميثاق عدم الاعتداء المعقود بينه وبين الحكومة البولندية منذ

(١) كانت البانيا ـ ذات الأغلبية الاسلامية ـ جزءا من الدولة العثمانية متمتعة بنوع من الحكم المحلى حتى تدهورت السلطة العثمانية فى البلقان فى أواخر القرن التاسع عشر فوضعت البانيا ـ بعد حروب البلقان ـ تحت حكم أمير ألمانى ، ولكن استشرت فى البلاد الفوضى خلال الحرب العالمية الأولى حتى أعلن استقلالها فى ١٩٢١ وأصبحت جمهورية برئاسة أحمد زوغو الذى لم يلبث أن أعلن نفسه ملكا فى ١٩٢٨ . وكانت إيطاليا منذ استقلال البانيا تسعى للسيطرة عليها ، فأعلنت مسئوليتها عن أمن وسلامة استقلال ألبانيا (١٩٢٦) ووقعت ا فى ١٩٢٧ معاهدة قضت بأن تضم ألبانيا قدراتها وإمكانياتها العسكرية والاقتصادية فى خدمة إيطاليا وأصبح مقر البنك القومى الألبانى فى روما . وبعد تصفية المشكلة التشيكوسلوفاكية على ذلك النحو بدت لموسولينى الفرصة مواتية لضم ألبانيا .

١٩٣٤) وأخذ هتلر يسعى إلى تحقيق أطماعه فى بولنده وما كانت هذه الأطماع لتتحقق إلا بالوصول إلى تفاهم مع الإتحاد السوفيتى وكان التوصل إلى عقد الميثاق السوفيتى الألمانى فى ٢٣ أغسطس — آب ١٩٣٩ وإصرار هتلر على الاستحواذ على الممر البولندى وعقد بريطانيا معاهدة التعاون المتبادل فى ٢٥ أغسطس ١٩٣٩ ، كانت كل هذه التطورات هى التى مهدت إلى نشوب الحرب العالمية الأولى .

(جـ) الأزمة البولندية وبداية

الحرب العالمية الثانية

كانت المشكلة البولندية ـ مثل المشكلة التشيكية ـ تتحكم فيها العلاقات الدولية أكثر من كونها مشكلة بين دولتين متجاورتين : بولنده وألمانيا .

وكان تحقيق مطالب هتلر القومية في دانتزيج وضم المناطق التي فيها أقلية ألمانية تحت الحكم البولندي وفي إيجاد طريق مباشر عبر الممر البولندي[1] لايتطلب موافقة بولنده فقط ـ هذا إذا وافقت ـ بل كذلك موافقة الدول الكبرى الأخرى . وبريطانيا وفرنسا وبوجه خاص الإتحاد السوفيتي وذلك لعدة عوامل :

١ ـ وجود حدود مشتركة بين الإتحاد السوفيتي وبولنده :

٢ ـ كانت بولنده قد انتهزت فرصة الثورة البلشفية وخروج روسيا من الحرب العالمية الأولى ووضع يده ـ بمساعدة الحلفاء ـ على بايوروسيا وأوكرانيا الغربية وهما أراضي سوفيتية من وجهة نظر الإتحاد السوفيتي ، ولم تحترم بولنده مبدأ حقوق الأقليات مما جعل الإتحاد السوفيتي يسعى إلى إنقاذ هاتين المنطقتين ليس فقط من التسلط البولندي ولكن من التسلط الألماني النازي المتوقع المتعصب للآرية .

٣ ـ تناثرت الأقاويل عن أن هتلر مصر على الاستحواذ على دانتزج حتى ولو تم ذلك عن طريق تعويض بولنده على حساب الإتحاد السوفيتي في أوكرانيا .

---

(١) Polisg Corridor

٣ — أن اقتراب ألمانيا من الحدود السوفيتية يجعل الإتحاد السوفيتي في موقف خطير بسبب الضغوط العسكرية اليابانية ضد روسيا في الشرق الأقصى وكانت اليابان — كما بينا — قد وقعت مع ألمانيا ميثاقا بالتعاون ضد الشيوعية[1] منذ نوفمبر ١٩٣٦، ويصبح الإتحاد السوفيتي بذلك معرضاً — أن وقعت حرب بينه وبين ألمانيا — للقتال على جبهتين متباعدتين في وقت لم يكن بقادر على مواجهة ألمانيا وحدها، ومن ثم كان عليه أن ينظر إلى أي إقتراب ألماني من الحدود السوفيتية بعين القلق والإهتمام الشديد حيث أصبحت المسألة متعلقة بمصير الإتحاد السوفيتي نفسه.

٤ — تعتبر بولنده الدولة الحاجزة أمام التوسع السوفيتي وأمام انطلاق الايديولوجيات الشيوعية بقوة إلى البلقان وقلب أوربا كما أنها ستصبح — إذا وقعت بولنده في قبضة النازي — منطلقا لحرب ايديولوجية وعسكرية ضد الإتحاد السوفيتي، خاصة وأن التحرك الألماني في بولنده ونجاحه يظهر الإتحاد السوفيتي بمظهر العاجز عن المشاركة — على الأقل — في تحديد مصير دولة تقوم على حدوده، مما يعرضه لإهانات أكثر على يد زعيم بعيد الأطماع مثل هتلر الذي يسعى إلى خلق مجال حيوي لألمانيا متسع النطاق في اتجاه الشرق.

٥ — إن الإندفاع الألماني نحو بولنده في نظر الإتحاد السوفيتي ليس مجرد توسع ألماني، وإنما هو جزء من سياسة أو مؤامرة على حد تعبير بعض المؤرخين السوفييت — لدفع ألمانيا لتحطيم الإتحاد السوفيتي، وأن بريطانيا هي الرأس المدبر لهذه المؤامرة. والحق أن هتلر كان فعلا يضمر تحطيم الإتحاد السوفيتي وأن تشمبرلن — رئيس الوزارة البريطانية — كان من أشد خصوم الإتحاد السوفيتي وأكثر الساسة الإنجليز تحقيراً لشأنه ولقدراته العسكرية. ويرى بعض المؤرخين السوفييت أن تشمبرلن بالذات كان موقنا لفترة طويلة حتى قبيل اندلاع الحرب العالمية الثانية بأنه مهما كانت هناك خلافات بين بريطانيا وألمانيا فإن الأخيرة لن تشن حربا عليها

---

(١) Anti - Comminter Pact.

وإنما أولا على الإتحاد السوفيتى ، وأن هـذه النظرية كانت وراء تخاذل تشمبرلن وحكومته فى ميونخ ١٩٣٨ وترك ألمانيا تسيطر على كل من النمسا وتشيكوسلوفاكيا وأن الدول الرأسمالية وعلى رأسها بريطانيا لن تسرع لإنقاذ بولنده وإنما ستتركها ـ مثلما تركت النمسا وتشيكوسلوفاكيا ـ من قبل ـ تقع فريسة العدوان النازى كجزء من تلك المؤامرة الواسعة النطاق ضد الإتحاد السوفيتى .

٦ ـ أن النازى والأمبرياليه البريطانية والفرنسية تتلاعب بعضها ببعض ، وأن هتلر إذا مازج بالإتحاد السوفيتى فى هذه اللعبة الخطرة يستطيع أن يضرب ضربته فى بولنده دون تدخل من بريطانيا أو فرنسا ، وأنه إذا تهاون الإتحاد السوفيتى فى الوصول إلى نوع من التفاهم مع ألمانيا فى الوقت المناسب بأنه يصبح فى مقدور هتلر أن يضرب الإتحاد السوفيتى فى الوقت الذى تعصف به اليابان فى الشرق الأقصى فى إتجاه منغوليا وبحيرة بيكال وقد تتحرك الوحدات البريطانية لقصف مراكز إنتاج البترول فى القوقاز (باكو وباطوم) .

٧ ـ كانت وزارة الخارجية البولندية مسندة إلى الكولونيل « بيك » الشديد العداء للاتحاد السوفيتى بل كان عداؤه للسوفييت أكثر من عدائه للنازى . ولكن مما لاشك فيه أن اعتماد بولنده على المسانده الانجلو ـ فرنسية بدلا من المساعدة السوفيتية جعل بولنده فى مركز أضعف بسبب صعوبة وصول مساعدة انجلو ـ فرنسية إليها فى الوقت المناسب ، هذا فضلا عن أن دويلات البلطيق كانت تميل إلى ألمانيا . ولهذا أصبح لدى الإتحاد السوفيتى المبرر القوى للتفاهم مع ألمانيا على حساب بولنده التى لم تظهر تعاطفا مع الإتحاد السوفيتى وعلقت مصيرها بموقف بريطانيا وفرنسا المناهضتين للاتحاد السوفيتى .

٨ ـ موقف بريطانيا من التطلعات الجديدة الألمانية فى بولنده ، فكانت تهدف إلى الوصول إلى تسوية مبكرة مع هتلر ، وكانت فرنسا تسير فى نفس هذا الإتجاه ، وظهر فى بريطانيا إتجاهان سياسيان أحدهما يرى أن سياسة تشمبرلن تسير إزاء المشكلة البولندية نحو ميونخ جديدة لا يمكن أن يقبلها الشعب الإنجليزى ، والثانى

يرى أن الوقت قد حان للتغاضى عن الخلافات الايديولوجية بين بريطانيا والإتحاد السوفيتى والتعاون معه لوضع حد للمطامع الألمانية ، وأن أى توسع ألمانى جديد فى شرق أوربا سيخل تماما بالتوازن الدولى وسيؤدى إلى تطلعات ألمانية جديدة قد تقوض الامبراطورية البريطانية وتقضى على استثمارات ومصالح الولايات المتحدة الأمريكية فى أوربا .

أمام هذه الأوضاع الدولية المعقدة أصبح على ستالين أن يتخذ أيا من الطرق الثلاثة ، وأى منها لم يكن ليحقق أهدافه :

١ — الوقوف مكتوف اليدين أمام التوسع الألمانى المنتظر فى بولنده . وكان هذا مستبعداً منذ البداية .

٢ — عقد حلف مع بريطانيا وفرنسا ضد أى عدوان ألمانى على بولنده أو الإتحاد السوفيتى .

٣ — الوصول إلى تفاهم مع هتلر .

جرب ستالين الطريقين الأخيرين ، وقام بنفس اللعبة السياسية التى كانت تقوم بها بريطانيا باللعب على حبلين ، ولكن هذا الأسلوب الذى اتبعته كل من بريطانيا وروسيا — فى اعتقادنا — هو المسئول الثانى — بعد العنف الألمانى — عن وقوع الحرب العالمية الثانية .

عرض ستالين على بريطانيا وفرنسا فكرة تكوين حلف دفاعى ولكن خلال النشاط الدبلوماسى المكثف الذى قام به الإتحاد السوفيتى وبريطانيا فى أغسطس ١٩٣٩ كانت الحكومة البريطانية ـ وعلى رأسها تشمبرلن ـ غير متحمسة لفكرة هذا الحلف الذى كان فى نظر داهية السياسة البريطانية ونستون تشرشل[1] مفتاح الأمان لبريطانيا والعالم ضد نيات هتلر العدوانية التى أصبح من المتعذر معرفة حدودها .

وظلت بريطانيا تأمل في الوصول إلى تسوية مع هتلر بشأن المشكلة البولندية والتفاهم مع الإتحاد السوفيتي ، وفعل الإتحاد السوفيتي نفس الشيء مع الألمان والإنجليز . ولكن فقد الإتحاد السوفيتي أمله في عقد محالفة مع دول الغرب وإتجه إلى عقد ميثاق عدم الاعتداء مع ألمانيا فى ٢٣ أغسطس — آب ١٩٣٩ (١) ذلك الميثاق الذى أثار الاضطراب بين دول الغرب وقد نصت هذه المعاهدة على :

١ — الإمتناع عن إستخدام القوة كل منهما إزاء الأخرى .

٢ — الوقوف على الحياد إزاء الطرف الثانى إذا اشتبك فى حرب ضد دولة ثالثة .

٣ — عدم الإنتماء إلى أى تجمع موجه ضد أى من الدولتين المتعاقدتين .

٤ — مدة هذه المعاهدة عشر سنوات .

وخلال الثانى والأربعين ساعة التالية وقعت تطورات سريعة وعلى نطاق واسع كشفت مدى الاضطراب الذى أحدثه ذلك الميثاق السوفيتى الألمانى .

١ — فقد ارتفعت بسرعة حدة الصدامات بين السلطات البولندية والمان دانتزيج وحشدت بولنده بعض وحداتها العسكرية ترقباً لما تقدم عليه ألمانيا .

٢ — زاد هتلر من ضغطه على بولنده منتهزاً فرصة ذلك الميثاق مع الإتحاد السوفيتى الذى أزاح عن ألمانيا — ولو مؤقتا — خطورة عقد تحالف سوفيتى انجلو فرنسى .

٣ — زادت حدة المشاعر الإنجليزية إزاء ألمانيا وعقدت مع بولنده معاهدة

---

(١) Pact de non - aggression

للتعاون المتبادل فى ٢٥ أغسطس – آب ١٩٣٩ . ونصت على التعاون الفورى لمواجهة عدوان أى دولة أوربية على أى من الدولتين المتعاقدتين وعدم توقيع معاهدة سلام منفردة .

أدت هذه التطورات الحادثة عقب عقد الميثاق السوفيتى الألمانى إلى نشاط دبلوماسى دولى مكثف لإنقاذ العالم من حرب كبرى ، فقد طلب الرئيس الأمريكى روزفلت من ملك إيطاليا التوسط للوصول إلى تسوية سلمية للأزمة ، وكانت فرنسا كذلك تحث ألمانيا على التوصل إلى تسوية سلمية لها ، وعلى تجنب توريط العالم فى حرب لا يعرف أحد مدى الدمار الذى تحدثه ، ففى رسالة شخصية بعث بها المسيو دلاريه[1] إلى هتلر فى ٢٦ أغسطس ١٩٣٩ قال فيه :

« Je dois à nos deux peuples de dire que le sort de la paix est encore dans nos seules mains. .. Vous ne pouvez pas douter de mes Sentiments envers l'Allemagne, ni des sentiment pacifique de la France envers votre Nation.. Vous ne pouvez pas douter non plus de la Fidélité de la France à des engagement loyaux enversd' autres Nations, comme la Pologne qui, J'en ai la certitude, veulent aussi vivre en Paix avec l'Allmagne.

Il n'est rien aujourd'hui qui puisse encore empêcher de resoudre pacif quement la crise internationale dans l'honneur et dans la dignité de tous les peuples, si la volonté de Paix existe également de toutes parts ... Aucun homme de coeur ne pourrait comprendre qu'une guerre de destriction puisse s'engager sans qu'une dernière tentative d' arrangement pacifique ait lieu entre l'Allemagne et la Pologne.

وقد رد هتلر فى ٢٧ أغسطس ١٩٣٩ على تلك الرسالة بقوله أن إملاء معاهدة فرساى على ألمانيا شىء لا يحتمل وان دانتزج والممر البولندى يجب أن يعود إلى ألمانيا إذ قال :

« Le diktat de eVrsaille etait intolérable ».

وهكذا كان هتلر متصلبا فى موقفه كل الصلابة بينما كانت فرنسا ترحب بأية جهود لتسوية المشكلة سلمياً فى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا تزداد تشدداً . وأيا كان الموقف ، فقد كان هناك اعتقاد شائع لدى الدوائر البريطانية والفرنسية أن ذلك الميثاق السوفيتى الألمانى يتضمن مواداً سرية تهدف إلى اقتسام بولنده أو تقسيم مناطق النفوذ فى شرق أوربا .

ومثلما كان صدى هذا الميثاق السوفيتى الألمانى خطيراً فى الدوائر المناهضة لهاتين الدولتين ، كان صداه عميقاً حتى لدى حليفتى ألمانيا : إيطاليا واليابان . فقد احتجت اليابان على هذا الميثاق لأنه : «يتنافض نصاً وروحاً مع ميثاق مكافحة الشيوعية»(١) لعام ١٩٣٦ ، وأدى إلى استقالة وزارة (هيرانوما) ومهد للوصول إلى تسوية لمشكلات الحدود بين الإتحاد السوفيتى ومنغوليا واليابان فى ١٥ سبتمبر — أيلول ١٩٣٩ .

أما إيطاليا فقد كان موسولينى يبذل الجهود للوصول إلى تسوية عن طريق دبلوماسية المؤتمرات حيث دعا إلى أن تعقد الدول مؤتمراً فى ٥ سبتمبر لإعادة النظر فى معاهدة فرساى المشئولة — على حد تعبيره — عن الأزمة القائمة .

«.. les clauses du traité de Versailles ... sont la cause des troubles actuels »

كانت محاولة موسولينى هذه فى آخر يوم من شهر أغسطس ١٩٣٩ ، وفى فجر أول سبتمبر ١٩٣٩ زحفت القوات الألمانية عبر الحدود الألمانية البولندية . مفتتحة الحرب العالمية الثانية .

---

(١) Ant - Commintern pact

الفصل الخامس عشر

تطورات الحرب منذ إعلانها

حتى سقوط فرنسا

سبتمبر ١٩٣٩ — يونيو ١٩٤٠

سقوط بولنده واقتسامها :

خلال الأيام الأولى من سبتمبر ١٩٣٩ كان العالم يرقب بكل قلق بالغ ما ستتطور إليه الأمور ، ومنذ أن سمعت الحكومة البريطانية بنبأ الغزو الألمانى اتخذت سياسة — وساندتها فرنسا — ذات اتجاهين يهدفان إلى انسحاب القوات الألمانية إلى خطوط ما قبل الحرب . وإلى العمل على التوصل إلى تسوية سلمية والبديل لذلك إلتزام بريطانيا وفرنسا بتعهداتهما لبولنده أى نجدتها وإعلان الحرب على ألمانيا .

وبعثت حكومة تشمبرلن « إنذاراً » إلى ألمانيا ينتهى الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ٣ سبتمبر بهذا المعنى . ولكن هتلر تجاهل هذا « الإنذار » حتى انتهى ميعاده فأعلنت بريطانيا ثم فرنسا ثم المستعمرات البريطانية الرئيسية ذات الحكم الذاتى (كندا واستراليا ونيوزيلنده واتحاد جنوب أفريقية) الحرب على ألمانيا .

ويرى الإتحاد السوفيتى أن الذى أرغم بريطانيا وفرنسا على إعلان الحرب على ألمانيا هو ذلك الميثاق السوفيتى الألمانى الذى استبعد حرب ألمانية ضد السوفيت ، وجعل من المؤكد — لدى بريطانيا وفرنسا — أن هتلر بعد سيطرته على بولنده سيتحول لضربهما . ولكن من العسير أن نأخذ بوجه نظر بعض المؤرخين السوفييت القائلة بأن إعلان الحرب من جانب كل من بريطانيا وفرنسا على ألمانيا ما هو إلا جزء من المؤامرة الانجلو فرنسية لدفع ألمانيا إلى حرب ضد الإتحاد السوفيتى فليست سياسة الإنجليز من البساطة لدرجة أن يضعوا بلادهم والامبراطورية فى لهيب حرب مروعة على أمل أن تتحول أداة الحرب الألمانية فجأة ضد السوفييت .

ويرى بعض المؤرخين أن هتلر وروبنتروب لم يكونا يتوقعان إعلان بريطانيا وفرنسا الحرب ، ولكن فى اعتقادنا أن كلمة هتلر التى ألقاها فى اجتماع مجلس الريخستاج فى صباح أول سبتمبر ١٩٣٩ توضح أن هتلر كان قد عقد العزم على حرب ضد من يقف فى وجه سياسته . وأن بريطانيا وفرنسا حين طلبتا سحب القوات الألمانية إلى ما وراء الحدود البولندية حتى يمكن التوصل إلى تسوية سلمية كان أمراً

مرفوضاً من ألمانيا ، وما كان ذلك إلا لتحميل ألمانيا مسئولية وقوع الحرب ، وربما كانت فرنسا أكثر من غيرها رغبة فى تسوية سلمية ولكنها أصبحت مرغمة على خوض الحرب حيث أن هتلر لن يلبث أن يشن عليها الحرب إن عاجلا أو آجلا .

حقيقة بعد أن رجحت كفة الجيش الألمانى فى بولنده وأصبحت وارسو قاب قوسين أو أدنى(١) من الوقوع في قبضة الجيش الألمانى تحركت القوات السوفيتية فى ١٧ سبتمبر ١٩٣٩ إلى داخل بولنده دون إعلان حرب وإنما تحت ستار « العمل على استتباب الأمن وحماية الأوكرانيين(٢) والروس البيض(٣) » واعتبرت الحكومة البولندية هذا التحرك السوفيتى « عملا عدوانيا » وافتياتاً مروعاً لمعاهدة عدم الإعتداء السوفيتية البولندية الموقعة فى ٢٥ يوليو ١٩٣٢ والتى اتفق الطرفان المتعاقدان فى بروتوكول ٥ مايو ١٩٣٤ على أن تكون سارية المفعول حتى ٣١ ديسمبر ١٩٤٥ . وناشدت بولنده دول العالم الوقوف ضد هذا العدوان .

وقد وجدت بريطانيا وفرنسا نفسيهمافى مأزق دقيق حيث أن الالتزام الإنجلو- فرنسى بالتعاون المشترك لم يحدد إنه ضد ألمانيافقط ، وإن كان ذلك مفهوماومعروفا حتى لدى حكومة بولنده نفسها ، ولكن فى هذه الظروف كانت مواد المعاهدة - من حيث طبيعة النص - تنسحب على أى عدوان على بولنده ، وما كانت بريطانيا وفرنسا على استعداد لحرب ضد أكبر عدوين فى آن واحد : ألمانيا والسوفيت .

ولم تستطع إنجلترا - بصفة خاصة - إلا أن تشن حملة دعاية واسعة النطاق ضد الإتحاد السوفيتى وأن تفرض قيوداً إقتصادية عليه لم تخف إلا عندما عادت بريطانيا وسعت إلى تحسين علاقاتها مع الإتحاد السوفيتى بعقد اتفاق تجارى معه فى ١١ أكتوبر

---

(١) بدأت معركة وارسو فى ٩ سبتمبر ١٩٣٩ وسقطت فى ١٧ سبتمبر ١٩٣٩ نفس اليوم الذى دخلت فيه القوات السوفيتية بولنده .

(٢) يقصد بها أوكرانيا الغربية التى يرى السوفيت أن بولنده اغتصبتها من روسيا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى .

(٣) Blans - Russien

١٩٢٩ متغاضية فى نفس الوقت عن الضغوط السوفيتية على دول البلطيق حتى فرضت على ليتوانيا واستونيا فى سبتمبر وأكتوبر ١٩٣٩ معاهدات لتبادل المساعدة يبررها بعض المؤرخين السوفيت بأنها ليست بهدف التوسع وأنها هدفت إلى قطع الطريق على النفوذ الألمانى فى فيها .

فلما صعد الإتحاد السوفيتى مطالبه فى فنلنده فى أكتوبر ١٩٣٩ وقطع المفاوضات الجارية مع فنلنده فى ١٣ نوفمبر ١٩٢٩ وألغى فى ٢٨ نوفمبر ١٩٣٩ ميثاق عدم الإعتداء المعقود بين البلدين وقطع علاقاته الدبلوماسية معها فى اليوم التالى ليشن بعد ذلك الحرب عليها فى ٣٠ نوفمبر ١٩٣٩ ، ولما حدثت هذه التطورات شن الإنجليز حملة دعاية واسعة النطاق حتى ذهب بعض المؤرخين السوفيت إلى القول أن الإتحاد السوفيتى — بسبب الشكلة الفنلندية — تعرض ليس لهجوم واسع النطاق من جانب كل من بريطانيا وفرنسا بل ومن جانب ألمانيا كذلك . وأن فنلنده هى التى فوتت الفرصة على انجلترا وفرنسا بعقدها الصلح مع الإتحاد السوفيتى فى ٧ مارس ١٩٣٩ وبمقتضاه تنازلت فنلنده له عن خليج كاريليا(١) ومعه فيبورج(٢) وتأجير الإتحاد السوفيتى لشبه جزيرة هانجو(٣) لمدة ثلاثين عاماً .

حقيقة كان موقف بريطانيا وفرنسا شديداً من التوسع السوفيتى فى فنلنده، ولكن هل كانت لديهم النية — على ما يذهب إليه السوفيت — لإرسال حملة ضدهم وضرب منابع البترول السوفيتية فى القوقاز ؟ وأنه لم يثن انجلترا وفرنسا عن ذلك سوى الهجوم الألمانى على الدنمرك والنرويج فى إبريل ١٩٢٩ ؟ إنها استنتاجات فيها نظر .

كان من الطبيعى أن يصبح موقف إيطاليا من نشوب الحرب من أخطر الموضوعات أمام مجلسى وزراء بريطانيا وفرنسا فإيطاليا — عضو المحور — تشكل

Carelie (١)

Viborg (٢)

Hungoe (٣)

خطراً شديداً على فرنسا بالذات حيث أن دخولها الحرب يفرض على فرنسا القتال في جبهتين ، وكانت فرنسا قد أخذت من إيطاليا خلال حرب الوحدة سافوى ونيس ، وكانت إيطاليا تطمع في ورثه فرنسا وبريطانيا في شمال إفريقية ، وتطمع في انتزاع مصر من بريطانيا وتحقيق شعار موسوليني في أن يصبح البحر المتوسط بحيرة إيطالية (١) وانتزاع الصومال البريطاني والفرنسي .

وكانت بريطانيا تدرك ذلك تماما ، وتعمل على تحقيق بعض المطالب الإيطالية المحدودة ، ولهذا عملت على إغراء إيطاليا بالأماني ، فصرحت الحكومة البريطانية بأنها لاتمانع في أن تصبح إيطاليا دولة عظمى وتغاضت عن مصير ألبانيا وقدمت عروضاً إقتصادية وتشكلت لجنة مشتركة إيطالية بريطانية للشئون الإقتصادية (٢٧ أكتوبر ١٩٣٩) .

حقيقة أعلن المجلس الفاشستي في أول سبتمبر ١٩٣٩ – عقب دخول القوات الألمانية بولنده – أن إيطاليا دولة غير محاربة ، ولكنه – مع الاحتفاظ بإيطاليا دولة غير محاربة – أعلن في ديسمبر من نفس السنة تأكيده على الحلف الألماني – الإيطالي معلنا في نفس الوقت رغبة في العمل على إعادة السلام .

وكانت هناك عدة عوامل جعلت إيطاليا لاتتخذ موقفاً حاسماً من نشوب الحرب وأهمها :

١ – لقد كانت الأحاديث عن خط ماجينو (١) الذى أقامه الفرنسيون على طول

---

(١) Mare Nostrum

(٢) Maginot Line من التحصينات العسكرية الفرنسيون بين ١٩٢٩ – ١٩٣٤ على طول الحدود الفرنسيه الشرقية من لونجواى Longwaz – الواجهة لوكسمبورج – حتى سويسرا ، ونسب هذا الخط إلى ندريه ماجينو Andri Maginot وزير الحربية الفرنسى (١٨٧٧ – ١٩٣٢) ، ولكن هذه التحصينات لم تمتد إلى الحدود الفرنسية البلجيكية بسبب اعتراضات حكومة بلجيكا ولاعتقاد عدد من رجال الإستراتيجية الفرنسية أن الجيش الألمانى لايستطيع اقتحام « الأردن » Brdennes ولكن الجيش الألمانى في ١٩٤٠ دار احول خط ماجينو عبر ثغرة سيدان Sedan وسقط في الخط بيد القوات الألمانية سلما (٣٠ يونيو ١٩٤٠) .

الحدود الفرنسية الألمانية تؤكد أنه خط لا يمكن عبوره ، وأن احتمالات التفوق الألمانى – بالتالى – على فرنسا وبريطانيا لم تكن مشجعة لأن تغامر إيطاليا بدخول الحرب إلى جانب حليفتها ألمانيا .

٢ — أعلن هتلر من جانبه أنه ليس فى حاجة إلى تأييد إيطاليا العسكرى مما شجع موسولينى على أن يقف منتظراً مايسفر عنه الصدام المتوقع بين الجيوش الألمانية والفرنسية أو ماتسفر عنه محاولات التوصل إلى تسوية كانت دول أوربا غير المحاربة – بل وألمانيا وبريطانيا – تسعى إليها كل بطريقته الخاصة ولأهدافه الخاصة .

٣ — كان موسولينى يدرك أن بريطانيا ستبذل قصارى جهدها لإبقاء إيطاليا على الحياد على الأقل ، فكلما تأجلت مشاركة إيطاليا فى الحرب حصلت على مكاسب أكثر سواء من حيث التعاون الإقتصادى البريطانى الإيطالى أو من حيث جنوح بريطانيا إلى تقديم تنازلات أكثر تحديداً من تلك التى كانت تلمح بها .

٤ — هناك من يرى أنه كان مطروحا على بساط البحث أمام كبار المسئولين فى الحكومة الإيطالية مسألة قيام إيطاليا بنفس الدور الذى لعبته إيطاليا خلال الحرب العالمية الأولى ، من حيث انتظار الفرصة المواتية لدخول الحرب ليس بجانب الحليفة ألمانيا وإنما بجانب الحلفاء .

ولكن الواضح أن موسولينى ماكان ليحقق أهدافه إذا ما اتخذ جانب الحلفاء وأن تحول إيطاليا إلى دولة عظمى قولا وفعلا كان يتم على حساب المستعمرات الإنجليزية والفرنسية فى الشرق الأوسط وإفريقية .

كل هذا يفسر لنا ذلك التعاون الإقتصادى الإيطالى البريطانى خلال الفترة التى أعقبت نشوب الحرب العالمية الثانية ويفسر الاجتماع الذى يعقده هتلر مع موسولينى فى برنر فى ١٨ مارس ١٩٤٠ والتزم فيه موسولينى بدخول الحرب بجانب ألمانيا .

أما الولايات المتحدة الأمريكية فقد اختلف المؤرخون من موقفها عندما تأزمت المشكلة البولندية عقب الميثاق السوفيتي الألمــانى واقتحام الجيوش الألمانية بولنده. فيرى بعض المؤرخين السوفييت أن الولايات المتحدة هى التى دفعت بريطانيا إلى التشدد إزاء مطالب ألمانيا فى بولنده وذلك حفاظا على المصالح الأمريكية فى أوربا والتى سيقضى عليها إذا ما فرضت ألمانيا كلمتها عليها . وذهب بعض هؤلاء المؤرخين السوفييت أن الولايات المتحدة كانت ترى فى الصراع بين الدول الأوربية فرصة رائعة لتصريف الإنتاج الحربى بكميات ضخمة تعيد إلى الإقتصاد الأمريكى توازنه الذى فقده ويفقده إذا ما اعتمد على الإنتاج التقليدى .

كما يرى بعض المؤرخين أن الولايات المتحدة كانت تعارض الجهود التى كانت تبذلها بريطانيا للتوصل إلى تسوية سلمية فى أعقاب الفترة التى أعقبت اجتياح الجيوش الألمانية والسوفيتية لبولنده حتى يكون للولايات المتحدة الدور الرئيسى فى التوصل إلى مثل هذه التسوية التى يمكن فى مثل هذه الحالة أن تتم بما يكفل الحفاظ على المصالح الأمريكية وينميها .

وأياً كانت تلك الإتجاهات لدى أولئك المؤرخين ، فالواقع هو أن فرانكلين روزفلت أقدم على التصديق على (مرسوم الحياد) فى ٥ سبتمبر ١٩٣٩ وبمقتضاه أعلنت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية « أنه ليس لأية دولة محاربة ، معتدى عليها أو معتدية أن تتطلع إليها طالباً للعون مهما تكن الظروف » .

إن هذا الموقف الأمريكى يعكس رغبة ملحة لدى فرانكلين روزفلت لإنقاذ السلام بإستخدام الدعوة إلى السلام وبعدم توسيع نطاق الحرب ، ولعله كان يعتقد فى ذلك فى أول الأمر . ولكن وجهة نظر روزفلت هذه كانت مثار جدل كبير فى أوساط الشعب الأمريكى فضلا عن الدوائر الدبلوماسية والشعبية فى الدول الأخرى. لما يترتب على ذلك من وقوف الدولتين الديمقراطيتين (بريطانيا وفرنسا) فى مواجهة الدكتاتورية العنصرية الألمانية المكروهة من الشعب الأمريكى. ولقد كانت بريطانيا وفرنسا فى حاجة فعلا إلى الذخائر والأسلحة الأمريكية لمواجهة استعداد عسكرى

الثانى دام ربع قرن لشن هذه الحرب ، ولمواجهة وضع دولى خطير نتج عن الميثاق السوفيتى الألمانى الذى لايعرف مداه خاصة بعد اقتسام ألمانيا والإتحاد السوفيتى لبولنـــده .

ولقد أصبح هذا العمل الذى أقدم عليه روزفلت محل نقد شديد من جانب بعض المؤرخين الأمريكيين أنفسهم . حقيقة أحرج هذا الإعلان مركز بريطانيا وفرنسا ووصفها على قدم المساواة مع ألمانيا النازية إزاء الحياد الأمريكى ، ولكن من ناحية أخرى أكد نيات حكومة الولايات المتحدة لتضييق رقعة الصراع على عكس ما يذهب إليه بعض المؤرخين السوفييت .

وفى اعتقادنا أن هناك عدة عوامل جعلت روزفلت يتسرع فى إعلان حياد الولايات المتحدة من الصراع الأوربى الذى نشب وهى :

١ — لقد بذلت الولايات المتحدة جهوداً دبلوماسية متعددة لتجنيب أوربا ويلات الحرب قبل نشوب الحرب ، ولكن كانت الإستجابة من كافة الجوانب غير مناسبة ، ولم يعط للولايات المتحدة الدور المناسب لمكانتها الدولية فى الأزمات الأوربية التى مهدت لنشوب الحرب .

٢ — حقيقة كان الشعب الأمريكى معاديا للدكتاتورية النازية العنصرية العسكرية ، ولكن هل كان من اليسير على رئيس دولة عظمى — مثل الولايات المتحدة — أن يعلن موقفاً غير الحياد فى الوقت الذى كانت فيه بريطانيا وفرنسا لاتزالان تدرسان إمكانيات التوصل إلى تسوية سلمية يحاولها موسولينى ويتفاوض عليها .

ولهذا بذل روزفلت جهوداً كبيرة حتى أقنع الكونجرس الأمريكى « المتردد » بإصدار التشريع المشهور بـ « ادفع واستلم »[1] الذى أعطى الدولة المتحاربة — وفى

---

(١) Cash and Carry (٤ نوفمبر ١٩٣٩) .

الحقيقة دول الحلفاء فقط — حق استلام الإنتاج الحربى الأمريكى إذا مادفع ثمنه ونقل على سفنهم .

ومما لاشك فيه أن التطورات السريعة على الجبهة البولندية ، من انهيار سريع للمقاومة فيها والتحرك السوفيتى واقتسام بولنده . ثم الضغط المتصاعد السوفيتى على فنلنده(١) ابتداء من الخامس من أكتوبر ١٩٣٩ ، كل هذا — فى اعتقادنا — هو الذى جعل روزفلت يعيد النظر فى تشريع الحياد الذى صدر فى ٥ سبتمبر ١٩٣٩ ، وكانت إعادة نظر تهدف إلى أن يصبح حياد الولايات المتحدة فعالا يمكنها من المشاركة فى توجيه الأمور .

وهكذا أخذت حكومة الولايات المحدة الأمريكية سياسة لصالح بريطانيا وفرنسا خلال الفترة التى عرفت باسم حرب الدعاية(٢) منذسحق بولنده الذى تم فى أواخر سبتمبر ١٩٣٩ وغزو الدنمرك الذى افتتح الانطلاق الالمانى إلى النرويج وهولنده وبلجيكا وفرنسا — فى أوائل أبريل ١٩٤٠ .

إن الواضح من تطورات الأشهر الثلاثة التى أعقبت نشوب الحرب العالمية أن ألمانيا والإتحاد السوفيتى حصلتا على مكاسب هامة كل فى مجاله الحيوى وبشكل يضعف من مكانة بريطانيا وفرنسا .

وإذا كان هناك عذر يبرر لكل من بريطانيا وفرنسا عدم تقديم مساعدات فعالة إلى بولنده حتى سحقت بسبب طول وخطورة خطوط المواصلات المؤدية إلى بولنده ، فإن موقف فرنسا وبريطانيا من اجتياح ألمانيا للدنمارك والنرويج كشف عن عقم الاستراتيجية الدفاعية التى انتهجتها فرنسا بالذات إزاء عدوتها الملاصقة لها ألمانيا .

---

(١) كان الإتحاد السوفيتى قد أعلن فى ١٧ سبتمبر ١٩٣٩ أنه سيتبع سياسة الحياد إزاء فنلنده .

(٢) Phoney War

سقوط الدنمرك والنرويج :

فى الوقت الذى كانت فيه الخطط العسكرية الإنجليزية والفرنسية ضد ألمانيا تعتمد على الحصار الإقتصادى وحرب الدعاية . كان هتلر يخطط لضربة جديدة . ولكن هذه المرة فى اتجاه الدنمرك والنرويج ، والأولى تمكن أن تمد ألمانيا بنصيب وافر من المواد الغذائية ، والثانية تعطى امتيازات استراتيجية لألمانيا ، هذا إذا صفت الأمور للألمان فى النرويج بعد السيطرة عليها . وكانت لدى هتلر آمال كبيرة فى تحقيق سيطرة ألمانيا على النرويج ليس فقط بقواته العسكرية وإنما بواسطة عملاء نرويجيين له اقتنعوا بوجهة النظر الألمانية النازية .

كان فيدكون كويسلنج(1) يشغل فى ١٩٣١ – ١٩٣٣ منصب وزير الحربية النرويجية ، وأسس حزبا مواليا للنازية ، واتصل سراً بالنازى فى برلين عن طريق الملحق البحرى العسكرى الألمانى فى أوسلو ، وقام بزيارة لهتلر فى ١٠ ديسمبر ١٩٣٩ عرض فيها كويسلنج خطته لإقامة حكومة نازية فى أوسلو ، ومن ثم كانت الظروف موانية لهتلر عندما يشن حربا على النرويج .

وجد وجد هتلر أن الإنجليز والفرنسيين يبذلون جهوداً عسكرية ودبلوماسية للضغط على النرويج حتى تستجيب لمطالب الحكومتين الفرنسية والبريطانية خاصة فيما يتعلق ببث الألغام البحرية فى المياه النرويجية متذرعتين بإستخدام الأسطول الألمانى للمياه الإقليمية النرويجية . ومع أن الحكومة النرويجية احتجت على هذا التعدى على مياهها الإقليمية فقد تحرك هتلر بسرعة وبدون سابق إنذار شن حربا خاطفة على الدنمرك فى ٩ أبريل ١٩٣٩ فاستولى عليها دون مقاومة وشرعت القوات الألمانية فى النزول فى عدة مواقع على طول الأراضى النرويجية مما أربك الدفاع النرويجى والملك هاكون السابع(2) وحكومته .

---

(1) Vidkun Quislıng (١٨٨٧ – ١٩٤٥) .

(2) Haakun VII

فقد نزلت القوات الألمانية فى نارفيك[١] وتروندهيم[٢] وبرجن[٣] وموس[٤]، وأعلنت حكومة مواليه للالمان على رأسها كويسلنج[٥]، بينما كانت الحكومة النرويجية تتخذ الخطوات اللازمة ـ من حيث التعبئة ـ لمواجهة الغزو وكانت بريطانيا وفرنسا تبحثان تنفيذ خطة مشتركة لإرسال حملة إلى النرويج. لقد كانت الضربة الألمانية مفاجئة وسريعة، فضلا عن أن الجبهة الداخلية النرويجية كان قد أصابها التصدع منذ البداية.

وما كانت مقاومة الحكومة الملكية النرويجية والشعب النرويجى للغزو الألمانى لتطول كثيراً لو لم تنزل القوات البريطانية في نارفيك ونامسوس[٦] واندالنس[٧] وتبعتها بعض القوات الفرنسية، ولكنها كانت حملة فاشلة لم تلبث أن ردت على أعقابها بعد خسائر كبيرة، وصفى الموقف في النرويج لصالح ألمانيا فى أوائل يونيو ١٩٤٠.

وفى العاشر من يونيو ١٩٤٠ غادر الملك هاكون الثانى وحكومته البلاد ملقيا خطابا ـ سيلقى مثله العديد من الملوك والرؤساء الذين طردهم الألمان من بلادهم ـ يحث فيه الشعب على الصمود والتغلب على هذه المحنة وأن النصر والعود قريب. وهى كلمات كانت تثير روح السخرية لدى الألمان بهؤلاء الحكام الضعاف السخاف المقول، ولكنها كلمات كانت تثير لدى الدوائر الإنجليزية والفرنسية نوعا من الارتياح ـ رغم الهزائم ـ حيث أن الأمل فى اتساع الرقعة على الألمان وفى قيام حروب

---

(١) Narvik

(٢) Trondibem

(٣) Bergen

(٤) Moss

(٥) ظل يحكم النرويج حتى هزمت ألمانيا وقبض عليه وأعدم وأصبح رمزاً للخيانة فى معسكر الحلفاء خلال الحرب.

(٦) Namsos

(٧) Andaluess

عصابات كان من أهم مايتطلع الإنجليز إلى حدوثه فى كل أرض يحتلها النازى .

وفى نفس الفترة التى بدأت تغادر فيه الوحدات الإنجليزية أراضى ومياه النرويج (مايو ١٩٤٠) إلى إنجلترا سقطت وزارة تشمبرلن المسئولة عن ظهور ألمانيا بهذا الشكل المتفوق الذى أثار إعجاب الكثيرين مما يهدد بالخطر كيان الإمبراطورية البريطانية . وأسندت الوزارة البريطانية إلى ونستون تشرشل[١]، وهو نفس الشهر الذى شن فيه الألمان هجومهم الكبير على هولنده وبلجيكا ثم فرنسا، وهو الهجوم الذى بدأ الأسابيع السبعة التى انتهت يوم ٢٢ يونيو يوم توقيع الهدنة الألمانية الفرنسية .

سقوط هولنده وبلجيكا وفرنسا :

كان الموقف السلبى الذى اتخذته فرنسا وانجلترا من ألمانيا خلال وأعقاب سحق بولنده ، وهزيمة حملة الحلفاء فى النرويج قد جعل الدولتين الصغيرتين (هولنده وبلجيكا) الواقعتين بين ألمانيا من جهة بريطانيا وفرنسا من جهة تفضلان الحياد بين الدول المتحاربة لعل فى الحياد تجنيبا لها لويلات الحرب ، ومع أن تجربة بلجيكا فى الحياد خلال الحرب العالمية الأولى كانت مخيبة للامال حيث غزاها الألمان فإن تجربة هولنده فى الحياد حينذاك كانت مشجعة على احتمال عدم التورط فى الحرب .

ولهذا فضلت بلجيكا وهولنده عدم الاستماع إلى إلحاح بريطانيا وفرنسا عليهما لإتخاذ موقف معادى لألمانيا . ولكن هتلر كان قد عقد العزم على إجتياح دول غرب أوربا التى تحول دون توجيه ضربة حاسمة وسريعة لفرنسا وهى ضربة يلزمها تجنب خط ماجينو .ويلزمها عبور بلجيكا بالذات واقتحام منطقة الاردن[٢] الصعبة.

M. winiston Churchill (١)

Ardennos (٢)

ومع بزوغ فجر العاشر من مايو ١٩٤٠ زحفت القوات الألمانية عبر هولنده وسيطرت على الموقف في هولنده خلال ثلاثة أيام وغادرت الملكة ولهامينا[١] البلاد إلى لندن (١٣ مايو)، وأصدر القائد العام الهولندى وينكلمان[٢] في (١٥ مايو) أمره إلى جيشه بإلقاء السلاح مع استمرار حالة الحرب .

وعقد مؤتمر في كاتو[٣] حضره ليوبولد الثالث[٤] ـ ملك بلجيكا ـ ودلادييه[٥] ـ رئيس وزراء فرنسا وكذلك مندوبون عسكريون عن القيادة البلجيكية والفرنسية والإنجليزية لتوحيد الجهود فإن تطورات القتال أثبتت أن قادة الحلفاء وجيوشهم كانوا مأخوذين وغير قادرين على مواجهة التعقيدات السريعة التى أوقعهم فيها الألمان .

فبينما كان الجيش البلجيكى يقاتل متراجعا ليتخلى من بعد عن خطه الدفاعى (انفرس ـ لوفان)، كانت بريطانيا قد أرسلت على عجل بعض فرقها إلى بلجيكا دون أن تتمكن من انقاذ الموقف المتدهور، وكان الفرنسيون ينظرون بعين المرارة إلى تلك الفرق القليلة التى أرسلتها بريطانيا سواء إلى فرنسا ـ عقب اعلان الحرب ـ وتلك التى أرسلت إلى بلجيكا، لأن الفرنسيين كانوا يعتقدون ـ عن حق ـ أن الإنجليز يتجنبون المساهمة الفعالة في الدفاع عن فرنسا ليحتفظوا بقواتهم سليمه للدفاع عن وطنهم وإمبراطوريتهم .

وخلال ذلك كانت القوات الألمانية الزاحفة بسرعة تعزل القوات المتحالفة بعضها عن بعض ونجحت فرق البانزر[٦] المدرعة في شق طريقها عبر ثغرة بين نامور[٧] وسيدان[٨] في اتجاه الأوز والسوم في الوقت الذى ظلت فيه القيادة الفرنسية ـ وعلى

---

(١) Wilhelmine

(٢) Winkelmau

(٣) Cateau

(٤) Leopolh III

(٥) Daladier

(٦) Panzerdivisiouen

(٧) L' Oise

(٨) la Somme

راسها جاملان — مترددة فى إصدار الأوامر بالتراجع قبل فوات الأوان .

ودب الذعر فى دوائر الحكومة الفرنسية وأخذت تناقش موضوع مغادرة الحكومة للعاصمة باريس بينما انهمك المسئولون فى وزارة الخارجية الفرنسية فى إحراق الأوراق السرية (١٦ مايو) بعد ستة أيام فقط من وقوع الغزو ، ووقعت تبدلات فى القيادة العسكريه ساعدت على ارتباك الأمور خاصة وأنه لم يكن هناك خطط بديلة لمواجهة تلك الحرب الميكانيكية التى تركت خط ماجينو وراء خطوط القتال لاجدوى منه . ولجأ بول رينو — رئيس الوزراء فى ١٨ مايو إلى الإستنجاد بالجنرال بيتان[١] القائد الفرنسى المشهور خلال الحرب العالمة الأولى لتفيد من خبرته لمواجهة الموقف الفرنسى العسكرى المتدهور وليرفع من معنويات الشعب وقدراته القتالية ، ولكن ما كانت عبقريته فى الحرب العالمية الأولى ليفيد شيئاً فى مواجهة ظروف وآلات حربية ودبابات ضخمة متفوقة عدداً وعدة وسلاح طيران ألمانى يمتلك عنان سماء فرنسا ، ويشيع الفوضى فى المدن وخطوط المواصلات المدنية والعسكرية على حد سواء .

حقيقة قامت قوات الحلفاء بهجمات مضادة ، ولكن الجيش البلجيكى كان ينهار حتى استسلمت بلجيكا فى ٢٧ مايو ليلقى الألمان بثقلهم على القوات البريطانية والفرنسية فانسحبت القوات الإنجليزية صوب دنكرك لتبدأ من بعد أكبر عملية إجلاء من دنكرك إلى الشواطئ الإنجليزية فى التاريخ أنقذت قسماً كبيراً من القوات الإنجليزية من براثن القوات الألمانية التى أحاطت بها (٣ يونيو) فى الوقت الذى كانت القوات الفرنسية قد فقدت الأمل فى الصمود فى معركة أسن على السوم (١٠ يونيو) .

وفى نفس ذلك الوقت طعنت إيطاليا فرنسا الجريحة[٢] فأعلنت عليها الحرب فى

---

(١) le Marechal Petain

(٢) أعلن بول رينو فى هذه اللحظات اليائسات قائلا فى ١٠ يونيو ١٩٤٠ :

العاشر من يونيو ١٩٤٠ وأصدر الملك فيكتور عمانويل الثالث[١] مرسوما بإسناد القيادة العامة للقوات العسكرية الإيطالية فى كافة الجهات إلى موسولينى رئيس الحكومة وزعيم الفاشست ومارشال الإمبراطورية[٢].

وفى نفس الوقت الذى طعنت إيطاليا فرنسا الجريحة فأعلنت عليها الحرب (١٠ يونيو) ودخلت القوات الألمانية باريس (١٤ يونيو) وتساقطت المعاقل والمدن الفرنسية بسرعة مذهلة ، حتى توقفت المقاومة تماما فى ٣٠ يونيو .

وفى ١٦ يونيو أعلن المرشال بتيان[٣] ضرورة عقد هدنة مع ألمانيا ، ولكن بول رينو فضل الإستقالة على الإقدام على هذه الخطوة التى اعتبرها متناقضة مع مصلحة وشرف فرنسا[٤]، وخلفه المارشال بتيان الذى عقد الهدنة مع ألمانيا فى ٢٢

Rien ne pourra diminuer notre volonté de lutter pour notre terre et pour nos liberté. Les épreuves qui nous attendent sont dures, nous sommes prêts. Nos têtes ne ce courberont pas... C'est en ce moment précis, alors que la France blessée mais vaillante et debout lutte contre l'hegémonie de l'Allemagne, que elle combat donc pour l'independance de tous les autres peuple comme pour la sienne, c'est l'heure que choisit M. Moussolin pour nous declarer la guerre. Comment juger cet acte ? la France elle n'a rient à dire La monde qui nous regarde jugera .. La France ne peut pas mourir.»

(١) Victor - Emmanuel III (١٨٦٩ — ١٩٦٧) تولى عرش إيطاليا من ١٩٠٠ إلى ١٩٤٦ .

(٢) فى الحادى عشر من يونيو ١٩٤٠ أعلن فيكتور عمانويل الثالث :

« Je Confie au chef du Gouvernement. Duce du Fasciome. premier Maréchal de l'Empise. Le Commandement des troupes sur tous les fronts ».

(٣) Maréchal Petain

(٤) «...une politique contraire a l'entérêt et à l'honneur du la France »

يونيو ، وبعد يومين عقدت فرنسا الهدنة مع إيطاليا . واتخذت الحكومة الفرنسية من فيشى مقرا لها وأصبحت هذه الحكومة مسئولة عن إدارة الأراضى الفرنسية التى لم يحتلها الألمان[1] ، وعن إدارة المستعمرات الفرنسية .

وقد نصت الهدنة الألمانية الفرنسية على الموضوعات الرئيسية التالية :

١ — وضع الأراضى الفرنسية التى تحتلها القوات الألمانية تحت الإدارة العسكرية الألمانية . وكان الخط الفاصل بين منطقة الإحتلال الألمانى والجزء الباقى من فرنسا الواقع تحت إدارة حكومة فيشى يمتد من الحدود السويسرية فى إتجاه جريسو[2] ليعبر نهر اللوار متجها نحو الشمال الغربى حتى يقترب من « تور »[3] ليتجه من بعد ذلك نحو الجنوب فى إتجاه « بوردو »[6] الواقعة داخل فرنسا المحتلة حتى يصل إلى « بويون »[4] وإلى الحدود الأسبانية الفرنسية أو بمعنى آخر لم يعد لحكومة فيشى أية إطلالة على بحر المانش أو على المحيط الأطلنطى ، ولأول مرة أصبح الألمان مطلين على أسبانيا .

٢ — إلقاء القوات الفرنسية المحاصرة سلاحها . وأن تطلق فرنسا سراح الأسرى الألمان بينما احتفظ الألمان بالأسرى الفرنسيين .

٣ — تجريد السلاح الجوى والفرق العسكرية من الأسلحة الهجومية والتكتيكية وتسليم كافة القواعد العسكرية والحصون إلى القوات الألمانية وتجريد القطع البحرية الحربية الفرنسية من السلاح وأقامتها فى الموانى المتفق عليها ، باستثناء القطع البحرية اللازمة للحفاظ على المستعمرات الفرنسية .

وقد عقدت إيطاليا اتفاقية هدنة فى ٢٤ يونيو ١٩٤٠ مع فرنسا نصت على إيجاد

---

(١) أنظر الخريطة .
(٢) Le Creusot
(٣) Tourr
(٤) Bordeaux
(٥) Bayonne

مناطق مجردة من السلاح فى المنطقة الجنوبية الغربية لفرنسا المتاخمة للحدود الإيطالية ، وفى عمق الحدود فى تونس والجزائر على امتداد الحدود الليبية التونسية والليبية الجزائرية وفى الصومال الفرنسى التى حصلت فيه إيطاليا على حقوق واسعة للغاية فى مينائه الكبير (جيبوتى) ولكن لم تكن هذه الهدنة الإيطالية الفرنسية على الصورة التى أرادها الإيطاليون حيث أن مطالبهم فى الحصول على مكاسب فى فرنسا وعلى حساب المستعمرات الفرنسية كانت كبيرة جداً إلا أن هتلر خفف من أطماع موسولينى إلى درجة أن إيطاليا لم تحصل على مكاسب جوهرية ، والواقع أن هذا يتناسب مع حجم الجهد العسكرى الذى بذلته إيطاليا التى دخلت الحرب ضد فرنسا، فى الوقت الذى كان فيه سقوط فرنسا فى يد القوات الألمانية أمراً مفروغاً منه. ولقد كانت هذه الظروف التى دخلت فيها إيطاليا الحرب قد أساءت إلى إيطاليا نفسها حيث نظر إليها على اعتبار أنها غادرة وتجهز على الضعيف المتهاوى .

وإذا كانت الهدنة قد قضت على المقاومة الفرنسية المنظمة فى فرنسا ، فقد أعلن شارل ديجول من إذاعة لندن أنه لا يعترف بالهدنة وأن القتال سيستمر حتى تتحرر فرنسا ويقضى على أعدائها . مبينا النقاط الجوهرية التالية التى أثبتت التطورات فيما بعد صحتها :

١ — إن الكلمة الأخيرة لم تقل بعد .

٢ — إن وراء فرنسا إمبراطورية واسعة، وبالتالى فمعركة فرنسا ليست هى التى تقرر مصير الحرب ، فهى حرب عالمية .

٣ — أنه يمكن الإستعانة بقدرات الولايات المتحدة الصناعية لإعادة التسليح بالأسلحة الثقيلة والطيران المسئولين عن هزيمة القوات الفرنسية على أرض فرنسا .

٤ — يجب أن تستمر المقاومة.

ومنذ عقد الهدنة الألمانية الفرنسية وحتى وقوع الغزو الألمانى للاتحاد السوفيتى فى ٢٢ يونيو ١٩٤١ ، أى بعد عام واحد من هزيمة فرنسا ، ظلت بريطانيا صامدة بمساعدة إمبراطوريتها الواسعة أمام محاولات ألمانيا وإيطاليا لإنزال الهزيمة بها .

الفصل السادس عشر

تطورات الحرب العالمية الثانية

بين ١٩٤٠ و ١٩٤٥

وهزيمة المحــور

خلال تلك الفترة الأولى من الحرب (١٩٣٩ — ١٩٤٠) كان الصراع فى أوربا بين قوتين ثبت أنهما غير متكافئتين ، القوة الألمانية الضاربة السريعة الحركة الهجومية ، والقوة الفرنسية الإنجليزية المعتمدة على الدفاع ، وإلى جانبها قوات الدول التى فرضت عليها الحرب فرضاً فلم تكن مستعدة لمواجهة ثقل القوة الضاربة الألمانية المفاجئة لهم ، ونعنى بذلك (الدنمرك والنرويج وهولنده) وبلجيكا إلى حد ما .

ولكن فى المرحلة التالية — ويمكن أن نصفها بمرحلة الصمود البريطانى أولا ثم الروسى ثانيا ثم الصمود الأمريكى ثالثا — أخذ الصراع الحربى شكلا عنيفا وأكثر دموية وتدميراً وقسوة وصلابة وبطولية ، فألمانيا أصبحت وجهاً لوجه أمام بريطانيا ، ويذكرنا هذا الموقف بما حدث أيام نابليون حين تغلب على أعدائه فى أوربا ، ولم تبق سوى انجلترا وصمدت حتى تورط فى حربه ضد روسيا فكان أن توالت عليه النكبات من بعد .

وبعد مرحلة الصمود هذه بدأ ميزان القوى يتحول بوضوح ضد ألمانيا وحلفائها فقد توقف الزحف الألمانى فى عمق روسيا قرب موسكو ، وتوقف الزحف الألمانى فى الصحراء الغربية قرب الإسكندرية لتبدأ من بعد ذلك الهجمات المضادة الإنجليزية الروسية الأمريكية لتطرد الألمان من شمال أفريقية وتغزو إيطاليا حتى تسقطها ، وتتقدم القوات الروسية محررة بلادها حتى تعبر بولنده إلى قلب ألمانيا فى الوقت الذى كانت فيه القوات الأمريكية والبريطانية والحليفة التى هبطت نورماندى منذ السادس من يونيو ١٩٤٤ — قد حررت فرنسا وبلجيكا وهولنده واقتحمت ألمانيا لتلتقى بالقوات الروسية هناك ، واستسلمت ألمانيا فى ٧ مايو ١٩٤٥ ، وبعد أربعة شهور استسلمت اليابان بعد أن ذاقت حلاوة النصر فى ١٩٤١ و ١٩٤٢ ، ومرارة الهزيمة منذ أن أخذت القوات الأمريكية ثم الأمريكية الإنجليزية تدفعها من موقع إلى موقع حتى ألقيت عليها قنبلتان ذريتان رهيبتان أدت إلى استسلامها فى الثانى من سبتمبر ١٩٤٥ .

ونظراً لأن الحرب استغرقت أربعة أعوام منذ سقوط فرنسا حتى استسلام

إيطاليا وألمانيا واليابان ، ولأن الحرب كانت تدور على جبهات متباعدة تمتد من اليابان إلى مشارف استراليا ومشارف الهند إلى روسيا والبلقان والمشرق العربي وشمال أفريقية ، ولأن الحرب البرية كانت جزءاً فقط من الحرب الدائرة بالطائرات والقطع الحربية وحرب المقاومة والعصابات والحرب الإقتصادية وحرب الدعاية . نظراً لكل هذا التعقيد في ظروف وتطورات الحرب العالمية الثانية سنحاول أن نلقى نظرة سريعة على تلك الظروف والتطورات التي بدأت بمعركة بريطانيا وانتهت باستسلام ألمانيا ، لأهمية ذلك في فهم الحرب نفسها والنتائج التي ترتبت عنها ، ولكن دون التوغل في التطورات العسكرية التي تهم مؤرخي الحروب والاستراتيجية العسكرية .

معركة بريطانيا :

بعد أن سقطت فرنسا وامتدت السيطرة الألمانية على طول السواحل الأوربية الممتدة من نارفيك — في أقصى شمال النرويج حتى بايون قرب الحدود الفرنسية الأسبانية — بدا وكأن قواعد الانطلاق الألماني إلى بريطانيا أصبحت جاهزة لتوجيه ضربة نهائية لبريطانيا تجعلها تجثو على أقدامها .

حقيقة كان السلاح الجوى الألماني متفوقا على السلاح الجوى البريطاني(١) ، وكانت القوة الضاربة البرية الألمانية أقوى بكثير من مثيلتها الإنجليزية ، ولكن كان التفوق البحرى البريطاني يحول دون وثبة ألمانيا إلى بريطانيا حتى ولو كانت عبر المانش الذى لا يزيد اتساعه عن عشرين ميلا .

وكان أمام هتلر أن يختار بين الطرق التالية : —

١ — أن يجازف بحملة بحرية كبرى لنقل الجيوش إلى السواحل البريطانية لاحتلال بلاد الإنجليز ، وكان في هذا مخاطرة مروعة ، سواء من جانب الأسطول

(١) Rgid air Farce.

البريطانى أو من جانب المقاومة التى ستجابهها القوات النازية من جانب الجيش والشعب الإنجليزى حيث ستصبح الحرب بالنسبة للانجليز مسألة حياة أو موت ، ولقد فكر هتلر فى موضوع غزو بريطانيا — مثلما فكر فيه من قبل نابليون — ولكن هتلر استبعد هذه الخطة ، مثلما استبعدها نابليون من قبل .

٢ — أن يدعو هتلر انجلترا إلى تسوية ، وكان هتلر يعتقد أن انجلترا — وقد أصبحت تواجه بمفردها ألمانيا — ستقبل بتسوية تحفظ لها إمبراطوريتها ، ولكن حكومة إنجلترا كانت تدرك تماما أن مثل هذه التسوية تعنى إنهيار الإمبراطورية البريطانية ، وبريطانيا كذلك إن آجلا أو عاجلا ، فأية تسوية من هذا القبيل تعنى أن بريطانيا تعطى الفرصة الواسعة واللازمة لألمانيا كى تعيد تنظيم أوربا بما يكفل لها تصفية بقية خصومها ، مستخدما فى ذلك إمكانيات أوربا الغربية الضخمة . ولهذا رفضت حكومة بريطانيا عروض هتلر للتسوية سواء فى أعقاب إنهيار فرنسا أو قبيل الهجوم الذى شنه على روسيا[١] .

٣ — أما وقد سدت أمام هتلر إمكانية الغزو والتصالح فلم يبق أمامه إلا فرض حصار على بريطانيا وهى السياسة التى اتبعها نابليون من قبل ، وعرفت باسم ، الحصار القارى ، ولكن هتلر كان يستطيع — على عكس نابليون — أن يضرب من الجو فى أعماق بريطانيا ، وأن يشن حرب غواصات على قوافل السفن البريطانية ، أو بمعنى

---

(١) نعنى بذلك المغامرة التى قام بها « هس » نائب هتلر فى ربيع ١٩٤١ بالطيران إلى اسكتلانده فى محاولة يائسة للتفاوض مع الحكومة البريطانية والتوصل إلى تسوية على اعتبار أن العدو الحقيقى لألمانيا هو الإتحاد السوفيتى ، أن استمرار الحرب بين ألمانيا وبريطانيا سيؤدى إلى دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب إلى جانب بريطانيا ، ولا تستطيع ألمانيا مقاومة هذا التحالف المتفوق فى مختلف الجوانب . ومن ثم كان « هس » يهدف إلى إنقاذ ألمانيا من المصير الذى تعرضت له فى نهاية الحرب .

آخر كانت فرصته كما يبدو أحسن من فرص نابليون ، إلا أن المشكلة الكبرى التى واجهت هتلر هى أنه كان وراء انجلترا إمبراطورية مترامية الأطراف غزيرة الثروة سواء المادية منها أو البشرية فضلا ، عن ميل الولايات المتحدة إلى دعمها على نطاق واسع .وأدى هذا الدعم إلى تقديم أداة الحرب إلى إيدى الإنجليز بكميات متصاعدة مكنتها من الصمود ، أما القصف المتواصل للمدن الكبرى الإنجليزية الصناعية منها وغير الصناعية فقد تحمله الشعب الإنجليزى بكل صبر وبروح وطنية عالية .

وطالت أيام وليالى الغارات الجوية الرهيبة على لندن والمدن الإنجليزية ، ولكن تكبد سلاح الجو الألمانى خسائر فادحة.خاصة وأن استخدام الإنجليز للرادار جعلهم يصيبون الطائرات الألمانية المغيرة بدقة أذهلت الألمان .

وبصمود بريطانيا يمكن القول أنها كسبت معركتها ، وأن ميزان القوى بدأ ينحرف عن ألمانيا ، خاصة وأنه صاحب هذا الصمود بداية تصفية للوجود الإيطالى فى شرق أفريقية(١) ، وصاحب أواخر فترة الصمود هذه تأزم العلاقات السوفيتية الألمانية بسبب التوسع الألمانى فى شرق أوربا (يوغوسلافيا) حتى قام هتلر بغزو روسيا فى يونيو ١٩٤١ .

غزو روسيا :

إن هذه المغامرة التى تورط فيها هتلر وكانت سببا رئيسيا فى هزيمته فى نهاية الأمر تعتبر واحدة من أكثر الموضوعات التاريخية غموضا حتى بعد مرور أكثر من ثلث قرن عليها ، ولكن هناك عدة عوامل دفعت بهتلر إلى هذه المخاطرة :

١ — أن الثقة كانت ضعيفة بين هتلر وستالين ، وكان كل منهما يحاول أن يدارى الآخر حتى يتمكن من مقتله . فقد كان ظهر ألمانيا مكشوفاً تماما أمام الروس ان عليه أن يواجه موقفا أشد خطورة إذا ما طال صمود بريطانيا ، ولقد طال

(١) حررت أديس أبابا من الإيطاليين فى نوفمبر ١٩٤١ .

هذا الصمود بالفعل . فهل يظل هكذا سا كنا أمام حرب طويلة المدى ضد بريطانيا تستطيع خلالها روسيا أن تبتز كلما تحرج مركزه ؟

٢ — كانت العلاقات السوفيتية الألمانية متعقدة سواء قبيل وقوع الحرب أو خلال تطوراتها فى مرحلتها الأولى بين خريف ١٩٣٩ وصيف ١٩٤١ . وكانت هناك عدة مظاهر لهذا التعقيد والتخوف من جانب الطرفين السوفييتى والألمانى أدى فى النهاية إلى الصدام بينهما .

ففى خلال التوسع الألمانى فى الدنمرك وفى النرويج كانت حكومة الإتحاد السوفيتى - وعلى رأسها ستالين - تبدى ارتياحها لما كان يحرزه الألمان من انتصارات هناك، ولما تحول الألمان إلى الهجوم الكاسح فى هولنده وبلجيكا وفرنسا وأخذت الأخيرة تتهاوى بسرعة غير متوقعة خشى الإتحاد السوفيتى من هذا الإنقلاب الخطر فى ميزان القوى خاصة وقد أدرك الإتحاد السوفيتى أن الفرصة أصبحت سانحة أمامه لتحقيق أهدافه القومية فيما كان يراه إسترداداً لحقوق سلبت منه منذ الحرب العالمية الأولى فى دويلات البلطيق (استونيا — لاتفيا — لتوانيا) وفى بسارابيا وبوكوفينا فى رومانيا ، فألمانيا المشغولة فى حربها الضروس فى الجبهة الفرنسية ما كانت لتستطيع أن تفتح على نفسها جبهة جديدة لتمنع السوفييت من الإستيلاء على تلك المناطق ومن ناحية أخرى كان استيلاء السوفييت على دويلات البلطيق ، وعلى بسارابيا وبوكوفينا جزءاً من سياسة تقوية الحدود الشرقية السوفييتية فى مواجهة المستقبل الذى يزداد غموضاً .

٣ — ولا تكاد فرنسا تستسلم حتى دارت المفاوضات بين ألمانيا وإيطاليا واليابان وعقد الميثاق الثلاثى[1] (٢٧ سبتمبر ١٩٤٠) . وفى اعتقادنا ، إنه إذا كان الميثاق الألمانى السوفيتى فى أغسطس ١٩٣٩ مسئولا إلى حد كبير عن وقوع الحرب العالمية الثانية ، فإن الميثاق الثلاثى مسئول عن تحويل الحرب الأوربية إلى حرب عالمية ، فهو موجه — سواء أراد أصحابه ذلك أم لم يريدوا — ضد الولايات المتحدة الأمريكية والإتحاد

---

(١) Tripartite pact.

السوفيتى رغم التأكيدات التى أعطيت من جانب « المحور » للسوفييت بأن هذا الميثاق غير موجه ضدهم .

فلقد قوى ذلك الميثاق من أطماع إيطاليا فى البلقان الذى كان — من وجهة نظر السوفييت — منطقة نفوذهم ، ويقوى من قدرات اليابان على التوسع فى الشرق الأقصى على حساب نفوذ الدول الأوربية هناك ، ويصعد من آمالها فى القضاء على النفوذ السوفيتى فى الشرق الأقصى وفى مهاجمة الإتحاد السوفيتى من أبوابه الخلفية الشرقية .

٤ — ولقد كان النشاط المتصاعد الإيطالى فى التوسع فى البلقان من قواعدها فى البانيا، لما يثير أشد المخاوف لدى دوائر السوفييت . وتحققت حكومة السوفييت من أن دول المحور تنفذ خطة تستهدف إبعادها عن منطقة البلقان عندما أقحمت إيطاليا حربا على اليونان تورطت فيها إيطاليا حتى أنقذتها القوات الألمانية من هزيمة مشينة، نقطة تحول فى السياسة الألمانية نحو البلقان إذ أخذت ألمانيا لا تستخدم الضغط فقط لضم دول البلقان إلى الميثاق الثلاثى ، بل عمدت إلى فرض تسلطها على دول البلقان ، ومن أبدى مقاومة شنت عليه الحرب واحتلت أراضيه ، واستطاعت بين خريف ١٩٤٠ وربيع ١٩٤١ أن تسيطر على رومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا وأن تطرد الإنجليز من اليونان بل ومن كريت فى إبريل ١٩٤١ .

وبذلك يكون البلقان قد أصبح تحت أقدام المحور ، واهتزت مكانة الإتحاد السوفيتى ، وافتقد الطرفان الثقة تماما ، خاصة وأن ألمانيا كانت قد بعثت ببعض قواتها إلى فنلنده التى كانت تقاوم عبثا الضغط السوفيتى العسكرى عليها .

٥ — كان هتلر — ومثله كان سياسيو بريطانيا — لا يقدرون « الجيش الأحمر » على حقيقته ، وكان هتلر يعتقد أن ضربة مركزة ستقضى على المقاومة السوفيتية مثلما قضت من قبل على المقاومة الفرنسية ، ولا شك أن التخاذل الذى ظهر على الروس خلال الحرب الروسية — الفنلندية قد عمق من هذا المفهوم الخاطىء .

٦ — هناك من يرى من المؤرخين السوفييت أن هتلر أقدم على غزو روسيا لأنه كان مقتنعاً بأن بريطانيا ستتركه يحقق هذا الأمل الذى كانت تسعى إليه قبل الحرب .

وأيا كانت الأسباب والدوافع ، فلا شك أن روح المغامرة لدى هتلر مسئولة إلى حد كبير عن هذا التطور فى الحرب مع الإتحاد السوفيتى،ولقد استطاعت القوات الألمانية أن تحرز انتصارات سريعة حتى لقد بلغت القوات الألمانية مشارف لننجراد فى أقصى الشمال وحاصرتها ، وأصبحت على بعد ثلاثين ميلا من موسكو ، ووصلت إلى جروزنى على مقربة من بحر قزوين ، ولكن هذا التراجع الكبير والخسائر البشرية الباهظة التى تكبدها الروس لم يفقدهم روح القتال للنصر ، وما كان ينقصهم من عتاد حصلوا عليه بمضاعفة الإنتاج الحربى ، وبالإفادة من برنامج «الإعادة والتأجير» الذى نفذه روزفلت لصالح الدول المقاتلة للنازى ، حتى لقد بعث الألمان على الجبهات الروسية ما كسر حدة القوة البشرية القتالية الألمانية خاصة خلال القتال من شارع إلى شارع ومن بيت لبيت فى ستالنجراد حتى اضطر جيش كبير ألمانى إلى الإستسلام (٣١ يناير ١٩٤٣) ولم يستطع الألمان من بعد أن يحرزوا تقدما — إلا من وقت لآخر — بينما كان التقدم السوفيتى مطرداً دافق الألمان أمامه .

اليابان وتدخل الولايات المتحدة الحرب :

وإذا كان ونستون تشرشل فى نظر الإنجليز بطلا من أبطالهم لأنه قاد بريطانيا خلال أحلك الليالى وأبشمها حتى النصر ، فهو فى نظرى — رغم ما أقدم عليه من خطوات استعمارية مدمرة فى الوطن العربى — أبعد السياسيين نظراً فيما يجب أن تكون عليه مخططات حكومته إزاء التطورات الخطيرة التى وقعت خلال الحرب العالمية الثانية .

فهو الذى دعا منذ البداية إلى أن تتعاون بريطانيا مع الإتحاد السوفيتى ضد النازية الألمانية ، ولكن تشمبرلن — رئيس الوزارة قبل الحرب — رفض ذلك ، ولما تولى تشرشل منذ ١٠ مايو ١٩٤٠ رياسة الوزارة البريطانية بعد استقالة تشمبرلن

وتوالى قصف وتدمير المدن الإنجليزية، وتصاعدت توقعات الغزو الألمانى الوشيك على الجزر البريطانية تنبأ بالجبهة التى ستهب لتنقذ بريطانيا من محنتها حين قال :

« سنقاتل ولن نستسلم ... إلى أن يأذن الله للدنيا الجديدة ، بكل مقدرتها وسطوتها ، أن تتقدم لنجدة الدنيا القديمة وتحريرها » .

ولقد كان تشرشل موفقا أن مستقبل بريطانيا أصبح يعتمد على الموقف الأمريكى وهكذا بدأت بريطانيا تفقد مكانتها الدولية عندما اعتمدت على دولة تفوقها قوة عسكرية واقتصادية ، وكانت الولايات المتحدة الأمريكية فى نفس الوقت مناهضة لمفهوم التسلط الانجليزى والفرنسى على معظم بلدان العالم الثالث ، وبذلك تكون بريطانيا قد دقت أخطر مسمار فى نعش إمبراطوريتها عندما اضطرت إلى الإعتماد على الولايات المتحدة الأمريكية لكسب الحرب .

وعلى أى حال كانت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية — وكانت برئاسة فرانكلين روزفلت — تدرك تماما أن ذلك النمو والتوسع الذى أصابته ألمانيا النازية فى أوربا، وذلك الميثاق الثلاثى الألمانى الإيطالى اليابانى قد جعل يوم الصدام بين الديمقراطية الأمريكية ودكتاتوريات دول المحور وشيكة الوقوع وإن كان الشعب الأمريكى بصفة عامة لايدرك حينذاك حقيقة ماسيصيب بلاده من أخطار أيديولوجية واقتصادية إذا انفردت ألمانيا بالتسلط على أوربا :

هناك من يرى أن ذلك العامل الايديولوجى — ونعنى به الصراع بين الدكتاتوريات والديمقراطية — ليس سوى ستار استخدمته دول غرب أوربا والولايات المتحدة لتغطية الأهداف الاقتصادية الكامنة وراء دخولها الحرب . ومع تقديرنا لهذه الأهداف الاقتصادية وأن بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية لايمكن أن تترك دماء الملايين من زهرة شبابها تسيل من أجل الأيديولوجيات فقط ، وإنما من أجل مصالحها الاقتصادية كذلك . ولقد كانت للولايات المتحدة الأمريكية مصالح إقتصادية واسعة مع دول غرب أوربا .

ومن ناحية أخرى كان سقوط فرنسا بالذات وانشغال بريطانيا بالكفاح ضد الهجمات الألمانية عليها يعنى أن المستعمرات الفرنسية البريطانية فيما وراء البحار أصبحت تعانى من « الفراغ » أو من محاولات حكومة فيشى ـ الواقعة تحت توجيه ألمانيا ـ السيطرة على تلك المستعمرات الفرنسية ، ومعنى سيطرة فيشى على مثل هذه المستعمرات أن ألمانيا تستطيع أن تستخدمها ضد المصالح الأمريكية فى العالم الجديد نفسه وهذا ما حدا بروزفلت إلى بذل الجهود الكبيرة من أجل إقناع الكونجرس الأمريكى بأن الحرب الدائرة فى أوربا تهم الولايات المتحدة الأمريكية بالدرجة الأولى ، وأن سياسة العزلة التى انتهجتها الحكومات الأمريكية منذ ١٩١٩ أصبحت عقيمة وأضرت بمصالح الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد تقوض مكانتها الدولية إذا ما تفوقت ألمانيا النازية فى أوربا وإذا ما استطاعت الجهود الألمانية أن تكسب إلى جانبها دولا من من أمريكا اللاتينية التى لم تكن قد استقرت أمورها السياسية بعد . واستطاع روزفلت أن يقنع الكونجرس بأمور جعلت هتلر معتقداً تماماً أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية فى سبيلها إلى دخول الحرب ضد ألمانيا ، وهما :

(ا) زيادة إعتمادات التسلح تلك الزيادة التى كانت تزيد من قدرات الولايات المتحدة الأمريكية فى إقناع دول أمريكا اللاتينية بألا تتخذ مواقف مماثلة لألمانيا ، وفى إقناعها بأن تسير فى نفس تيار السياسة الأمريكية .

والواقع أن قلة قليلة جداً من دول أمريكا اللاتينية عدا الذى كان لديه بعض الاستعداد للتقارب مع ألمانيا .

(ب) إصدار مشروع «ادفع واحمل»(١) ذلك المشروع الذى فتح مخازن السلاح الأمريكى أمام بريطانيا وقت محنتها .

(ح) إرسال القوات الأمريكية إلى جرنيلاند وإلى ايسلنده فى أعقاب انهيار الدنمرك .

---

(١) Cash and Carry

(٢) كانت تابعة للدنمرك ثم استقلت .

(د) بسط الحماية بالتعاون مع دول أمريكا اللاتينية على ممتلكات فرنسا وهولنده – الواقعتين تحت الإحتلال أو التسلط الألمانى – فى العالم الجديد .

(هـ) استئجار حكومة الولايات المتحدة الأمريكية مجموعة من القواعد البريطانية البحرية الممتدة على طول السواحل من نيوفوندلاند حتى غيانا (جيانا) البريطانية فى مقابل خمسين مدمرة قدمتها إلى بريطانيا ، وهى صفقة وصفها فرانكلين روزفلت بأنها خطوة من أهم خطوات الدفاع القومى منذ شراء لويزيانا من فرنسا فى ١٨٠٣ .

وخلال الإنتخابات التى أجريت فى نوفمبر ١٩٤٠ لاختيار رئيس للجمهورية الأمريكية كان المرشحان هما فرانكلين روزفلت (الديمقراطى) ومنافسه (الجمهورى) وندل ويلكى لم يبد أى من المرشحين خلافاً يذكر حول سياسة الولايات المتحدة إزاء الحرب الدائرة ، وهى سياسة كانت تميل بوضوح إلى تأييد جانب بريطانيا .

ومن الأمور النادرة جداً فى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية أن يفوز بالرئاسة لثلاث مرات متتالية رئيس واحد ، فللمرة الثالثة أعيد انتخاب فرانكلين روزفلت ، وبذلك وضع الأمريكيون على رأس حكومتهم رجلا عزم على مقاومة النازية والفاشستية والتصدى للخطر اليابانى المتصاعد فى الشرق الأقصى ، وذلك « النظام الجديد »(١) الذى كان يسعى هتلر إلى تحقيقه فى أوربا وحكومة اليابان العسكرية فى الشرق الأقصى .

وبينما كان الاتحاد السوفيتى يتلقى الضربات القاسيات كانت انجلترا لاتزال صامدة ولكن تتجمع قواها ، واليابان يبسطون سيطرتهم بالقوة على المستعمرات الفرنسية فى الهند الصينية ، كانت العلاقات الأمريكية البريطانية تتوثق حتى أخذت شكل تحالف غير معلن فيما عرف باسم ميثاق الأطلنطى(٢) الذى وقعه فرانكلين روزفلت وتشرشل ، والذى دعا إلى :

---

(١) the New Order

(٢) Charte de l'Atlantique (14 Août 1941)

١ — نبذ القوة والتوسع الإقليمى وألا تقع تغيرات إقليمية منافية لرغبات أى شعب .

٢ — حق كل شعب فى اختيار نوع الحكم التى يتولى أموره .

٣ — حرية التجارة وحرية البحار .

٤ — التعاون الإقتصادى بين الشعوب .

ولقد رأى بعض المؤرخين فى هذه المواد « ثوبا جديداً لنقاط ويلسون الأربع عشرة » وهى فى الواقع أيضاً أقرب إلى أن تكون التزاماً من جانب الولايات المتحدة بتقويض « النظام الجديد » الذى يسعى إليه هتلر ، وبتقويض النازية بصفة خاصة . وما يدور فى فلكها من فاستشية إيطالية أو عسكرية يابانية .

وبينما كان المتوقع أن تتصاعد الأزمات بين ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية حتى تعلن الحرب بينهما ، خاصة بسبب إغراق الغواصات الألمانية للسفن الأمريكية حاملة المتاد إلى بريطانيا فاجأت اليابان أسطول الولايات المتحدة الأمريكية الكبير الراسى فى قاعدته فى بيرل هاربر فى هاواى بغارة جوية قضت عليه فى السابع من ديسمبر ١٩٤١ ، واندفعت القوات اليابانية غازية — فضلا عن الصين — المستعمرات البريطانية والفرنسية والهولندية فى الشرق الأقصى حتى طرقت أبواب الهند من ناحية بورما وأصبحت على أبواب نيوزنيلنده وإستراليا ، واستولت على الفلبين التى كانت تحت السيطرة الأمريكية .

هزيمة المحور :

وخلال الأشهر الأولى من عام ١٩٤٢ بدا وكأن جيوش المحور (ألمانيا وإيطاليا) ستكسب الحرب ، ولما دخلت اليابان ، بدا وكأن القوات اليابانية — بسبب انتصاراتها السريعة فى الهند الصينية الفرنسية والملايو وبورما ستزحف إلى الهند لتلتقى بالقوات الألمانية المنتصرة فى روسيا ، والتى تصور البعض أنها ستلتقى بالقوات اليابانية فى الهند .

ولكن كما خابت آمال المحور (ألمانيا وإيطاليا) في إجتياح روسيا والهبوط إلى القوقاز واجتياح مصر والشام للالتقاء بقواتهما في الشرق الأوسط خابت آمال المحور (ألمانيا واليابان) في الالتقاء في الهند . فلقد أخذت موازين الحرب تتجه لصالح الحلفاء بعد ستة أشهر فقط من نكبة الاسطول الأمريكي في بيرل هاربر .

وفي العلمين استطاع الجيش الثامن البريطاني بقيادة الجنرال مونتجومري ، أن يهزم جيش القائد الألماني الشهير «روميل» في معركة العلمين (٢٣ أكتوبر ١٩٤٢) ليبدأ من بعد تراجع قوات المحور دون توقف أمام الجيش البريطاني .

وفي ٣١ يناير ١٩٤٣ انتهت معركة ستالينجراد الكبرى بين الجيش الروسي المدافع عنها وجيش الجنرال باولوس الألماني باستسلام الأخير ليبدأ من بعد ذلك تراجع الجيوش الألمانية دون توقف تقريباً .

فبينما أخذت القوات السوفيتية تتقدم في اتجاه شرق أوربا الشرقية وظلت القوات البريطانية تتقدم على طول البحر المتوسط حتى دفعت القوات الألمانية في اتجاه تونس وبينما نزلت قوات أمريكية ضخمة في ٨ نوفمبر ١٩٤٢ في شمال إفريقية ليجد الألمان أنفسهم بين جيش منتصر بريطاني يتقدم من الشرق وآخر أمريكي فرنسي يتقدم من الغرب وانتهى الأمر باستسلام حوالى ربع مليون من قوات المحور في أوائل مايو ١٩٤٣ ، فكانت الكارثة الثالثة بعد ستالنجراد والعلمين التي نزلت بالمحور حيث بات الطريق ممهداً لغزو إحدى دول المحور في عقر دارها وهي إيطاليا ، فكان نزول قوات الحلفاء في صقلية (سبتمبر ١٩٤٣) بداية النهاية بالنسبة لموسوليني ولإيطاليا الفاشستية فقد سقط موسوليني (٢٥ يوليو ١٩٤٣) وجاءت حكومة تفاوضت مع الحلفاء على الاستسلام بلا قيد ولا شرط ، وأدى ذلك إلى تدفق القوات الألمانية على إيطاليا لتستميت في المقاومة ولكن دون جدوى أمام التفوق العددي

والآلى وفى الطيران لدى جيوش الولايات المتحدة الأمريكية بصفة خاصة .

وبينما كانت القوات الأمريكية والإنجليزية تشق طريقها من جنوب إيطاليا صوب الشمال والقوات الروسية — المدعومة بالمعدات الضخمة الأمريكية — تتقدم فى أوربا الشرقية ، فتحت جيوش الولايات المتحدة الأمريكية تساندها القوات البريطانية الجبهة الثانية عندما قامت تلك الجيوش بالنزول فى نورماندى بشمال فرنسا فى ٦ يونيو ١٩٤٤ ليتم تحرير فرنسا من النازى ويبدأ غزو ألمانيا نفسها من جهتين : الجبهة الروسية فى الشرق والجبهة الغربية وقومت الجيوش الألمانية باستماتة حتى سقطت برلين ، وكان هتلر قد انتحر قبيل سقوطها ، وحتى استسلمت ألمانيا فى السابع من مايو ١٩٤٥ بلا قيد ولا شرط على نحو ما قرره الحلفاء فى مؤتمر كازابلانكا (الدار البيضاء) فى ١٩٤٣ .

وأما اليابان فقد بلغت ذروة قوتها واتساعها خلال عامى ١٩٤١ إلى ١٩٤٢ ، وذلك عندما كانت كل من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا مشغولتين بإعادة تصميد قواتهما الجوية والبحرية والبرية ، ومواجهة خطر الغزو الألمانى لبريطانيا وخطر الإندفاع الألمانى إلى قلب الشرق الأوسط وخطر اجتياح الإتحاد السوفيتى . واستطاع اليابانيون أن يجتاحوا الفلبين والهند الصينية (الفرنسية) وتايلاند ، والملايو ، وسنغافوره ، وجزر الهند الشرقية (أندونيسيا) والجزر العديدة المؤدية إلى نيوزيلنده وإستراليا ، ولكن إبتداء من مايو ١٩٤٢ بدأت الضربات الأمريكية توقف سرعة التقدم والتفوق اليابانى فى الباسيفيكى وشرق آسيا ثم بدأت عمليات الضغط العسكرية المتواصل ابتداء من هزيمة اليابانيين فى معركة ميدواى[1] (٤ — ٦ يونيو ١٩٤٢) ، ولتقع من بعد معركة جوادلكنال التى استمرت ستة أشهر انتهت بانتصار القوات الأمريكية فى نوفمبر ١٩٤٢ لينتقل عنصرا المبادرة إلى يد الأمريكيين فى أوائل ١٩٤٣ إلا أن القيادة

---

(١) Midway

الأمريكية وجدت أنه من الأصوب عدم استمرار الضغط المكثف على اليابان حتى يقضى على ألمانيا ، وفى صيف ١٩٤٤ كانت قوة الأسطول والسلاح الجوى والبرى الأمريكى متفوقاً تفوقاً ساحقا على اليابانيين من كافة النواحى ، وأخذت القوات الأمريكية تستولى على الجزر الواحدة بعد الأخرى حتى اقتربت من اليابان نفسها لتصبح فى متناول القاذفات الجوية الثقيلة واستولت القوات الأمريكية على أوكيناوا — وهى إحدى جزر الوطن اليابانى نفسه — فى يونيو ١٩٤٥ — وبينما كانت طوكيو والمدن الصناعية الكبرى اليابانية تتحول إلى خراب كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد أتمت تجربتها فى يوليو ١٩٤٥ للقنبلة الذرية فى صحراء المكسيك بنجاح ، ولم تستمع القيادة اليابانية إلى الإنذار الذى وجه إليها بالتسليم بلا قيد ولا شرط لأنها لم تكن على علم بإنتاج ذلك السلاح الرهيب حتى إذا ما ألقيت واحدة منه على هيروشيما فى ٦ أغسطس ١٩٤٥ ، والقيت قنبلة أخرى على الميناء اليابانى الكبير ناجازاكى فى ٩ أغسطس وأحدثت القنبلتان دماراً شاملا ومروعاً ومذهلا فألقت اليابان السلاح بلا قيد ولا شرط فى ١٤ أغسطس ووقعت قرار التسليم فى الثانى من سبتمبر ١٩٤٥ فكان ذلك نهاية مفجعة لدول المحور ، وبداية عهد جديد .

فما هى العوامل الرئيسية التى أدت إلى هزيمة دول المحور وانتصار الحلفاء على ذلك النحو ؟

العامل الأول فى اعتقادى هو أن دول المحور أرادت أن تسيطر عسكريا على قلب الحضارة الحديثة (أوربا) وهى تفقد مقومات هذه السيطرة ، حيث أنها حضارة قامت على أساس ديمقراطى يعتمد على امبراطوريات استعمارية مترامية الأطراف تمدها بقوى اقتصادية وبشرية كبيرة ومستندة إلى دولة كبرى فتية رهيبة الموارد البشرية والإقتصادية هى الولايات المتحدة الأمريكية ، وما كان يدور فى فلكها من دول أمريكا اللاتينية ، وتحالفت معها دولة فتية هى الإتحاد السوفيتى وإن اختلفت مع الحلفاء من حيث مفهوم الديمقراطية إلا أنها كانت قادرة على أن تقذف بأعداد هائلة من الجيوش الواحد بعد الآخر فى إصرار تمرست عليه روسيا فى حروب طويلة عديدة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين .

وكان أقحام الحرب على الإتحاد السوفيتي من جانب المانيا وإقحام الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية من جانب اليابان عاملين جوهريين فى أن يستميت السوفيت فى ردع العدوان النازى الذى يحتقر السوفيت . وفى أن يصر الأمريكيون على ردع اليابانيين الذين كانوا فى نظر الأمريكيين ناكرى جميلهم لما كان للأمريكيين من فضل على اليابان من حيث فتح أعينهم على الحضارة الحديثة منذ منتصف القرن التاسع عشر .

ومن وراء هذا وذاك تأتى النظرية الهامة التى تقول إن الدولة التى تتوسع إلى مسافات بعيدة أكثر من قدراتها لن تلبث أن تتعرض أطرافها للتآكل ، ولن يلبث قلبها أن يضعف عن دفع دماء جديدة للمحافظة على ماسيطرت عليه . ولقد اتسعت فعلا الرقعة على الألمان ، والأدهى هو أنهم أصبحوا يقاتلون فى جبهات ثلاث متباعدة منفصلة عن بعضها ، ولقد حاول هتلر فى أول الأمر أن يحول دون ذلك بتوجيه ضربات قاتلة إلى كل جبهة على حدة ، وبدا وكأن الخطة قد نجحت فى أعقاب هزيمة فرنسا فألقى بثقله على بريطانيا ولكنه خسر « معركة بريطانيا » ، فألقى بثقلة على الإتحاد السوفيتي دون أن يطرحة أرضا ليواجه جبهته فى روسيا وحربا متواصلة فى شمال افريقية ثم امتدت إلى إيطاليا نفسها بينما فتحت « الجبهة الثانية » فى فرنسا فى ١٩٤٤ وأصبحت للقوات النازية مضطرة إلى القتال فى ثلاث جبهات متباعدة .

ولم تكن مهمة القوات الألمانية هى القتال على تلك الجبهات فقط ، بل كان عليها أن تراقب بدقة الشعوب التى تسيطر عليها ، حيث كانت القوات الألمانية تعيش من البلقان حتى إيطاليا وفرنسا بالإضافة إلى الإتحاد السوفيتي — على أرض معادية انتشرت فيها المقاومة السرية والعلنية هنا وهناك .

بينما كانت القوات الأمريكية والانجليزية والمتحالفة معها تقابل بالترحيب والتأييد على اعتبارها أنهم تحررهم من الدكتاتورية النازية .

وكان الحلفاء أشد تماسكا وترابطا و سجاماً من حيث الأهداف السياسية العسكرية

وأساليب وتكتيك القتال وتشابه معداتهم وتفاهم قياداتهم . فبينما اتفق هتلر وموسوليني والعسكرية اليابانية على نظام جديد فى أوربا والشرق الأوسط والشرق الأقصى يهدف إلى اقتسام العالم الأوربى والقديم . كانت بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا الحرة والحلفاء يدعون إلى السلام العالمى والحرية واحترام الذات والمساواة وينكرون حق عنصر من عناصر البشرية فى أن يدعى لنفسه التفوق على غيره[1].

ولقد أثبتت العناصر والشعوب الأخرى أنها لاتقل صلابة عن الألمان ، فإذا كان الإنجلو سكسون من نفس العنصر الآرى وحق لهم أن يضربوا أمثلة رائعة فى المقاومة البطولية خلال معركة بريطانيا والصمود فى طبرق ومالطه ثم فى الإستمرار فى الحرب حتى النصر ، فإن الروس أثبتوا بطولاتهم فى ستالنجراد ولننجراد وفى التضحيات الرهيبة فى ميادين القتال التى أفقدتهم أحد عشر مليونا من زهرة شبابهم

ولقد كانت صلابة الألمان خلال محنتهم فى ١٩٤٤ و ١٩٤٥ أقرب إلى المستحيل منها إلى القدرات على العكس من الإيطاليين الذى بدى عليهم خور العزيمة منذ إشتراكهم فى القتال سواء فى اليونان أو ألبانيا أو شمال إفريقية ، مما اضطر الألمان إلى أن يحلوا محلهم فى هذه الجبهات التى كانت من المسئوليات الأولى الإيطالية . ولاتكاد صقلية تسقط ويبدأ غزو إيطاليا حتى يقع إنقلاب يطيح بالدوتشى الذى ملأ أسماع الدنيا بأن الإمبراطورية الرومانية ستعود على يديه .

وإذا ما قورنت فرنسا ، الحليف الذى سقط من الضربة الأولى وبإيطاليا ، جناح المحور الذى سقط أيضاً هو الآخر من الضربة الأولى ، نجد أن فرنسا ممثلة فى ديجول عزمت على أن تستمر فى الكفاح ، وحتى أولئك الفرنسيين الذين كانوا مترددين بين الكفاح والإنتظار كانوا مستعدين فى أكثر من مرة للتضحية إذا ماحاول الألمان الإفادة منهم رغما عنهم ، وأبلغ شاهد على ذلك إغراق الفرنسيين

---

(١) كان هتلر ملتهبا بنظرية تفوق العنصر الآرى على غيره من العناصر .

أسطولهم فى طولون فى ١٩٤٤ عندما حاول الألمان السيطرة عليه . حقيقة قاومت قطعات الجيش الفرنسى التابع لفيشى الحلفاء فى الدار البيضاء وفى سوريا ولبنان، ولكنها كانت تقاوم الإنجليز لأنهم تخلوا عن فرنسا فى محنتها فى ١٩٤١ وليس حبا فى الألمان أو تأييداً لهم وهذا يفسر لنا لماذا كانت صعوبة التوصل إلى إتفاق أوتفاهم مع مثل هذه القطاعات الفرنسية فى تلك الجهات وإن لم يتم هذا إلا بعد جهد ودماء.

أما الإيطاليون فقد انقلبوا فكراً وسلاحاً ضد نظام الفاشيست وضد النازى وكأن الشعب كان ينتظر الفرصة للتخلص من هذا الكابوس ، فما أن واتته حتى هدم النظام القديم الفاشستى ولم يجد الألمان من الإيطاليين المؤيدين لهم سوى قوات أخذت تتناقص بسرعة ، بينما كان عدد الفرنسيين الذى ينخرط فى قوات الحلفاء يتزايد باطراد .

وبينما وجدت بريطانيا وفرنسا فى مستعمراتها معينا يكاد لا ينضب من المقاتلين الوطنيين من أمثال الفرق التى تكونت من الجزائريين ومثل الجيوش الكثيفة من الهنود التى قاتلت حتى ضفاف نهر الألب فى قلب ألمانيا وحتى جبال الألب الإيطالية ، نجد إيطاليا لا تفيد إلا بقوات هزيلة جداً جمعتها من مستعمراتها التى سرعان مافقدتها فى سنوات الحرب الأولى .

هناك عامل آخر ساعد على هزيمة المحور ، وهو أن التنسيق العسكرى بين دوله كان ضعيفا ، كل عضو فى المحور كان ينفذ مخططاته العسكرية على حده ، على العكس من الحلفاء الذين تلقوا درساً رائعاً فى قيمة القيادة المشتركة التى قادت بريطانيا وفرنسا فى أواخر الحرب العالمية الأولى إلى النصر . فقد عنى الساسة الأمريكيون والإنجليز بتوحيد القيادة ، وأسندت إلى الجنرال إيزنهاور قائد الحملة الكبرى على على نورماندى فى ١٩٤٤ واستطاع أن يضع الخطط وتنفذها القطاعات العسكرية الأمريكية والإنجليزية والفرنسية والهولندية وغيرها فى سرعة ويسر لسهولة تفاهم هيئة الأركان المختلطة ، ولأن السلاح الأمريكى أصبح هو السائد فى أيدى المقاتلين من الحلفاء ، حتى السلاح الإنجليزى كان هو الآخر قد أصبح على الطراز الأمريكى .

وإذا ما طبقنا نظرية ماهان Mahan القائلة بأن مصير الصراع بين قوى البحر والبر هو لصالح الأولى ، لوجدنا أن ألمانيا كان يعوزها السلاح البحرى المتطور منذ نشوب الحرب وكان ذلك نتيجة من نتائج معاهدة فرساى ١٩١٩ التى حرمت ألمانيا لفترة طويلة من بناء أسطول بحرى قوى فى الوقت الذى كان فيه الاسطول البريطانى يضم العديد من البوارج الثقيلة وأصبحت قوة الحلفاء البحرية رهيبة بإنضمام الأسطول الأمريكى الضخم إلى الاسطول البريطانى .

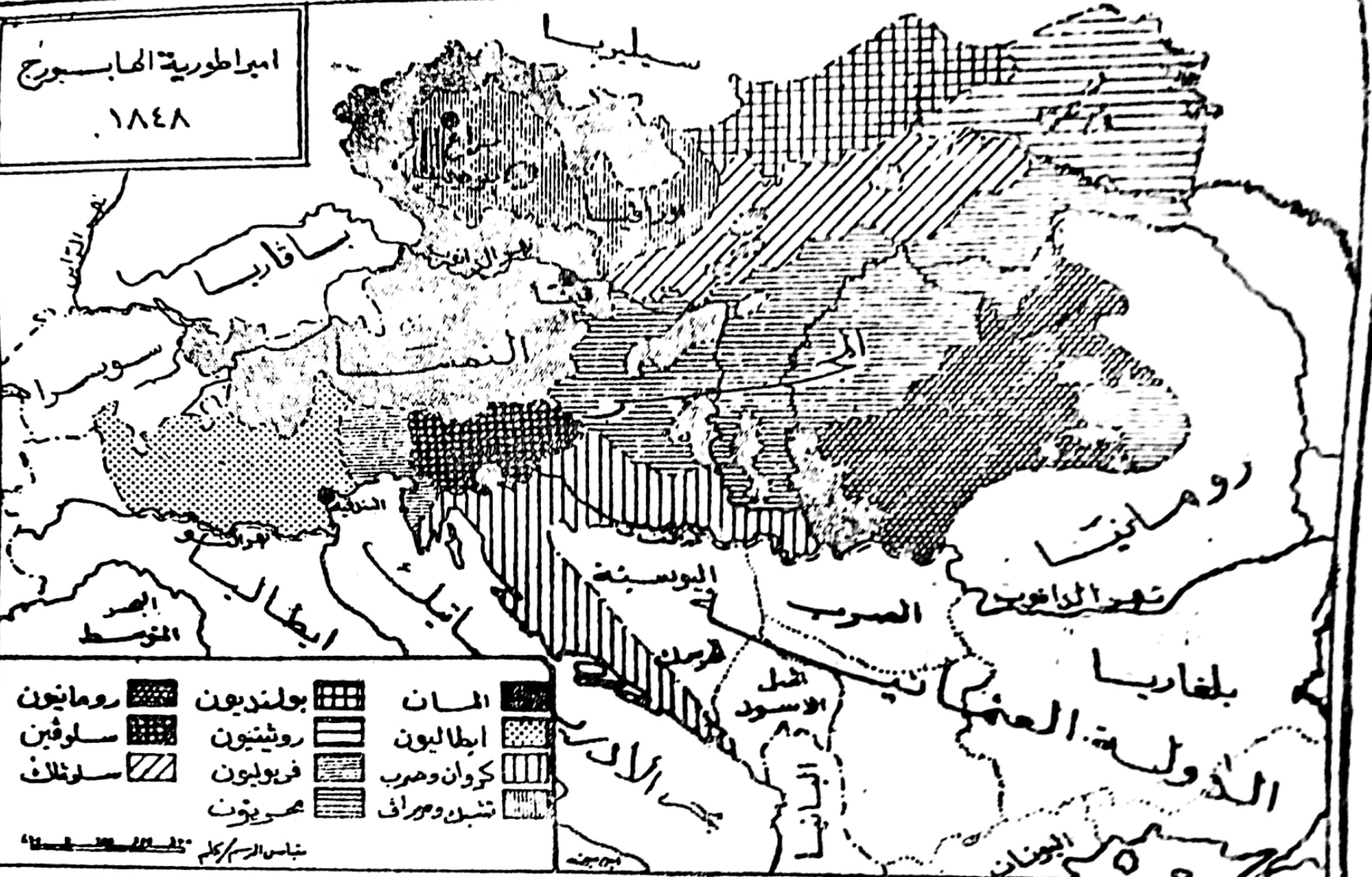
وكانت عمليات الإمدادات تتم بدقة وكثافة ولم تعوز الحلفاء مادة خام استراتيجية خلال الحرب بينما كانت ألمانيا تعانى بمرارة من نقص البترول خاصة بعد استيلاء روسيا على منابع البترول فى رومانيا .

ومع أن الإتحاد السوفيتى كان هو الحليف الوحيد البعيد عن الاتصال المباشر مع الحلفاء إلا أن فتح الطريق عبر الخليج العربى وإيران إليه لتوصيل الإمدادات العسكرية الأمريكية الضخمة قد جعله قادراً على تنسيق خططه العامة مع قادة الجبهة الثانية مما عجل فى تحقيق النصر .

لقد انتصر الحلفاء وأصبح عليهم أن يحققوا للعالم حياة سلام تجنبه بشاعات مثل تلك الحرب المروعة . ولقد كانت مسئوليات توطيد السلام العالمى معقدة ولم تحقق السنوات التالية للحرب الطمأنينة التى كانت تنشدها شعوب العالم ، بعد تلك المحنة الإنسانية الرهيبة .

فهرس




امبراطورية الهابسبورج
١٨٤٨
سيليزيا
بافاريا
سويسرا
النمسا
رومانيا
نهر الدانوب
الصرب
البوسنة
بلغاريا
الدولة العثمانية
الجبل الأسود
اليونان
ايطاليا
البحر المتوسط
ألمان
ايطاليون
كرواتيون وصرب
تشيك ومورافيون
بولنديون
روثينيون
فريوليون
مجريون
رومانيون
سلوفينيون
سلوفاك
مقياس الرسم / كلم



البلقان ومؤتمر برلين ١٨٧٨



أوروبا قبل الحرب العالمية الاولى
١٩١٤ – ١٩١٨

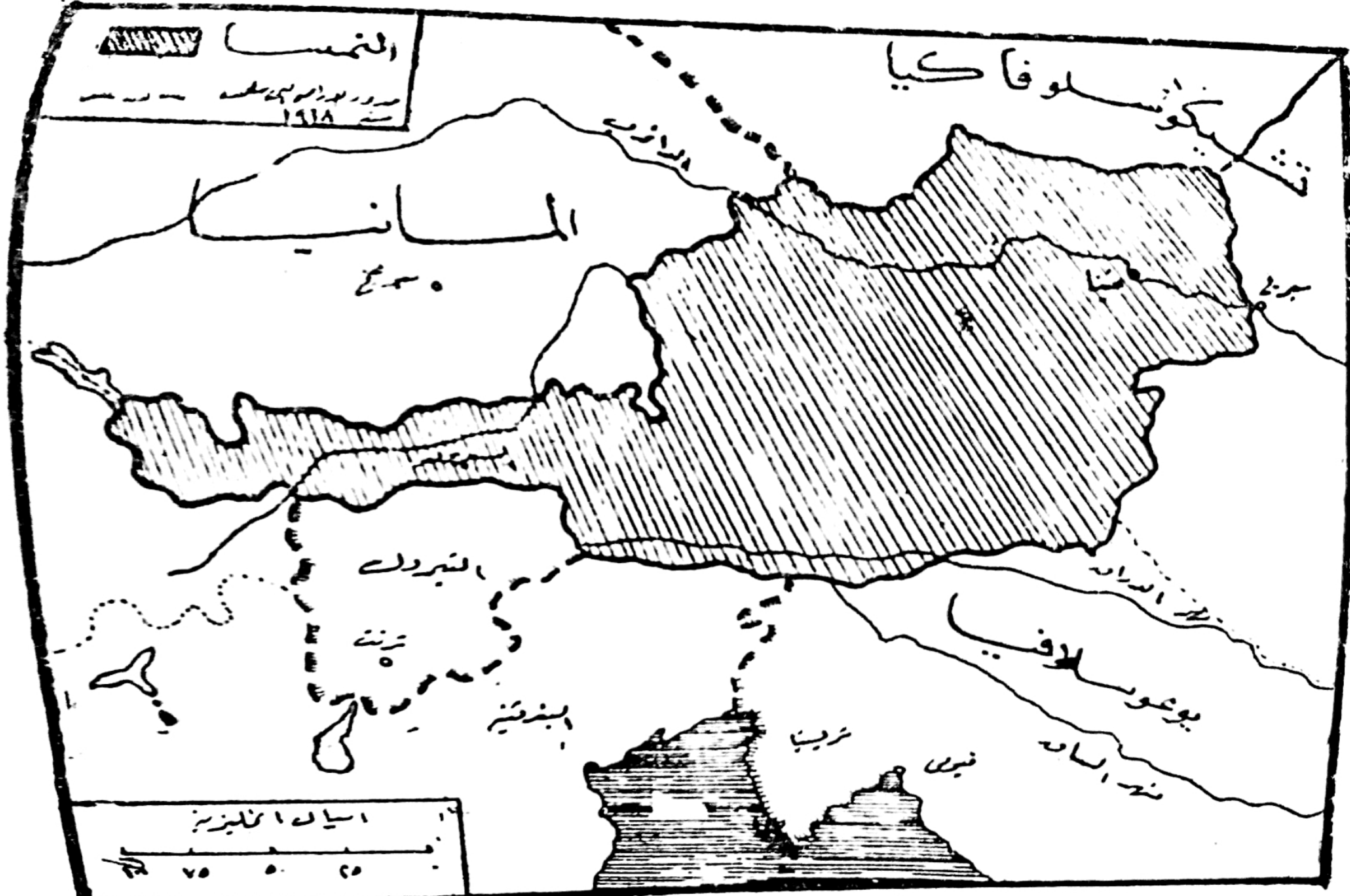


شرق أوروبا
بعد معاهدات الصلح
١٩١٨ — ١٩٢٣
الاتحاد السوفياتي
بولونيا
تشيكوسلوفاكيا
براغ
سويسرا
النمسا
فيينا
هنغاريا
بودابست
رومانيا
ترانسلفانيا
ولاشيا
بوخارست
يوغوسلافيا
بلغراد
بلغاريا
صوفيا
اليونان
تركيا
البحر الأسود
ميلانو
إيطاليا

النروج
فنلندا
بولندا
وارسو
المانيا
سويسرا
فرنسا
ايتاليا
روما
رومانيا
بلغاريا
صوفيا
اليونان

حدود جديده حسب معاهدات الصلح
ايمپراطوريه آلمانيه ۱۹۱٤
ايمپراطوريه نمساويه ۱۹۱٤
ايمپراطوريه روسيه ۱۹۱٤
اميال انكليزيه

أوروپا بعد سنه ۱۹۱۹



النمسا بعد معاهدة سان جرمان



رقم الإيداع ٣٠٩١ /
الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧

